

تاريخ ضائع

التراث الخالد لعلماء الإسلام ومفكريه وفنانيه

بقلم مايكل هاميلتون مورجان

بسم الله الرحمن الرحيم

نتمنى النفع للجميع

ولا تنسونا من صالح دعائكم

ASAH



أتقن المسلمون اختراع الأسطرلاب لمعرفة البيانات الفلكية وتحديد الوقت.
فى الصورة النموذج الفارسى من القرن الثامن عشر الميلادى

تاريخ ضائع

التراث الخالد
لعلماء الإسلام ومفكريه وفنانيه

بقلم: مايكل هاميلتون مورجان

التصدير: بقلم صاحب الجلالة
الملك عبد الله الثانى عاهل الأردن



NATIONAL GEOGRAPHIC

www.ebooksm.com

المحتويات

الخــط الزمنــى

الكلمات الداكنة تمثل أسماء الأسرة الحاكمة

570 ميلاد النبى محمد صلى الله عليه وسلم فى مكة.
622 هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم وأتباعه إلى المدينة.
630 فتح مكة على يد الرسول صلى الله عليه وسلم.
632 وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم.
632 خلافة «أبو بكر الصديق» رضى الله عنه بعد الرسول صلى الله عليه وسلم، وجيوش المسلمين تحكم سيطرتها على شبه الجزيرة العربية.
634-644 خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه بعد أبى بكر الصديق رضى الله عنه، والقوات الإسلامية تتوغل فى الإمبراطورية الفارسية والبيزنطية.
636 موقعة اليرموك، جيش المسلمين يهزم إمبراطور بيزنطة (هرقل) فى سورية.
637-651 الغـزوات القادمـة من شـبه الجزيـرة العربيـة تثمر عن فتوحـات فى العراق وبلاد فارس.
642 يحكم العرب بيزنطة ومصر ويتوغلون فى الشمال الإفريقى.
644 خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه بعد عمر بن الخطاب رضى الله عنه.
656 على بن أبى طالب رضى الله عنه زوج بنت الرسول صلى الله عليه وسلم يتولى الخلافة الإسلامية
661 اغتيال على بن أبى طالب رضى الله عنه، انقسام المسلمين إلى شقين متنازعين؛ السنة والشيعة.

661-750 **الخلافة الأموية فى دمشق.**
661 الأمويون ينقلون الخلافة إلى دمشق. تولى معاوية الخلافة
711 طارق بن زياد بقوات من العرب والبربر يفتح إسبانيا.
712 المسلمون يتوغلون فى السند (باكستان حاليًا) ووسط أسيا.
715 تمام إنشاء المسجد الأموى فى دمشق.
721-815 الكيميائـــى والصيدلـــى والفيلســـوف وعالـــم الرياضيـات جابـر بن حيـان يعرف بـ: «أبو الكيمياء».
725 المسلمون يفتحون مدينة نيس فى فرنسا.
732 موقعة تور، فرنسا، شارل مارتل يصد المسلمين تحت قيادة عبد الرحمن الغافقى.
750 العباسيون يطيحون بالأمويين، الإمبراطورية فى أعظم مدها من منغوليا إلى إسبانيا.

750-945 **العباسيون يحكمون من بغداد.**
750 بناء أول أسطرلاب للمسلمين على يد إبراهيم الفرازى.
754 تولى المنصور الخلافة كثانى خليفة عباسى بعد وفاة أخيه.

756-929 **الأمراء الأمويون يحكمون إسبانيا.**
762 إنشاء المنصور بغداد.
780-850 محمد بن موسى الخوارزمى المعروف بـ: «أبو الجبر» (عالم رياضيات وفلك) يتبنى الأعداد الهندية.
786 هارون الرشيد يتولى الخلافة فى بغداد.
786 ثورة الشيعة فى مكة تؤدى إلى امتداد صراعات الشيعة إلى الغرب (ليبيا) فى شمال إفريقيا.
790 تحت خلافة هارون الرشيد أضحت بغداد مركزًا للتعلم حيث امتزجت الثقافات العربية والفارسية لينتج عن ذلك أعمال فلسفية وعلمية وأدبية عظيمة.
792 بناء أول مصنع للورق فى الدولة الإسلامية فى بغداد مما أدى إلى استخدام أكبر المدونات المكتوبة.

801 الخوارج من البربر ينشئون ولاية إسلامية مستقلة في شمال إفريقيا.
802 هارون الرشيد يبعث بفيل وحرير وعطر وغير ذلك من الهدايا القيمة إلى شارلمان.
809 وفاة هارون الرشيد.
813–823 المأمون(786–833) يتولى الخلافة في بغداد بعد حرب أهلية ومعركة مع أخيه ويتوسع بالدولة الإسلامية إلى الحدود المعروفة الآن لتركمانستان وأفغانستان. وينشئ بيت الحكمة حيث يقوم الدارسون بترجمة الكلاسيكيات اليونانية والسريانية والسنسكريتية والهلوية إلى العربية.
823 بداية الفتح الإسلامي لصقلية.
829 الخليفة المأمون ينشئ نقاط مراقبة في بغداد والعراق وتدمر وسورية.
830 الطبيب النسطوري في بيت الحكمة حنين بن إسحاق (809–873) والمعروف في الغرب باسم (Johannitius) يترجم الكلاسيكيات؛ (جالينوس وأرسطو وأبقراط) وغيرها من اللغة اليونانية إلى السريانية، كذلك كتب نصوصًا مهمة في شأن طب العيون (المقالات العشر في العين).
830 الفيلسوف والصيدلي والكيميائي وعالم الرياضيات والموسيقي يعقوب بن إسحاق الكندي(801–873) يكدح في بيت الحكمة. ولقد أثرت أعماله مثل: «المناظر» وأعماله الطبية الأخرى في الغرب.
833–849 المعتصم يحكم بغداد وينقل العاصمة إلى سامراء في العراق ويعين العبيد الأتراك في المحاكم.
840 المعتصم يشجع بناء مصانع الصابون والزجاج في بغداد والبصرة.
847–861 المتوكل يحكم من سامراء.
852 عباس بن فرناس يقفز من أعلى برج في قرطبة مربوطًا بجناحين ويهبط كأنه يرتدي مظلة.
856 ابن كثير الفرجاني يكتب في مسألة مهمة تتعلق بالأسطرلاب ويشرف على بناء مقياس النيل في القاهرة.
875 الكيميائي والفيزيائي والفلكي عباس بن فرناس ينشئ أول طائرة شراعية عن عمر يناهز السبعين ويحلق بها من على جبل ويهبط مصابًا بجروح ويموت بعد اثني عشر عامًا من تلك الحادثة.
900 أبو بكر محمد بن زكريا الرازي رئيس أطباء مستشفى بغداد يشخص بدقة أمراض الجدري والحصبة ويصف كيفية علاجهما.
900 الفيلسوف والعالم أبو نصر الفارابي كتب كتابًا في الموسيقى لا يزال مستخدمًا في الموسيقى العربية حتى الآن.

909– 1171 **توسع الفاطميين في شمال إفريقيا.**
912–961 يتولى عبد الرحمن الثالث الإمارة، وفي عام 929 يولي نفسه خلافة المسلمين في قرطبة.

929–1031 **الخلافة الأموية تحكم في إسبانيا.**

969–1055 **البويهيون يحكمون في بغداد.**
969 الفاطميون الإسماعيليون يحتلون مصر وينقلون عاصمتهم إلى القاهرة في عام 973.
960 الزهراوي من قرطبة (936–1013) واحد من أعظم جراحي زمانه يطور العديد من المعالجات ما بين طب الأسنان وولادة الأطفال.
976 تأسيس جامعة الأزهر في القاهرة.
990عالم الرياضيات والفلكي والفيلسوف أبو الريحان البيروني (973–1048) يطور علم رسم الخرائط وعلم الفلك ويبتكر وسائل لتحديد الجاذبية الأرضية تقدر أعماله بمجمل 120 عملًا.
1000 الطبيب والفيلسوف والعالم أبو علي الحسين بن عبدالله بن سينا (980–1037) أو كما يعرف في الغرب بلقب «أبو الطب الحديث».
1020 عالم الرياضيات والفلكي ابن الهيثم أو Alhazen يدخل تحسينات على علم البصريات وانعكاس الضوء وبصر الإنسان.

1037–1307 **السلاجقة يحكمون فى وسط آسيا والأناضول.**
1050 دخول ملك مالى الإسلام.
1054 انقسام فى الشرق والغرب، وانقسام الكنيسة المسيحية إلى الكاثوليك الرومان والأرثوذكس الشرقيين.
1058 احتلال السلاجقة بغداد.
1072–1092 تولى مالك شاه السلطنة على السلاجقة.
1076 احتلال المغرب غانا.
1090 نهب المرابطين قرطبة.
1096 الحملة الصليبية الأولى، حكم المسيحيين القدس عام 1099.
1100 عالم الرياضيات والشاعر عمر الخيام يكتب الرباعيات.

1145–1232 **الموحدون يحكمون إسبانيا.**
1160 الفيلسوف والطبيب ابن رشد أو Averroes (1126–1198) يترجم أعمالاً من العربية إلى العبرية، وبخاصة أعمال أرسطو.
1171 هزيمة الفاطميين على يد صلاح الدين فى مصر.

1171–1250 **الدولة الأيوبية تتولى الحكم فى مصر.**
1187 استعادة صلاح الدين الحكم الإسلامى على القدس.
1175 إنشاء أول إمبراطورية إسلامية فى الهند.
1200 ابن اسماعيل الرزاز الجزرى يخترع العمود المرفقى، وبعض أنواع الساعات الميكانيكية البدائية التى تعمل بتأثير الماء والأثقال، وكذلك مضخات المياه. كما اخترع القفل الرقمى كواحدة من اختراعاته الخمسين.

1206–1406 **الإمبراطورية المغولية**

1206–1526 **سلاطين دلهى.**
1207–1273 الشاعر جلال الدين الرومى.
1218 بداية الاحتلال المغولى.
1230 الطبيب الدمشقى ابن النفيس (1213–1288) عمل طبيباً فى مستشفى فى القاهرة، وصف الدورة الدموية فى الرئتين وساهم إلى حد بعيد فى طب العيون.

1232–1492 **الناصريون يحكمون إسبانيا.**
1250–1517 المماليك يحصلون على السلطة فى مصر.
1258 نهب بغداد على يد المغول.
1270 عالم الرياضيات والفلكى فى مرصد نصر الدين الطوسى (1201–1274) يبتكر جداول فلكية لحساب أماكن النجوم والكواكب ويطور علم المثلثات كعلم رياضى مستقل ومنضبط.
1285 حسان الرماح يكتب فى شأن استخدام البارود فى الصواريخ.
1325 رحيل ابن بطوطة عن طنجة ليسافر حول العالم ويبقى على مدونات مكتوبة.
1336–1405 تيمورلنك يحتل أجزاء من الأراضى التى سميت فيما بعد أفغانستان.

1336–1506 **التيموريون يحكمون فى وسط أسيا والشرق الأوسط.**
1453 محمد الفاتح يحتل القسطنطينية البيزنطية (فتح القسطنطينية) ويجعلها عاصمة الدولة العثمانية.
1492 المسيحية تنتزع إسبانيا مرة أخرى.

1453–1922 **الإمبراطورية العثمانية.**
1526 تأسيس سلالة المغول الكبار الحاكمة فى الهند.
1587–1629 شاه عباس يستعيد الكثير من الحدود القديمة لبلاد فارس.
1494–1566 سليمان القانونى يذهب بالإمبراطورية العثمانية لأقصى مداها من المغرب إلى بحر قزوين والخليج الفارسى وداخل أوربا من خلال البلقان والمجر.
1922 نهاية الدولة العثمانية.

مقدمة الناشر

تود دار نهضة مصر أن تعرب عن اعتزازها الشديد لتمكنها من نشر الترجمة العربية لكتاب «تاريخ ضائع» لمؤلفه: مايكل مورجان.

هذا الكتاب واحد من أهم نماذج التواصل بين الإسلام والغرب؛ ولذا فترجمته ونشره الآن يمثلان خطوة مهمة فى ظل ما نعيشه من رغبة عالمية فى سيادة روح التسامح والتفاهم بين مختلف الحضارات والأديان، خاصة أن هذا الكتاب يتوجه لمخاطبة القارئ العادى بحقائق فعلية مثبتة تاريخياً عن دور الفكر والفن والفلسفة العربية والإسلامية فى نهضة الثقافة الغربية والعالمية.

تتمنى الدار أن يكون هذا العمل إسهامًا حقيقيًّا منها أولًا تجاه وطنها الأول مصر الحبيبة ونهضتها الثقافية التى تشهدها الآن، وثانيًا: وطننا الأكبر الوطن العربى والإسلامى، بل وللإنسانية كلها. وأملنا أن يكون هذا الكتاب لبنة فى رأب الصدع بين المسلمين والغرب والإبانة ـ لمن لا يعرف ـ عن أهمية دراسة التاريخ كمؤشر لحقائق الأمور من أجل التواصل الإنسانى البناء.

وجدير بنا أن نتوجه بالشكر للأستاذ الدكتور يوسف زيدان مدير إدارتى المخطوطات والتزويد بمكتبة الإسكندرية، والأستاذ رامى الجمل رئيس قسم الأنشطة الأكاديمية والترجمة المتخصصة، الذى أمد يد العون فى توثيق بعض الاستشهادات المذكورة بالكتاب، وردها إلى أصولها من كتب التراث والمخطوطات النادرة، وقد اتفق على عدم تنقيح تلك الاستشهادات أو مراجعتها إبقاء على روح النص التراثى القديم.

وأخيرًا وليس بآخر، نرجو أن يوفقنا الله فى مساعينا نحو توفير كل ما هو جيد وجديد ومحترم للقارئ المصرى العربى، بل والعالمى حيثما كان.

تصـديـر

عمـــان
12 فبراير، 2007

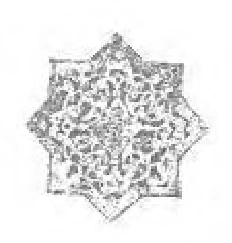
الأصدقـاء الأعـزاء،

على الرغم من أن المرء يستطيع أن يفرق بكل سهولة ويسر بين كلمتى «المسيحية» و«العالم المسيحى»، ففى اللغات الغربية لا يظهر هذا التمييز بين كلمتى «الإسلام» كديانة و«الحضارة الإسلامية». وأثناء هذه الفترات العصيبة التى نعيشها الآن يسهل نسيان التراث الفكرى والثقافى العظيم الذى صنعه الإسلام. فعبر التاريخ الإسلامى الذى تعدى 1400 عام، منح المسلمون للعالم قممًا عظيمة فى فروع الفنون والعمارة والشعر والفلسفة والعلوم، وكلها كانت تتغذى على تعاليم القرآن مستمدة روحانيته محاطة بمناخ من الورع والتقوى نابع من قلب هذا الدين، وما كانت هذه الإنجازات الفكرية والثقافية للإسلام بمجهل عن أوربا، ولا سيما الفلاسفة والعلماء والشعراء والموسيقيين اليهود والمسيحيين، بل إن علماء اللاهوت أنفسهم قد نهلوا من إنجازات علماء الدين المسلمين.

وهذا الكتاب الذى يروى قصة غالبًا ما يحيطها الكتمان، هو إضافة يحتفى بها إلى الأدبيات التى كتبت عن التاريخ الفكرى والثقافى للعالم الإسلامى وكذا الكتابات التى تحدثت عن علاقة الإسلام بالغرب. ففى كثير من الأحيان، يقتصر الحديث عن إنجازات الحضارة الإسلامية وصلتها القوية بالغرب على أعمال الباحثين والدوريات الأكاديمية، علاوة على ذلك فالكثير من الأعمال المتوفرة ترسم صورة من صدام قائم بين الحضارتين الإسلامية والغربية، بينما فى واقع الأمر كانت العلاقة بينهما يرسيها التبادل والتكافل. ومن المأمول أن يساعد هذا العمل فى تحسين فهم الغرب للإسلام وإدراكهم أنه كما كان ماضينا مشتركًا ومتداخلًا وبناءً فى الكثير من جوانبه، فالفرصة مواتية لمستقبلنا معًا أن يصبح بناءً ومثمرًا.

المخلص،
عبدالله الثانى بن الحسين





مقدمـة

الضياع هو إحدى السمات المميزة للتجربة الإنسانية، فما من شيء داخل هذا العالم المادى يدوم ويبقى. وقد يعترى ذكرى ما ضاع الكثير من المشاعر النبيلة ومشاعر الألم.

ويعلمنا التاريخ أن الحضارات تزدهر وتموت وتختفى، وفى بعض الأحيان تموت هذه الحضارات سريعًا، وفى أحيان أخرى تتجرع سكرات الموت ببطء. وفى فترات أخرى كما هو الحال مع حضارة روما وغيرها تجد هذه الحضارة أصداءً لها وتبعث مرة أخرى داخل حضارة جديدة وثقافات أخرى.

بيد أن ضياع الذكرى لحضارة كاملة أمر مؤسف ومأساوى وخطير، ويرجع ذلك إلى أن كل حضارة مهما كانت عظيمة أو معيبة فهى فى النهاية عبارة عن مختبر لأفكار ومثل إنسانية وأحلام وكوابيس، ونستطيع أن نستخلص الكثير من الدروس المستفادة من كل ذلك.

بعد مرور عدة أيام من وقوع أحداث 11 سبتمبر فى الولايات المتحدة طلب إلىَّ أن أكتب خطبة لواحدة من أشهر كبار التنفيذيات الأمريكيات فى مجال الأعمال. وعلى الرغم من أن الموضوع الرئيس كان ينبغى أن ينصب على أعمال هذه السيدة ومجال الصناعة الذى تعمل به إلا أنه بسبب حالة الحزن العامة التى كانت تهيمن على الأجواء السائدة فى البلاد لم يكن من اللائق تجاهل ذلك الحدث الجلل الذى وقع لتوه. وعلى هذا وافقت على أن تحاول أن تبنى جسرًا لعبور هذه الهوة المخيفة التى تفصل ما بين المسلمين وغير المسلمين، وذلك من خلال إعادة إحياء ذكرى العظمة التى ألقى بذورها العالم الإسلامى والمعانى العميقة التى خلفها.

وبدلًا من التركيز على الواقع المظلم الرابض على جنبات المكان قررت أن أجعلها تتحدث عن التاريخ المذهل لهذا العالم الإسلامى والذى اكتشفته من خلال قراءاتى وأبحاثي. فقد كان تاريخًا يزخر بالاختراع والإبداع والأفكار العظيمة ويعزز قيم التسامح والتعايش، تاريخًا يعج بالإنجازات الفكرية أكثر من أوربا المسيحية فى هذا الوقت، تاريخًا عاش فيه المسيحيون واليهود والهندوس والبوذيون معًا يعملون ويزدهرون. إن الحضارة الإسلامية ألقت ببذور عصر النهضة الأوروبى وساهمت فى ظهور الكثير من جوانب الحضارة الغربية والعالمية الحديثة. ولكن هذا التاريخ أصبح مع بداية القرن الـ 21 نسيًا منسيًا وتم تجاهله وأسىء فهمه بل وأعيدت كتابته.

واعتقدت أن خطبتها هذه قد تجذب بعض الاهتمام وقد تثير بعض النقد فى موطننا هنا، ولكن ما لم أتوقعه هو أن يكتب المسلمون لها من شتى أرجاء العالم يرغبون فى معرفة تلك الرموز الفكرية التى أشارت إليها فى كلمتها وكيف يحصلون على المزيد من المعلومات.

ساعتها فقط أدركت وجود هذه الهوة العميقة من سوء الفهم على الجانبين، وأدركت أيضًا أن هذه الهوة تحتاج إلى من يسدها، وبدأت أفكر لو استطعنا أن نعيد ذكرى أمجاد هذه الحضارة فربما نضع عبارة «صدام الحضارات» فى إطار جديد.

وكان نتاج هذه الإرهاصات الفكرية هذا الكتاب، وإنى أعلم تمامًا أن هناك أشخاصًا من غير المسلمين ممن يقفون على الجانب الآخر من هذه الهوة سيزعمون أننى أشوه التاريخ لأننى أركز على الجانب المضىء من حضارة بالغة التعقيد. وأرد على هؤلاء بأن أقول إننى ببساطة أضرب توازنًا ما بين الأجزاء الأخرى الناقصة أو السلبية التى تم تلقينها لنا نحن غير المسلمين.

وكى نطبق حجج هؤلاء النقاد بعدالة وتكامل نحتاج إلى أن نضمن فى تاريخنا أقصد بذلك الحضارة الغربية المسيحية أفكار فولتير والقديس طوما الأكوينى فضلًا عن أعمال ومعتقدات أدولف هتلر وجوزيف ستالين.

كما قد يكون هناك مسلمون أيضًا يرون أننى سعيت لتعظيم وتمجيد مجموعة من العلماء المسلمين المهرطقين يستحقون التعتيم عليهم أو نسيانهم.

وليس بمحض المصادفة أن يكون كل المفكرين العظام والمخترعين والفنانين فى الحضارة الإسلامية من العقول المبدعة، فهم يشبهون إلى حد كبير العلماء فى وقتنا الحاضر، فكلٌ قد تدرب ودرس فى مجاله، يشكك دائمًا فى الافتراضات بغية الوصول إلى الحقيقة العليا، وكان من بينهم أتباع ديانات أخرى، وعلى الرغم من أن أفكار هؤلاء كانت مشبعة بروح فلسفاتهم ومعتقداتهم، فالقليل منهم كان من أصحاب العقول المتجمدة غير العملية، وكانوا جميعًا يعملون فى سياق سياسى يختلف تمامًا عما نشهده اليوم، إن مسعى العلماء المسلمين للنهل من العلم والمعرفة دفع أتقى

الحكام وأكثر العلماء ورعًا لدعم التفكير الحر والعلوم التجريبية، بيد أن الولع بالعقل والفكر تعرض للكثير من الهجوم المتزايد مع بداية القرن التاسع، وكان أحد هذه الخلافات هو ذلك الذى نشب بين «أصحاب المذهب العقلى» من المسلمين الذين آمنوا بأن اكتشاف الحقيقة الإلهية أمر يدركه أولو الألباب، وبين «أصحاب المنهج الحرفى» الذين تمسكوا بالمعنى الحرفى من أفعال وأقوال الرسول صلوات الله عليه وسلامه، ولا يختلف هذا كثيرًا عن الجدل الأمريكى القائم ذى التاريخ الطويل ما بين مؤيدى نظرية داروين ومؤيدى الإبداع والتصميمات الذكية.

وبكتابة «تاريخ ضائع» أتمنى ألا أظهر إسهامات حضارة قديمة وثرية فحسب ولكن أرغب فى أن ألقى الضوء على ما توصل إليه الخليفة المأمون حين قال إن العقل والدين أمران لا ينفصلان أحدهما عن الآخر، وإن إتاحة قدر من الحرية للفكر وإطلاق العنان للإبداع الإنسانى بوسعه أن يفعل المعجزات بما فى ذلك إحلال السلام.

لا يتحدث هذا الكتاب عن الدين الإسلامى أو أى دين آخر كما لا يتحدث عن اللاهوت أو أى عقيدة دينية بل يتناول حضارة كان للإسلام فيها دور رائد.

وبكتابتى لهذا الكتاب الآن والذى أستهدف به القارئ العادى وليس القارئ الأكاديمى فأنا أشبه إلى حد كبير شخصًا يوغل فى حقل من الألغام. وتزداد خطورة حقل الألغام هذا فى الفترة الأخيرة مع تزايد الإرهاب النابع من فكر إسلامى راديكالى وانتشار نماذج من الأصوليين الذين يلتزمون «بحرفية» النص فحسب فى تنظيم المجتمعات وحياة الأفراد وكذا الحروب المستمرة ما بين إسرائيل وجيرانها وثوران المنهج المعادى للسامية وغزو الولايات المتحدة لأفغانستان والعراق و«حربها ضد الإرهاب» والأزمات السياسية والاقتصادية فى بعض المجتمعات الإسلامية.

ومعظم الأمريكيين بما فيهم الأمريكيون المسلمون وحتى عدد كبير من المسلمين حول العالم لا يعرفون سوى قشور التاريخ الإسلامى أى «أنهم كانوا من العظماء فى يوم من الأيام وأنهم اخترعوا علم الحساب ثم سقطوا فى مستنقعات التأخر». كما أن معظم الغربيين قد تلقن أن جذور المجد الغربى تعود إلى أيام الرومان والإغريق وأنه بعد سبات دام ألف عام بين مجاهل عصور الظلام، حدثت المعجزة واستيقظت أوربا لتستعيد صلاتها بأصولها الرومانية والإغريقية. وكما تشير الرواية التقليدية، أن إعادة اكتشاف بلاد الإغريق الكلاسيكية وما صاحبه من دعم أخلاقى أساسه الاعتقاد اليهودى المسيحي، قد تمخض عنه عصر النهضة والتنوير والثورة العلمية والصناعية.
أما الإسهامات الفكرية للعرب والفرس والهنود والصينيين والأفارقة وآخرين فى العالم الإسلامى فقد اختزلت واقتصرت على الحواشى المتناثرة هنا وهناك.

إن السواد الأعظم منا لا يعرف تفاصيل التاريخ الإسلامى بسبب حواجز اللغة وانقضاء العديد من القرون وكذا الإشارات المبهمة عن أسماء وأماكن وأحداث لا نعلم عنها شيئاً، ذلك بالإضافة إلى السرد المتعجرف لتاريخ أوربا والذى يعزى لها الفضل فى كل شيء فى عصر النهضة وفى جميع أشكال التقدم الذى حدث بعد ذلك، ومن ناحية أخرى فإن المسلمين التقليديين المتزمتين يستأصلون شأفة نظرائهم من أصحاب النظريات غير التقليدية، كما أن عمليات إحراق الكتب وتدمير المكتبات عبر التاريخ قد ساهمت هى الأخرى فى تعزيز جهلنا بالتاريخ الإسلامي.

وقد أمعنت مجموعات قليلة من الأكاديميين النظر فى هذه القضايا بجدية من خلال وجهات نظر متباينة وخلصوا إلى نتائج مختلفة.

وأول هذه المجموعات والتى أخرجت التاريخ الفكرى الإسلامى إلى حيز النور هى مجموعة «المستشرقين». ويرى هذا الفريق أن العالم الإسلامى مر بمرحلة من الإبداع الفكرى بالتحديد من عام 800 حتى 1200 ميلادياً. وقد ساهم فى إحداث هذه النهضة ترجمات المفكرين الإغريق، وما لبث أن انتقل جسم المعرفة هذا ذو الأصول الإغريقية إلى الأوربيين بفضل المسلمين. وفيما بعد وبسبب هجمات المغول والاضطرابات الداخلية التى منعت من تطور الفكر الحر داخل المجتمعات الإسلامية تخلفت الدول الإسلامية عن بقية دول العالم.

أما المجموعة الثانية فهى تيار المحافظين الجدد وترى هذه المجموعة التى ركزت على دراسة الشرق الأوسط المضطرب أنه وبالرغم من أن العرب يمثلون 17 % فقط من إجمالى مسلمى العالم إلا أن الحضارة الإسلامية تضم فى طياتها عناصر تتناقض مع الحرية الفكرية والتقدم الاجتماعى والعلمى والديمقراطية الليبرالية. وقد طغت أفكار تيار المحافظين الجدد بشكل غير مسبوق على السياسة الخارجية والإعلام الأمريكى خاصة فى أعقاب أحداث 11 سبتمبر/أيلول. ويعى الكثير من غير المسلمين حول العالم هذا التيار الفكري.

أما المجموعة الثالثة فهى معسكر العلوم المبتدئة والتى ينضم إليها فى الوقت الحالى عدد من العلماء المعاصرين. وتذهب هذه المجموعة إلى أنه حتى القرن الخامس عشر كانت علوم وتكنولوجيا المسلمين تفوق مثيلاتها فى أوربا وقد تسرب الكثير من مظاهر التقدم هذه إلى أوربا إبان القرون الوسطى واضعة نواة النهضة الأوربية القادمة ولكن ما حدث بعد ذلك هو أن الاضطرابات الداخلية قد بلغت المدى داخل العالم الإسلامى وظهرت بعض المعوقات الخاصة بهذه الثقافة، علاوة على تزايد الأزمات الاقتصادية والمناخية. ولم يستطع المسلمون اللحاق بركب العلم الحديث مثل الصين والهند وهو ما قامت به أوربا.

ويمكن إطلاق اسم «الليبراليين» على المعسكر الرابع. وترى هذه المجموعة أن

مُثُل الدين الإسلامى وقيمه لم تكن عائقًا أو مقوضًا لتقدم العالم الإسلامى، ولكن هى التى ساهمت فى إحداث تقدم فى العلوم والتكنولوجيا والمجتمع المدني، وتتمثل تلك القيم والمثل فى الرغبة فى النهل من المعرفة ومساواة جميع البشر أمام الله. وفيما بعد، انتقلت أشكال التقدم هذه إلى أوربا ومنها إلى العالم بأسره، وهى لا تزال تحتل مكانة من الأهمية فى القرن الحادى والعشرين. وربما يذهب هؤلاء المفكرون أيضًا إلى أن الحضارة الأوربية اليهودية المسيحية ينبغى أن تضاف إلى توصيفها كلمة إسلامية أيضًا.

أما المجموعة الخامسة فيمكن تسميتها معسكر «أنصار الإسلام» بالرغم من أن أتباعها هم عدد قليل من السلك الأكاديمى. وتذهب هذه المجموعة إلى أن المسلمين اخترعوا تقريبًا كل المظاهر الحديثة للعلم والطب والتكنولوجيا والنظام الاجتماعى إلا أنهم قد سلبوا حقهم إذ إن كل هذا لم ينسب إليهم.

كُتِبَ «**تاريخ ضائع**» عن وعى بكل هذه الرؤى متضمنًا عناصر من كل منها. بيد أنه فى ذات الوقت لم يتحيز لأى منها ولكنه يتفق معها جميعًا بشكل من الأشكال.

ولم يُكتب «**تاريخ ضائع**» للتعبير عن موقف وسط هذه المناظرة الأكاديمية البحتة، إنما يقصد إلى توضيح الخطوط المبهمة فى تاريخ المسلمين، والتى تلقاها معظمنا، والتمسك بالحقائق الراسخة مع إعادة أهم الشخصيات والأحداث إلى الحياة واستحضار الماضى المسلم المغمور والغامض والبعيد. وإظهار كيف أن الأحداث والأفكار التى مضى عليها ألف عام لها علاقة مباشرة بحياتنا اليوم. ويجب أن يعى القارئ أن الأجزاء المتعلقة بحاضرنا فى مقدمة كل فصل هى من وحى الخيال وكذلك المشاهد الدرامية بالأجزاء التاريخية، فمع الالتزام بالحقائق المستمدة من روايات تاريخية غالبًا ما تتسم بعدم الوضوح فهى مبتكرة من وحى الخيال أيضًا ولاسيما عند تقديم حوار ما أو مناجاة للنفس.

وخلافًا للمؤلفات التاريخية التى تميل إلى التركيز على المفكرين والمخترعين فى ما يسمى بالعصر الذهبى للعرب والذى يشمل أيضًا بلاد فارس وإسبانيا فى الفترة الزمنية من عام 632 وحتى 1258 ميلاديًا انتهاءً بسقوط بغداد، فإن هذا الكتاب يركز على العديد من العصور الذهبية للفكر الإسلامى بما فى ذلك آسيا الوسطى وتركيا العثمانية والهند المغولية حتى القرن الثامن عشر.

ولم يكن بمقدور «**تاريخ ضائع**» أن يلم بالتفاصيل الهائلة والفوارق المعقدة لحضارة ألف وأربعمائة سنة والتى تتجسد الآن فى كيان يتكون من مليار نسمة. ولم يكن بمقدور «تاريخ ضائع» أن يعين كل اسم عظيم أو يلم بكل حدث تاريخى برز فى تطور هذا الكيان الهائل الذى نسميه العالم الإسلامى. لكن ما سوف يظهر على السطح هو شكل ومعنى – وجه – لحضارة قديمة دائمة التطور تمسنا جميعًا.

وما قد يطفو على السطح أيضًا هو إدراك أننا جميعًا - مسلمون وغير مسلمين - ندين بالامتنان العميق لهؤلاء الفرسان من الماضى البعيد الذين تحلوا بالشجاعة فى أغلب فترات حياتهم والقسوة فى بعض أوقاتها وربما حادوا عن الصواب فى قليل من الأحيان، وكذا إدراك أن الحضارة الإسلامية هى جزء من الحضارة الغربية بنفس القدر الذى تختلف فيه عنها، وأن الكثير من الصراعات التى تملأ عناوين الصحف الآن لها سوابق ومثيلات فى مناظرات وخلافات وقعت منذ ألف سنة مضت.

وأخيرًا باستعادة تاريخنا المشترك الضائع، أتمنى أن يزيد شعور غير المسلمين بالاحترام ويزداد فهمهم لأولاد عمومتهم المسلمين بخلاف ما تقترحه السياسات وعناوين الصحف اليوم، وأتمنى أن يعرف أيضًا مسلمو اليوم كيف كان الإسلام فى الماضى يطبق بما فيه مساندته للإبداع والابتكار والتسامح وتنوع الفكر والسلوك سواء على مستوى الحياة الاجتماعية أو الفردية.

وهكذا وباستعادة التاريخ الضائع يمكن أن نبدأ فهم قضايا اليوم والتى لا يمكن حلها بالقوة. وإن كان هناك درس واحد أجدى بالتعلم من تاريخ ضائع فهو أن القوة نادرًا ما تحل قضايا الروح والنفس بشكل إيجابى سواء كانت فردية أو حضارية.



أبنـاء رومـا

﴿الٓمٓ (1) غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3)﴾

[الروم 1-3]

مدينة تور، فرنسا فى 2006: يوم من أيام الصيف داخل مدينة فرنسية متوسطة الحجم تقع فى وادى لوار وتسمى تور.

أشرقت الشمس فى كامل بهائها فى شهر يوليو لتلقى بأشعتها عبر سماء زرقاء تحتجز بين طياتها أبراجًا متراكمة من السحب. ومن السحاب خفتت أصوات الحياة الصاخبة والحركة التجارية والأنشطة الجارية، كما تضاءل حجم حركة البشر لتبدو كخيوط النسيج ولكن إن اقتربت منها تراها أقرب إلى الحركات الفوضوية؛ فالشاحنات تدور بين الشوارع، والأطفال يتسابقون نحو الحدائق وترى رافعة إنشاءات معلقة فوق أحد المراكز التجارية الجديدة فى ضواحى المدينة والنساء يتجاذبن أطراف الحديث عبر أسوار الحديقة. وكل هذا بعض أجزاء من حركة المدينة.

ومن السحاب تستطيع أن ترى الصورة بشكل أكبر، فتبدو شبكة الطرق غير عشوائية، إنما تحددها احتياجات وأنشطة الحركة السكانية المستمرة، وتلتقى تلك الشبكة بالطرق السريعة المتجهة شمالًا إلى باريس وجنوبًا وغربًا تجاه البحر المتوسط والمحيط الأطلنطى. وهكذا يبدو الوجه الأكبر لمدينة من المدن ومحيطها الطبيعى، فهو أشبه بالفسيفساء المصنوعة من آلاف المكونات، والتى قد تبدو منفصلة وعشوائية إذا ما نُظر إليها منفردة ومن مستوى أقرب، غير أنها من مكان بعيد ومرتفع تبدو ككيان واحد من التراب والحجارة والخرسانة أو من الحقول والغابات والأنهار. ويتجاوز عمر هذا الكيان أعمار المكونات المنفردة التى تشكله.

إن يومًا من أيام صيف فرنسا لهو أشبه باللوحات الزيتية التى تصور الحياة الريفية كما رسمها فنانون مثل فراجونار وبوسان وواتو فترى فيها الغيضة المكتظة بالأشجار

المورقة والواحات التى تلوح وسط مساحات اللوحة الواسعة التى تضم الحقول والشجيرات والقرى. إن هذا لهو بالفعل واحد من تلك الأيام.

وفى يوم كهذا يذهب الناس إلى الحديقة الرئيسة بوسط مدينة تور ويصطحبون معهم كرات القدم وأجهزة الأى بود. ويبدأ الطلاب الذين أطلقت الإجازات سراحهم من داخل أسوار المدارس بلعب الكرة. وهناك تتحدث سيدة مسنة مع حفيدها بالقرب من النافورة. كما تظهر عائلة مسلمة من محبى التجوال فى فترة النهار وهى عائلة الغافقى، تستمتع بالنزهة التى أتوا لها خصيصًا من باريس. ترتدى المرأة غطاء للرأس كما جرت العادة فى مدن المغرب مسقط رأسها لكنها تفعل ذلك فى غير أوقات العمل، حيث إنه غير مسموح بارتداء غطاء للرأس فى أثناء العمل بموجب القوانين الفرنسية، بينما يرتدى الزوج زيًا رياضيًا. ولقد عاشت عائلة الغافقى فى فرنسا لعقود، وحتى الآن، كما أن أبناءهم ـ وهم الآن فى فترة المراهقة ـ قد ولدوا فى فرنسا ويتحدثون الفرنسية بطلاقة أكثر من العربية.

وتحيا العائلة حياة كريمة فى مديرية رقم 10 بباريس؛ وهى عبارة عن حى عربى راق. ويشعر أفراد العائلة بأنهم محظوظون، خاصة فى ظل استمرار أجواء التوتر التى تحيط بالمهاجرين. فقد عاش الزوج إدريس والزوجة كريمة 20 عامًا فى فرنسا معًا، بينما يعانى أحد أصدقائهم، الذى هاجر منذ فترة طويلة بدون زوجته وابنيه. فقد حاول مؤخرًا أن يأتى بهم إلى فرنسا غير أن أسرته قد تم ترحيلها قسريًا إلى المغرب.

وبخلاف الكثير من المهاجرين الذين يواجهون المشكلات فى الاندماج بالمجتمع الفرنسى باقتصاده وثقافته استطاع كلا الزوجين أن يجدا وظائف مناسبة لهما؛ حيث تعمل الزوجة كمدرسة فى إحدى المدارس الحكومية، كما يعمل الزوج محاسبًا فى شركة كريديه ليونيه. ولا تتميز العائلة بالثراء، لكنهم فى ذات الوقت ليسوا ممن يعانون شظف العيش. وقد تباعدت صلاتهم بالمغرب مع مرور الزمن، وهم يعتبرون أنفسهم الآن من الفرنسيين المسلمين.

وتور مدينة لها تاريخ يبدو أشبه بالممثل الصغير داخل أحداث درامية كبيرة تكون فى بعض الأحيان كبيرة وممتدة لفترة طويلة بحيث ينسى من عايشوها الصورة الأكبر التى كانت تهيمن على الوضع فى يوم من الأيام. يعود تاريخ المدينة إلى زمان بلاد الغال وعهود الرومان أى إلى حوالى ألفى عام. وكانت مدينة تور تعرف باسم تورنينسيس خلفًا لاسم القبيلة التى كانت تقطن هذه المنطقة ألا وهى قبيلة التورنز. كما كانت مدينة تور الموطن الأخير لأحد حراس الإمبراطورية الرومانية الذى اعتنق الديانة المسيحية وأصبح اسمه القديس مارتن. بعد أن ترك خدمته للإمبراطور أصبح مارتن أسقفًا كاثوليكيًا فى القرن الرابع قرابة نهاية الإمبراطورية الرومانية الغربية. وقد اشتهر الأسقف بتواضعه وكرمه. ففى أحد الأيام عندما شكا أحد الشحاذين من البرد خلع الأسقف رداءه وقسمه نصفين وأعطى أحدهما للرجل الفقير. وفى أعقاب وفاة مارتن بُنى ضريح له ووُضع فيه متعلقاته، ثم تم بناء كنيسة على ضريحه تُسمى كنيسة بازيليك القديس مارتن.

وهكذا أصبح هذا الضريح مكانًا له مهابته خاصة فى سنوات الظلام الطوال التى تلت سقوط روما. ولطالما أتى الحجاج إلى الضريح كى يقدموا قرابينهم، وبهذا أصبح المكان يتسم بثراء فاحش. كما نهب الفايكنج المدينة مرتين فى القرنين التاسع والعاشر، لكنهم لم يتركوا وراءهم أى آثار واضحة توحى بقدومهم.

وفيما بعد أصبحت تلك المدينة الكاثوليكية القديمة مقرًا للبروتستانتيين الفرنسيين كما ازدهرت فيها صناعة النسيج فى القرن الـ 17. ولو كان فى ذلك الزمان قد سمح بتنامى نفوذ البروتستانت الفرنسيين لباتت فرنسا دولة بروتستانتينية مثلها فى ذلك مثل إنجلترا أو ربما حتى مكانًا لوجود مزيج من الديانات مثل ألمانيا.

بيد أن البروتستانتيين الفرنسيين أُجبروا على الرحيل أو تغيير دينهم بسبب إصدار المرسوم الملكى لنانت. فأخذ الكثير منهم مهارتهم في صناعة النسيج معهم إلى أيرلندا. وهكذا ظلت فرنسا وتور كاثوليكيتين. وخلال الثورة الفرنسية وعهد نابليون فى أوائل القرن الـ 19 مرت بمدينة تور أحداث جُلَّى. ومازالت توجد فى المدينة شجرة أرز كبيرة زرعها نابليون فوق الحديقة التى يستمتع الناس بقضاء يوم الأحد فيها الآن. وإبان الحرب الفرنسية البروسية وخلال حصار بروسيا لباريس كانت تور عاصمة فرنسا المؤقتة فى ذلك الوقت.

وفى وقتنا الحاضر تعتبر تور عاصمة مقاطعة أندريه دو لوار ونقطة انطلاق الرحلات السياحية إلى قصور وادى لوار. كما تحتفظ المدينة بكاتدرائية القديس جاتيان العظيمة التى لازالت تقف بشموخ هناك وتنعم بالسلام والازدهار. هذا بإيجاز تاريخ مدينة تور ككل. ويبدو أن تاريخها موثق بشكل مناسب كما أن هويتها صلدة وقوية.

وبالرغم من وجود بعض الأدلة المادية للتاريخ الإنسانى هناك فإنه لايزال محدودًا كما أنه يتلاشى بمرور الزمن. ففى هذه الرقعة مثلًا نجد أن كل ما يتبقى من التاريخ الرومانى ما هو إلا بعض البوابات والأبراج، ومن ثم ينبغى على المرء أن يقتنع تمامًا بدقة كتابات المؤرخين المهترئة التى تم جمعها والروايات التى تم تناقلها عبر خمسة أجيال، والتى تحكى تاريخ المكان، وذلك بالرغم من اختفاء الأدلة المادية على الغال وروما منذ زمن بعيد.

ولكنك فى ذات الوقت عندما تمعن التفكير فى الأدلة المادية للقرون الأخرى المتداخلة تجدها هى الأخرى متفاوتة. فهل دخلت أوربا فعلًا فى عصر من الظلمات بعد سقوط روما فى 476 أم كانت هذه مجرد إشاعة لا أكثر. يوجد فى مدينة تور مجموعة من المنازل المصنوع نصفها من الخشب، ويعود طرازها إلى العصور الوسطى وتحتلها الآن الحانات الصغيرة والمحال، وهو مكان يرتاده الناس كى يأكلوا ويشربوا ولكن هل يعد هذا من الأدلة المادية؟ والغابات الكثيفة فى عصور بلاد الغال والرومان تحولت إلى حقول، ثم عادت كى تصبح غابات ثم حقولًا مرات عديدة عبر القرون. كما أن الغابات الخشبية التى كانت تأوى

إليها في يوم من الأيام الأيائل والذئاب والدببة قد أصبحت الآن ضواحي وطرقًا سريعة ومزارع ومراعي.

غير أنك ينبغي أن تقف على مسافة بعيدة جدًا كي ترى السور الأكبر.

فالأماكن المحددة لأحداث بعينها وقعت منذ آلاف السنين ولكنها بعد سقوط روما غير معروفة حتى الآن. فأحداث القرن الثامن، على سبيل المثال، بدءًا من عهد شارل مارتل الذى اشتهر بلقب المطرقة لايمكن تحديد أماكنها الفعلية على خريطة مدينة تور. وبالرغم من أن لشارل الفضل فى تغيير مقدرات مدينة بأكملها، بل قارة وحضارة أيضًا، فلا يعرف أحد مكان كل ذلك بالتحديد. وهذه الأحداث العظيمة مذكورة بإيجاز فى الكتب السياحية وبعض اللوحات التذكارية المتناثرة فى المكان.

ومما لاشك فيه أن تلك هى أهم الأحداث التى وقعت فى مدينة تور عبر تاريخها الممتد خلال ألفى عام، لكن كل ذلك يبدو غير ذى أهمية لمرتادى الحديقة الآن، فهم منشغلون فى شئونهم الخاصة وحياتهم واحتياجاتهم. واليوم هو أحد أيام الآحاد الجميلة، حيث عدد قليل من الناس يحضر القداس المنعقد فى كاتدرائية القديس جاتيان وكنيسة القديس مارتن الصغيرة، كما تجتاح الصغار حالة من المرح الصاخب بسبب حلول الصيف وانتهاء أيام الدراسة. وتنهل الجدة من إحساس السعادة الذى أورثه مدّ الله فى عمرها كى ترى حفيدتها. أما عائلة الغافقى فتتمتع باليوم الذى تقضيه بعيدًا عن منزلها وتشاهد مكانًا جديدًا.

وبخلاف المنطقة التى يعيشون فيها فى باريس، تخطط مدينة تور لبناء مسجد فى الجوار. فحالة التوتر العرقى الذى تعانيه باريس وحادث إشعال النيران فى السيارات الذى وقع عام 2005 فى منطقة كليشى سو بوا بعيد كل البعد عن ما يحدث فى تور. فالتيارات الشديدة والأنماط المتعددة للحركة الأوربية والهجرة والتمازج بين الثقافات يبدو أنه تجاوز مدينة تور.

ويتجه أبناء عائلة الغافقى نحو النافورة بينما يستمتع والداهما بغدائهما المكون من الجبن ولحم الضأن. ولا تجذب العائلة أنظار أحد فى الحديقة، ومن منظور أعلى تكاد العائلة تتلاشى عن الأنظار.

وقد يبدو كل ذلك هو لب تاريخ تور حتى لو كان جزء من هذا التاريخ ضائعًا؛ فالأمر غير مهم.

وبينما تقرأ كريمة جريدتها يجلس إدريس على البطانية وينظر إلى المشهد المترامى أمام بصره وبحوزته نشرة سياحية التقطها من مكتب السياحة. يلقى نظرة على النشرة، ثم يرفع بصره مرة أخرى وينظر إلى ما وراء الحديقة حيث المدينة. ولأنه الاستماع إلى الموسيقى الكلاسيكية ومشاهدة سباق السيارات، فإنه أخذ يتساءل بينه وبين نفسه إن كانت هناك حلبة سباق قريبة.

لقد كان يتوقع الكثير من هذه الرحلة وأعتقد أنه سمع الكثير من الأمور الطيبة عن مدينة تور، لكنها كلها كانت خليطًا من الروايات التى سمع الآخرين يروونها ولكنه

لا يتذكر أى تفاصيل محددة الآن. وبالطبع لن يخبر زوجته عما يدور فى ذهنه؛ ترى أكان من الأفضل أن يذهبوا إلى مكان آخر، ربما مثلا إلى سواحل بريتانى التى يعشقها، أو إلى بروفينس التى لم يسبق له أن رآها، غير أن تلك الأماكن كانت بعيدة لرحلة اليوم الواحد، فهم مضطرون إلى العودة فى ذات اليوم حيث إن لديهم مناسبة عائلية فى الغد.

لقد كان إدريس يتوقع ما هو أكثر من ذلك، لا يعرف بالضبط ماذا يريد، ولكنه لا يجده هنا فى تور. ويعاود النظر عدة مرات إلى المدينة وكأنما يبحث عن شىء مفقود. هل ثمة شىء يحدث خارج مرمى بصره؟ هل رأى وميضا يتلألأ أو ضوءا يلمع؟ هل صرخ أحدهم من بعيد؟

وفيما بعد وهم يمرون على كاتدرائية القديس جاتين المصنوعة على الطراز القوطى وكنيسة القديس مارتن التى أعيد بناؤها من جديد يستهويه أمر ما. هو مسلم الديانة، لكنه ليس متدينا بقدر كبير حيث يسمح لنفسه باحتساء النبيذ والبيرة ولا يذهب إلى المسجد كثيرا على خلاف المهاجرين حديثى العهد. كما أنه لا يشعر بالارتياح فى ظل الأجواء الدينية الشديدة.

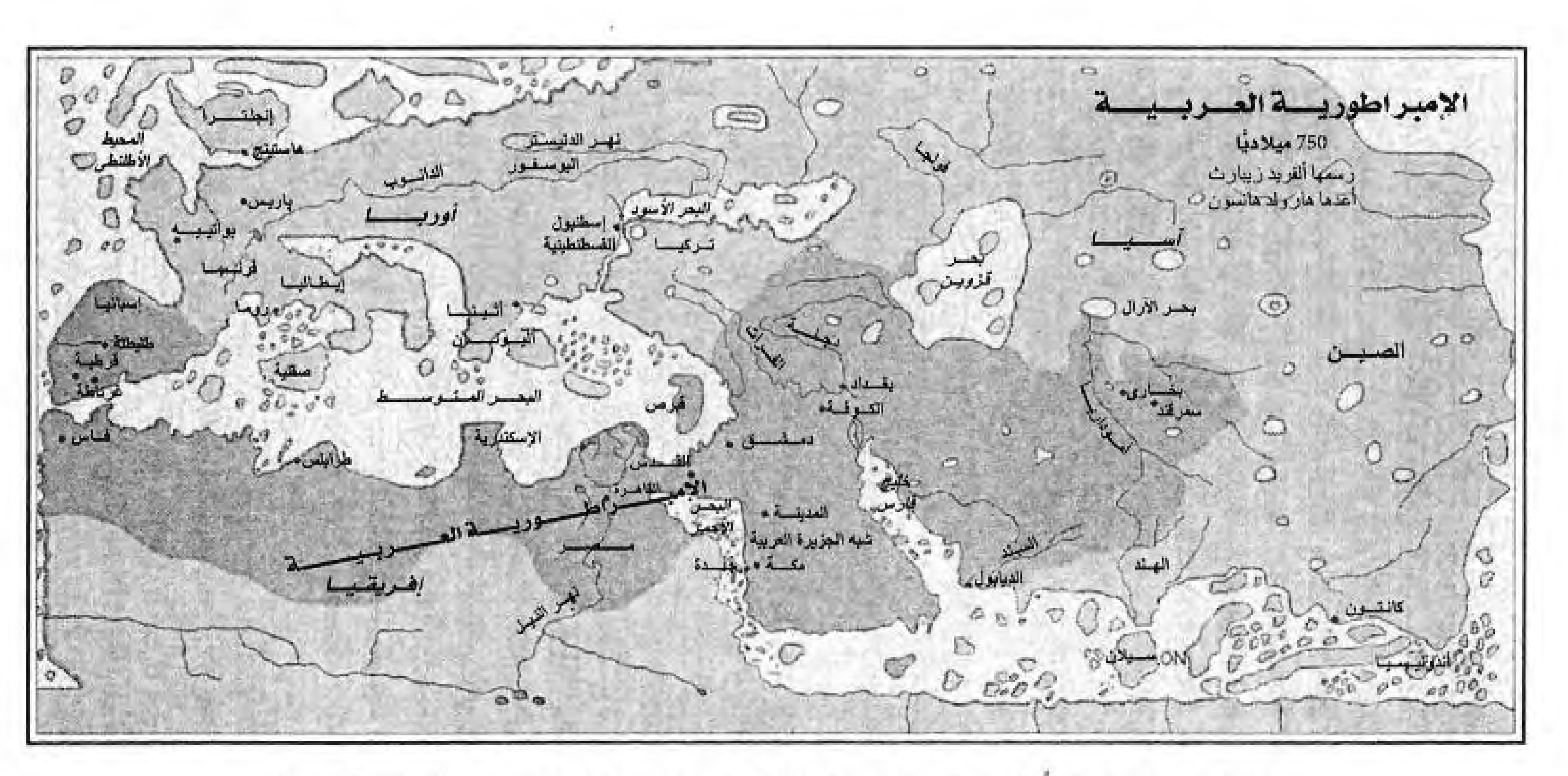
ولكن ماذا عن تلك الكاتدرائيات... تبدو على أبنائه علامات عدم الاهتمام، أما الزوجة فترغب فى أن تذهب لرؤية المحلات، ولكنه يتوقف هاهنا وينظر إلى الحواجز التى تحيط بالسقف وإلى الأقواس المسننة بينما يمضى الآخرون قدما لكنه يبقى ويقف فى ظل الزجاج الملون.

تلك الكاتدرائيات تذكره بشىء؛ شىء من بعيد، من زمان سحيق، ولكن ترى ما هو؟ المكان البعيد والزمان السحيق بالنسبة له هو المغرب. ولكن ما علاقة تلك الكاتدرائيات المسيحية بالمغرب الإسلامية؟ هل الأمر له علاقة بالأقواس المسننة وصفوف الأعمدة والأبراج؟

ومن فوقه تعلو السحب أكبر فى السماء، ربما تمطر السماء فى أية لحظة، وفى اتجاه الغرب يبدو الأفق رمادى اللون مصبوغا بالأزرق الداكن. لم يجلب معه المظلة الواقية من المطر، ربما يكون من الأفضل له الآن أن يحاول اللحاق بالعائلة. فربما ينتهى اليوم بسرعة بالنسبة لهم بسبب الأمطار وهم يرغبون فى رؤية المزيد، قدر الاستطاعة، قبل أن يبدءوا رحلة العودة إلى منزلهم.

ولكن ماذا كان الهدف من زيارة مدينة تور؟ لماذا أتى إلى هنا؟ هل هناك أمر ما لم يحكه أحد أو يره إياه أحد؟ هل هناك مدينة أخرى تسمى تور غير هذه؟ ربما أفضل حالا وأكثر تشويقا؟ هل نسى شيئا أم أضاع شيئا؟

مكة، الجزيرة العربية 570 سنة بعد الميلاد: من بين الكثير من خيوط نسيج التاريخ الضائع يوجد خيط من الوحى الإلهى. وهذا الوحى الإلهى تشترك فيه الأديان الثلاثة التى نزلت مع النبى إبراهيم عليه السلام وإن كان له شكل مختلف. وتنبع تلك الأديان السماوية الثلاثة من المصدر نفسه، وتؤمن بالرب نفسه، وتدعو إلى القيم ذاتها وتستخدم الكثير من نفس الأسماء الواحدة، والتى تأتى من الجذور اللغوية، كما تبجل الأديان السماوية الثلاثة نفس القديسين والأنبياء.



مع حلول عام 750 ميلاديًا أي قرابة ما يزيد على 100 عام من وفاة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم تنامت الدولة الإسلامية إلى أقصى حدود ممكنة لها.

أما ثالث الأديان السماوية وآخرها فبدأ تنزله فى أطراف المدينة العربية العتيقة، مكة المكرمة.

ظهر الحرم المكى فى فترة ما قبل نزول الإسلام حول بئر زمزم الذى رحل إليه سيدنا إبراهيم أبو اليهود والمسيحيين والمسلمين فى زيارة فى الأزمان السحيقة. وبالكعبة أيضًا حجر أسود مبارك تنزَّل من السماء. وكانت العشائر فى مكة فى ذلك الوقت تعتمد على الزوار الذين يأتون لزيارة مقدساتهم الدينية ويتركون القرابين لها ويصرفون الأموال على الطعام والسكن. كما كانت تلك العشائر تؤمن تمامًا بأنها كى تجذب أكبر عدد من الحجاج إليها فينبغى تمثيل أكبر عدد من الأديان لديها.

كانت مكة فى ذلك الوقت مدينة تجارية لا دين لها يحيط بها المؤمنون وغير المؤمنين من أطياف مختلفة. وكان اقتصادها يرتكز على تعدد الآلهة، ذلك هو أبسط توصيف لحالتها. وفى ذلك الوقت كان القساوسة المسيحيون ينتمون إما إلى الكنيسة البيزنطية وإما إلى الكنيسة الأشورية فى الشرق، والتى كانت تعرف أيضًا باسم الكنيسة النسطورية. وكان الحاخامات اليهود يدرسون تعاليم التوراة كما كان هناك عباد للنار وعباد الإله مثرا وعباد إلهة الخصوبة وعرافون وكهنة ومداوون وأطباء مشعوذون. فهناك من ينتقى ويختار من يعبد وهناك من لا يختار شيئًا.

وتتحدد ملامح الحياة وشكل المجتمع بفعل الطبيعة والمناخ حيث تندر المياه ويغلب على الطبيعة وجود الصحارى ذات الرمال الملتهبة وخطوط السواحل والشواطئ المتعرجة التى تغمرها المياه ذات اللون الأزرق النيلى وتظهر التلال الصخرية من وقت لآخر بشكل منتظم والجبال وعرة التضاريس أشبه بنصل السكين. كما تتوافر المسطحات السوداء المصنوعة من الصخور البركانية التى خلفتها تدفقات الحمم فى الأزمان القديمة. وبينما تحتل بعض المدن والموانئ هوامش المحيط الخارجى للمكان فإن الدخول فى وسطه أمر محفوف بالمخاطر ومميت فى أغلب الأحيان. أما الحياة فى المدن البعيدة عن السواحل فتقوم على الآبار والعيون والواحات، والتى يبدو وجودها فى هذه الأماكن القاحلة بمثابة المعجزة. وقد سمح وجود مثل هذه الواحات بزراعة القمح والشعير ونخيل البلح، كما أنهم يوفرون مصدرًا للظل أيضًا. أما تحت أشعة الشمس العارية فى نهار اليوم فتصل درجات الحرارة إلى (حوالى 48 درجة مئوية) ومن ثم تصبح من أكثر بقاع الأرض حرارة. أما فى مساء الشتاء، فتبدأ الحرارة فى الهروب إلى الفضاء عبر الغلاف الجوى الخالى من السحب ليجلب موجات من الصقيع تخدر الأبدان.

لكن هذه الظروف القاسية لا تعنى بالضرورة انعدام الحياة أو الحضارة أو حتى التاريخ. وبالرغم من أن ندرة المياه قد تمنع فى الكثير من الأحيان نمو المدن والمجتمعات الكبيرة فإنها لم تمنع تاريخ الجزيرة العربية الطويل والغنى بالخبرات من البزوغ. وبحلول القرن السادس كانت الجزيرة العربية قد تفاعلت بالفعل مع حضارات قديمة مثل الحضارة المصرية والفينيقية والآشورية والفارسية والإغريقية والهندية والرومانية والبيزنطية وذلك من خلال التجارة فى البهارات الغالية والبخور

والمر. وتلتصق الجزيرة العربية مباشرةً بالأراضى الأولى المذكورة فى توراة اليهود وإنجيل المسيحيين.

وفى مثل هذه البيئة الجافة والغنية فى ذات الوقت كان أساس القانون والنظام هو العشيرة التى تنقسم بدورها إلى عدة قبائل. ويبدو المجتمع بأسره عبارة عن لوحة فسيفسائية من العشائر تتحالف مع بعضها البعض بشكل مستمر وتمارس الأعمال التجارية وتنظر فى الشكاوى والتظلمات، وفى بعض الأحيان تدخل فى منازعات أيضًا. وبالرغم من أن الطابع البدوى هو السائد على السكان العرب فى القرن السادس فإن قانون العشائر لا يزال هو القانون السارى على المدن أيضًا. فالعشيرة هى التى تقرر فى نهاية الأمر كل شىء، وواأسفاه على من لا عشيرة له حيث سينتهى به الأمر أن يصبح عبدًا لا حقوق له على الإطلاق.

ويلوح فى الأفق المجاور للمناخ السياسى للجزيرة العربية الإمبراطوريات العظيمة والدول الأصغر حجمًا والموالية لها عسكريًا. أما الدول العظمى فهى بيزنطة وبلاد الفرس الساسانية، والدول الأصغر الموالية لها عسكريًا هى مصر وسورية وفلسطين وبلاد الرافدين وبلاد الحبشة المسيحية التى يفصلها عن الجزيرة العربية البحر فحسب.

وفى وسط هذه الطبيعة الموحشة وفى حوالى العام 570 يولد محمد، صلى الله عليه وسلم، ويصبح شابًا ذا نسب طيب وظروف متواضعة حيث يذوق اليتم فى سن مبكرة. وبالرغم من أنه لا يتمتع بالمال ولا بالنفوذ غير أنه ذكى وحساس.

وكراعى غنم صغير السن يشاهد محمد، صلى الله عليه وسلم، الشمس والقمر والنجوم وهى تتحرك فى السماء. كما يشاهد حركة القوافل وصراع الحيوانات فى البرية كما يسمع أناشيد الديانات المختلفة ويشعر بوطأة الفقر.

وينتمى محمد، صلى الله عليه وسلم، إلى قبيلة قريش التابعة للعشيرة الهاشمية، والتى سوف تأتى فى يوم من الأيام بسلسال من الملوك فى دولة لم تعرف بعد وتسمى الأردن.

يتمتع محمد، صلى الله عليه وسلم، بالوسامة الشديدة ويعرف بالأمانة. وعندما يبلغ سن الرشد يقوم برعاية الجمال لأحد أكبر القوافل التابعة لعشائر مكة. ومن هنا يترقى فى عمله حتى يدير القوافل بنفسه وأعمال التجارة أيضًا. ويؤدى أداءً طيبًا فى عمله لدرجة أن أموال أصحاب القوافل تزداد وتتنامى. وعندما بلغ الخامسة والعشرين من عمره يدير إحدى القوافل التى تملكها أرملة ثرية تدعى خديجة، رضى الله عنها، وهى من أصحاب الأعمال التجارية وذات شخصية مستقلة كما تمتلك قدرًا عاليًا من الأخلاق والقيم. وحيث إنها تحيا وحيدة يتقدم لطلب يدها العديد من الخطاب، لكنها ترفضهم جميعًا.

تنتبه خديجة، رضى الله عنها، لهذا الشاب الذى يعمل عندها بالرغم من أنها تكبره بحوالى خمسة عشر عامًا. وفى مرحلة ما تبعث إلى محمد، صلى الله عليه وسلم، عارضةً عليه الزواج ويقبل هو بالعرض ويتزوجان.

ويزدهر العمل، وبالرغم من أن الزوجين يفقدان اثنين من أبنائهما فإن بناتهما الأربع يبقين على قيد الحياة. وبسبب زواجه ونجاحه يؤدى محمد، صلى الله عليه وسلم، دورًا كبيرًا الآن داخل المجتمع الذى يتناسب وأصله الكريم. وبعد وفاة السيدة خديجة، رضى الله عنها، يتزوج سيدنا محمد، صلى الله عليه وسلم، نساء أخريات.

ومثله مثل أغلبية رجال مجتمعه لا يتلقى سيدنا محمد، صلى الله عليه وسلم، تعليمًا رسميًا. وتخبرنا المصادر التقليدية أنه لم يكن يستطيع لا القراءة ولا الكتابة، لكن هذا الوسط كان يهيمن عليه الاتصال بالوسائل الشفهية، كما كانت أرقى فنونه هى فنون الشعر. فأعظم عقول هذا المجتمع وأكثرها إبداعًا كانت تعبر عن نفسها بإلقاء الشعر. كما كانت الجوائز ترصد فى ذلك الوقت لمسابقات إلقاء الشعر وسرد القصص. وهذا الشاب الصغير، بالرغم من أنه لم يكن شاعرًا فإن الشعر كان يخلف أثرًا عميقًا فى نفسه مثله فى ذلك مثل بقية سكان الجزيرة العربية.

وكانت اللغة التى يتحدثها الناس فى ذلك الوقت هى العربية الفصحى، أما بالنسبة لهؤلاء الذين كانوا يجيدون الكتابة فقد كانت الحروف المستخدمة هى عبارة عن صياغة زخرفية منحنية تعبر عن وعى وإدراك مختلف تمام الاختلاف عن الكتابة الرومانية. فالألفباء الرومانية لها أحرف جامدة منتظمة مثل رءوس الأعمدة الرومانية وكذا مثل المنطق الذى يحكم القانون الرومانى، أما الخط العربى فهو أكثر قربًا من العمل الفنى الذى يحتوى على الكثير من الروحانية والإلهام.

وربما كانت القصة تنتهى هنا بأن يكبر هذا الرجل المكى، الناجح فى أعمال التجارة، فى السن ويلحق بزوجته فى العالم الآخر وأن يترك وراءه عشيرة كبيرة مزدهرة ومؤثرة فيمن حولها.

لكن الوحى يبدأ فى النزول على محمد، صلى الله عليه وسلم، وهو فى سن الأربعين. فى البداية يشعر وكأنه على حافة الجنون. ووفقًا لما جاء فى روايات السيرة المحمدية يخبر محمد، صلى الله عليه وسلم، السيدة خديجة رضى الله عنها بما يحدث له وعندها تأخذه، وهى تشعر بالارتباك، إلى ابن عمها ـ ورقة بن نوفل ـ الذى له علم بديانات أهل الكتاب، فلما سمع ما حدث طلب منه أن يهدأ وأن يشكر الله على نعمته عليه؛ لأن ما يراه هو رسائل من الله.

ويقبل سيدنا محمد، صلى الله عليه وسلم، بحقيقة أن ما يتنزل عليه هو كلام الله سبحانه وتعالى. ويأمره الملك جبريل عليه السلام بأن يقرأ ومن عقله وعلى لسانه تنسال تلاوة متدفقة غزيرة كأنغام القيثارة، ويقدر لها أن تستمر مدة 23 عامًا يحفظها الرسول، صلى الله عليه وسلم، ثم تنتقل إلى تابعيه فيما بعد. وبمرور الوقت وفى خلال هذا الدفق من الكلمات، تتجلى صور هذا الدين وهيكله الذى ينبع من الأديان اليهودية والمسيحية ويحترم ويقدر سلسال الأنبياء اليهود والنبى عيسى عليه السلام، كما يضيف إرشادات جديدة ليس فقط فيما يتعلق بعلاقة الانسان المباشرة بالله، ولكن أيضًا بكيفية اتصال الإنسان بالموجودات الأخرى التى خلقها الله، والتى تعبر كلها فى

النهاية عن عظمة الخالق. ومجموع هذه الآيات المنزلة يشكل ما يطلق عليه القرآن، وهى وفقًا لما يؤمن به المسلمون كلام الله المكتوب الذى أنزله الله على نبيه محمد، صلى الله عليه وسلم، من خلال الملك جبريل عليه السلام. أما أقوال الرسول، صلى الله عليه وسلم، وأفعاله فقد تم جمعها وتعرف باسم السنة النبوية.

وتتمثل الأركان الخمسة لهذا الدين الجديد فيما يلى: الإيمان بالله ورسوله، وإقامة الصلاة خمس مرات يوميًّا تجاه قبلة المسلمين؛ أى مكة وتلاوة آيات من الذكر الحكيم فى أثناء الصلاة، وإيتاء الزكاة للمحتاجين، وصوم رمضان؛ أى الامتناع عن إتيان أى من الشهوات من مطلع الفجر وحتى غروب الشمس، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلًا.

وبخلاف تلك النقاط السابق ذكرها يتناول القرآن الكريم كيفية حفاظ المرء على نظافته وصحته وممارسة أعماله الدنيوية بقدر من الأخلاق والقيم وجعل المجتمع أكثر كرمًا وسخاءً وإنسانيةً. كما يدعم ضرورة إعطاء المرأة حقوقها والسعى لاكتساب العلم والمعرفة وجهاد النفس والدفاع عن الإسلام.

ووفقًا للقرآن الكريم يطلق على هذا الدين اسم «الإسلام» وتعنى كلمة الإسلام بالعربية الإذعان أو الاستسلام لإرادة الله عز وجل كما تشترك فى جذرها بكلمة السلام.

لم يظهر الشكل النهائى للقرآن بترتيب نزول الآيات ولكنه رتب تقريبًا حسب طول السور، من «الفاتحة» إلى «الناس». وبالرغم من حفظ الصحابة القرآن، وكتابة له وكتابة بعضهم له، فلم تبدأ حركة تدوينه الفعلية إلا بعد مرور 20 عامًا من وفاة الرسول، صلوات الله عليه وسلامه. وستتمثل مهمة بعض الصحابة فيما بعد، وهى المهمة التى ستكون مصدرًا لإثارة نزاعات وخلافات، فى المستقبل، فى الاتفاق على تفسير كلام الله فى ضوء الكلمات التى نزلت على الرسول الكريم وأخذت منه، ولاسيما فى المواقف الجديدة التى ستتكشف مع مرور الوقت، والتى يبدو أن القرآن لا يشتمل على مثيلاتها، أو تلك التى تبدو متناقضة.

إن الوصايا التى خرجت بها علينا تعاليم الرسول سوف تعجل بازدهار فكر الحضارة الإسلامية، كما سوف تلهب شرارة البحث وراء العلم والمعرفة والاكتشاف وتشمل هذه:

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن مداد العلماء فى الميزان أثقل من دم الشهداء وأكثر ثوابًا يوم القيامة» (رواه الديلمى فى الفردوس (488).

عن أبى الدرداء قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهّل الله له طريقًا إلى الجنة وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضًا لطالب العلم، وإن طالب العلم يستغفر له من فى السماء والأرض حتى الحيتان فى الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، إن العلماء هم ورثة الأنبياء إن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا إنما ورّثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر» (سنن ابن ماجه).

عن أبى أمامة الباهلى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم»، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله وملائكته وأهل السموات والأرضين حتى النملة فى جحرها وحتى الحوت ليصلون على معلم الناس الخير» (سنن الترمذى).

وسيتكشف الأثر الثقافى والتاريخى العظيم لهذه الكلمات فى المستقبل.

وإبان اتباع الرسول، صلى الله عليه وسلم، للأوامر الإلهية بنشر الرسالة للآخرين يُحدث الخلل والارتباك فى نظام مكة حيث يطلب منهم هدم الأصنام الموضوعة داخل الحرم المكى وهم يرون أن هذا يضر بأعمالهم التجارية غير أن إصرار النبى، صلى الله عليه وسلم، على أنه قد أتى بالدين الحق يجعل أصدقاءه وحلفاءه ينقلبون ضده بينما يؤمن آخرون برسالته وينضمون إلى دعوته.

وفى نهاية الأمر وبينما دعوته للإيمان بالله الواحد تهدد حالة الوفاق والاتفاق فى مكة يزداد عددِ أعدائه وحقدهم عليه فيخططون لقتله. فأمره الله تعالى بالهجرة إلى المدينة وكانت تَعرف قبل الهجرة بيثرب.

ويحاول أعداؤه فى مكة الهجوم عليه عدة مرات، لكن محاولتهم تبوء بالفشل كما ينقلب ضده بعض الحلفاء. ويفوز النبى محمد، صلى الله عليه وسلم، فى معركته الأخيرة أمام قريش ويفتح مكة، ومع أتباعه كان شديد الكرم، ومع من أساء له كان شديد التسامح. ويبدأ بعد ذلك الرسول، صلوات الله عليه وسلامه، فى نشر دعوته فى جميع أرجاء الجزيرة العربية وفى ذات الوقت يحافظ على عهده بإعطاء أهل الكتاب مكانة خاصة، وهم أتباع الديانتين الأخريين من نسل إبراهيم عليه السلام، ألا وهما اليهود والمسيحيون.

ويبلغ الرسول، صلى الله عليه وسلم، الستين من عمره ويبدأ الحديث عن موته بالرغم من أنه يبدو وكأن الآخرين لا يسمعون ذلك. وفى خطبة الوداع يتحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مجموعة من الرؤى والمفاهيم التقدمية التى سيناضل البشر لتحقيقها فى الألف عام التالية مثل الجزئية التالية من خطبة الوداع التى تتناول المساواة العرقية والمساواة ما بين الأجناس.

«أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، وإن أكرمكم عند الله أتقاكم، وليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى»[1].

وبعد خطبة الوداع هذه بفترة وجيزة يمرض الرسول ويتوفاه الله. وبالرغم من أنه كان دائمًا يحذر أتباعه ويخبرهم أنه لن يعيش أبدًا، لكنه حين يموت تنتاب أتباعه حالة من الذهول والحزن الشديد وتعلن حالة الحداد لأيام. ويتساءل الكثيرون عن من سوف يقودهم الآن.

ومن ثم تصبح قضية الخلافة محل نزاع داخل الأمة الإسلامية الشابة. ويبقى السؤال: من منهم يستحق أن يصبح خليفة للمسلمين وأن يقود الأمة نحو المستقبل؟

وتساند إحدى المجموعات أبا بكر الصديق والد زوجة الرسول وأم المؤمنين السيدة عائشة، رضى الله عنها، مستشهدين بروح القيادة لديه ونزاهته وطيبة قلبه وحكمته وقربه من الرسول صلى الله عليه وسلم. فقد كان أحد صحابة النبى، صلى الله عليه وسلم، كما كان من أوائل من اعتنق الإسلام، وكان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يحبه ويثق به. ألم يطلب من أبى بكر وهو على فراش الموت أن يؤم المسلمين فى الصلاة؟ ومن ثم فلابد أن يكون هو الشخص الذى يختاره الرسول كى يمسك بالخلافة.

ومن ناحية أخرى تساند مجموعة أخرى على بن أبى طالب وتدعم ذلك بقولها أن علياً، رضى الله عنه، من أهل بيت الرسول. كما أن الرسول كان يحبه حبه لأبنائه وقد اختاره وفضله على بقية الرجال وزوجه ابنته فاطمة رضى الله عنها. ويزعمون أن الرسول، صلوات الله عليه وسلامه، فى يوم من الأيام أمسك بيد على ورفعها عالياً فى السماء فى ظهر يوم شديد الحرارة وأعلن أنه خليفته وأنه القائد.

وفى يوم وفاة الرسول، صلى الله عليه وسلم، تجتمع مجموعة من الرجال فى فناء أحد المنازل كى يتشاوروا ويختاروا الخليفة. وتختار هذه المجموعة سيدنا أبا بكر، رضى الله عنه، ويمنحونه عباءة الخلافة. وفى اليوم التالى يقف سيدنا أبوبكر، رضى الله عنه، أمام المسلمين على منبر المسجد فى المكان الذى كان الرسول يلقى منه خطبه على المسلمين. وتبايعه الأمة الإسلامية بوصفه أول خليفة للمسلمين.

لكنه لم يكن هناك إجماع فى الرأى على اختيار سيدنا أبوبكر كخليفة للمسلمين، فهناك من كانوا يرون أن سيدنا علياً، رضى الله عنه، قد حرم من أحقيته فى الخلافة، وأن هؤلاء الذين اختاروا سيدنا أبا بكر، رضى الله عنه، وأرضاه، لم يحترموا رغبة الرسول. ولقد خلقت مثل هذه التوترات السياسية التى أحاطت بمسألة الخلافة تصدعات عميقة داخل الأمة، ومن ثم انقسم الولاء بداخلها ومهدت الطريق لظهور الانقسام فى مرحلة لاحقة فى الإسلام ما بين طوائف السنة والشيعة.

ولقد ألقى أبوبكر أول خطبة له قائلاً:

> *أما بعد أيها الناس فإنى قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينونى، وإن أسأت فقومونى، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوى عندى حتى أريح عليه حقه إن شاء الله، والقوى فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه إن شاء الله*[2].

وبالرغم من أن قضية الخلافة سوف تزرع بذور الشقاق المستقبلى داخل الأمة الإسلامية فإنها فى ذات الوقت سوف تطلق شرارة جدل سياسى ثرى حول قضايا

القيادة والمشاورات السياسية، والتى بدورها سوف تُحيى تناول مسائل الدولة والسياسات. ومن ثم فسيتحدثون عن الأمور المتعلقة بكيفية اختيار القائد، ومن الذى يقوم بعملية الاختيار هذه، كما سيتناولون ماهية صفات هذا القائد ومقدار أهمية القبول الشخصى له ومستوى تعلمه فضلًا عن تناول الأدوار الاجتماعية والسياسية والروحية التى يؤديها القائد داخل المجتمع.

ويعد مبدأ إجماع الرأى أحد الأفكار الرئيسة التى تؤدى دورًا كبيرًا فى الفكر الإسلامى السياسى والقانونى فى عملية اتخاذ القرار. وقد ظهرت هذه الفكرة تحت عدة مسميات منها إجماع جمهور المسلمين والشورى. ولقد كانت الشورى من الأمور التى كان يقدرها الرسول، صلى الله عليه وسلم، وهى الوسيلة المتبعة عند اتخاذ القرارات التى من شأنها أن تؤثر على المجتمع؛ أى أن تؤخذ هذه القرارات بالتشاور مع أعضاء المجتمع. بل إن إحدى سور القرآن الكريم يطلق عليها اسم «الشورى». وفى هذا السياق أشير إلى الآية التى تقول بما معناه أن المقربين إلى الله هم هؤلاء الذين يكون أمرهم شورى بينهم.

وفى مسألة القيادة هذه، ومع بداية تكوين المجتمع الإسلامى، سوف تصبح كل من الشورى وإجماع الرأى إحدى النقاط الهامة لإثارة المعارضة. فبينما سيصر الشيعة على أنه لم يتم استشارة الجميع فى مسألة تولى سيدنا أبى بكر، رضى الله عنه، الخلافة على علىّ سوف ترد جماعة السنة قائلةً إنه تم استشارة السواد الأعظم من المسلمين وقد اتفقوا على قيادة سيدنا أبى بكر رضى الله عنه وأرضاه. وبالرغم من أن قضية الإجماع فى الرأى وأهميته بالنسبة للسياسة والقانون والدين فقد ظلت محل نزاع فى القرون التى تلت ذلك داخل الأمة الإسلامية، لكن فى العصر الحديث سوف يتم بذل الجهد من جانب بعض المسلمين للربط بين المفاهيم التقليدية شأن عملية الشورى والأفكار السياسية الأكثر حداثة مثل الديمقراطية النيابية.

ولكن فى تلك الأيام الأولى لدولة الإسلام، وبعد وفاة مؤسسها، كانت قضية الخلافة لاتزال غير أكيدة. وبالرغم من أن معظم سكان الجزيرة العربية كانوا قد دخلوا فى الإسلام، فالجزيرة العربية كانت لاتزال أرضًا فقيرة ومعزولة نسبيًا عن المدن الغنية ومراكز القوى الموجودة فى البحر المتوسط وبلاد الفرس والهند. كما أن كونها أضعف من الدولة البيزنطية والفارسية المجاورة لم يجعلها بالتأكيد من الدول المرشحة لتغيير العالم.

لكن ما سبق هو بالضبط ما سوف يحدث فى الأعوام المائة التالية. وبالتحديد فإن سبب حدوث هذا التحول غير المتوقع قد سقط فى طى النسيان.

وتشير الروايات التقليدية التى كُتبت بعد هذه الأحداث إلى أن سبب قيام الفتوحات الإسلامية فى ظل قيادة المسلمين العرب ترجع إلى قوة إيمانهم بالله وحده فقط. وبناءً على وجهة النظر هذه، فهذا يعنى أن القوات العربية تحت قيادة سيدنا أبى بكر،

رضى الله عنه، ومدفوعة بالرغبة فى نشر الإسلام وحده وحذو الرسول صلوات الله عليه وسلامه قد حاربت ضد ظروف مستحيلة وتدفقت من الجزيرة العربية إلى العالم المجاور لها.

أما وجهة النظر الأخرى فترى أنه مع الاعتراف بأهمية عنصر نشر الدين تدخل عناصر أخرى شأن الإحساس بطعم الثراء والحظ الجيد فضلًا عن معرفتهم بأن القوات التى هم بصدد محاربتها قد أجهدتهم طول فترات العراك فى الماضى. وكل هذه العناصر الأخرى لها دور كبير أيضًا فى قيام مثل هذه الفتوحات.

ففى عهد الرسول، صلى الله عليه وسلم، كانت القوتان المتنافستان ألا وهما الدولتان البيزنطية والفارسية، لا تتعاركان لأجل نزع فتيل قوة كل منهما أو إجهاد بعضهما البعض فحسب، ولكنهما كانتا قد بدأتا بالفعل فى التعدى على أراضى العرب من ناحية الشمال والشرق. وهكذا فالمسلمون الأوائل الذين كانوا قد أسسوا دولتهم الجديدة فى الجزيرة العربية بدءوا على الفور فى عمليات طرد القوات الفارسية والبيزنطية لتحصين حدودهم والمحافظة على دولتهم الجديدة.

لكن شيئًا عجيبًا يبدأ فى الحدوث، فبينما يبدأ العرب فى الدفع بقواتهم، يشرع أعداؤهم فى التراجع. فى حين كان العرب يتوقعون خطًا صلبًا من الدفاع والمقاومة من جانب الأعداء. ومن ثم تأخذ مسألة تحصين العرب لحدودهم زخمًا جديدًا معتمدًا على الاكتفاء الذاتى. وتبدأ أموال الجزية والغنائم فى التدفق داخل بيت المال من أراضى الفتوحات. وقد استغلت تلك الأموال فى تعزيز شأن الدولة الإسلامية.

الأبواب الموصدة تنفرج، وتلوح فى الأفق فرص غير متوقعة. وهكذا تتجلى كل الأمور ويبدأ العرب فى التغنى بأناشيد المعارك وترديد قصائد الحروب القديمة وتمدح النساء والأطفال أزواجهم وآباءهم وإخوانهم ويرسلونهم إلى الحرب فى أمواج تتلاطم خارج الجزيرة العربية تستهدف المدن الأسطورية فى الشمال والشرق والغرب. وينطلق المحاربون العرب إلى نفس الأماكن التى زارتها فى يوم من الأيام قوافلهم التجارية. وتعتاد الجيوش العربية على المقاومة أو الإغارة أو عقد المعاهدات مع جيوش بيزنطة والفرس القوية، وبهذا تتحول الشخصية العربية وتسرى فى دمائها الحماسة والقوة التى لا تتصل ولا ترتبط بثروة حيازة الأراضى أو العلم أو حتى السعى وراء التاريخ العظيم الذى يبعث على الفخر أو اتباع تقاليد غزو الأراضى وتحقيق الفتوحات والسيطرة. فهم يتقدمون إلى الأمام متبعين نهج الرسول، صلوات الله عليه وسلامه، نفسه والذى بدأ بلا شىء على الإطلاق ونجح فى النهاية فى أن يغير من الجزيرة العربية برمتها.

وكانت نتائج هذه الحملة المفاجئة والمرتجلة غير معقولة تقريبًا. فبعد مرور

عامين فحسب على وفاة الرسول، صلوات الله عليه وسلامه، نجد الجيوش العربية تفتح مساحات شاسعة من الإمبراطورية البيزنطية شاملةً سورية وفلسطين. ويلي أبوبكر الصديق عمر بن الخطاب، رضى الله عنهما، فى خلافة المسلمين ويقود هذا الأخير الجيوش العربية إلى نطاقات أعمق داخل كل من الإمبراطوريتين البيزنطية والفارسية. وفى معركة اليرموك فى سورية فى العام 636 يدمر عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، قوات الإمبراطور البيزنطى هرقل. وفى عام 642 يرسل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، الجيوش إلى مصر التى كانت تخضع للحكم البيزنطى ويبدءون فى التقدم نحو شمال إفريقيا. فى عام 644 يتولى عثمان بن عفان الخلافة تبعاً لعمر بن الخطاب، رضى الله عنهما، وفى عهده اكتمل فتح بلاد الفرس فى عام 651.

ويختزل التاريخ الغربى انتصارات جيوش المسلمين هذه فى هذا القرن الأول بالغ الأهمية للإسلام فى مجموعة من التواريخ وأسماء للمعارك والغزوات. ويصورها التاريخ الغربى كلها على أنها مجرد وسيلة لفرض هذا الدين الجديد بشكل جبرى. وبالرغم من أن أقل ما يوصف به تقدم الجيوش العربية فى هذه السنوات الأولى بأنه حملة عسكرية واسعة النطاق، ومع كل الآثار المؤسفة والمصاحبة لهذه الحملة، والتى دائمًا ما تقع إبان الحروب فإن بعض الروايات التى تسرد وقائع هذه الفترة تنسى فى ذات الوقت أن تؤرخ أيضًا للأحداث المؤثرة التى وقعت أيضًا فى هذا السياق.

أولًا ينسى هذا النسيج التاريخى التقليدى أن أحد الخيوط المؤثرة، والتى أدت إلى انتشار الإسلام بشكل سريع، يرجع جزئيًا إلى الانتعاشة الاقتصادية، والتى لم تتحقق بفعل الغزوات أو إجبار الآخرين على تغيير دياناتهم واعتناق الإسلام. كما أدى النظام العربى الذى اعتمد على دفع رواتب الجنود نقدا دورًا كبيرًا فى خلق اقتصاد سوق نقدى حضرى فى الفترات الأولى من إنشاء الدولة الإسلامية. وهذا يعنى أن كمية كبيرة من العملة يتم تداولها، الأمر الذى من شأنه أن يؤدى إلى التنمية الحضرية وإعادة إحياء الحياة التجاريةفى البلدان والمدن التى بدأت فى الانهيار اقتصاديًا بفعل الحروب البيزنطية الفارسية.

ثانياً، يفتقر هذا النسيج إلى ذكر حقيقة أن تحويل سكان الدول التى غزاها المسلمون إلى اعتناق الإسلام لم يتم بالإكراه والقهر. فقد ظل المسلمون أقلية فى الكثير من المناطق التى وقعت تحت الحكم الإسلامى وفى بعض المناطق، مثل فارس على سبيل المثال، كانت نسبة المسلمين أقل من عشرة بالمائة من السكان وذلك فى القرن الأول من توسع الدولة الإسلامية.

إنما فرض الإسلام الجزية على أهل الكتاب نظير رعايتهم وتقديم الخدمات الاجتماعية لهم فى ظل الدولة الإسلامية الناشئة. فمسألة تغيير الديانة التى كانت تحدث فى تلك الأيام الأولى من نشأة الحضارة الإسلامية كانت تتم بناءً على

رغبة الأشخاص أنفسهم، ولم يقم الحكام المسلمون محاكم للتحقق من نية من يدخل الإسلام، فربما لجأ البعض لذلك لخفض نسب الضرائب التى يدفعونها ويحسنون من درجة ترقيهم داخل المجتمع ويسهلون على أنفسهم مسألة الاندماج فى الحياة التجارية والحكومة. كما كان يسمح لهؤلاء ممن لم يعتنقوا الإسلام بالاحتفاظ بدور العبادة الخاصة بهم. كما يحظر ادعاء النبوة أو التعدى على النبى، صلى الله عليه وسلم.

وهذا الجزء المنسى من سماحة المسلمين فى التعامل مع الأديان الأخرى يتضح فى القصة التالية التى تروى عندما فتح المسلمون مدينة الإسكندرية البيزنطية وفى كيفية تعامل المسلمين مع البطريرك القبطى بنيامين وذلك كما تسرد أحداثها الرواية القبطية التالى ذكرها:

فكتب عمرو بن العاص إلى أعمال مصر كتابًا يقول فيه: الموضع الذى فيه بنيامين بطرك النصارى القبط له العهد والأمان والسلامة من الله فليحضر آمنًا مطمئنًا ويدبر حال بيعته وسياسة طايفته. فلما سمع لاقديس بنيامين هذا عاد إلى إسكندرية بفرح عظيم بعد غيبة ثلاث عشرة سنة، منها عشر سنين لهرقل الرومى الكافر، وثلاث سنين قبل أن يفتحو المسلمون إسكندرية، لابسًا إكليل الصبر وشدة الجهاد الذى كان على الشعب الأرتدكسى من الاضطهاد من المخالفين.

فلما ظهر فرح الشعب وكل المدينة واعلمو بمجيه سانوتيوس الدوكس المؤمن بالمسيح، الذى كان قرر مع الأمير عمرو حضوره وأخذ له منه الأمان، فمضى لذلك الأمير وعرفه بوصوله فأمر باحضاره بكرامة واعزاز ومحبة، فلما راه اكرمه وقال لأصحابه وخواصه: إن فى جميع الكور التى ملكناها إلى الآن ما رأيت رجل [من رجال] الله يشبه هذا. وكان الأب بنيامين حسن المنظر جدًا جيد الكلام بسكون ووقار. ثم التفت عمرو إليه وقال له: جميع بيعك ورجالك اضبطهم ودبر أحوالهم وإذا أنت صليت على حتى أمضى إلى المغرب والخمس مدن وأملكها مثل مصر.

وأعود إليك سالمًا بسرعة فعلت لك كل ما تطلبه منى. فدعا له القديس بنيامين وأورد له كلامًا حسنًا أعجبه هو والحاضرين عنده فيه وعظ وربح كثير لمن بسمعه، وأوحى إليه باشيًا وانصرف من عنده مكرمًا مبجلًا.

وكل ما قاله الأب الطوبانى للأمير عمرو بن العاص وجده صحيحًا لم يسقط منه حرف واحد [3].

تشهد سياسة التسامح بين الأديان على بداية التعايش بين المسيحيين واليهود

والهندوس والديانات الأخرى، والتى سوف تمتد على مدار التاريخ فى الأماكن التى يشكل المسلمون أغلبية سكانها وذلك حتى القرن الحادى والعشرين.

أما بالنسبة للإسلام، فيحدث أن تقع واقعة مشئومة فى العام 661 مما يؤدى إلى إشاعة الفرقة بين أتباع هذا الدين إلى الأبد. فبعد أحداث عام 632 عندما يتم اختيار أبى بكر الصديق، رضى الله عنه، كأول خليفة للمسلمين، ثم يتولى على بن أبى طالب، رضى الله عنه، خلافة المسلمين أخيرًا عام 656، ولكن فى عام 661 يُعزل على، رضى الله عنه، ويُقتَل ويُصبح معاوية سليل العشيرة المكية وبنى أمية هو الخليفة. لكن بعض المسلمين يظلون أولياء لسيدنا على، رضى الله عنه، وأرضاه ويرفضون الخليفة الجديد. ويُطلق على هؤلاء المسلمين الشيعة التى تنبثق عن كلمة شيعة سيدنا على أو «أتباع سيدنا على» أما أولياء معاوية فيعرفون باسم السنيين وتنبثق هذه الكلمة عن كلمة السنة؛ أى «أتباع أحاديث وسنة الرسول، صلى الله عليه وسلم» وتُعرف هذه الأسرة الحاكمة ببنى أمية.

وفى نقلة خطيرة أخرى، يتحرك بنو أمية من مسقط رأسهم بالجزيرة العربية ويتركون مكة مركزهم الدينى ويؤسسون محورًا سياسيًا وتجاريًا جديدًا لهم فى المدينة البيزنطية القديمة دمشق.

ويبقى السؤال هو: لماذا يقرر أبناء مكة الأوفياء هؤلاء أن يديروا ظهورهم لهذه المدينة المقدسة بينما إمبراطوريتهم تنمو وتتعاظم؟ فى أغلب الأحوال يعود السبب فى ذلك إلى قلة أعدادهم حتى مع التقدم الذى يحققه عرب الصحراء. ومن هنا تبدأ صفوف العرب بالامتلاء بالأشخاص الذين تلقوا العلم بشكل رسمى من مصر وسورية وفلسطين والعراق، وذلك بجانب الفرس والبيزنطيين والأتراك من وسط آسيا، كما امتلأت صفوف العرب برجال من الإمبراطوريات الثرية السابقة شأن الإسكندرية ودمشق وتيسفون أو قطسيفون والقدس وجلبوا معهم أذواقهم وأفكارهم وقصصهم وألسنتهم. وكان العرب على أتم استعداد لاحتضان كل هؤلاء الشعوب وخبراتهم ليس لإدارة هذا العالم الاسلامى المتمدد فحسب ولكن عملًا بقول الرسول، صلى الله عليه وسلم، أيضًا «اطلبوا العلم ولو فى الصين».

وسوف ترسى الاستراتيجية الإسلامية العربية المبنية على الارتجال والقدرة على الاستيعاب بالإضافة إلى النهم الشديد للنهل من بحار المعرفة والخبرة مستقبل العصور الإسلامية التالية، والذى سوف يؤدى إلى حصاد من العصور الذهبية الإسلامية تبدأ فى الأراضى العربية فالأندلس فبلاد الفرس ثم وسط آسيا والهند وصولًا إلى الأناضول والهند المغولية.

وبالرغم من أن خارطة العالم ومعتقدات البشر تمران بحالة من التحول فهذا لا يعنى أن السنوات المائة الأولى من ارتجال المسلمين وتضامنهم معًا بعد وفاة الرسول، صلوات الله عليه وسلامه، قد أضافت قدرًا من المثالية المطلقة على السلوك البشرى.

فقد اهتزت هذه الفترة مثلها فى ذلك مثل فترات أخرى مشابهة فى تاريخ البشرية بالصراعات السياسية والانقلابات والاغتيالات والرفض والأخذ بالثأر الذى كان يتحولْ من وقت إلى آخر إلى حرب أهلية. بيد أنه فى ذات الوقت بدأ هذا الاضطراب الذى تصاحبه القدرة على استيعاب كل ما هو جديد يؤدى إلى خلق ثقافة مختلطة أصلها عربى، لكنها متشعبة وغنية بمزيج من الثقافات الأخرى شأن فنون القراءة والكتابة الفارسية الغزيرة ووسائل العلم والأساليب البيزنطية فضلًا عن أصداء الحضارات الإغريقية والرومانية.

إن فحوى وحجم التراث المعرفى الذى نقلته الحضارتان البيزنطية والفارسية إلى أتباع الرسول، صلوات الله عليه وسلامه، لسوف يتجلى واضحًا بعد فترة قصيرة حين ازدهار العصر الذهبى الاسلامى. كما أن لسان الشعر العربى الفصيح سيصبح هو اللغة السائدة لهذا العالم الجديد واللغة الوحيدة للمناظرات الدينية ووسيلة التعبير الدينى وستزداد أهمية هذه اللغة فى أعمال التجارة والآداب والحياة اليومية. ويذهب الجميع سواء كانوا من الفرس أو البيزنطيين أو البربر وآخرين تحت الحكم الإسلامى إلى تعلم اللغة العربية.

ولمئات السنين تهب رياح فتوحات العرب المسلمين بقوة على المكان. وتطرد قوات الخليفة القوط الغربيين من شمال إفريقيا. وبحلول عام 711 وتحت قيادة العبد المُحرر طارق بن زياد تغزو قوة مختلطة من العرب والبربر إسبانيا التى كانت تخضع وقتها لحكم القوط الغربيين وتفتحها. وبعدها بحوالى العام أى فى 712 يتقدم المسلمون إلى بلاد السند كما هو اسمها الآن فى باكستان ثم يغزون ما نعرفه الآن بوسط آسيا وكانت وقتها تسمى بلاد ما وراء النهر.

ويقول البعض إن غزو إسبانيا قد حرض عليه المسيحيون الأيبيريون المنشقون الذين حاولوا جذب المسلمين إلى الشمال كى يكونوا حلفاءً لهم فى حرب أهلية قبلية ضد الملك لذريق الحاكم. وإبان ذلك الوقت كانت إسبانيا التى تخضع للحكم القوطى تعانى اضطرابًا شديدًا بشأن أمور حزبية، كما كان الحكام يشنون حملة ضد اليهود المنتشرين فى المملكة. وكانت الأقلية من القوط الغربيين يحكمون بطريقة قاسية وضارية ويستبدون بالشعب المتمرد من السكان الأصليين أخلاف عهد الرومان وما قبله.

ولم يبذل الحكام القوط أى جهد كى يفوزوا بموالاة الشعب اللاتينى وتواصل أيبيريا انغماسها فى نفس الركود المدنى والاقتصادى الذى جلبه عليهم سقوط الرومان، والذى لازالت تعانى ويلاته بقية أجزاء أوربا.

ولا يزال الأمير المسلم موسى بن نصير فى شمال إفريقيا يتوخى الحذر ويتساءل عما إذا كانوا يدفعونه للوقوع فى شرك ما وعما إذا كانت أيبيريا فعلًا تستحق كل

هذا العناء. فيبعث بقوة صغيرة كى تجس النبض غير أنه لا يجد أى قوات للدفاع هناك. وعلى هذا يرسل قائده الوفى طارق كى يترأس حملة تهدف إلى تأسيس معقل للمسلمين هنالك.

بيد أن كلمة معقل لا تعبر حقًا عما حدث هناك. يرسى طارق بن زياد قواته فى مكان يطلق عليه فيما بعد جبل طارق بسبب ما حدث هنالك فى ذلك اليوم فى 30 إبريل من عام 711. يتكون جيش طارق من 7000 جندى، الجزء الأصغر منهم من عرب سوريا، أما الجزء الأكبر منهم فمن البربر أهل بلد طارق. وعندما رسا طارق فى ذلك المكان يُروى أنه ألقى على مسامع قواته الخطبة الآتى ذكرها:

أيها الناس أين المفر البحر من ورائكم والعدو أمامكم وليس لكم والله إلا الصدق والصبر واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة أضيع من الأيتام فى مآدب اللئام وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته وأقواته موفورة وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم ولا أقوات إلا ما تستخلصونه من أيدى عدوكم وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمرا ذهبت ريحكم وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجرأة عليكم فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت وإنى لم أحذركم أمرا أنا عنه بنجوة ولا حملتكم على خطة أرخص متاع فيها النفوس أربأ فيها بنفسى واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلًا استمتعتم بالأرفه الألذ طويلا فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسى فيما حظكم فيه أوفر من حظى وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان الرافلات فى الدر والمرجان والحلل المنسوجة بالعقيان المقصورات فى قصور الملوك ذوى التيجان وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عزبانا ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهارا وأختانا ثقة منه بارتياحكم للطعان وإسماحكم بمجالدة الأبطال والفرسان ليكون حظه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته وإظهار دينه بهذه الجزيرة وليكون مغنمها خالصا لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم والله تعالى ولى إنجادكم على ما يكون لكم ذكرا فى الدارين واعلموا أنى أول مجيب إلى ما دعوتكم إليه وأنى عند ملتقى الجمعين حامل بنفسى على طاغية القوم لذريق فقاتله إن شاء الله فاحملوا معى فإن هلكت بعده فقد كفيتم أمره ولن يعوزكم بطل عاقل تسندون أموركم إليه وإن هلكت قبل وصولى إليه فاخلفونى فى عزيمتى هذه وأحملوا بأنفسكم عليه واكتفوا المهم من فتح هذه الجزيرة بقتله فإنهم بعده يخذلون [4].

ويقاتل القائد طارق بن زياد فى طريقه نحو الشمال وبحلول الصيف يوقع هو وقواته هزيمة ثقيلة على الملك لذريق وقواته فى مدينة جوديليت على ريو باربيت وبذلك يصبح الباب مفتوحاً لغزو إسبانيا بشكل كامل فى العقد التالى. وتنتشر شائعات قائلة بأن هزيمة تلك الأعداد الكبيرة من القوط الغربيين تُعزى إلى انضمام الكثيرين منهم إلى صفوف المسلمين فى أوج المعركة، ويرجع ذلك إلى عدم رضاهم عن حكامهم. وينطلق طارق نحو الشمال وقد حصل على الغنائم الكبيرة. وعندما يعرف موسى بن نصير وليه فى شمال إفريقيا بالأنباء يرسل إليه طالبا شرح ما حدث. وفى اجتماع تشويه الكثير من المهانة يجدد طارق بن زياد ولاءه للأمير موسى بن نصير ويسلمه الغنائم شاملةً طاولة قوطية مرصعة بالزمرد واللؤلؤ ومعها كراسيها تساوى 200000 ألف دينار بالرغم من أن الكثير من الجنود البربر كانوا يتوقعون أن يتم توزيع مثل هذه الغنيمة عليهم.

وتصل أنباء هذه النجاحات الإسلامية شيئاً فشيئاً إلى مسامع الخليفة فى دمشق من خلال الرسل والمبعوثين. وتختلف دقة تلك الروايات وهى تخترق ربوع الخلافة. فهم ينقلون أخباراً تفصلها عن المكان آلاف الأميال وتبعد كل البعد عن حياة هؤلاء الذين يعتلون المناصب المرموقة فى ذلك المجتمع الكبير. بيد أن المعنى الحقيقى والإنسانى يصل إلى الجميع فى أحد أيام الشتاء الصافية فى دمشق فى العام 715.

يترك حدثان رئيسيان آثارهما على هذا العام فى دمشق، ينطوى الحدث الأول على الانتهاء من استكمال أعمال بناء جامع بنى أمية الكبير، أما الحدث الثانى فيتلخص فى زيارة موسى بن نصير التاريخية للخليفة الوليد بن عبد الملك. ويقدم الأمير للخليفة عدد أربعين أسيراً قوطياً من النبلاء والرسل وعدداً أكبر من تابعيهم الذين أحضرهم من إسبانيا. ووسط صيحات وهتافات الجمهور العريض من المسلمين الجدد ومواطنى دمشق يؤدى الأسرى فروض الولاء والطاعة أمام الخليفة. وتحمل هذه الاحتفالية العامة فى طياتها أصداء احتفاليات مشابهة جرت فى روما القديمة والقسطنطينية.

وبحلول عام 732 فى أقصى الغرب بعد مضى 100 عام فحسب من وفاة الرسول، صلى الله عليه وسلم، لم يستطع تابعوه أن يحكموا سيطرتهم على شبه جزيرة أيبيريا فحسب، بل وأسسوا أيضا مراكز لهم فى الأجزاء الجنوبية من فرنسا وأخضعوها لحكم أمراء الولايات المحلية. وقد تم تأسيس الكثير من هذه المراكز بواسطة حملات غزو مستقلة عن كونها قوات غزو رسمية. وفى أحيان كثيرة كان أمراء الولايات يوطدون أواصر الولاء عن طريق زواجهم من أسر النبلاء المسيحية. وبالرغم من أنه فى إسبانيا وفى جميع أرجاء الخلافة يبدو الشكل الاقتصادى والسياسى للمنطقة أشبه بكونها ولايات المدن أكثر من كونها بلاداً وأمماً غير أننا نستطيع القول إنه فى عام 732 كانت هناك مملكة إسلامية شاسعة يتمركز محور قوتها فى دمشق وتمتد من

إسبانيا فى الغرب إلى أقصى حدود منغوليا ومن جنوب فرنسا فى الشمال حتى المحيط الهندى وإفريقيا فى الجنوب.

تور، نوستريا، دولة فرنسا القديمة 732 ميلاديًّا - داخل نسيج التاريخ الضائع يوجد خيط لصراع يوصف بعدها بعدة قرون على أنه حرب بين الأديان وصدام للحضارات بالرغم من أنه فى واقع الأمر لم يكن بهذه البساطة ولا الغموض.

وحيث إن الدوافع الحقيقية للأفعال التى يأتيها الرجال يفقد التاريخُ فى كثير من الأحيان أثرَها أو يُعاد تفسيرها فى آونة أخرى؛ هنالك تبرز الرواية التقليدية لهذا الصراع وتلقى بالضوء على هاتين الحضارتين وتصفهما بألد الأعداء.

وبالرغم من أن تاريخ العالم بأسره بما فى ذلك أوربا إلى هذه القصة وحتى بعدها بفترة طويلة قد اكتسى بغمام الحرب اللامتناهية والطموح الاستبدادى والصراع الدينى فإن هذا الصراع بالتحديد سوف يكتنفه الكثير من الغموض خاصةً من ناحية الأوربيين.

فى واقع الأمر تحمل هاتان الحضارتان أصداء ذكريات حضارة الرومان كما تشترك الديانتان فى الكثير من المعتقدات والتقاليد وتعبدان إلهًا واحدًا. وعلى ذلك سوف يصبح هذا الصراع صراعًا للتحكم السياسى والعسكرى أكثر من كونه فكرة غزو ديانة الإسلام «الغربية» للديانة المسيحية «المتأصلة». بيد أن هذا التفسير الأخير المؤسف هو الذى سوف يطفو على السطح فى السنوات الألف التالية.

وهذا الخيط المرئى للصراع الحتمى القادم يمكن اقتفاء أثره ليعود بنا إلى سلسلة من المعارك حدثت فى أول الزمان.

وتأتى هذه اللحظة المأساوية لأول اتصال وسوء فهم يحدث بين الحضارتين.

ويبدأ الجيشان فى الاقتراب من بعضهما البعض.

فقرب نهاية أحد أيام الخريف الباردة المبشرة بمجىء الشتاء على عجل وفى هذا المكان الذى يشهد الكثير من التطورات، والذى كان يُعرف فى يوم من الأيام باسم مدينة جول الرومانية تبدو الأرض أشبه بقطعة من القماش متعدد الألوان والأشكال من الإقطاعيات الفرنجية التى تنتشر بين منطقة أكويتين والقناة الإنجليزية وتديرها شبكة دائمة التغير من النبلاء تربطهم علاقات من التحالف المتوتر أو الصراع. يسود هذه الفترة من الزمان جو من الظلام والاضطراب والخوف واقتناص الفرص.

ويكسو الظلام الدامس السماء أيضًا منذرًا بالسوء أما الغابات فتغطيها الأوراق المتساقطة والمبتلة بكثافة وها هى ذى الحقول قد تحول لونها إلى البنى بفعل عمليات الحصاد.

أما تور المدينة الرومانية القديمة، والتى أصبحت مستقرًا لضريح القديس مارتن فتبدو كالقرية المتضخمة التى يعزز اقتصادها الزيارات الدينية التى يقوم بها الناس إلى الضريح. فالزوار الذين يأتون كى يبجلوا القديس المتوفى يقدمون قرابينهم ويصرفون أموالهم ويزاولون أعمالهم التجارية فى هذا المكان. فالدين هنا يخلق فرص العمل.

وفوق كل ذلك ومن بعيد، يخيم الصمت على المكان ويطغى صوت الرياح والرعد والطبيعة على أصوات أعمال البشر وضجيجهم. فالطبيعة مازالت لها اليد العليا فى ذلك المكان. ويجرح هذا المشهد الريفى خيوط الدخان التى تنبعث من مداخن الأكواخ الصغيرة والإضاءة الخافتة التى تخرج من نوافذ بيوت القرية. وتذهب أصوات ثغاء الخراف والماعز وقوقأة الدجاج أدراج الرياح.

وبالرغم من أن بعض أساليب وأشكال الحياة فى هذا المكان يغلب عليها الطابع الفرنجى فإن النموذج المثالى الذى يسعى الجميع إلى تحقيقه هو الرومانى. وبالرغم من أن الرومان قد أتوا إلى هذه البلاد بفيالق جيوشهم ورماحهم فى العام 55 قبل الميلاد فإن الغاليين ظلوا على ولائهم للحكم الرومانى حتى بعد مضى وقت طويل على سقوط الإمبراطورية الرومانية، فلا يزال خلفاؤهم فى القرن الثامن يقلدونهم وكأنهم بذلك سوف يستطيعون إعادة إمبراطوريتهم إلى الحياة مرة أخرى. ولِمَ لا؟ فالإمبراطورية الرومانية بهياكلها وبنيانها قد جلبت معها النظام ورسمت خريطة المكان كما فعلت مع العشرات من الحضارات والأمم التى خضعت لها. وحتى فى الأعوام الأخيرة لتلك الحضارة الغربية اعتنقت الحضارة الرومانية الديانة المسيحية وأصبحت هذه الديانة هى ديانة الجميع تقريباً.

ويتجلى صدى الحضارة الرومانية فى لغة حديث أخلافها حتى بعد مرور المئات من السنين. وفى هذا الجزء من أوربا بالرغم من أن اللغة اللاتينية تتغير وتأخذ شكل لغة جديدة فإن جذورها تعود إلى لغة الإمبراطورية الرومانية الجديدة أكثر من اللغات الجرمانية من الشمال والشرق.

وذلك الرجل الأجنبى الذى يلاحظ كل ذلك لا يتحدث اللغة المحلية هذه ولا اللغة اللاتينية، لكنه قد سمع الكثير من اللغات الأجنبية منذ يوم ولادته، سمعها أولًا فى سوق الميناء باليمن حيث نشأ وترعرع، سمعها فى حديث البيزنطيين والفرس والإثيوبيين الذين يزاولون أعمال التجارة هناك. وكصبى تربى تحت شمس الصحراء الحارقة وساحل الجزيرة العربية الجنوبى الصخرى نمت لديه حاسة تذوق الأشياء البعيدة.

اسمه عبد الرحمن الغافقى وهو الآن أمير الأندلس الذى يقود المعركة مع الفرنجة. وعندما يفكر فى الطريق الطويل الذى قطعه منذ أن كان صبيًا فى اليمن يتساءل هل ما فيه الآن مجرد حلم؟

منذ زمن بعيد استمع إلى حكايات عن الرومان، كانت تلك الحكايات غريبة

ورائعة لدرجة لا تصدق. سمع عن القسطنطينية وسمع عن سقوط مدينة روما نفسها وسمع أيضًا أن أعداد المسيحيين حول العالم تفوق أعداد المسلمين.

والآن بعد أن أصبح رجلًا وتبعده كل تلك المساحات الشاسعة عن موطنه يبدو كل شيء وكأنه ضَرْبٌ من الخيال فهو يرى الآن أراضى كل هؤلاء الذين لمحهم كصبى. وها هو وقد جذبه كليةً توهج هذه الحضارة واندفاع القوات العربية إلى الشمال خارج موطنها. وقد شق طريقه أولًا نحو تونس ومنها إلى المغرب حيث تعرف على أمراء المسلمين الجدد فى إسبانيا الأندلسية. وفى عام 730 يجعله الخليفة الأموى فى دمشق أميرًا على قرطبة.

لقد خرج من ظلمات الغموض كى يصبح أقوى حاكم على الإطلاق فى هذا الجزء من العالم. واستكمالًا لأداء واجباته يجد نفسه فى أراضى المسيحيين الفرنجة وسط مكان تكسوه مساحات خضراء رائعة وأراضٍ رطبة وغابات لا حدود لها تسكن فى ثناياها أنواع الحيَّات البرية التى لا حصر لها. وبالرغم من أن البيئة التى يحيا فيها البشر هناك تعتريها البدائية والفقر فإن الطبيعة المحيطة ثرية وآسرة.

ويعتبر عبد الرحمن الغافقى نفسه محظوظًا لكونه قد مُنح هذه الفرصة للبحث والاكتشاف، فلطالما شعر إبان حياته فى اليمن أنه ولد كى يهيم على وجهه. والآن يحصل على راتبه لقاء البحث والاكتشاف.

أما الجزء الثانى من مهنته فينطوى على حكم الإمارة الأندلسية وحمايتها. ومن ثم فعندما يتمرد أحد الأمراء المحليين فى إمارة ناربورن الفرنجية الجنوبية ويتحالف مع الكونت المسيحى إيود من الأكواتيين، يبدأ الغافقى فى التصرف على الفور لكسر حلقات هذا التحالف. وعندما استطاع نفس هذا الشخص المدعو إيود هزيمة قوة أندلسية أرسلها الأمير لتأديبهم فى المدينة الفرنسية تولوز بدا أن المشكلة قد باتت تشكل تهديدًا أكبر.

وهكذا تم سحب عبد الرحمن الغافقى بعيدًا إلى الشمال وهو الآن هنا فى محاولة لوضع نهاية للمتمردين وللتهديدات الأجنبية على الحدود الشمالية للإمبراطورية الإسلامية.

والغافقى لا يعرف حتى اسم قائد الجيش المضاد ولكن الأمر لا يهم فهذا اليمنى يعرف تمام المعرفة أن عدد جيشه يفوق كثيرًا ما يمكن أن يتحمله الفرنجة. كما أنه يعلم أيضًا وسائلهم فى القتال، فبخلاف الإسبان العرب لايوجد لدى هؤلاء خيول ولا سلاح فرسان، فأسلحتهم البسيطة ودروعهم الخفيفة تشبه إلى حد كبير الأسلحة التى تركها جنود المشاة الرومان منذ قرون مضت، وهى عبارة عن خوذة من الحديد وواقٍ للرقبة وحامل للرماح وأقواس وسهام وترس واقٍ بسيط يمتد من الصدر وحتى الفخذين، لكن الجنود الذين يجبرون على الحرب كمشاة ينبغى أن يحملوا ما هو أكثر من ذلك، ولكن غياب التكنولوچيا فى ذلك الحين لم يسمح لهم بحمل ما

هو أكثر من ذلك. ويُخمن الغافقى أنه اليوم خارج مدينة تور لا يتعدى عدد الجنود الفرنجة 15000 جندى.

أما الفرنجة فيرون الأمر من وجهة نظر أخرى فهم يعرفون أنه هناك جيش منظم وعظيم قد أتى إليهم من الشمال الغربى، جيش من عالم آخر بالتأكيد. ولكن ما هو أكثر غرابة هو أن ما يرونه يبدو أشبه بالرومان، ولكن كيف لهم أن يدركوا ذلك؟ إن هؤلاء القادمين هم بالفعل أشبه بخلفاء الرومان أو هم ممن يطمحون أن يعلوا علو الروم. لكن هذا الجيش فى تقدمه الفخيم الذى يوقع الخوف والرهبة فى قلوب من يراه لم يكن بأى حال من الأحوال أقل من جيوش الرومان التى اعتادت أن تبث الرعب فى القلوب وهى تزحف من الشمال من جبال الألب كى تقهر قبائل البربر فى الأجواء قارسة البرودة منذ 700 عام مضت.

وتلك القوة القادمة تجاه الفرنجة ما هى إلا فرع صغير من كيان هائل يمتد الآن من صحراء الجزيرة العربية مارًّا بمدن بلاد فارس الأسطورية والحدود الشمالية للهند فالدول التى تم حصدها فى شمال إفريقيا وأراضى البحر المتوسط هى التى تمخض عنها العصران البيزنطى والرومانى.

والقوة التى أتت من الجنوب الغربى ما هى فى النهاية سوى واحدة من جيوش عظيمة تعمل على امتداد 4000 ميل عبر الكرة الأرضية، وهى عبارة عن غارة محلية وقوة لتحقق استتباباً واستقرارًا فى الأوضاع، وهى تقوم بإبلاغ الأنباء إلى القائد الدينى والسياسى الأكبر فى دمشق خليفة المسلمين عبد الملك.

إن هذا الجيش الزاحف الذى يلقى بالرعب فى القلوب ليس جيشًا محتلًا يهدف إلى غزو وطرد المملكة الفرنجية وإجبار الجميع على اعتناق الدين الجديد، بل على العكس هو قوة تستهدف الهجوم العسكرى التكتيكى وتقوم ببعض أعمال السلب التقليدية وتثبط معنويات أنصار وحلفاء أمير ناربورن الخائن وحليفه إيود.

ولكن جيش الدفاع الفرنجى لا يعرف شيئًا عن ذلك فلقد تنامت إلى علمه قصص مغالى فيها تحتبس لها الأنفاس عما حدث جنوباً وهم يرون الآن أن دورهم قد جاء.

وهؤلاء الغزاة الجدد لا يختلفون عن الرومان فهم أصحاب جيوش جرارة ومتعددة الجنسيات والألسنة. وداخل صفوف هذه الجيوش يوجد الجنرالات والجنود الذين أتوا من أراضٍ بعيدة، وبعضهم مغامرون من بلاد الفرس مر على اعتناقهم ديانة الإسلام ـ بعد أن كانوا من أتباع دين الزرادشتية ـ عقد واحد لا أكثر. كما يحتوى الجيش على عرب من الجزيرة العربية ويمنيين وبربر من شمال إفريقيا ومسيحيين إسبان امتصهم المجتمع الإسلامى ويتعلمون كيف يتحدثون العربية ويهود من المهجر.

أما الفرنجة فلا يعرفون سوى جانب القصة الذى حكاه لهم إيود. ولأجل حماية أكواتين والحفاظ على استقلاليته بعيداً عن الفرنجة، عقد إيود تحالفًا مع الأمير المحلى

لمدينة ناربورن. ولقد سارت الأمور على ما يرام لفترة ثم أعلن الأمير استقلاله عن الأندلسية وهذا ما دفع الجيش الغازى للحضور.

وهم يعلمون تمام العلم أن طريقة تعامل الأمير الأندلسى مع الأعداء والخونة بسيطة تتلخص فى أن يسحقهم بقوة قاهرة. كما سمعوا أن الغافقى فى طريقه نحو الشمال وقد حاول تثبيط همة العدو بحرق الكنائس والبلدان ونهب القرى وتدمير مدينة بوردو والاستيلاء على الجزء الأكبر من الحصاد لإطعام قوافل الجيش التى يصل عددها إلى 60000 أو ما يزيد. ويسمعون أن فرق الاستطلاع قد أبلغته بضريح القديس مارتن المترف فى تور. وهذا يعنى أن الكثير من الغنائم فى انتظار من يقتنصها. كما سمعوا أن هذا الأمير هو مقتنصها ما لم يوقفوه.

ويتساءل سكان القرية وفقراؤها المسيحيون عن شكل هذه القوة المتقدمة نحوهم. ويشاهد الفرنجة عدداً كبيراً من الخيول بقدر ما يشاهدون عدداً كبيراً من الرجال وعدد الاثنين أكبر من عدد أى شىء شاهده هؤلاء القرويون فى حياتهم. وتصل القلوب إلى الحناجر بفعل أصوات حوافر الخيل وقعقعة الأسلحة وصهيل الخيل والأنشودة التى يرددها الجنود من حلوقهم باللغة العربية. لم يسمع أهل المكان صوتاً مثل هذا من قبل. وعلى ظهور الخيل برز أول جنود مدرعين فى تاريخ أوربا، أول سلاح فرسان مدرع كأنما رؤيا تنبئية تطل عليهم من الكتاب المقدس.

وسوف يضيع بين صفحات التاريخ حقيقة أن المثل الأعلى للأساطير الأوربية، وهو الجندى المدرع الذى يمتطى جواده بأسلحته ومناوراته الحربية، ما هو إلا نموذج محاكٍ لهذا الغازى الأجنبى المهيب كما أن فكرة الجنود الذين يمتطون الخيول بدروعهم وأسلحتهم هى فى الواقع أحد الابتكارات التى أتى بها المسلمون إلى أوربا.

وسوف يوضح كتاب «**تاريخ ضائع**» أن نقل المسلمين لأساليبهم وأفكارهم وتكنولوجياتهم لأوربا عملية ستستمر فترة 800 عام وتتم من اتجاه واحد فحسب غير أنه فى كثير من الأحيان سوف يتم إغفال جانب نقل التكنولوجيا هذا والتركيز على الصراع بين الأديان فقط.

وينظر الفرنجة الفقراء المرعوبون من مخابئهم نحو الجنود المسلمين المكتسين بالحديد المصنوع فى أفران طليطلة وتتأرج سيوفهم التى تم سبكها فى مسباك الحديد فى دمشق. وتغطى هؤلاء الجنود أثواب وسترات ويمسكون بأعلامهم الخضراء المرفرفة ودروعهم تلمع فى المكان. ويبدو المشهد، فى أعين الفرنجة، ليس بمشهد جيش مهيب عظيم فحسب بل يبدو أشبه بقوة من قوى الطبيعة.

وبينما يعصف القلق بنفوس الفرنجة وقائدهم الواثق من قدراته شارل ويحاولون جاهدين وضع الخطط الحربية المناسبة لمواجهة هذا العدو الرهيب، لا تساور الغافقى أى شكوك اللهم سوى بعض الأمور العسكرية المعهودة التى

تدور بخَلَده فى بداية أى معركة مع عدو أضعف بمراحل منه. فالغافقى بعيد عن قواعده ويبذل جهوداً جهيدة حتى يطعم جيشه ويمده بالعتاد والشتاء على الأبواب. ورجاله قادمون من الجنوب، كما أنهم لا يرتدون الملابس المناسبة لمواجهة البرد والأمطار. ويندم الغافقى على أن سعيه وراء إيود قد دفع به دفعاً حتى أتى إلى هذا المكان. وبالرغم من كل ذلك فسوف يستخدم الغافقى أسلوبه المعتاد فى اكتساح العدو وهزيمته. وإن لم يتوقف الفرنجة عن مقاومتهم ويؤدون له وللخليفة فروض الولاء والطاعة فسوف ينزل بهم العقاب.

أما شارل فلديه خطة مختلفة وبعض الخدع فى جعبته فبدلاً من أن يسمح للعدو بتحديد إطار المعركة فسوف يحددها هو وقد زحف إلى هذا المكان متجنباً الطرق التى شيدها الرومان من أجل أن يتجنب رؤية أى من قوات الاستطلاع الإسلامية. وبعد قطعه لهذه المسافة الطويلة دون أن يلمحه أحد يستطيع الآن أن يرسى قواعد جيشه فى الغابة ويستفيد من وجود الأشجار ويشكل رجاله على شكل كتيبة، وهو تشكيل المشاة التقليدى ذو الجوانب الأربعة، والذى صممه الإغريقيون منذ أكثر من ألف سنة مضت وتبناه وتفوق فيه الرومان.

ولا يحوز الفرنجة أية خيول أو جنود مدرعين غير أن الخوف والدافع الكبير يملؤهم كى يدافعوا عن عائلاتهم وموطنهم. بالإضافة إلى ذلك فهم ينظرون إلى المعركة باعتبارها معركة دينية، معركة لحماية الديانة المسيحية من مقاتلى هذا الدين الجنوبى الجديد. وبالفعل هناك الآن اختلاف شديد بين القوتين وفى منظورهم لبعضهم البعض وفى أهمية هذه المعركة القادمة. بالنسبة للفرنجة يبدو الأمر أشبه بالكابوس فالمعركة لهم ليست مسألة حياة أو موت فحسب بل هى كفاح للدفاع عن المسيحية.

أما بالنسبة للأندلسيين والعرب المسلمين وجيشهم فليس للأمر نفس القدر من الأهمية. وحيث إن جيشهم يحتوى على ديانات وأجناس متعددة فلا يشوب هذه المعركة أى صبغة لدين أو قبيلة. وحيث إن هذه القوة موجودة لتوجيه ضربة تكتيكية أرسلتها إمبراطورية تبعد 4000 ميل فالمسألة ليست مسألة حياة أو موت إلا على المستوى الشخصى فحسب.

وعلى الورق تبدو خطة شارل عقيمة بشكل كبير، فجنود المشاة لا يستطيعون أبداً هزيمة سلاح الفرسان، وهذا ما أثبتته المعارك واحدة تلو الأخرى، وخاصة إن كان سلاح الفرسان هذا يتكون من المسلمين المدرعين الذين سوف يستخدمون سيوفهم فى قطع رءوس الجنود المشاة الذين يقفون بدورهم على ارتفاع خفيض. وكى يتسنى لشارل التغلب على مثل هذا العيب الخطير يقرر أن يختار هو مسرح المعركة كى يستدرج العدو الذى يمتطى الخيول إليه فى مكان يمثل نقطة ضعف كبيرة لمثل هذا العدو حيث يرتفع مستوى التربة وتتكاثف الأشجار.

وهكذا ينتظر شارل العدو داخل هذه الغابة بالقرب من منطقة لوار. وفى نفس الوقت ينتظر الغافقى الخبر اليقين من فريق الاستطلاع. ووسط هذا الجو الخريفى

المظلم الكئيب المبلل بمياه المطر ينتظر الأمير على مدار ستة أيام خروج الفرنجة من الغابة. والغافقي ليس بالأحمق فهو يعرف أن شارل قد غير من ميزان القوة بعض الشيء وتراوده فكرة تجاهل شارل أو حتى العودة إلى الجنوب.

بيد أن ذكاء الغافقي قد خانه بعض الشيء هنا حيث إنه افترض أن القوة والتكنولوجيا الأندلسية الكاسحة والأعداد الجرارة للجيش وسلاح الفرسان والركاب تعطيه ميزة لاتمكن أحدًا البتة من مهاجمته. ومن ثم فلم يُقدر عدوه حق تقديره كما أنه لم يكن يعرف أن شارل هذا قد اشتهر بالتغلب على أقوى الأعداء بحيلته ودهائه.

حتى شارل نفسه بدأ في مراجعة نفسه، فقد وافق على مقترح إيود مقابل إذعان هذا الأخير له، كما كان يرغب في حماية ضريح القديس مارتن. وفي واقع الأمر كان صيت شارل قد بدأ يذيع بفعل حمايته للمسيحية في أوربا، وهكذا بدأ يخطو أول خطوات له نحو بناء إمبراطوريته. وفي نفس الوقت كان البابا جريجوري الذي لا حول له ولا قوة قد ناشد شارل من أجل حماية المدينة المقدسة روما من اللمبارديين:

من البابا جريجوري إلى الابن المعظم شارل:

في خضم بلائنا العظيم رأينا أنه من الضروري أن نكتب إليك مرة ثانية، فنحن نؤمن أنك ستهرع لحماية كنيسة الرب وشعبه المختار حيث إنك من أولياء القديس بطرس أمير الحواريين ومن مبجليه ومن محبينا. فنحن لم نعد نستطيع تحمل طغيان واضطهاد اللمبارديين لنا، فقد أخذوا كل ممتلكات القديس بطرس حتى تلك الهدايا التي قدمتها له أنت ووالدك. إن اللمبارديين يكرهوننا ويظلموننا؛ لأننا طلبنا حمايتك ولنفس هذا السبب قد نهبوا الكنيسة وخربوها. ولقد أرسلنا سردًا تفصيليًا للويلات التي عانيناها مع أحد رعاياك المخلصين رسولنا الحالي. وأنت أيها الابن الوفي سوف تتنزّل عليك النعم والهبات من أمير الحواريين الآن وفي المستقبل بمباركة من الرب في حال إرسالك النجدة سريعة لكنيسة الرب ولنا، وبهذا سيعرف الجميع إيمانك وحبك وهدفك الأسمى وأنت تهرع للدفاع عن القديس بطرس وعنا وعن شعب الله المختار. كما أنك إن فعلت ذلك فسوف تحظى بالشهرة الأبدية على الأرض والحياة الأبدية في الجنة دار الخلود.

وبهذا فإن شارل لا يحمي ضريحًا فحسب، ولكنه يشعر وكأنه مسئول عن المسيحية الأوربية برمتها، وفي هذه المرة فهو يحميها من عدو أقوى بكثير من اللمبارديين. ولقد سمع عن القائمة الطويلة من ملوك القوطيين الغربيين الذين تم تدميرهم

أو الإطاحة بهم. ففى أثناء فترة حياته القصيرة على الأرض فى هذا الجزء من العالم استولى العرب الأندلسيون على إسبانيا وأجزاء من فرنسا. فهؤلاء المسلمون لديهم الدروع العظيمة ولديهم الخيول، كما أنهم يتفوقون من ناحية العدد وقادة الجيش، وهم يرسون بسفنهم على السواحل الجنوبية لفرنسا، فهم بالفعل متقدمون.

وتأتى اللحظة الحاسمة ويشعر الغافقى الآن بالبرد والعصبية وشىء من عدم الارتياح ويطلب الحماية من الله العلى العظيم، ويطلب من الله أيضًا أن ينصره هو ورجاله على أعدائه كما نصر رسوله يوم فتح مكة. ويرسل الغافقى الخيالة إلى الغابة وينطلقون نحو الكتيبة. وتتطاير السيوف والفئوس والسهام فى الهواء وتتعالى الصرخات والصيحات والهتافات باللغات المختلفة وتصلصل الرماح والفئوس عند اصطدامها بالدروع. ويسقط رجال من الفرنجة والأندلسيين ولكن ليس بأعداد كبيرة. ويخترق الأندلسيون مربع الكتيبة عدة مرات ويدخلون شارل فى دائرة من الشك، لكنهم لا يستطيعون الاقتراب أكثر من ذلك. ويقع المسيحيون قتلى كما يقع المسلمون. لكنّ حراس شارل يستمسكون بأماكنهم ويطردون الأندلسيين ويصدونهم المرة بعد المرة.

ويصف المعركة أحد كتب التاريخ الإسبانى المجهولة:

ووسط فجاعة المعركة بدا رجال الشمال أشبه بالبحر الذى يستحيل تحريك جنباته. فقد وقفوا بثبات مصطفين جنبًا إلى جنب يشكلون ما يشبه الجبل الجليدى وبضربات سيوفهم الهائلة أسقطوا العرب صرعى. التف الجيش كشريط متين حول قائده وحمل رجاله الأوستراسيون قلوبهم فى أيديهم. وأغمدت أيديهم التى لا تكل ولا تمل السيوف فى صدور العدو.

ويستمر الوضع كما هو عليه لفترة من الوقت وتتعادل قوة الجيشين، لكن هذا يمثل انتصارًا مؤقتًا بالنسبة لشارل، ولكنه يعلم تمامًا أنه لن يستطيع الحفاظ على انتصاره لفترة طويلة. فحيث يعد الفرنجة محبوسين فى شكل مربع داخل الغابة يتمتع الأندلسيون بعنصر الوقت.

ويتحير الغافقى بفعل نتيجة المعركة الأولية ويتحرك إلى الأمام ليرى المشكلة عن كثب ويفكر فى كيفية اختراق مربع الكتيبة. وينتابه إحساس بالغضب فهو لا يكاد يصدق كيف لتشكيل من المشاة الإغريقيين أن يتصدى لأعظم سلاح فرسان فى العالم. إنه بالتأكيد سوف يسجل هذا فى بيان يومياته لهذه الليلة.

وبعد مضى ألفية على هذا العهد سوف يدرك واضعو استراتيجيات الحروب ما الخطأ الذى وقع فى تلك الليلة. فمخططو الحروب ممن لهم خبرة بنفسية الخيول يعرفون أنه ما من حصان بوسعه أن يخترق صفًا من الرجال من حاملى التروس.

فهذا المشهد يبدو مخيفًا بالنسبة لها، كما أنه يثير الرعب لديها. وحيث إن هذه الخيول مدربة منذ ولادتها على طاعة سيدها فلن يهاجم الحصان أبدًا خياله. ويزيد من مخاوف الخيل اختراقه لمكان لا تبدو فيه مساحات واضحة لموطئ القدم ويزيد الطين بلة وجود عوائق من الأشجار.

وتبدأ فصول الخدعة فى الانكشاف شيئًا فشيئًا، فبينما يسدل الليل ستاره على هذا اليوم الخريفى يستطيع شارل هاهنا أن يرسل فريقًا من الاستطلاع إلى ظهير الجيش الأندلسى كى يطلقوا سراح الأسرى من الفرنجة وينشروا شائعة سرقة الأسرى المحررين لغنائم الجيش التى جمعها إبان حملته.

ويتسبب هذا فى ترك بعض الجنود الأندلسيين لمواقعهم كى يعودوا إلى أماكن المؤن ليستطلعوا ما يحدث. وهكذا تسود شائعة قائلة إن الجيش يتقهقر فيتبع الجيش هؤلاء الذين يتراجعون إلى الوراء. ووسط هذه الفوضى يكون الأمير العظيم عبدالرحمن الغافقى فى الصفوف الأمامية، بعيدًا عما يحدث، يجاهد كى يعيد السيطرة والاتصال بالجيش الآخذ فى التراجع. وفجأة يجد نفسه منعزلًا بعيدًا عن الجيش ويحيط به رجال شارل ولا يوجد معه أى من رجاله. والأمير لديه الخبرة، ومسلح بشكل مناسب، ويحارب بشجاعة الجندى مثله مثل شارل ولكن بعد ثوان معدودة يقهره رجال شارل ويخترقون حصانه بالرماح ويسقط الحصان ويسقط الغافقى هو الآخر.

وبعدها يقتل الغافقى حيث تخترق سنون الرماح الفجوات القليلة الموجودة فى درعه وتنتاب الأخير حالة من الذهول تمنعه من النضال. وهكذا تندفع الدماء خارجة من جسده ويتلو دعاءه الأخير ويموت الأمير الصلب وهو فى خدمة الخليفة. وبعد أن كان يتوقع أن يفوز بسهولة بهذه المعركة هاهو يسقط شهيدًا.

وتنتشر أنباء مقتل القائد بين الجيشين انتشار النار فى الهشيم. لقد سقط الأمير الباسل المهيب؛ سقط أمير الأندلس، سقط عبد الرحمن الغافقى. ويشعل هذا النبأ حماسًا مؤقتًا لدى الفرنجة ويوقع الصدمة فى قلوب الأندلسيين. ولكن مع هول اللحظة ينتاب الأمر الكثير من الغموض لكل من الجيشين. وعندما يعود الجنود الأندلسيون إلى ظهير الجيش يجدون الغنائم لم يمسسها سوء فيدركون ساعتها أنهم وقعوا فريسة لخدعة مما أوقعهم فى مأزق وتسبب فى موت قائدهم الأمير العظيم. ولكن لا يزال لدى الغزاة جيش جرار فضلًا عن الكثير من البأس والقوة التى أتوا بها معهم إلى المكان. ويشعرون فى هذه اللحظة بالحرج والغضب ويرغبون فى الانتقام.

وبالرغم من هذا الانتصار المؤقت الذى حققه الفرنجة فإنهم لا يزالون غير متيقنين بعد مما يحدث. ويحل الظلام ويستغرق الفرنجة فى نوم متقطع فهم يتوقعون أن يستأنف القتال فى اليوم التالى. ويتساءل شارل عما إذا كان جيشه يتحمل موقعة أخرى ومبلغ طاقة التحمل هذه.

وعلى الجانب الآخر فى الحقول المبتلة المظلمة ما بعد الغابة تختلف الأحداث الدائرة بين الجنوبيين ويحدث ما هو غير متوقع. فجيش الأمير الصريع لايزال سليماً لكنه مهتز. فالمسألة لا تخرج عن كونها تعييناً لقائد جديد وإعادة تقييم لاستراتيجية الحرب، إما الإغارة المفاجئة على موقع شارل، وإما مهاجمته مباشرة.

وتظل مشكلة صغار القادة داخل الجيش الأندلسى هى اختيار قائد واحد ليقود الجيش ويتجادلون فيما بينهم خلال ظلمات الليل حول هذه النقطة. فالغافقى وحده هو من كان له السلطة المطلقة والتكليف من الخليفة فى دمشق ولم يخول أحدٌ آخر مثل هذه السلطة من الفرس أو البربر أو اليمنيين أو الإسبان أو العرب وهكذا تتفكك قطع النسيج المتداخلة وتغيب القيادة.

تضعف معنويات جيش شارل مع بزوغ شمس اليوم التالى ويتراءى أمامهم بحر من خيام الخليفة السوداء. لم تتحرك تلك الخيام قيد أنملة عن مواقعها فى اليوم السابق وهذا ينبئ باندلاع معركة أخرى. لكن لا يحدث شىء ولا يتحرك شىء ساكن. ولايظهر أى من جنود الأعداء. وتذهب فرق الكشافة وتبلغ الجيش بأن خيام الغزاة خالية تماماً.

ولأول وهلة ينتاب شارل شعور بالخوف، ويحس أن فى الأمر شبهة خدعة؛ ربما كمين كى يردوا على حيلة الأمس. ترى أين اختبأ العدو؟ هل سوف يكتسحون المكان بعد الظهر أو ربما فى الليل عندما يخرج الفرنجة من بين الأشجار. ولكن فرق الاستطلاع تعود لتؤكد أنها جابت المكان كله لكنها لم تجد شيئًا. لقد اختفى الجيش الأندلسى بين ظلمات الليل. وفاز الفرنجة بالمعركة. وهزم جيش شارل ذو العدد القليل والمعدات البائدة جيش الغافقى الرهيب الذى انسحب رجاله ليلًا لأنهم لم يستطيعوا أن يعينوا قائداً لهم. أما بقية القصة فتسقط ما بين صفحات التاريخ.

ومما لاشك فيه أن هذا الانتصار الفرنسى المفاجئ سوف تكون له آثار فورية فشارل لن يضيع أى وقت فى استيعاب التقنيات العسكرية المتفوقة للعدو. وسوف يجرد هو ورجاله؛ الجنود الأندلسيين المنهزمين من دروعهم وسيوفهم ومتاريسهم وركابهم. وبعدها بأيام قليلة يبدأ شارل فى تكوين أول سلاح فرسان أوربى مدرع، ويستخدم هذا الجيش فى محاربة المسلمين بعد هذه الموقعة بخمس سنين فقط فى ناربورن جنوب فرنسا. وهكذا يصبح سلاح الفرسان الأوربى المأخوذ عن التكنولوجيا التى جاء بها الغزاة الأندلسيون هو أساس القوة العسكرية الأوربية للأعوام الـ 500 المقبلة.

كما أن فترة توقف الحرب هذه ستحول شارل مارتل إلى هذا القائد المهيب الذى سوف يطلق عليه رجاله لقب «المطرقة» فيما بعد. كما سيجعل شارل وورثته الحرب على المسلمين أحد المهام الرئيسة للجيش الأوربى. وفى يوم من الأيام سوف يذهب ابن شارل وخليفته إلى بيبن الثالث؛ البابا الفزع فى روما ويجادله بأنه حيث إن القوة الحقيقية لأوربا تكمن فى أيدى عائلة شارل فينبغى تنصيبهم ملوكًا

على فرنسا. ويقبل البابا الذى يتلهف للحصول على أى قدر من الحماية العسكرية بهذا العرض ويتوج أسرة كارولينجيان أسرةً حاكمةً. وبهذا تزرع بذور مستقبل أوربا الحديثة.

وبخلاف هذه التحولات المباشرة وبمرور السنوات والقرون ستسيطر فكرة أن أحد المنعطفات الرئيسية فى التاريخ الغربى وقعت فى مدينة تور. وبالطبع لا يعرف أحد هذا فى العام 732 وذلك يرجع إلى أن المعنى المكتمل لما حدث ونتائجه لن تتكشف بسهولة داخل الحركة العظيمة والدرامية البطيئة لسير التاريخ.

أما بالنسبة لمنظور العرب والأندلسيين وحاكمهم الأموى فى دمشق فموقعة تور لن تبدو أكثر من جرس إنذار حيث إنهم فى أعقابها سيبدءون النظر إلى الفرنجة نظرة أكثر جدية وهم يحاولون إرساء قواعد الاستقرار وتوحيد جنبات إمبراطوريتهم الجديدة. كما سيبدأ قادتهم وعلماؤهم فى التركيز على عدويهم اللدودين ألا وهما البيزنطيون والفرنجة.

بيد أن الفائدة التى سوف تعود على الأوربيين ستكون أعظم وهم يعيدون صياغة النصر الذى حققوه فى المعركة إلى حملة للدفاع عن المسيحية الأوربية.

فالنظرة الغربية التقليدية تقول إنه لو كان المسلمون قد انتصروا فى معركة تور واستمروا فى الضغط تجاه الشمال والشرق لكانوا قد غزوا أوربا برمتها. فلقد كانت لهم القوة على القيام بذلك، ومن ثم ففى حالة عدم وجود شارل مارتل ما كان من قائد أو قوة لتوقفهم فى أوربا. كما يؤمن أصحاب وجهة النظر التقليدية هذه أن أوربا فى مثل هذه الحالة كانت سوف تصبح ذات ثقافة مصطبغة بالصبغة الإسلامية. كما كانت الكنيسة الكاثوليكية سوف تختفى من روما، وربما ما كانت أوربا سوف تتطور بالشكل الحالى.

ويصف إدوارد جيبون وهو من المتمسكين بالتقاليد الأوربية الوضع بعد مضى ألف عام على المعركة كالتالي:

زحف جيش جرار من الجنود المنتصرين على مسافة تفوق الألف ميل من أول مضيق جبل طارق وحتى ضفاف نهر اللوار، وربما لو كان هذا الجيش قد زحف بمقدار مسافة مماثلة أخرى لكان المسلمون قد دخلوا بولندا وهضاب إسكتلندا وعبروا نهر الراين الذى لا يمثل فى عبوره صعوبة أكبر من صعوبة عبور نهر النيل أو الفرات وربما كان الأسطول العربى قد أبحر بدون أى مواجهة بحرية إلى فم نهر التايمز. وربما كان تفسير القرآن يدرس الآن فى جامعة أكسفورد كما أن أئمة هذا المجتمع المُطَهر كانوا سيتحدثون عن قدسية وصدق الوحى الذى تنزل على سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام.

بيد أنه لا يوجد أى دليل على أن العرب الأندلسيين كانوا يرغبون فى أن يستحوذوا على أوربا كما فعلوا مع أيبيريا. وبعد أن انهزم المسلمون مرة أخرى هزيمة منكرة فى ناربون فى عام 737 على يد شارل مارتل لم يتم شن حملة أخرى. وبحلول عام 800 كان حفيد شارل مارتل شارلمان قد دفع بالجنوبيين إلى خارج فرنسا كما كان يجس نبض الأحوال فى إسبانيا.

وحتى لو قرر المسلمون أن يتوسعوا فى فتوحاتهم نحو الشمال فإن الأمور كانت ستتعقد بفعل الاضطراب المتصاعد فى الخلافة نفسها؛ تلك الخلافة التى سوف تتفكك بعد مضى عشرين عامًا فقط على موقعة تور ما بين حكم كيانين متعاديين ألا وهما الحكم الأموى المتمركز فى قرطبة والخلافة العباسية فى بغداد. هل كانت إسبانيا الإسلامية سوف تستمر بدون دعم كل من دمشق وبغداد أو كانت ستتاح لها القدرة على غزو واحتلال بقية أوربا؟

لا يمكن حل مثل هذا الخلاف. ولكن ما هو أهم من ذلك هو أنه بالنسبة للأوربيين فإن الفتوحات العسكرية العربية الشرسة والسريعة لبلاد الفرس والرومان القديمة، والتى وصلت بهم حتى وسط فرنسا كانت لهم كالصدمة ذات الوقع الشديد، ومن ثم فقد تركت وراءها جرحًا لم يندمل كليةً بالرغم من سقوط تفاصيله فى طى النسيان. بيد أن ذكرى هذا الحدث كما تم تناقله عبر 1300 عام تظل كامنة تحت السطح.

ومرة أخرى يعد الإرث الذى خلفته الأحداث التى وقعت فى مدينة تور فضلًا عن الأحداث المرتبطة بغزوات العرب فى القرنين السابع والثامن قد أرهب أوصال أوربا وشكل منظورها تجاه العالم الإسلامى. فرؤية الأوربيين للمسلمين كغزاة لا يعرفون الرحمة خلقت نوعًا من الإبهار الممزوج بالرهبة مما سوف يكون لهذا عظيم الأثر فى صياغة الكثير من الرؤى فى المستقبل. ومن هذه الرؤى أن هذا الدين الجديد يحمل أصداء الديانتين اليهودية والمسيحية غير أنه يختلف عنهما فى ذات الوقت ويضيف الكثير من التعقيدات.

وربما كانت تنبؤات المستمسكين بالتقاليد الغربية حول عواقب الغزو الإسلامى لأوربا ستتحقق لولا مقاومة شارل مارتل. ولكن بناءً على قراءة بعض أجزاء التاريخ الضائع والتى شملت الإنجازات المنسية للعصور الذهبية للمسلمين والتطور الفريد لإسبانيا الإسلامية والثقافات المختلطة الأخرى فربما كان سيثبت أيضًا خطأ مثل هذه التنبؤات. فالغزوات الرومانية والبربرية الأولى لأوربا قد تمخض عنها ولادة ثقافة جديدة كان من شأنها أن تجتاح العالم فى يوم من الأيام وتعد النموذج المثالى للثقافة. فلمَ لم يكن ليتحقق أمر مشابه بالنسبة للمسلمين؟

وبناءً على الغوص بين صفحات التاريخ الضائع يتضح أن العالم الإسلامى تفوق كثيرًا على أوربا المسيحية فى المجالات الاقتصادية والفكرية والتكنولوجية

لفترة تصل إلى 700 عام بعد أحداث تور. وعلى هذا ألم يكن ليتحقق نفس التفوق والتقدم فى كل من فرنسا وألمانيا وإيطاليا وأماكن أخرى لو كان المسلمون قد حكموها؟

ويعد أبلغ دليل على ما سبق أنه بالرغم من هزيمة المسلمين فإن أفكار وأساليب وأشكال العالم الإسلامى قد أثرت على العالم الغربى غير الإسلامى. بيد أنه بسبب سمو هذا الأثر وعدم تجليه بشكل صريح وضياع أجزاء من هذا التاريخ أصبح هذا الأثر يُعزى لأسباب أخرى غير المنبع والمصدر الرئيسى لها. ولكن مع مرور ردح من الزمان والنظر إلى الصورة الكبيرة من بعيد يمكن القول بأن أفضل نتاج للفكر الإسلامى ومخترعاته وفنونه نجح فى الذوبان بطريقة دائرية داخل الغرب.

وسوف يحدد الانجذاب الأوربى للتكنولوچيا والفكر الإسلامى والخوف فى ذات الوقت من النفوذ والدين الإسلامى ملامح العلاقة بين الأوربيين والمسلمين حتى عصر النهضة وما بعده. ولن يتغير الأمر حتى تصبح أوربا هى الإمبراطورية العالمية العظمى فى القرن السادس عشر وحين يأفل نجم العصور الذهبية للإسلام. كما أن إعادة صياغة التاريخ من منظور أوربى بحت سوف يقوض من عظمة العصور الذهبية الإسلامية، ويُعزى الفضل للأوربيين فى ابتكار علوم الرياضيات والفلك والطب والعلوم والتكنولوچيا والسياسة والإنسانيات والمجتمع المتعدد.

وبالنظر من خلال عدسات التاريخ الضائع فمعركة تور لا تمثل صدمة للأوربيين فحسب ولكنها أيضًا بمثابة هدية فريدة حصلوا عليها. فالأوربيون بقيادة شارل مارتل وبعده شارلمان فعلوا ما هو أكثر من مجرد استخدام الحدث كدليل على وجود تهديد أجنبى حفز عمليات توحيد الصفوف التدريجية بين مخلفات الحضارة الرومانية والقبائل الجرمانية البدائية ودفعت بهم نحو إشعال شرارة الحضارة الجديدة. فضلًا عن أنهم استفادوا أيضًا مما تسببت فيه معركة تور من نقل تكنولوچيا وفكر وتنظيمات ميدانية لحضارة متفوقة امتدت على مدار فترة 700 عام إلى إقليم متخلف من العالم.

ويثبت كل ما سبق حقيقة أن جنود كل من شارل وشارلمان الذين شكلوا مستقبلهم عن طريق الدخول فى حروب مع المسلمين ودفعهم نحو جنوب برينيه كانوا فى ذات الوقت من أشد المعجبين بالإنجازات الفكرية والتكنولوچية التى حققها هذا العدو. وحتى عندما كان شارلمان يحارب الأمويين فى إسبانيا بدأ فى ذات الوقت فى الدخول فى سلسلة من المراسلات الطويلة مع الخليفة العباسى هارون الرشيد فى بغداد؛ وذلك حتى يتحد معه ضد البيزنطيين.

ويعلمنا التاريخ الضائع أن هذا اللقاء القدرى بين أوربا والمسلمين كان أكثر تعقيدًا من مجرد وصفه على أنه صدام بين الحضارات أو حرب بين الأديان. فبالنسبة للأوربيين كان الأمر بمثابة الصدمة التى تستمد بعض أجزائها من قصص الأنجيل بيد أنها كانت فى ذات الوقت بداية تلقيهم للتكنولوچيا والأفكار المتفوقة التى جاء بها المسلمون.

أما بالنسبة للمسلمين العرب فكانت معركة تور هى إشارة لانتهاء مرحلة الفتوحات وبداية لاطلاق شرارة طاقاتهم نحو الاختراع والإبداع. وبالرغم من أن إنجازاتهم العسكرية كانت مذهلة عن حق فإن إبداعاتهم الفكرية كانت أكثر روعة وجمالًا.

دمشق، مركز الخلافة الإسلامية العام 661 بعد الميلاد: تنتقل أحداث القصة الآن نحو دمشق المدينة المقدسة القديمة والمكان الذى تحول فيه شارل مُعذب المسيحيين إلى الديانة المسيحية بعد أن رأى فى منامه رؤيا غيرت من سير حياته جذريًا وأصبح بعدها القديس بولس أو بولس الرسول. والآن فى الجزء الثانى من القرن السابع تبدو أسطح المدينة المصنوعة من البلاط على الطراز الرومانى والبيزنطى منتظمة الشكل وهى ترتكز على التلال السورية التى لوَّحتها أشعة الشمس الحارقة بين الشجيرات الحجرية. كما تحدد الأطر الخارجية للأراضى والمراعى جدرانًا مصنوعة من الحجارة وأشجار الأرز المصفرة بفعل الصراع الأبدى بين الحياة والموت.

وفى عام 661 تصبح مدينة القديس بولس القديمة مستقر الخلافة الإسلامية التى يبلغ عمرها الآن 130 عامًا. وهاهنا يضم الإسلام ملايين الناس وعشرات اللغات. وبخلاف مشكلات توجيه الجيوش لإتمام الفتوحات ونشر الدين تتجلى أمور يومية أكثر إلحاحًا شأن إدارة هذه المساحة الشاسعة من الأراضى فضلًا عن هذا الكم الرهيب من البشر وتحقيق الاستقرار والاستدامة لهذا المجتمع وهذه الإمبراطورية الحديثة التى نشأت بقوة الإيمان ودماء الشهداء.

وما يزيد تصاعد الأمور هو هذه التنافسية السياسية الناشئة بين عشيرتين انبثقتا عن قبيلة الرسول، صلوات الله عليه وسلامه، فى مكة ألا وهى قبيلة قريش. والعائلتان هما أولًا سلالة العباس عم الرسول، صلوات الله عليه وسلامه، وأحلافه والذين اشتهروا فيما بعد بالأسرة العباسية وثانيًا سلالة وحلفاء أقارب للرسول، صلى الله عليه وسلم، من بعيد ألا وهم بنو أمية، والذين اشتهروا فيما بعد بالأمويين.

وتجيش صدور العائلتين بالحقد والضغينة تجاه بعضهما البعض لفترة مديدة من

الزمان. وتحمل العائلتان دماء الرسول، صلوات الله عليه وسلامه، لكن العباسيين يعدون ذوى صلة مباشرة برسول الله، صلى الله عليه وسلم. أضف إلى ما تقدم أن أحد مؤسسى العائلة الأموية هو أبو سفيان، والذى كان فى ذات الوقت من ألد أعداء الرسول، صلى الله عليه وسلم، فى السنوات الأولى للدعوة واستمر كذلك حتى يوم فتح مكة. فبعد أن خسر المعركة صفح الرسول صلى الله عليه وسلم عنه وانضم هذا الأخير إلى ركب الرسول صلى الله عليه وسلم. ولكن لم ينس الكثير من أتباع سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم مقاومة أبى سفيان له.

وعندما يتم عزل آخر الخلفاء الراشدين على بن أبى طالب، رضى الله عنه، وابن عم الرسول وصهره، فى العام 661 ويعلن أحد الأمويين وهو معاوية توليه الخلافة ـ تجيش الصدور بالمزيد من الضغائن والأحقاد.



فى عام 711، تمكن طارق بن زياد من غزو إسبانيا والاستيلاء عليها ومعه قوة صغيرة من العرب والبربر وذلك لتوسيع الخلافة الإسلامية.

فبينما تبقى مكة هى الحرم الشريف تصبح دمشق مستقر ومركز الخلافة فى الإسلام. ويعتبر الناس معاوية الأول قائد الإسلام والسنيين بالرغم من أنه لم يدع النبوة. أما الشيعة فيتبعون سلسالاً آخر من الخلفاء. وفى هذه الأيام الأولى للإسلام الذى كان لايزال فى المهد، وتشوب الأمور النزعة الارتجالية يصبح لمعاوية وخلفائه نفوذ عظيم ليحكموا فى كل الشئون بما فى ذلك القضايا الدينية. بيد أن هذا لا يعنى أنهم كانوا لا يستمعون إلى آراء الآخرين فالعادات القبلية العربية كانت تنطوى على الإنصات والتفاوض والتجارة وتكوين الائتلافات والأحلاف والحفاظ على شرف العشيرة واتباع نهج صارم للسلوك.

وكى يعلنوا عن هذا النفوذ العظيم وعلو وسمو هذا الدين الجديد يبدأ خلفاء معاوية فى الحكم بناء ما يعقدون عليه النية فى أن يصبح أعظم مسجد فى الإسلام على الإطلاق غير أنهم يتساءلون فيما بينهم كيف سيبدو هذا المسجد؟ هل سيشبه الحرم المكى الشريف هذا البيت العتيق الذى يعود تاريخه إلى قرون بعيدة؟ هل سيأخذ معماره بعض الخصائص من معمار مكة والمدينة ومدن الموانى العربية وربما شكل الخيام البدوية، وبهذا يعلن هذا المسجد عن كل هذه الملامح كى تظهر جلية أمام العالم.

وإبان عملية الاختيار هذه يلجأ الأمويون إلى عباقرة وجهابذة المفكرين من داخل كل المجتمعات التى استوعبها العالم الإسلامى فى ذلك الوقت ليس ذلك بسبب قلة فى المهندسين المسلمين أو العرب، فهؤلاء لديهم الحس الجمالى الذى تشكل لديهم بفعل حضارات عتيقة وعظيمة.

وبالرغم من أن الأمويين والكثير من أتباعهم المحليين قد جاءوا رأسًا من قلب صحراء شبه الجزيرة العربية فإن المسجد الذى يقررون تشييده، والذى سوف يدوم لفترة 1300 عام ما هو إلا دليل عبقرى ومبهر على حضارة قديمة آلت إلى الفناء وعلى حضارة أخرى لم تر النور بعد ولكنها سوف تشرق بوضوح عبر ال700 عام التالية. فهذا المسجد الذى تأسس فى القرن السابع دالًا على بزوغ فجر الإسلام ومبشرًا بحلول حضارة جديدة وناشئة يقف أيضًا شاهدًا على حضارة فنيت مع الزمان كما أنه يتنبأ بولادة حضارة أخرى فى المستقبل تنبثق عن الحضارة الرومانية القديمة ألا وهى حضارة النهضة بإيطاليا.

حتى شكل هذا المسجد يبوح بصفات مشتركة بين تراث البحر المتوسط الإسلامى والمسيحى، بل إن الأرض التى يقف عليها تردد أصداء التزاوج فيها بين العقيدتين. فعندما يغزو المسلمون العرب دمشق فى القرن السابع يجدون مكان هذا المسجد الكنيسة البيزنطية، والتى سوف يحل المسجد محلها فيما بعد. كما أن يوحنا المعمدان مدفون فى نفس هذا المكان. وفى الأزمان الخوالى كان يقع مكان هذه الكنيسة المعبد الرومانى الذى تم بناؤه لتقديس الإله جوبيتر كبير آلهة الرومان. وإبان حكم معاوية خصص المسلمون مكان عبادة لهم داخل هذه الكنيسة. ويستمر الوضع هكذا لفترة 25 عامًا بعد وفاة معاوية حتى يزداد عدد المسلمين ويصبح هذا المكان لا يكفيهم البتة.

وفى عهد الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك خلال الفترة ما بين 705-715 بعد الميلاد يتم شراء الكنيسة التى يبلغ عمرها الآن قرنين من الزمان من القادة المسيحيين مع التعهد بحماية بقية الكنائس فى دمشق بالإضافة إلى بناء كنيسة جديدة باسم مريم العذراء. وبهذا يتم هدم الكنيسة القديمة، ومحلها يتم بناء المسجد الأموى بخطة معمارية جديدة وتصميم مبتكر. ويصبح الوليد بن عبد الملك مسئولًا عن إتمام هذا البناء الأموى العظيم كما يتم بناء قبة الصخرة الشهيرة فى مدينة القدس على الحرم القدسى الشريف.

وعند إتمامه ستبدو الواجهة الكلاسيكية للمسجد الأموى العظيم ذات طراز يونانى ورومانى خالص ومنقحة على الطريقة البيزنطية. أما الأقواس الدائرية الشكل، والتى سوف تصبح فيما بعد أحد ملامح المعمار الإسلامى فى إسبانيا، فما هى إلا نسخة معدلة من الأقواس الرومانية، كما أن أعمدة المسجد وتيجان الأعمدة وأعتاب الأبواب والنوافذ العليا والشكل المثلثى للأسقف كلها مأخوذة مباشرة من أثينا وروما.

وفيما يتعلق بالقبة المشيدة فى المنتصف والجزء الداخلى المستطيل الشكل ثم ذى الطرف الناتئ والنصف دائرى مع النوافذ المرتفعة فوق المصلين فيردد أصداء البانتيون أو الهيكل الرومانى. والأكثر إبهارًا من ذلك هو أن ساحة المسجد التى تم تشييدها كى تكون مكانًا لعبادة الله عز وجل لا تعكس ساحة البانتيون الرومانى المكرسة لعبادة الآلهة فحسب، ولكنها أيضًا تبشر بشكل ساحة كنيسة القديس بطرس التى سوف تبنى فى روما بعد عدة قرون بالاضافة إلى ساحات مدن عصر النهضة شأن ساحات مدينة سينيا وفلورنسا وفينيسيا.

ويبقى السؤال هو: كيف لمسجد شُيد فى القرن السابع فى مقر الخلافة الإسلامية الجديدة أن يمثل روما الفانية وعصر النهضة فى إيطاليا المستقبلية؟ هل هاتان الحضارتان المتنافستان ما هما إلا تعبير جلى عن بعضهما البعض؟

ويقدم لنا وصف عربى أندلسى فى القرن الـ 12 شكل المسجد العظيم ودمشق كالتالى:

البلدة المشهورة قصبة الشام وهى جنة الأرض بلا خلاف لحسن عمارة ونضارة بقعة وكثرة فاكهة ونزاهة رفعة وكثرة مياه ووجود مآرب وفى داخل البلد كنيسة لها عند الروم شأن عظيم، تعرف بكنيسة مريم، ليس بعد بيت المقدس عندهم أفضل منها. وهى حفيلة البناء، تتضمن من التصاوير أمرًا عجيبًا تبهت الأفكار، وتستوقف الأبصار، ومرآها عجيب، وهى بأيدى الروم، ولا اعتراض عليهم فيها.

وبهذه البلدة نحو عشرين مدرسة، وبها مارستانان قديم وحديث، والحديث أحفلهما وأكبرهما، وجرايته فى اليوم نحو الخمسة عشر دينارًا، وله قومة بأيديهم الأزمة المحتوية على أسماء المرضى وعلى النفقات التى يحتاجون اليها فى الأدوية والأغذية وغير ذلك، والأطباء يبكرون اليه فى كل يوم ويتفقدون المرضى ويأمرون بإعداد مايصلحهم من الأدوية والأغذية حسبما يليق بكل انسان منهم. والمارستان الآخر على هذا الرسم، لكن الاحتفال فى الجديد أكثر. وهذا القديم هو غربى الجامع المكرم.

ومن أعظم ما شاهدناه من مناظر الدنيا الغريبة الشأن، وهيا كلها الهائلة البنيان، المعجزة الصنعة والاتقان، المعترف لوصفها بالتقصير لسان كل بيان: الصعود أعلى قبة الرصاص المذكورة فى هذا التقييد، القائمة وسط الجامع المكرم، والدخول فى جوفها، واحالة لحظ الاعتبار فى بديع وضعها، مع القبة التى فى وسطها كأنها كرة مجوفة داخلة وسط كرة أخرى أعظم منها؛ صعدنا اليه فى جملة من الأصحاب المغاربة ضحوة يوم الاثنين الثامن

عشر لجمادى الأولى المذورة من مرقى فى الجانب الغربى من بلاط الصحن كان صومعة فى القديم، وتمشينا على سطح الجامع المكرم، وكله ألواح رصاص منتظمة، كما قد تقدم الذكر لذلك، وطول كل لوح أربعة أشبار، وعرضه ثلاثة أشبار، وربما اعترض فى الألواح نقص أو زيادة، حتى انتهينا القبة المذكورة، فصعدنا اليها على سلم منصوب، وريح الميد تكاد تطير بنا، فحبونا فى المشى المطيف بها، وهو من رصاص، وسعته ستة أشبار، فلم نستطع القيام عليه لهول الموقف فيه، فأسرعنا الولوج فى جوف القبة على أحد شراجيبها المفتحة فى الرصاص، فأبصرنا مرأى تحار فيه العقول، وتقق دون ادراك هيبة وصفه الافهام، وجلنا فى فرش من الخشب العظام حول القبة الصغيرة الداخلة فى جوف القبة الرصاصية على الصفة التى ذكرناها، ولها طيقان يبصر منها الجامع ومن فيه، فكنا نبصر الرجال فيه كأنهم الصبيان فى المحاضر [5].

وينبغى على معاوية وخلفائه أمثال يزيد (680–683) ومعاوية الثانى (683–684) ومروان (684–685) وعبد الملك (685–705) والوليد (705–715) أن يوفروا الطعام والمسكن لشعب العاصمة، وكما هو الحال دائمًا فى جميع أرجاء الخلافة الحديثة يظل الماء هو المشكلة. فالماء هو سر الحياة وأساس الزراعة ومصدر النظافة كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم. وحتى يتسنى للزراعة أن توفر الطعام لعاصمة الإمبراطورية الجديدة يأمر الخليفة باللجوء إلى استخدام وسائل حديثة للرى. وبالرغم من أن هذه الوسائل الجديدة قد تم أخذها من بلاد الفرس، فإن الحضارة الإسلامية سوف تنقلها عبر أرجائها المختلفة مع إدخال بعض التعديلات عليها. وفى يومٍ من الأيام سوف ينقلها الإسبان الكاثوليكيون إلى العالم الجديد. ويعود الفضل أيضًا إلى الدولة الأموية فى جعل اللغة العربية هى اللغة الرسمية للحكومة، كما سيغيرون الكتابة على سك العملة البيزنطية والفارسية إلى اللغة العربية.

وفى أثناء حكم معاوية الأول وتأسيسه لبيت القضاء فى دمشق وخلفائه الأربعة عشر فى الفترة ما بين 680–750 بعد الميلاد يتخذ هو وخلفاؤه بعض القرارات السياسية المصيرية. فكأبناء لمكة المكرمة وأقارب للرسول، صلوات الله عليه وسلامه، يتأكدون دائمًا من بقاء مناصب القوة والنفوذ فى أيدى العرب ومجموعة منتقاة من السوريين. أما جيوشهم التى تنطلق نحو فتح العالم فتتكون الغالبية العظمى منها من السوريين أيضًا. ومن ناحية أخرى فإن السواد الأعظم من الجنسيات الأخرى من الأجانب الذين اعتنقوا الديانة الإسلامية سواء كانوا من الفرس أو الأتراك أو البيزنطيين أو المصريين فقد كانوا فى المناصب الأدنى فى ظل حكم

الأمويين. وانتهاكًا لتعليمات الرسول، صلى الله عليه وسلم، يجبر هؤلاء على دفع الجزية حتى بعد اعتناقهم للإسلام.

أما تلك المجموعة من المسلمين الأجانب، والتى تحتل الرتبة الثانية فى المجتمع ويطلق عليها اسم الموالى فستتحالف مع سلالة الأسرة العباسية المنافسة للأسرة الأموية كما ستشترك فى إسقاط الخلافة الأموية. بعد مضى عقود على تأسيس الخلافة فى دمشق، وبالرغم من الاستمرار فى التوسع فى جنبات الإمبراطورية، وتدفق صناديق الغنائم والثروة إلى الخليفة وتمتع دمشق بأعظم فترات نموها وثرائها، فقد بدأ عبء وإدارة مثل هذه الإمبراطورية وحجمها يثقل على صدور الأمويين. وحتى الطبيعة تتحالف ضد بنى أمية وتأتى بفترة من الجفاف الشديد على سورية الجافة بطبيعتها، ومن ثم تذوى الحقول وتجف ترع الرى الجديدة. ويجبر الجفاف الأمويين على الاعتماد على إمدادات الطعام التى تأتى إليهم من أرض العراق، والتى تتمتع بوفرة فى المياه بفضل نهريها دجلة والفرات.

وهكذا يُغير هذا التحول الذى يطرأ على الزراعة والتجارة من سورية إلى الشرق نحو العراق المزيج السياسى بشكل كبير. فلطالما كانت العراق تمثل منطقة عازلة تقطع الطريق على الفرس كما أنها فى ذات الوقت تعد عتبة الباب إلى الدخول إلى بلاد فارس. وهذا يعنى أن اعتماد سورية المتنامى على العراق للإبقاء على الإمبراطورية يعتمد بدوره على مدى تعاون الفرس. وفى ذات الوقت لا يُمنح المسلمون الفرس الوضع السياسى المناسب الذى تمليه مجريات الأمور من حيث الأهمية الاقتصادية والفكرية. وهذا كله يولد المزيد من الكراهية.

وبينما تصل الخلافة الأموية إلى قمتها من حيث الفتوحات الجغرافية تُحاك المؤامرات ضد بنى أمية على مدار العقود والعقود. وتزيد حدة الأمور بفعل اشتداد قوة المقاومة من أعداء خارجيين على الأركان المترامية للإمبراطورية. ففى فرنسا ووسط آسيا وبلاد الفرس والهند الشمالية يبدأ الأعداء فى مقاومة الغزاة المسلمين وفى نفس الوقت يقاوم الرعية والمسلمون الأجانب النظام العربى الحاكم الذى تديره مجموعة محدودة من الصفوة فى دمشق. وتفشل محاولة لقلب نظام الحكم فى العام 740 بعد الميلاد، ولكن فى عام 750 يتحالف العباسيون، غرماء الأمويين، مع المسلمين الأجانب وكان معظمهم من بلاد الفرس وفى معركة أخيرة على ضفاف نهر الزاب، أحد روافد نهر دجلة، يلحقون بالأمويين هزيمة منكرة.

وفى ليلة مظلمة يباغت العباسيون من تبقى من بنى أمية ويجتاحون سورية. يدعو العباسيون نبلاء بنى أمية إلى «مأدبة تصالح». وبروح الإيمان والسماحة والسلام يطرحون فكرة إيجاد وسيلة لتطبيق نظام حكم مشترك بينهما للسيطرة على إمبراطوريتهم العالمية.

وتعقد المأدبة فى القصر الأموى ويجتمع الجميع، لكن هذا لا يعنى أن أوصال الأمويين لا ترتعد لرؤية العباسيين وهم يدخلون بأعلامهم السوداء وسيوفهم ودروعهم قلب البيت الأموى. ولكن لم يعد هناك من يقاومهم فلقد قتل خليفتهم فى المعركة واستسلم الجيش. وهذا هو واقع العالم الجديد.

وهكذا يتألف ذلك العشاء من المنتصرين والمنهزمين وفجأة عندما يبدو هذا التصالح المستحيل على وشك أن يقع ضد كل ظروف الخلاف بين الأسرتين الحاكمتين منذ عهد النبى عليه الصلاة والسلام وبينما يلعب النبيذ بالرءوس ويستمتع الحضور بالطعام فى هدوء يسبق العاصفة المدوية، يصدر أمر سرى بين الزوار وتبدأ السيوف تسل وتؤدى واجبها. ويذبح العباسيون كل رجل وامرأة وطفل فى الحاشية الأموية من طباخين إلى خدم، فالزوجات فالحريم فالأبناء فالبنات فأبناء العم فالخال فالتابعين. وفى ذروة هذا الكابوس من الخيانة تدمر الأسرة الحاكمة الجديدة الأسرة القديمة. وتحول حجرات نوم الأطفال وغرف نوم الكبار والمطابخ إلى برك من الدماء. ويسمع صوت صرخات مدوية بين جدران دمشق صرخات آلام وأوجاع ما سمع بها بشر من قبل.

ويرتعد صبيان أخوان فى مرحلة المراهقة؛ اسم الأول هو عبد الرحمن أما الثانى فاسمه يحيى، من المفترض أنهما الوارثان القادمان للخلافة، ويتحركان بين جنبات القصر المظلمة يسمعان أصوات صراخ وبكاء أمهما وإخوانهما وأخواتهما وأبناء أعمامهما وأبناء أخوالهما وفوق كل ذلك صرخات استغاثة رجال الحاشية الذين عرفوهما منذ مولدهما وهم يذبحون حتى الموت دون رحمة أو شفقة. إنها حقًا تجربة بلغت منتهى القسوة ستبعث فى قلوب الكثيرين خوفًا لا شفاء منه وحزنًا لا عزاء فيه أو غضبًا لا انتقام بعده. بيد أنه بفعل حيلة بارعة لبعض رجال الحاشية يتم تهريب الأميرين ليلًا وإطلاق سراحهما وبصحبتهما خادم واحد بلا مال ولا حرس تجاه شمال إفريقيا. سيحالفهما الحظ إن كتبت لهما فرص النجاة ولكن ترى أى نوع من الحياة ينتظرهما؟

بالنسبة لأعدائهما فلن يُحدث الأمر أى فارق فى الوقت الحاضر فهم حتى لا يعلمون أن الصبيين على قيد الحياة. وبسرعة يقوم العباسيون المنتصرون بتوحيد صفوفهم ونفوذهم بيسر بعد أحداث المذبحة ويأتون بمجموعات المسلمين المتعددة الطائعة، وبصفة خاصة الفرس، إلى مناصب أعلى من خلال اتفاقية لاقتسام السلطة والنفوذ فيما بينهم. ويديرون ظهورهم للأبد إلى الحكم الأموى بدمشق ويقررون نقل الخلافة إلى المدينة المبهمة حتى الآن، والتى تقع على ضفاف نهر دجلة، وليست ببعيدة عن آثار حضارة بابل القديمة. ولا يختار الخليفة المنصور بغداد لما هى عليه الآن، بل لما سوف تصبح عليه فى المستقبل. فالمدينة تقع على بعد متساوٍ بين مراكز النفوذ فى سوريا والجزيرة العربية وبالقرب من بلاد فارس، وبهذا سوف يرسى المنصور قواعد العصر الذهبى الأول للمسلمين فى بغداد.

وبغض النظر عن الوحشية التى سادت طريقة تولى العباسيين للسلطة فإن أسلوب المنصور ومن خلفه فى صياغة الحياة السياسية والاجتماعية والمدنية والثقافية والدينية سوف تؤدى إلى ازدهار 500 عام تالية اشتهرت بأنها العظمى فى تاريخ الإنسانية كما أن القرون الخمسة هذه سوف تتردد أصداؤها لفترة 1250 عامًا. إن أمجاد إنجازاتهم كانت لامعة وبراقة لدرجة أنه ما ظهر نظير لها فى أى وقت معاصر. وفى نفس السياق سوف ينبعث الحكم العباسى ليضىء مدينة بغداد بأسرها فهى مدينة المستقبل.

ولكن لسخرية القدر اللاذعة سوف تلهب تجربة ليلة مذبحة قصر الأمويين شرارة بزوغ إنجاز باهر عن حق بالرغم من كل الظروف وسوف ترسى قواعد خلافة وحضارة منافسة تظهر فى مدينة اسمها قرطبة فى مكان بعيد يطلق عليه اسم الأندلس. فالحكم الأموى الذى لن يتجلى بعد اليوم فى دمشق سوف يبزغ فجره فى إسبانيا.

كما أن هاتين العائلتين والأسرتين الحاكمتين الغريمتين ذواتى الرؤى المتنافسة واللتين قد نبعتا من داخل نفس الديانة وخرجتا من بين ضلوع نفس المدينة المقدسة مكة المكرمة وافترقتا إلى الأبد يوم مذبحة دمشق سوف تؤسسان حضارتين وعصرين ذهبيين، ولن تركزا من الآن فصاعدا على الغزوات أو الفتوحات، أو على إعادة غير المؤمنين إلى الدين الحق أو تهتما بسلب الغنائم، بل سيشغل بالهما بناء مركزين توءمين للفكر والاختراع والإبداع.

كما أن تأثير هاتين الحضارتين على العالم لهو أشبه بإزالة الخرافات عن وجه العالم. فهاتان الثقافتان مجتمعتان سوف تلهمان أعظم الأفكار والنماذج المثالية التى رآها العالم طوال حياته من أول الحب العذرى الأوربى حتى الشعر الغنائى إلى قصص ألف ليلة وليلة التى ترويها شهرزاد إلى فلسفة ابن ميمون وصولًا إلى الجامعة الحديثة والطب الحديث وأخيرًا المجتمع المدنى متعدد الأحزاب.

وكل هذا تاريخ ضائع.



مدن العباقرة المفقودة

﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾

[سورة طه، 114]

بغداد، العراق 2007: من على ارتفاع كبير ومن بعيد تبدو بغداد فى القرن الـ 21 أشبه بالمتاهة الترابية هندسية الشكل ومنخفضة ، تتألف من دلتا ذات طفلة صفراء بفعل نهر يخترق الصحراء، وهى بالتأكيد لا تختلف كثيرًا عن شكل بابل القديمة منذ دهور مضت فى اتجاه الشمال. بيد أن هذا المبنى يبدو أكبر كثيرًا ويتلألأ بفعل التقاء ضى المعدن مع الأسطح الزجاجية وهذا بالتأكيد لم يكن له وجود فى أثناء حضارة بابل القديمة. بيد أنه فى وقتنا الحاضر لا توجد حدائق معلقة بالرغم من آمال صدام حسين فى تحقيق ذلك.

وتتبع شبكات الطرق الشاسعة حدودًا معينة داخل الأراضى على طول شريان نهر دجلة ذى الضفاف الخضراء التى تحيط به مستنقعات لها شكل منسق ومساحات خضراء تصنع إطارًا لخريطة ذات خطوط متوازية تجمع 6 ملايين نسمة أتوا كى يعملوا ويتاجروا ويحيوا معًا. وعند النظر فى اتجاه الأفق البعيد بدوران يبلغ 360 درجة يختفى الضوء البرتقالى الذى يحيط بفترة بزوغ الفجر مع ضوء شروق الشمس وزرقة السماء ويأخذ المرء غربًا حيث سورية والأردن. وتتعلق فى السماء طبقة لها لون ضارب إلى الزرقة بفعل العوادم والنيران فى قلب صيف العراق الحارق وتنتشر فى اتجاه الضواحى.

يستيقظ «على المدينة»، الذى ربما أخذت عائلته لقبها عن مدينة صغيرة تقع فى الشمال أو ربما عن المدينة المنورة فى الجزيرة العربية التى هاجر إليها الرسول صلوات الله عليه وسلامه، يستيقظ على صوت رنين المنبه الذى يعمل بالزنبرك حيث إن الكهرباء غير مضمونة هذه الأيام. ومن خلال زجاج نافذته وبالنظر لما وراء الأسطح مربعة الشكل وأحبال غسيل الجيران فى منطقة الأدهمية يرى اللون القرنفلى

الذى يحيط بشروق الشمس وهو يلامس قبة مسجد أبى حنيفة الذى بناه العباسيون منذ 1200 سنة مضت.

ومثل تلك المنازل الأسمنتية رمادية اللون وهالة المجد التى تحيط بالمسجد القديم، تقف عائلة «المدينة» بين هذا التراث المزدوج المبهم؛ بين حال تعمه القتامة وملامح خفية لما هو أكثر عظمة. فقد تكون لهذه العائلة مجرد أصول بسيطة تعود إلى إحدى القرى العراقية مثلما سمع أمه تصرخ لزوجها يومًا ما منذ زمن بعيد فى إحدى تلك الشاحنات. أو ربما كانوا جنودًا محاربين فى جيش الرسول، صلى الله عليه وسلم، ترعرعوا خارج المدينة المنورة ثم خرجوا من الجزيرة العربية فيما بعد لخدمة الخلفاء واستقر بهم الحال هنا. فقد حكت جدة «على» لأبيه كل هذه القصص يوما ما كما تغنت له بأغانٍ تشهد على ذلك.

أيًا تكن الحقيقة يجلس «على» ويتناول إفطاره المكون من البيض المقلى والجبن ويسمع ولديه أمينة وأنور يتحدثان عن الأخبار المفزعة التى سمعاها فى التلفزيون ليلة الأمس سمعا عن حدوث انفجارين آخرين، وعن عملية إطلاق نار جماعية فى السوق وعن جثث وجدت فى أحد المخازن وعن اختطاف لمجموعة كاملة من الموظفين الذين يعملون فى مكتب حكومى وعن رجال ونساء معصوبى الأعين اختطفهم بعض الرجال الذين يرتدون زى الشرطة وتم وضعهم فى شاحنات بلا هوية أخذتهم بعيدًا.

هذه ليس نوعية الموضوعات التى ينبغى أن يتحدث عنها الصغار، ولهذا يطلب منهم أن يلتزموا الصمت. ويتساءل فى نفسه ـ كما سبق ـ وأن تساءل ألف مرة سابقة فى الأعوام الثلاثة الأخيرة ـ كيف لهؤلاء الأطفال أن يتحملوا العيش فى مثل هذا المكان؟ وهذا كله يؤدى به إلى التفكير فى الهجرة إلى الأردن أو سورية أو دبى أو أبوظبى. لقد ناقش هذا الأمر مع زوجته مرات كثيرة. ومنذ عشر سنوات كان تراثه العربى ولغته يمكنانه من الحصول على وظيفة غير أن الإمارت الغنية تجذب أفضل فئات من المهندسين والمعماريين من حول العالم، تجذب رجالًا ونساء من جامعة ستانفورد وأكسفورد والسوربون.

وكثيرًا ما انتهت مثل هذه الحوارات بجيشانٍ عاطفى حول ثمن ترك الوطن، فبغداد هى الوطن، هى شبكة ممتدة من أفراد العائلة والأقارب والأصدقاء الذين يصل عددهم إلى المئات. ياترى ما شكل الحياة بدونهم؟

وتخبره «ميرنا» زوجته أن اليوم هو أحد الأيام الصعبة، ويتساءلون إن كان من المناسب الخروج إلى الشارع اليوم وإرسال الأبناء إلى المدرسة والذهاب إلى العمل؟

ولقلقهم سبب وجيه؛ فـ «على» من السنة أما «ميرنا» فمن الشيعة. وحتى العام

الماضى لم يخطر ببالهما هذا الأمر، فهما لم يعودا يذهبان إلى أى مسجد من المساجد، فهذا التراث المشترك فيما بينهما يكفى لاختطافهما وولديهما وإطلاق الرصاص عليهم من المتعصبين من الجانبين.

أيكون اليوم موعدهم مع ضربات القدر؟ إنها حقًّا لمعجزة حقيقية أنهم ظلوا سالمين فما أحد من أقاربهم المباشرين إلا وقد طالته نيران الحرب أو الاحتلال. ففى العمل والسوق والمدرسة قد طال الأذى الجميع تقريباً ولو على مسافة قريبة. إن آل المدينة يعرفون الطرق التى ينبغى أن يسلكوها والبيوت والمبانى والحافلات والأماكن التى ينبغى أن يتجنبوها، إلا أنه ما من شىء مضمون.

ويقبل على زوجته وينادى على إحدى سيارات الأجرة التى يقودها أحد جيرانه وهو يقف فى ميدان المنطقة المجاورة. ولا يحتاج «على» أن يخبر صديقه إلى أين يذهب حيث يعمل فى وزارة الأشغال العامة. فمن المعروف فى هذا الحى أن «على» هو مهندس مدنى يعمل على إعادة بناء البنية التحتية المرورية. إن الجيرة كلها تعلم تمام العلم أن «على» لديه وظيفة محترمة أيضًا، ومهمته تتلخص فى إصلاح الكبارى والطرق السريعة التى دمرها الغزو ويزداد تدميرها بفعل المقاومة. و«على» يعمل ـ عن كثب ـ مع مجموعة من المهندسين من إحدى شركات البناء الأمريكية.

ولقد كانت العلاقة أفضل فى الماضى قبل بداية حالة المقاومة كما كان الأمريكيون ومقاولوهم يتحركون بحرية أكثر فى السابق. والآن يبقى الأمريكيون داخل المنطقة الخضراء، وإن رغب «على» فى مقابلة أحد منهم وجها لوجه فعليه أن يحدد موعداً قبل ذلك بأيام. ويصاحب ذلك فترة طويلة من التأخير ومجموعة من الموافقات فضلًا عن تحديد عدد الساعات الضرورية للتفاوض مع نقاط التفتيش والحواجز الموجودة على المحيط الخارجى للمنطقة الحمراء. ولهذه الأسباب يقصرون اتصالهم على الهواتف المحمولة والفاكس ويلجئون فى بعض الأحيان القليلة إلى البريد الإلكترونى.

وبينما تمضى السيارة قدمًا فى شارع الرشيد وتمر بالبيوت الخرسانية المربعة الشكل ونخيل البلح، والضباب البرتقالى اللون الذى يكسو فترة الصباح يقترب «على» من البوابة الوحيدة المتبقية من المدينة القديمة التى تم تأسيسها إبان الخلافة العباسية، يمر بالباب الأوسط والبوابة إلى خراسان فى الجزء الشمالى الشرقى من إيران. ويطلب «على» من سائق التاكسى أن يتوقف أمام كشكه المفضل لشراء السجائر.

ويبيع له صديقه فى الكشك سجائر ماركة كاميلز ويتوقف «على» لبرهة وهو يفض الكيس الذى يحيط بالعبوة ويعيد الريالات العراقية المتبقية إلى جيبه وتطير إحدى

العملات الورقية من يده وتستقر عند قاعدة أحد الآثار القديمة عبارة عن قاعدة تمثال مربعة تثبت تمثالًا مكسورًا لبطل مجهول. لقد مر «على» على هذا الأثر مئات المرات غير أنه لم يلحظه أبدًا.

ويسارع «على» لالتقاط العملة الورقية قبل أن تطيح بها الرياح بعيدًا ويجرى على السلالم المشققة التى يعلوها الغبار وورق التغليف والحشائش والزجاجات المكسورة وقطع صغيرة من أوراق الجرائد. وتسوقه الرياح إلى القمة الهرمية للتمثال حيث يلتقط عملته الورقية أخيرًا.

ويرى فى أعلاها أن أحدهم قد ترك صندوقًا به مجموعة من الكتب، تركها تذبل من الشمس والغبار. فيلتقط أولها، وهو كتاب مغلف بالجلد وعنوانه «عصر بغداد الذهبى»، ويجد صفحات الكتاب ملتصقة ببعضها البعض ربما بفعل أمطار الربيع السابقة التى نسيها منذ زمن. وفى الرسم المواجه للعنوان والذى بدا عليه أثر الزمن والظروف المناخية يظهر أحد أشكال الخط العربى المستخدم فى بداية هذا القرن، وربما يعود إلى أيام العثمانيين أو الاحتلال البريطانى. فالكتاب لا يأخذ الشكل الضخم البارز الذى يشتهر به عصر صدام حسين.

ويضع «على» العملة الورقية فى حافظته ويضىء وجهه وهو يشير إلى السائق بالانتظار، ويبدأ فى القراءة.

هذا الكتاب إهداء إلى ذكرى الخليفة المجيد والحكيم أبو جعفر عبد الله المأمون سليل الأسرة العباسية الذى ولد فى العام 164 بعد الهجرة (786 بعد الميلاد) ومات بعد ولادته بـ 47 عامًا.

والمأمون هو وريث الخلافة الإسلامية التى امتدت من شمال إفريقيا وحتى الجزيرة العربية وبلاد فارس وأفغانستان وشمال الهند، وحفيد الخليفة المنصور الذى اختار مدينة تجارية صغيرة تقع على نهر الفرات حتى تكون عاصمته، وابن هارون الرشيد الذى جعل من بغداد عاصمة للعالم.

وتحت قيادة المأمون بزغ نجم بغداد حتى أصبحت مركز التعلم للعالم أجمع وقلب العصر الذهبى العربى. أما بيته بيت الحكمة الذى عمل بين جنباته المترجمون مسيحيون وأجانب كى ينقلوا النصوص الكلاسيكية اليونانية والرومانية والبيزنطية والفارسية والهندوسية إلى العربية ـ فقد كان بمثابة اللبنة التى قامت على أساسها علوم الرياضيات والفلك والكيمياء والطب والآداب. ونتيجة لرعايته ورؤيته ولدت فى هذه المدينة علوم الجبر والمثلثات وأسماء النجوم وصبغات الألوان ووصفات العلاج، وأرسى أساس الفلسفة والآداب. فهاهنا حكت شهرزاد قصص ألف ليلة وليلة.

ومنذ ذلك اليوم وحتى وصول المغول فى القرن الـ 13 لم يكن لأى مدينة

ثروة أو تراث علمي يوازى ذلك الذى فى بغداد. وانتشرت قصور المرمر وجنات النخيل والياسمين والطرق الحجرية كما ازدهرت أكبر أسواق القارة الأسيوية هناك.

أيها العراقيون فلتتذكروا عظمة خليفتكم أبى جعفر عبد الله المأمون ولتتفانوا فى تحقيق مثله.

المجتمع التاريخي لبغداد 3 مايو 1915.

وتنتاب «على» حالة من الضحك فى أول رد فعل له. ويتساءل: أى نوع من التباهى والتفاخر هذا! ألا يشبه هذا إلى حد كبير عهد صدام حسين الذى بالغ فيه تضخيم تاريخ العراق وحوله إلى شيء متكلف فى عظمته مما يعنى بدوره عظمة صدام حسين نفسه؟! ولكن مما لاشك فيه أنه قد سمع عن «المأمون» أيام مرحلة الدراسة الابتدائية غير أن مدارس ذلك الوقت لم تشرح تفاصيل إنجازاته. لا بل إن بطل الكتب الدراسية كان يتسم بالبرود والخلو من الحياة مثله فى ذلك مثل هذا التمثال.

ولثوان معدودة تمر «على» مخيلة على صور القصور المصنوعة من المرمر ويرى الحدائق الغناء مشهداً أغنى وأعظم من المبانى العامة المبتذلة التى شيدها صدام حسين، مشهداً أكثر أبهةً وجمالاً.

هل كان ذلك ماضينا؟ أخذ يفكر وعينه تمسح مبانى بغداد الخرسانية المكتظة بالسكان على مرمى البصر التى تقطعها طلقات الرصاص بين اللحظة والأخرى، والرصاص والدخان الأسود المتصاعد فى الأفق الجنوبى مشيراً إلى اندلاع النيران فى مكان ما إما بشكل غير متعمد أو بفعل المقاومة. ويصاحب كل هذا أصوات المروحيات الأمريكية السوداء من طراز الهوك وهى تنقل حمولتها من البشر من المطار الدولى وحتى المنطقة الخضراء.

هل كان الماضى أعظم من الحاضر؟ كيف يحدث هذا فى عصر التقدم؟

ويضغط سائق السيارة الأجرة على بوق سيارته وتزداد الحركة المرورية كثافة. ومن المتوقع أن يتوقفوا ساعات عند نقطة التفتيش الجديدة الكائنة فى شارع الرشيد إن لم يسرعوا بترك المكان الآن. ويتطاير الغبار وأوراق الجرائد حول التمثال. وينفث «على» أول دخان من سجائره ويعود مسرعاً إلى السيارة متأهباً للعودة إلى العمل.

من المقرر له هذا الصباح أن يعمل على إصلاح كوبرى الفتح المتهدم الكائن فى شمال بغداد. وبسبب القرارات الخاطئة التى اتخذها المقاول الأمريكى الرئيس تخلف استكمال هذا المشروع سنوات فضلاً عن تكلفه عشرات الملايين من الدولارات الزائدة على الميزانية المحددة. وإن كتب لهذا المشروع التمام فسوف يكون أروع كوبرى فى العراق وأفضل حالاً من الشوارع التى تحيط به على الجانبين. ومهما يكن الأمر فـ «على» يحصل على راتب مناسب.

«بغداد مركز للعالم».. يتمتم «على» فى نفسه ويضحك ساخرًا: إنه لأمر مستحيل، إنه لأمر مستحيل.

بغداد، العام 813 بعد الميلاد: تحت سماء بغداد المضيئة بالنجوم يتقلب «المأمون» فى مضجعه طوال الليل وفى اللحظات القصيرة التى تسبق بزوغ الفجر تنتابه الأحلام المتقطعة. ويحلم أن شكلًا بشريًا يكتنفه الضوء ويتحلى بالذهب ويرتدى الزى الإغريقى القديم وتنبعث منه رائحة زيت الزيتون، يأتى ويقف أمامه:

إن «المأمون» رأى فى منامه كأن رجلًا أبيض اللون مشربًا حمرة، واسع الجبهة، مقرون الحاجب، أجلح الرأس، أشهل العينين، حسن الشمائل جالسًا على سريره. قال المأمون: وكأنى بين يديه قد ملئت منه هيبة، فقلت: من أنت؟ قال: أنا أرسطاطاليس. فسررت به وقلت: أيها الحكيم أسألك. قال: سل. قلت: ما الحُسْن؟ قال: ما حَسُن فى العقل. قلت ثم ماذا؟ قال: ثم لا ثمَّ. وفى رواية أخرى. قلت: زدنى. قال: من نصحك من الذهب، فليكن عندك كالذهب. وعليك بالتوحيد [6].

ويومئ الخليفة برأسه فهو يؤمن بأن ما قيل له هو الحق. وقبل أن يتسنى له أن يودع زائره يرى أرسطو وهو يختفى فى وهج ضوء الفجر بدون أن يترك أى أثر وراءه اللهم إلا الذكرى.

ويستيقظ الخليفة أبو جعفر عبدالله المأمون متسمرًا من رؤياه العجيبة التنبئية ولأنه لم يعتد على إطالة فترات التراخى والتفكير فقد كان يسترق بعض اللحظات قبل أن يبدأ يومه المكتظ بالأعمال كى يفكر ويفسر رؤياه هذه.

وخارج جدران غرفته وأسفل شرفته ذات الشكل الهندسى المتشابك يسمع صوت الخيول والجمال وثرثرة حوار دائر خفيض يميز منه كلمة بين الحين والآخر، غير أن تلك الأحاديث الدائرة لا تتم كلها بلغة يعرفها. فهو معتاد على سماع رنين هذا الدفق من الكلمات غير أن الكلام غير مفهوم بالنسبة له.

ويصل إليه رنين أصوات مشابهة من داخل جنبات قصره خلف الستائر التى تخفى مدخل غرفته وفى الفناء الخارجى، فبعض عمال القصر قد استيقظوا، كما أن عددًا من زوجاته يتحركن فى المكان ويسمع صراخ أحدث أطفاله الرضع.

لقد تعدى الأربعين من عمره ولو كان رجلًا عاديًا لقيل إنه محظوظ لكونه لا يزال على قيد الحياة. وبالرغم من أنه قد غامر بحياته فى معركة تلو الأخرى

حتى إنه هزم أخاه نفسه كي يحظى بعرش الخلافة فإن حياته لم تعرف يومًا الشقاء وشظف العيش الذى يعرفه الأجراء. لقد تفادى أن يكون حظه فى الحياة كحظ رجل فقير يعمل فى الحقول أو فى الصحراء، وهكذا عاش عمرًا أطول من آخرين كما أنه لا يشعر بالهرم.

ومن مكانه يستطيع سماع نداء المؤذن من مئذنة مسجد أبى حنيفة الذى شيده والده هارون الرشيد. ويتراءى المسجد وقبته واضحين خلال الفجر البازغ. ويبدأ بلا وعى فى الاستعداد للصلاة. ولا يراه أحد سوى الله جل جلاله. من هذه الشرفة تلاحقه الأفكار أكثر فأكثر، ومن ثم يتوه فى هذه الأفكار وهو يؤدى صلاته التى يحفظها عن ظهر قلب. ويحمد الله سبحانه وتعالى على حلمه.

فهذا الرجل هو حاكم إمبراطورية لم تجد نفسها بعد، بل إن هذا الرجل يحكم الخيال نفسه حيث إن عقله تواق لمعرفة الكثير والكثير ولا تثقل كاهله فكرة الفشل أو المستحيل، فهو لم يتعلم بعد تجنب تجاوز الحدود. وهو يؤمن بأن العالم القديم لفترة ما قبل التاريخ قد انطمست معالمه كما يؤمن بأن الحواجز والعقبات تكمن فى العقل البشرى وحده وفى المعوقات التى يضعها أعداؤه.

إن مدينته هى بغداد ولسوف يجعلها مركزًا للعالم، وإمبراطوريته هى الخلافة العباسية ولن يكون لها نظير. ولسوف تغذى هذه الخلافة مسألة استيعاب الإنجازات الفكرية والفنية للمجتمعات الأقدم عمرًا، والتى سقطت فى الجعبة العربية وتكيفت جميعها مع عقيدة الإســلام. إن كلًا من الغزاة والمقهورين سوف يرتفعون إلى أسمى الدرجات.

بغداد، ترى ما بغداد؟ إنها العاصمة السياسية للإسلام وهو دور انتزعه قادتها من دمشق إلى مكان ليس ببعيد عن آثار حضارة بابل المنسية، وجنات عدن المستنقعية لبلاد الرافدين وقرب مدن بلاد فارس القديمة. إن بغداد هى بلدة قديمة تضم التجار والصيادين غير أن المأمون ينوى أن يحولها إلى شيء آخر.

لقد مضى الآن على وفاة الرسول صلوات الله عليه وسلامه 200 عام، وأحاديثه التى كان يحفظها الناس عن ظهر قلب قد تمت كتابتها الآن كى تكون فى متناول الجميع. ويعقد المأمون النية على إتمام بناء الأمة الإسلامية حيث يعتقد أن هذه كانت رغبة الرسول صلوات الله عليه وسلامه ويواصل تحويل العقيدة برمتها إلى أسلوب جديد للتفكير والإبداع.

وعلى الرغم من سقوط روما وإقامة الحداد عليها لأكثر من 350 عامًا واختبار صمود بيزنطة وقدرتها على الحفاظ على الدين والأساليب الرومانية وتذكر بلاد الفرس أمجادهم العظيمة السابقة فإن المأمون يرغب فى أن تصبح بغداد هى مدينة المستقبل. ويرى نفسه خليفة القياصرة والملوك الفرس والإسكندر الأكبر. بيد أن لديه شيئًا لم

يحصلوا عليه هم البتة. وعلى الرغم من أنه ليس من سلالة بلاط الإمبراطوريات القديمة فإنه يرى أنه حامى حمى الدين.

ولكن ما الدين؟ إنه بالنسبة للمأمون وكثيرين غيره ليس سوى الظمأ، إنها رغبة شديدة فى ابتلاع كل المعرفة والمعتقدات وإدخال كل شيء داخل هيكل الدين. إنه الاستعداد لاستيعاب الشعوب والتواريخ والأسرار والسلوكيات وجعلها تثمر وتزدهر فى هذه البلاد. إن الدين يخبرنا أن كل المخلوقات والأشياء حولنا ما هى إلا تعبير عن عظمة الله عز وجل. ويسعى الخليفة إلى جمع كل الأشياء وعدم تنحية أى شيء جانباً.

وعلى هذا يتم استيعاب كثرة من الشعوب بعضها لا يعتنق الدين ولكنه يعتنق الحياة، فهناك الفرس والمصريون والبربر والقوط الغربيون واليهود والمسيحيون والهندوس والبوذيون والأكراد والأذريون والأتراك والأوزبكيون والكازاكيون والبشتونيون وكلهم يجتمعون تحت حكم الخليفة.

وهم يشعرون بكل هذه الطاقة والحركة والدفق ويرغبون فى أن يكونوا جزءاً منه أو يذعنوا له بالكامل. ويبدأ الكثير منهم فى تعلم اللغة العربية والخط العربى ويقلدون الأصوات الصادرة عن هذه اللغة. وعلى الرغم من أن الفرس لا يتخلون عن لغتهم فإنهم يكتبونها بحروف عربية.

ويحتاج المسلمون إلى أن ينهضوا فوق هذا الفيضان الذى ابتلعوه. فمن هم؟ وبهذا سوف يرسم المأمون خارطة الطريق. وسواء أكان حلم أرسطو هذا رؤيا من الله أم كان وليد الموقف السياسى فلسوف يستخدم فى يوم من الأيام فى الخطاب السياسى لدعم سياسات المعسكر السياسى.

ويتلخص الموقف السياسى للمأمون فيما يلي: على المأمون أن يستخدم المهارات الإداريـة والعقلية للفرس ولكن فى ذات الوقت ينبغى ألا يخول إليهم الكثير من السلطات. وبالفعل تحاول بعض الصفوة الفارسية من كبار السن أن تُقوض بهدوء الشرعية الإسلامية من خلال تطبيق تعاليم الديانات الفارسية الغنوصية والديانة الزرادشتية وأهورامزدا والمانوية.

وفى ذات الوقت تضجر مجموعة من المسلمين الأصوليين ومن العامة من أسلوب حكم العباسيين والأسلوب الاستبدادى للخليفة ويشعرون أنه يبتعد عن نهج الرسول صلوات الله عليه وسلامه.

فبدلًا من أن يترك المأمون لمجموعة من الفرس الأرستقراطيين والمسلمين المتحفظين مسألة توجيه مسار الأمة يقرر هو أن يحدد ما فى صالح الدين والأمة.

وحتى يتسنى للمأمون تقديم المبررات المناسبة لأسلوبه فى الحكم والإدارة يقترب من جمع وافر من المفكرين الذين ينتمون إلى فرقة كلامية يطلق عليها اسم المعتزلة.

وعلى الرغم من أن فرقة المعتزلة هذه سوف تنعت فى يوم من الأيام باسم المهرطقين كما سيقمعهم الأصوليون المسلمون فإن الخليفة فى ذلك الوقت كان يدعمهم، ومن ثم كانت لهم السطوة.

ويتحيز المأمون للمعتزلة؛ لأن أفكارهم تدعم نوع الدولة والدين الذى يرغب فى بنائه، كما أنهم كانوا معلميه ومدرسيه فى يوم من الأيام.

وتتلخص نظرة المعتزلة الراديكالية فيما يلى: يؤمن المعتزلة بأن القرآن هو من خلق الله سبحانه وتعالى وليس كلام الله عز وجل الأبدى الدائم كما يؤمنون بتقديم العقل على الوحى.

وفرقة المعتزلة الذين كان الخليفة راعيهم ونصيرهم يؤمنون بأن العقل هو مفتاح الحكمة والطريق إلى الله. وكان فكرهم هذا هو نتاج الاتجاهات الأصيلة للفكر الإسلامى فضلًا عن بعض عناصر الفلسفة الإغريقية. وتدخل المعرفة الإغريقية اليونانية إلى إسلام القرن التاسع من ثلاثة مصادر: الأرستقراطية الفارسية التى تؤدى دورًا كبيرًا فى الإدارة فى العهد العباسى، والأطباء وعلماء اللاهوت المسيحيون الذين يتبعون المنطق الإغريقى، وصابئة حران الوثنيين فى الجزء الشمالى من العراق وهى مجموعة سامية قديمة تربطهم ديانتهم التى تقدس الكواكب والنجوم بعلم التنجيم اليونانى وعلم الفلك والهرمانية.

ومن خلال الحضارتين البيزنطية والفارسية بالإضافة إلى حضارات سورية والعراق بدأت الخطوط الرئيسة لأفكار أرسطو وأفلاطون وسقراط وإقليدس وفيثاغورس تُنقل ببطء إلى اللغة العربية من اللغات اللاتينية والإغريقية والسريانية والفارسية.

وفى هذه الفترة المضطربة والمتلئة بالحماسة تضيع التعقيدات العميقة للجدل الإسلامى الفكرى اللاهوتى فى هذه المرحلة المبكرة ما بين صفحات التاريخ. وسوف يبالغ العلماء الأجانب الذين سيكتبون عن هذه الفترة بعد مرور قرون من الآن فى تبسيط الازدهار السياسى الدينى وتحجيمه فى شكل معركة ما بين «الأرثوذكس» و«أصحاب المذهب العقلى» بينما لا يوجد شىء اسمه الأرثوذكس فى الإسلام، كما لا يوجد بطريرك مرشد كما هو الحال فى الديانة المسيحية. وأصحاب المذهب العقلى من المسلمين هم علماء فى مذهب اللاهوت وليسوا فلاسفة علمانيين. بالإضافة إلى ما تقدم فإن العلماء الأجانب سوف يخلدون وجهة النظر المغلوطة القائلة بأن المذهب العقلى الإسلامى مستمد بالكامل من المصادر الإغريقية وسوف يستمر هذا المفهوم المغلوط حتى القرن الـ 21.

يمكن، فى واقع الأمر، أن تعزى الجذور الأصيلة للمذهب الفكرى والعقلى الإسلامى إلى كتابات المفكرين المسلمين، والتى تعود إلى القرنين السادس والسابع قبل

أن يصل التأثير الإغريقى إليهم. فمفاهيم العلم والعقل قد ورد ذكرها مرارًا وتكرارًا فى القرآن وفى الكتابات الإسلامية.

وفى القرنين الثامن والتاسع يتطور الإسلام بدينامية كبيرة ويستوعب عددًا كبيرًا من التأثيرات الكوزمولوجية والفلسفية والعرقية وبذلك يُدخل الإسلام ما بين طياته عددًا لا حصر له من الرؤى. وتؤدى هذه الموجة من الصدمات الثقافية إلى تشعب الثقافة والفكر الإسلاميين كى يبدوا شبيهين بلوحة من الفسيفساء الثرية بالأفكار.

وفى ذلك الوقت عند بداية خلافة المأمون تتعدد الاتجاهات والمدارس الفكرية بشكل غير مسبوق. وتتداخل مثل هذه المدارس الفكرية بشكل أو بآخر وتثرى بعضها بعضًا. وتشمل هذه المدارس الفكرية الأصوليين ـ الذين سيعرف بعضهم فيما بعد بالسنة أو الشيعة، والذين سوف تؤثر بعض أفكارهم على الأيديولوجية العباسية ـ والفقهاء ـ وهم طبقة ناشئة من علماء الشرع والشريعة الإسلامية واسعو العلم والمعرفة ـ والمتكلمين.

والمجموعة الأخيرة هذه هى عبارة عن علماء فى علم اللاهوت يلجئون إلى الفلسفة القديمة كى يعبروا عن أفكارهم ويدعموها. ومن بين تلك المجموعات ـ والتى تجتذبها دقة المنطق الإغريقى ـ المعتزلة وهى أشهرها، وكل مجموعة من هذه المجموعات لديها رؤيتها الخاصة للتطور السياسى والعَقَدى والفكرى للدولة.

وبينما يروج المأمون لرؤياه التى يشاركه فيها المعتزلة يبدأ المنهج التحفظى والأصولى تجاه الإسلام والمجتمع فى اكتساب دعم متزايد، ويقود ذلك الاتجاه مجموعة من علماء الشرع والدين وتسانده شرائح من الطبقات الشعبية بالمجتمع خاصة فى بغداد. بيد أن المأمون لا يستطيع أن يتخيل كيف يتأتى لاتجاه هؤلاء أن يؤدى إلى العظمة والسمو. تخيل هذا الموقف: بعض المتحفظين يحاولون أن يشكلوا نموذجًا إسلاميًا مثاليًا لا يرث فيه الخليفة السلطة والنفوذ ولا يستحوذ عليهما بل ينتخبه المؤمنون. ويكون هذا الخليفة مطالبًا بإيجاد هذا المجتمع الذى كان الرسول صلوات الله عليه وسلامه يرغب فى تأسيسه.

ولسخرية القدر تصبح جماعة المعتزلة العقلانيين هم الحلفاء الفكريين للخلافة العباسية الحاكمة والمستبدة بينما يبحث المتحفظون عن شىء أشبه بالديمقراطية الإسلامية سابقة العهد.

ويجد المأمون فى الاختلاف ما بين الرؤيتين أمرًا خطيرًا ليس بالنسبة له أو لحكمه فحسب ولكن أيضًا بالنسبة للمنظور العقلى والخلافة التى تقودها الصفوة كما أسسها. وحتى يتسنى له مكافحة هذا التأثير الزاحف للأصوليين على إمبراطوريته يقرر أن يعين هيئة تفتيش يطلق عليها اسم المحنة وهى ليست بالطبع

بحجم ولا قسوة هيئة التفتيش الإسبانية الكاثوليكية غير أنها تركز أكثر على استئصال شأفة رجال الدين المعارضين لآراء فرقة المعتزلة من صفوة المجتمع السياسى داخل الإمبراطورية. ومن ثم فعلى كل رموز القيادة أن يُمتحنوا فى معتقداتهم وإن ثبت أنهم لا يؤيدون مذهب المأمون العقلى وفكره فإن مطلق النفوذ السياسى والدينى يكمن فى يد الخليفة ـ فعليهم إما أن يغيروا هذا المعتقد وإمّا أن يعانوا ويلات الاستمساك برأيهم.

وتعد المدرســة الحنفيــة إحدى المجموعات الأصـولية فى بدايات بغداد، وهى التى تقول إن العقل البشرى يؤدى دورًا رئيسيًّا فى تطور النظام الشرعى داخل الدولة. وبحلول القرن الـ 21 ستعد مدرستهم من مدارس التفسير الفقهى التحررى فى الإسلام. وفى المستقبل البعيد سيدعى بعض الناس أنهم يتبعون المدرسة الحنفية ويحللون احتساء الفودكا والبيرة.

وتظهر مدرسة أخرى من داخل هذه الحركة الأصولية المتنامية وهى مدرسة فقهية يقودها المفكر الأصولى أحمد بن حنبل الذى ولد فى بغداد لوالدين عربيين، وسافر إلى جميع أرجاء الجزيرة العربية لإعادة إحياء حياة وأفكار ونهج النبى صلوات الله عليه وسلامه. والإمام ابن حنبل ـ هذا المعارض لأفكار ورؤى المأمون ـ ليست لديه أغراض فى السلطة ولا هو سياسى. وبالرغم من أنه يؤمن بأن العباسيين لهم الحق فى الخلافة فإنه يقلق مثل كثيرين بخصوص انخراطهم فى الأمور الدينية. ويرى ابن حنبل أن للخليفة السلطة الدنيوية فى إدارة شئون الدولة وينبغى تقليص نفوذه فيما يتعلق بالدين، وأنه فى الأمور الروحية تكون الغلبة لرأى الشعب أو إجماع الشعب. ويرغب ابن حنبل أن يقتصر تأثير الخليفة على الجانب الدنيوى فحسب.

وهذا الرأى أدى إلى حدوث صدام بين المأمون الذى يتنافس للفوز بالسيطرة على مقاليد السلطة وشئون الدين الخاصة بالدولة وابن حنبل. وكى يحقق المأمون السيطرة الكاملة التى يسعى إليها عليه أن يقضى على العلماء المحبوبين بين الناس أمثال ابن حنبل.

وتروق رسالة ابن حنبل هذه للبعض فى بغداد، ربما لمن هم أبعد من الصفوة التابعة لخلافة المأمون، ويدرك المأمون هذا الأمر، فوجود تابعين لابن حنبل أمر يثير قلق الخليفة ولا يرجع ذلك إلى إيمانه بتوافر الحكمة الفطرية لدى الناس، الأمر الذى يستحق الاحترام من تلقاء ذاته ولكن لأن هؤلاء الأتباع يشكلون عقبة فى طريق تحقيق رؤياه الخاصة بالدين والمجتمع.

فهذا القبول الذى يلاقيه ابن حنبل يمثل عقبة فى سبيل الحضارة والنفوذ السياسى الدينى المركزى للفكر والجمال والثروة والتفوق الذى يبين للعالم بأسره أن خليفة

المسلمين يوازى أو حتى يفوق حضارة الرومان والفرس القديمة أو حتى بيزنطة الآيلة للسقوط.

وشأنه كشأن الحكام فى وقتنا الحاضر وفى زمنه لن يعرف المأمون كيف يتعامل مع غريم مثل ابن حنبل، وسوف يتم استجواب ابن حنبل وسجنه بفعل فرقة التفتيش الملقبة باسم المحنة. كما سيقوم بتعذيب ابن حنبل آملًا أن يجعله يتخلى بذلك عن رؤيته الأصولية للإسلام. وتحت وطأة كل هذه الظروف سيحافظ ابن حنبل على عزته وكرامته وسيقبل بالسجن والتعذيب ولكن لن يقبل أبدًا بالمعتزلة. وسيستمر هذا الاضطهاد حتى بعد عهد خليفة المأمون فى عهد المعتصم، لكن هذا الولاء الجبرى للمذهب العقلى الإسلامى سيأفل نجمه وسيطول عمر ابن حنبل على عمر معذبيه وسوف يعتبره البعض بطلًا.

ولا يعلم المأمون شيئًا عن هذا كله فى العام 830، فحلمه عن أرسطو والحلم الآخر الذى يراوده للخلافة العباسية لايزال حيًّا فى مخيلته. وبينما هو يفرض الضغوط على معارضيه وعلى الأصوليين يرى أن هناك خطوة أخرى ينبغى عليه اتخاذها ألا وهى أن يضفى الصبغة المؤسسية على المذهب العقلى عن طريق تأسيس مركز للتعلم وطرح الأسئلة والاختراع وينبغى أن يكون هذا المركز هو الأفضل فى العالم.

وبعد مرور حقبة على العيش والحكم فى بلاد مرو البعيدة، والتى كانت لا تزال جزءًا من بلاد فارس وبينما المأمون يوحد صفوفه فى بغداد رأى نموذجًا قريبًا لما يرغب فى تحقيقه. وبالرغم من أن الأفكار الكلاسيكية للإغريق والرومان والهند والصين هى هدفه الأسمى فإنه سوف يحذو حذو الفرس والبيزنطيين فى إدخال مثل هذه الأفكار داخل التيار العام السائد.

كما أن المأمون لا يؤرقه على الإطلاق أن يتبنى النموذج الفارسى فوالدته كانت أمة فارسية من إماء هارون الرشيد. كما أن بلاد فارس هى مصدر نصف قوته. وبالرغم من أن المأمون كان أكبر ورثة هارون الرشيد فإن كرسى الخلافة ذهب إلى أخى المأمون غير الشقيق «الأمين» بناءً على وصية والده، ويرجع ذلك إلى أن والدة هذا الأخ كانت ذات أصل ملكى. وقد أُرسِلَ المأمون فى البداية إلى بلاد فارس كى يتولى إدارة مرو بالنيابة عن والده وأخيه غير أن شأن المأمون ارتفع وسما هناك وبعد أن شن حربًا أهلية شرسة أمر فى نهايتها بقطع رقبة أخيه واستولى على الخلافة بدلًا من أخيه. وبعد مرور عشر سنوات على مقتل أخيه سيشعر المأمون أخيرًا بالأمان وبناءً على هذا سيترك مقره فى بلاد فارس ويأتى إلى بغداد ليحكم من هناك.

إذن فلعشر سنوات كانت مرو مدينة الواحة القديمة التى تقع على طرف

صحراء كاراكوم، وتمثل نقطة استراحة على طريق الحرير ـ هى العاصمة الفعلية للخلافة العباسية والعالم الإسلامى وكانت بيت المأمون. كما كانت هذه البلدة هى معبر كل الغزاة والأديان التى ظهرت فى أوراسيا حيث عبرها الإسكندر المقدونى والزرادشتيون والمسيحيون واليهود والبوذيون وأعضاء طوائف ومعتقدات مبهمة قبل المسلمين. ولقد شرب المأمون هذا الدرس الخاص بمدينة مرو حتى الثمالة قبل أن يدخل بغداد. وعند دخوله بغداد لم يبدد وقته وأخذ يعوض ما فاته من سنوات وهو بعيد عنها.

ويعلم المأمون أن علاقة العرب بالفرس كان يكتنفها الخوف من القوة العسكرية والاقتصادية الفارسية إذا كتب لها أن تعلو مرة أخرى.

وسيكون نموذج المأمون ومركزه المعنى بتعلم المذهب العقلى هو الأكاديمية الفارسية فى جنديسابور، والتى تعرف اليوم باسم محافظة خوزستان، والتى تأسست منذ ثلاثة قرون سابقة قبل إصدار المرسوم الإمبراطورى بترجمة المعارف الإغريقية والرومانية والبيزنطية وعلوم الشرق الأقصى إلى اللغة الفارسية، والبناء على أفكار المفكرين والفلاسفة الأجانب. وقد أثرى الأكاديمية الفارسية دخول من كان يطلق عليهم اسم المهرطقين الذين جاءوا من المنفى مثل المسيحيين النسطوريين والعلماء السريانيين والمترجمين من بيزنطة. ولم يبدُ أن الفرس كانوا يخافون من المهرطقين بل لقد احتضنوهم فى كثير من الأحيان. وفى جنديسابور أسس الفرس مركزًا للاختراعات.

وربما يكونون قد أسسوا أيضًا أول مستشفى تعليمىٍّ فضلًا عن جامعة ومكتبة متميزتين.

وسيقوم المأمون باستخدام هذا النموذج العالمى متعدد اللغات، فضلًا عن اللجوء إلى الكثير من الخريجين والأساتذة العاملين فى جنديسابور من أجل تأسيس نموذج محاك له فى بغداد. فالخليفة ذاته بشكل أو بآخر ما هو إلا تجسيد للنمط الإسلامى فى ذلك الوقت من خلال استيعابه كل أنواع الثقافات والأفكار. ولا يخشى المأمون من الأفكار الجديدة أو الراديكالية. كما أنه لا يهاب التناقض ولا الغموض.

بيد أن ما يخشاه الخليفة هو الجهل ومعاداة المذهب العقلى، كما يؤمن بأنه إن لم تُمنح الفرصة للرجال الموهوبين كى يفكروا بحرية، فلن يستطيعوا أن يخترعوا أو يبدعوا ولن يستطيعوا تنفيذ تكليفات الله. ومن ثم فسوف تعانى البشرية جمعاء عواقب ذلك.

إن الخليفة رجل يعشق العلم لدرجة أنه عندما يلحق الهزيمة المنكرة بالإمبراطور البيزنطى فى معركته معه لا يطلب صناديق من الذهب، بل يطلب نسخة من كتاب

المجسطى وهو عبارة عن خلاصة وافية من أفكار العالم الإغريقى بطليموس حول علوم الفلك. ولقد كتب هذا الكتاب عام 150 بعد الميلاد.

وحتى فى موضوعات الطائفية لا ينتمى المأمون إلى فئة بعينها، فرغم أن الانفصال بين السنة والشيعة لم يكن قد ترسخ بعد ـ كما سيحدث فى السنوات التالية ـ فإن المأمون لا يواجه مشكلة فى التأرجح ما بين الطائفتين حتى إنه لم يجد مشكلة فى اتخاذ موقف ضد السنيين الأصوليين والانحياز إلى جانب الشيعة مدعيًا أنه قائدهم. وعلى هذا يكون أول وريث يعينه فى الخلافة هو الإمام «على الرضا» الشيعى، الأمر الذى يؤدى إلى تمرد العراقيين مما يضطره إلى التراجع عن هذا القرار.

وسوف يقوم المأمون بالعديد من الأفعال المباشرة الأخرى. فبعد مضى لحظات قصيرة على نهاية فجر يوم رؤيا الخليفة هذه ينادى المأمون على وزيره الفارسى: «أيها الوفى طاهر.. إنى أرغب فى أن أبنى مركزًا عظيمًا للتعلم فى بغداد لتأييد الفكر والاستفسار الحر والفلسفة والعلوم والرياضيات والفلك. فابعث برسلك كى تأتى إلىَّ بأمهات الكتب الموجودة فى بيزنطة وفارس واجلبها كى أبنى مركزى هذا، وائتِ لى بأفضل المترجمين كى ينقلوا إلى العربية كل العلوم السابقة. ولسوف أطلق على هذا المركز اسم بيت الحكمة». وينحنى طاهر أمام الخليفة ويستأذن فى الخروج، وينفذ الأمر، ويجلبون لهذا المركز الجديد مجموعة مبهرة من المفكرين من بينهم محمد الخوارزمى وهو غالبًا من الفرس الزرادشتيين الذين اعتنقوا الإسلام. ولسوف يطلق على هذا العالِم فيما بعد اسم أبو الجبر ومؤسس نظام العد العربى. كما جاء إخوان «بنو موسى» وهم الأبناء الصغار للمنجم الخاص بالمأمون كى ينضموا إلى بيت الحكمة هذا، ولسوف يصبحون فى المستقبل علماء فى الرياضيات وعلوم الفلك والمخترعات الهندسية. كما سينضم إلى صفوة العلماء هؤلاء حنين بن إسحاق وهو من الأطباء النسطوريين وأكثر رواد الترجمة تأثيرًا، والذى سوف ينقل إلى اللغة العربية كتابات الطبيب جالينوس والفلسفة الإغريقية. وهناك الكندى أيضًا الذى يعد أوسع الفلاسفة العرب علمًا، والذى سوف يقول فيما بعد:

وينبغى أن لا نستحى من استحسان الحق واقتناء الحقَ من أين أتى، من الأجناس القاصية عنَّا والأمم المباينة لنا، فإنه لا شىء أولى بطالب الحقّ من الحق، وليس ينبغى بخس الحقّ ولا تصغير قائله ولا بالآتى به، ولا أحد بخسه الحق، بل كلٌّ يشرّفه الحقّ (7).

وتحت مظلة بيت الحكمة خلال القرنين التاسع والعاشر سوف تصبح بغداد مستقر الخلافة العباسية ومنارة الفكر، وبذلك تحقق حلم المأمون وهارون الرشيد في أن تكون مركز العالم الحقيقي في كل مجال من مجالات الحياة. واستتباعًا لحلم المأمون الذي أتاه قبل الفجر ونتيجةً لعشق هذا الرجل للعلم سيرسي المأمون أساس أعظم الاكتشافات التي ستظهر في المستقبل. فعلى أراضي العراق المنبسطة سيتم إنشاء مرصدين للنجوم وليس مرصدًا واحدًا فحسب، وبذلك يفرض المأمون على علماء الفلك لديه أكثر من تحدٍ؛ فعليهم الآن ألا يفسروا رسائل الفضاء الغامضة فحسب بل أن يرسموا خرائط أفضل ويوثقوا المعلومات بشكل أدق. وبسبب هذه الإسهامات الهائلة التي سوف يقدمها المأمون لعلوم الفلك سيطلق العالم فيما بعد اسمه على إحدى فوهات القمر.

والآن ومع وجود مركز التعلم هذا لرفعة شأن العاصمة السياسية والتجارية والعسكرية؛ ألا وهي بغداد فأبراج مآذنها وقصور تجارها ونبلائها والطرق التي تؤدي إلى غزوها فضلًا عن جدران وبوابات حصونها ـ طالت حتى بلغت عنان السماء. وحتى مع ظهور أعداء المذهب العقلي والصفوة من المفكرين من بين رجال الدين والشعب فإن بغداد من أعلى ومن بعيد مازال نورها يشع ويتوهج.

وبينما يتحول الفجر إلى شمس ساطعة يمتطي المأمون حصانه وبصحبته حرسه ويذهب كي يحدد مكانًا يبني فيه بيت الحكمة هذا. واستمع الآن إلى وصف أحد الزوار العرب في عهد المأمون لما يراه كما جاء على لسان أحمد اليعقوبي وهو من علماء الجغرافيا في القرن التاسع في كتابه البلدان:

وإنما ابتدأت بالعراق لأنها وسط الدنيا وسرة الأرض وذكرت بغداد لأنها وسط العراق والمدينة العظمى التي ليس لها نظير في مشارق الأرض ومغاربها سعة وكبرًا وعمارة وكثرة مياه وصحة هواء، ولأنه سكنها من أصناف الناس وأهل الأمصار والكور، وانتقلوا إليها من جميع البلدان القاصية والدانية، وآثرها جميع أهل الآفاق على أوطانهم.

... فليس عالم أعلم من عالمهم، ولا أروى من راويتهم، ولا أجدل من متكلمهم، ولا أعرب من نحويهم، ولا أصح من قارئهم، ولا أمهر من متطببهم، ولا أحذق من مغنيهم، ولا ألطف من صانعهم، ولا أكتب من كاتبهم، ولا أبين من منطقيهم، ولا أعبد من عابدهم، ولا أروع من زاهدهم، ولا أفقه من حاكمهم، ولا أخطب من خطيبهم، ولا أشعر من شاعرهم، ولا أفتك من ماجنهم[8].

ويحمل السطر الأخير الكثير من المعانى، فرغم أن بغداد هى عاصمة الخلافة العباسية الإسلامية فإنها الآن أيضًا تُعد موطنًا لأساليب الحياة الماجنة المتزايدة للصفوة من الأثرياء المتميزين. فالحانات مفتوحة للعامة، والحفلات الخاصة تُمتع الأثرياء وذوى النفوذ، وتستهلك كميات كبيرة من النبيذ، وتتواصل المغامرات الجنسية داخل الغرف المحتجبة. وتتسم الحفلات التى تنظم داخل البيوت والقصور الخاصة بالبذخ الشديد والمجون وكأنها تحدث فى حضارتى روما أو بيزنطة القديمتين.

بيد أن كل هذا يتم فى الخفاء بعيدًا عن الأنظار ولكن المأمون يعرف تمامًا ما يحدث. ترى ما الذى يراه المأمون وهو يجوب بحصانه أرجاء المدينة؟ يرى حوله أرض الخلافة التى أسسها وبناها جده المنصور وأبوه هارون الرشيد فى نفس موقع بلدة حضارة بابل القديمة باكدادو بالقرب من النهر. إن آثار الحضارة البابلية مدفونة هنا على الضفة الغربية لنهر دجلة بين الكاظمية فى الشمال والشالجية فى الجنوب. كما أن أصداء حضارة بابل هذه مازالت تتردد فى المبانى المشيدة حديثًا، ويرجع ذلك إلى أن أجداد الخليفة العباسى المأمون قد حافظوا على الشكل الكلاسيكى للمعمار البابلى ألا وهو شكل الدائرة. إن أرض الخلافة يطلق عليها الآن اسم المدينة المدورة، يحيط بها سور خارجى وسوران داخليان لحماية قلب الخلافة. وكان العباسيون الأوائل يرون أن هذا هو أفضل تصميم لحماية المدينة من أى هجوم عليها.

وفى هذا السياق أيضًا تم تشييد أربع بوابات ضخمة لكل حى من أحياء الدولة العباسية فى اتجاه البصرة والكوفة وسورية وخراسان. وتخترق تلك البوابات السور الخارجى، وفى الداخل توجد أربع بوابات أخرى محاكية للبوابات الأوليات تنفتح على سورين دائريين وهما بدورهما يؤديان إلى أربعة شوارع متعامدة تنطلق من مركز المدينة ويبلغ قطر المركز هذا ميلًا واحدًا. وداخل هذا المركز يقع قصر المنصور المعروف باسم البوابة الذهبية والمسجد الجامع. ويعد القصر فى حد ذاته تحفة معمارية بقبته الخضراء الهائلة التى يعلوها تمثال لفارس، وتتحرك هذه القبة مع تغير اتجاه الرياح.

بيد أنه مع مرور الوقت وجد المأمون والكثير من مواطنيه هذا الحصن المدور مُقيدًا إلى حد كبير. وبناءً على هذا بدأت عمليات هجرة جماعية ضخمة إلى البلدة الجديدة المسماة الرصافة على الضفة الشرقية لنهر دجلة حيث بنى المهدى ـ ابن المنصور ـ مسجدًا أكبر من المسجد المشيد داخل المدينة المسورة. وترتبط المدينة الجديدة بالضفة الغربية للنهر من خلال جسر عائم. وينفتح هذا الجسر وجسور أخرى عائمة مشيدة على نهر دجلة كى تسمح بمرور السفن المتجهة نحو المحيط وعندما تعود الجسور إلى مواقعها تعد عوائق فى وجه أى هجوم قادم من اتجاه النهر.

وتصبح بغداد المدينة الواقعة على النهر، والتى ترتبط بالمحيط من خلال عدة قنوات، ميناء بحْريًّا عالميًّا. وتستمد أهميتها من التجارة البحْرية التى تصل حتى الهند والصين وإفريقيا وجنوب أوربا. وداخل هذه المنطقة الحضرية الضخمة التى تضم مدينتين هما بغداد والرصافة يرى المأمون كل أشكال التقدم المتميز لعاصمة الإمبراطورية الواقعة على نهر دجلة.

ويرى مصانع الورق تستخدم التكنولوجيا التى جلبتها من الصين منذ عدة عقود سابقة حيث كانت صناعة الورق فى الصين من الفنون الراقية، والذى تستخدمه الطبقة المتعلمة فقط. والآن أخذ المسلمون هذه التكنولوجيا واستطاعوا أن يصلوا إلى مستوى مناسب من الإنتاج الكبير لا يمكن تطبيقه مع نوعية الورق البرشمان ولا الرقى المستخدم فى أوربا. وهذا الأمر يشجع على تعلم العامة فنون القراءة والكتابة، ويصاحب هذا انتشار كتابة الملاحم التى تحدد ثقافات بعينها شأن ملحمة ألف ليلة وليلة.

كما يرى الخليفة أوائل المكتبات العامة والخاصة الرئيسة والتى لم تشاهد منذ عهد مكتبة روما والإسكندرية. وتشمل تلك المكتبات مكتبة ضخمة يمتلكها تاجر ثرى وتقول أحد المصادر إن نقل محتويات تلك المكتبة من الكتب من مكان إلى آخر يستلزم استخدام 140 ناقة. كما توجد مكتبة أخرى يمتلكها أحد علماء بلاط الخليفة الذى يرفض أن يقبل بوظيفة أخرى أفضل من وظيفتـه الحاليـة؛ لأن فهرس المحتويات يتكون من عشرة مجلدات، ومن ثم فسوف يحتاج إلى 400 ناقة لنقل الكتب.

ويرى المأمون دور الكتب المتعددة ومراكز عامة لسرد القصص مقسمة ما بين حكايات أخلاقية لاستخلاص العبر منها و«قصص ليلية» أو مسرحيات شعبية لتسلية الناس فى فترة الليل. ويرى الخليفة أيضًا المدارس الأولى، والتى ستتطور كى تصبح أولى الجامعات لتقدم نموذجًا للتعليم العالى الذى يظهر أشباه له فى أوربا إبان العصور الوسطى.

وبين كل هذا وذاك يرى المكان الذى سوف يؤسس فيه بيت الحكمة؛ مؤسسته الرائدة، والتى ستمثل لبنة المجتمع الذى سوف يقوم على أساس العقل والاختراع لتكوين إمبراطورية دينية منقحة من خلال عدسات العقلانية. وسيشمل مركز المأمون هذا مرصدًا ومستشفى ومكتبة وبرامج بحثية فى علوم البلاغة والمنطق والميتافيزيقا واللاهوت والجبر والمثلثات والهندسة والفيزياء والأحياء والطب والصيدلة.

وبينما يعلو شأن بيت الحكمة هذا، فلن يبحث فى هذه العلوم المتخصصون فحسب ـ داخل أقسام منفصلة للمعرفة ـ بل رجال آخرون متفوقون فى علوم

اللاهوت يقومون بالمساهمة فى أعمال الترجمة وعلوم الرياضيات والطب وهلم جرّا. ففى تلك الأزمان المنصرمة كان العلماء يرون هذه الدراسات والظواهر أشبه بنوافذ من الفسيفساء تأخذهم إلى عالم مترابط هو كون الله. وأهم من ذلك أن هؤلاء العلماء لم يعتبروا أن هدفهم هو محاولة إجبار بحوثهم العلمية على إثبات فكرة مسبقة عن الكون كما يمليها عليهم دينهم بل كانوا يرون أن مهمتهم تتلخص فى فهم أسرار الخلق مهما بدت تلك المهمة صعبة أو حتى مستحيلة. وهذا الهدف فى حد ذاته قد أشعل شرارة جدل ونقاش علمى لا نهاية له. فهؤلاء العلماء لم يكونوا يخشون شيئًا.

وعبر القرون الأربعة التالية فى بغداد وعلى أساس التقليد الذى أرسى قواعده المأمون وأسلافه سوف تنشأ مؤسسات جديدة لتكمل مجهودات بيت الحكمة أو حتى لتحل محله. كما سيتم إنشاء أول مستشفى حضرى فى القرن العاشر. كما سيتم بناء مدرستين تتطوران حتى تصبحا جامعتين عالميتين؛ هما الجامعة النظامية فى القرن الـ 11 والمستنصرية فى القرن الـ 13. ولسوف توفر المستنصرية التعليم المجانى فضلًا عن الرعاية الطبية والسكن والطعام. وستشيد المراصد الشمسية التابعة لبيت الحكمة فى المنازل الخاصة بعلماء الفلك مثل الحسن وإخوان بنى موسى. وبحلول القرن الـ 13 سوف يكون فى بغداد 36 مكتبة عامة و100 محل لبيع الكتب.

وفى بداية عام 900 سوف تصبح بغداد أكثر مدن الأرض ثقافةً وحداثةً، ويصفها مؤرخ القرن الثانى عشر ياقوت بالآتى:

مدينة دار السلام، وحضرة الإسلام، ذات القدر الشريف، والفضل المنيف، مثوى الخلفاء، ومقر العلماء، وقال أبو الحسن بن جبير رضى الله عنه: وهذه المدينة العتيقة وإن لم تزل حضرة الخلافة العباسية، ومثابة الدعوة الإمامية القرشية، فقد ذهب رسمها. ولم يبق إلا اسمها. وهى بالإضافة إلى ما كانت عليه قبل إنحاء الحوادث عليها والتفات أعين النوائب إليها كالطلل الدارس، أو تمثال الخيال الشاخص، فلا حسن فيها يستوقف البصر، ويستدعى من المستوفز الغفلة والنظر، إلا دجلتها التى هى بين شرقيها وغربيها كالمرآة المجلوة بين صفحتين، أو العقد المنتظم بين لبتين. فهى تردها ولا تظمأ وتتطلع منها فى مرآة صقيلة لا تصدأ، والحسن الحريمى بين هوائها ومائها ينشأ.

ولبغداد جسران اثنان معقودان على نحو الصفة التى ذكرناها فى جسر مدينة الحلة، والناس يعبرونهما ليلًا ونهارًا، رجالًا ونساء فهم فى ذلك

فى نزهة متصلة ببغداد من المساجد التى يخطب فيها، وتقام فيها الجمعة أحد عشر مسجدًا، منها بالجانب الغربى ثمانية، وبالجانب الشرقى ثلاثة والمساجد سواها كثيرة جدًا، وكذلك المدارس إلا أنها خربت. وحمامات بغداد كثيرة وهى من أبدع الحمامات، وأكثرها مطلية بالقار مسطحة به، فيخيل لرائيه أنه رخام أسود، وهذا القار يجلب من عين بين الكوفة والبصرة تنبع أبدًا به، ويصير فى جوانبها كالصلصال، فيجرف منها، ويجلب إلى بغداد. وفى كل حمام منها خلوات كثيرة كل خلوة منها مفروشة بالقار مطلى نصف حائطها مما يلى الأرض به، والنصف الأعلى مطلى بالجص الأبيض الناصع، فالضدان بها مجتمعان، متقابل حسنهما وفى داخل كل خلوة حوض من الرخام فيه أنبوبان أحدهما يجرى بالماء الحار والآخر بالماء البارد فيدخل الإنسان الخلوة منها منفردًا لا يشاركه أحد إلا إن أراد ذلك وفى زاوية كل خلوة أيضًا حوض آخر للاغتسال فيه أيضًا أنبوبان يجريان بالحار والبارد وكل داخل يعطى ثلاثًا من الفوط إحداهما يتزر بها عند دخوله والأخرى يتزر بها عند خروجه، والأخرى ينشف بها الماء عن جسده ولم أر هذا الإتقان كله فى مدينة سوى بغداد، وبعض البلاد تقاربها فى ذلك (9).

وتتأتى إحدى أهم ثمار المدينة فى المجال الأدبى، فبخلاف قصص ألف ليلة وليلة التى تستمد الكثير والكثير من أحداثها من الحكايات الفارسية والهندوسية، ستصبح بغداد أيضًا عاصمة العالم فى مجال الشعر. ولا ينتج هذا عن ثروة المدينة وتنوعها وابتكاراتها وإبداعاتها فحسب، بل سيحدث من جراء الالتحام ما بين أكثر حضارات العالم تفوقًا فى المجال الشعرى واللغوى؛ أى الحضارتين الفارسية والعربية. ولكلتا الحضارتين باع طويل فى تأليف أبيات الشعر، والتى تعد من أرقى وسائل الاتصال الأدبى. أما بالنسبة لبغداد فسيحل الشعر محل الصحافة والرواية لفترة تالية تصل إلى 1300 عام. وسيشمل رواد الشعر فى بغداد بشار بن برد الذى سوف ينظم الشعر الجنسى مستغلًا الوصف الحسى الذى كان شائعًا فى الجزيرة العربية وبلاد فارس قبل الإسلام. أما ابن إياس وأبو نواس فسوف يصوران الجانب المظلم لبغداد وينقلان أسلوب الحياة ويكتبان قصائد مشبعة بالجانب الجنسى واحتساء الخمور وبعض التجديف. ثم هناك ابن الأحنف وابن داود اللذان يرتقيان فى شعرهما ولا يذكران الجانب الجنسى ويكتبان نوعًا ساميًا من شعر الحب الرومانسى، والذى يقيمه الخبراء على أنه ذلك النوع من الشعر الذى مهد الطريق لشعر الحب العذرى والغنائى.

ويكتب ابن الأحنف قائلًا:

لَو لَم يَكُن قَمَرٌ إذا مـــا زُرتُكُـم يَهدى إلى نَهـــج الطَريقِ الواضِح
لَتَوَقَّدَ الشَوقُ المُبَـــرِّحُ مُهجَتـى حَتّى تُضيءَ الأَرضُ بَينَ جَوانِحي [10]

وتحمل الخلافات الأدبية فى بغداد فى طياتها شيئًا من التوتر ما بين المعسكر المؤيد للغة الفارسية ومحبى العربية الفصحى، وفى بعض الأحيان تشتد حدة التوتر لتنقلب إلى جدال حول الدين والدنيا، ثم لا يلبث أن يتحول إلى حرب. وحتى الشاعر الأرستقراطى ابن المعتز، والذى يترقى حتى يصل إلى الخلافة بعد المأمون بعدة أجيال سوف يغتال خلال أدائه واجبه.

وهكذا ستستمر تلك الدائرة المتمركزة حول الفكر والخيال وتتواصل حتى ليخيل للمرء أنها لن تنتهى أبدًا. وكما هو الحال مع جميع الكائنات والحضارات حتى ولو كانت بضخامة الحضارة العباسية كما نراها من فوق ومن بعيد حيث ستحمل هذه الحضارة فى رحمها بذور تدميرها وانهيارها. فعلى المستوى الفكرى والدينى يؤدى نهم المأمون للنهل من المعرفة الصافية إلى تجرؤ أعدائه عليه. أما فى قضايا الدين فيشعر المأمون بذلك الاتجاه الذى يغذيه التنافس المتصاعد ما بينه وبين ابن حنبل وكل المنشقين عنه والأصوليين بالرغم من أن للمأمون الآن اليد العليا. وبعد ذلك بعدة عقود سيتبنى خليفته الخليفة المتوكل وجهة النظر الأصولية ويطيح بالمعتزلة، وبذلك يموت الإمام ابن حنبل وهو بطل فى نظر البعض ويحضر جنازته الآلاف. وفى مجال السياسة سيؤدى ولع المأمون بالفرس واعتماده عليهم إلى بذر بذور الثورة، وذلك عندما يمنح السيطرة الفاعلة على أجزاء كبيرة من بلاد فارس إلى العائلة الطاهرية وهى أسرة قائد الجيش ووزيره السابق طاهر كى يضمن ولاءه. وسوف يقوم خلفاؤه بأن يحذوا حذوه فى هذا الاتجاه حتى ليصبح الخلفاء مجرد ظلال أو عرائس وتحولت القوة الفعلية إلى المحافظات.

ولن يستطيع المأمون أن يضفى الصبغة المؤسسية على إيمانه المُتقد بالمذهب العقلى، كما لن يستطيع أن يدفع الموت عنه. ويموت المأمون فى أثناء حربه الأخيرة ضد البيزنطيين. وفيما يلى سرد عن موته يرويه أبو الحسن على المسعودى:

فى سنة ثمانى عشرة ومائتين غزا المأمون أرض الروم وقد كان شرع فى بناء الطوانة مدينة من مدنهم على فم الدرب مما يلى طرسوس. وجلس تحت الكنيسة التى عقدت له والماء تحته وطرح فى الماء درهمًا

صحيحًا فقرأ كتابته وهو فى قرار الماء لصفائه ولم يقدر أحد أن يدخل يده فى الماء من شدة البرد، فبينما هو كذلك إذ لاحت سمكة نحو الذراع كأنها سبيكة فضة، فجعل لمن يخرجها سيفا فبدر بعض الفراشين فأخذها وصعد فلما صارت على حرف العين أو على الخشب الذى عليه المأمون اضطربت وأفلتت من يد الفراش فوقعت فى الماء كالحجر فنضح الماء على صدر المأمون ونحره وترقوته وابتل ثوبه ثم انحدر الفراش ثانية فأخذها ووضعها بين يدى المأمون فى منديل تضطرب فقال المأمون: تقلى الساعة. ثم أخذته رعدة من ساعته فلم يقدر أن يتحرك من مكانه فغطى باللحف والدواويج وهو يرتعد كالسفعة ويصيح: البرد البرد. ثم حول إلى الغرب ودثر وأوقدت النيران حوله وهو يصيح: البرد البرد. ثم أتى بالسمكة وقد فرغ من قليها فلم يقدر على الذوق منها وشغله ما هو فيه عن تناول شىء منها.

ولما اشتد به الأمر سأل المعتصم بختيشوع وابن ماسويه فى ذلك الوقت عن المأمون وهو فى سكرات الموت وما الذى يدل عليه علم الطب من أمره وهل يمكن برؤه وشفاؤه، فتقدم ابن ماسويه فأخذ إحدى يديه وبختيشوع الأخرى وأخذ المجسة من كلتا يديه فوجد نبضه خارجًا عن الاعتدال منذرًا بالفناء والانحلال والتزقت أيديهما ببشرته لعرق كان يظهر منه من سائر جسمه كالزيت أو كلعاب بعض الأفاعى، فأخبر المعتصم بذلك فسألهما عن ذلك فأنكرا معرفته وأنه لم يجداه فى شىء من الكتب وأنه دال على انحلال الجسد، وأفاق المأمون من غشيته وفتح عينيه من رقدته، فأمر بإحضار أناس من الروم فسألهم عن اسم الموضع فأُحضر له عدة من الأسارى والأدلة وقيل لهم فسروا هذا الاسم «القشيرة» فقيل له تفسيرها مد رجليك فلما سمعها اضطرب من هذا الفأل وتطير به وقال سلوهم ما اسم الموضع بالعربية فقالوا الرقة وكان فيما علم منذ مولد المأمون أنه يموت بالموضع المعروف بالرقة وكان المأمون كثيرًا ما يحيد عن المقام بمدينة الرقة فرقًا من الموت فلما سمع هذا من الروم علم أنه الموضع الذى وعد فيه فيما تقدم من مولده وأنه فيه وفاته وقيل إن اسم «البديدون» تفسيره مد رجليك والله أعلم بكيفية ذلك فاحتضر المعتصم الأطباء حوله يؤمل خلاصه مما هو فيه.

فلما ثقل قال أخرجونى أشرف على عسكرى وأنظر إلى رجالى وأتبين ملكى، وذلك فى الليل، فأخرج فأشرف على الخيل والجيش وانتشاره وكثرته وما أوقد من النيران فقال: يامن لا يزول ملكه ارحم من قد زال ملكه. ثم رد إلى مرقده، وأجلس المعتصم رجلًا يشهد

لما ثقل، فرفع الرجل صوته ليقولها. فقال له ابن ماسويه لا تصح فوالله ما يفرق بين ربه وبين مانى فى هذا الوقت ففتح عينيه من ساعته وبهما من العظم والكبر والاحمرار ما لم ير مثله قط وأقبل يحاول البطش بيديه بابن ماسويه ورام مخاطبته فعجز عن ذلك فرمى بطرفه نحو السماء وقد امتلأت عيناه دموعًا فنطق لسانه من ساعته وقال: يامن لا يموت ارحم من يموت. وقضى من ساعته وذلك فى يوم الخميس لثلاث عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ثمانى عشرة ومائتين وحمل إلى طرسوس فدفن بها على حسب ما قدمنا فى أول هذا الكتاب [11].

وبالرغم من موت المأمون فالعصر الذهبى لبغداد على وشك أن يبدأ لتوه وسوف يدوم هذا العصر من أوله وحتى آخره، فترة 500 عام.

قرطبة، الإمارة الأموية (إسبانيا) العام 756 بعد الميلاد. يقف أمير شاب، تسفع صدره الذكرى الأليمة لليلة مذبحة دمشق، منتصرًا على قمة جبل يطل على المدينة الرومانية القديمة «كردبه» التى أعاد العرب تسميتها، ومن ثم أصبح اسمها قرطبة وهو يبعد عن موطنه 2300 ميل.

فبعد تلك الليلة المشئومة التى سمع فيها صوت أهله وبقية أفراد عائلته برمتها وهى تذبح استطاع هو الهرب وهو لا يحمل فى جيبه أثرًا لأى نقود وبصحبته أخوه يحيى وخادمه بدر. وهكذا تفكك عالمهم من ورائهم ورحل الناجون الثلاثة إلى فلسطين ومنها إلى مصر وهم يتساءلون عما يخبئه لهم الدهر.

وبينما كان العباسيون المنتصرون يحقرون من شأن دمشق الأموية وينقلون عاصمتهم إلى بغداد كان على هذين الصغيرين اللذين حرمتهما المذبحة من الميراث أن يجدا سبيلًا كى يتمكنا به من الحياة فى هذا العالم الوحشى.

ولم يكن الأمير ليستطيع أن يفصح عن هويته حيث إن العلم العباسى الأسود يرفرف فى كل مكان ويحل محل العلم الأموى الأبيض. كما كان رجال الخليفة المنصور ومؤيدوه ينتشرون فى كل مكان أما مؤيدو الخلافة الأموية، إن وجدوا، فكانوا يختبئون فى الظلال. وفى فلسطين استطاعت مجموعة من القتلة التابعين للخلافة العباسية أن يقتفوا أثرهم ويقتلوا يحيى. أما عبد الرحمن وبدر فقد غافلا القتلة وهربا وانطلقا للسفر وحدهم.

أما القلة القليلة ممن يعرفون الأمير ويتعاطفون معه فقد نصحوه بأن ينسى الماضى وأن يغير من هويته ويستقر فى مكان بعيد ويجد له عملًا كجندى أو مدرس أو تاجر. ولقد لاحظ هؤلاء رصانة لسانه مما ينم عن أصله الكريم وحياته المرفهة وتعليمه

الراقى، وكل ذلك لا يحصل عليه إلا من كان داخل بلاط الملوك. فربما فى مكان بعيد بمعزل عن مؤامرات ومكائد سورية والعراق يستطيع أن يعمل لدى شخص له مكانة فى المجتمع ويعيد تشكيل هويته بقوله إنه أحد الغزاة الفاتحين الذين يرغبون فى أن ينشروا الدين.

ولقد استمع الأمير إلى كل هذا الحديث غير أنه كان فتى واثقًا من نفسه رغم أنه لا يزال يعانى الصدمة من هول ما رآه فى تلك الليلة. وقد عاهد نفسه أن يرد على ما حدث تلك الليلة ولكن بأسلوبه هو. وفوق كل هذا كان ما يدفع الأمير دفعًا هو تلك النبوءة القديمة التى قالها له عمه العظيم مسلمة ذات يوم حيث أخبره أنه فى يوم من الأيام بعد أن تمر على الأمويين فترة طويلة من المعاناة والعذاب سيأتى هو ويستعيد أمجاد الأمويين. وهكذا دفعه هذا الحلم الصغير المخفى بين ضلوعه والأشبه بطاقة النور أن يواصل المضى إلى الأمام وأن يشعل رغبته فى الحياه فاستمر ماشيًا تجاه الغرب هو وخادمه بدر.

وقرروا الذهاب إلى شمال إفريقيا حيث إن مكانًا بعيدًا مثل هذا يمثل أفضل مأوى بالنسبة لهم بين فوضى تغيير الأسر الحاكمة هذه. بيد أن الرياح تأتى بما لا تشتهى السفن؛ حيث إن الأمراء فى شمال إفريقيا الذين كانوا فى يوم من الأيام يدينون بالوفاء للأمويين ـ استغلوا حالة الفوضى السائدة كى ينفصلوا بإماراتهم ويعلنوها ممالك قائمة بذاتها. ولم يمنح أمير شمال إفريقيا عبد الرحمن أى مأوى أو مستقر آمن، بل على العكس فقد حاول أن يقتله. ولم تثبط همة عبد الرحمن من جراء ذلك فقد سمع عن خلاف نشب فى الأندلس الإسلامية فبعث بخادمه بدر عبر مضيق جبل طارق كى يتحقق من الأمر فى مهمة استطلاعية. وعرف بدر بعض الأخبار المهمة من بعض اليمنيين الساخطين. فقد أخبروه أن الأمير يوسف الفهرى هو الآن حاكم الأندلس بالتحالف مع قبيلة عربية شمالية هى القيسية وأن الأرض ممهدة لحدوث انقلاب. فاليمنيون الذين كانوا نعم العضد داخل قوة طارق ابن زياد منذ أربعة عقود فحسب قد عزلوا من السلطة داخل الأرض التى ساعدوا الجيش فى إخضاعها.

ويجد عبد الرحمن 20 مؤيدًا له ويبحرون عبر مضيق جبل طارق فى عام 755 وبينما هم يمضون نحو الشمال ينضم إلى صفوفهم المزيد والمزيد من الأندلسيين الساخطين ويطلقون عليه من الآن اسم الأمير. وتتسم بعض دوافعهم بالشرف فهم يدينون بالولاء للناجى الوحيد من الخلفاء المعزولين، أو بعدم رضاهم عن الأمير الحالى. أما بالنسبة لمجموعة اليمنيين فتحركهم المطامع والرغبة فى إعادة الاستحواذ على الثروات والغنائم، والتى كانوا يستمتعون بها فى أولى فترات الغزو. وقد منح طارق بن زياد الأراضى للكثير من اليمنيين مكافأة لهم على ولائهم. بيد أنه فى ظل حكم يوسف الفهرى وقبيلة القيسية سارت الأمور على غير ما يرام بالنسبة لليمنيين.

وانتهت تلك المنحة التى كانت قد أعطيت لهم على هيئة مزارع فى شمال إسبانيا وعاد بعضهم إلى شمال إفريقيا.

واستنادًا على هذه الخلفية لا يشعر الأمير الحالى الفهرى بالارتياح لوجود الناجى الوحيد من المذبحة والوريث الوحيد للخلافة الأموية على عتبة بابه ومعه عصبة من اليمنيين المتمردين بلا شك، ويحاول أن يقوض تهديدهم بأن يقدم لهم عرضًا غايةً فى السخاء والكرم. فبالنسبة للوريث المعزول يعرض الفهرى عليه أن يزوجه ابنته وأن يمنحه أرضًا وملاذًا آمنا. وبالرغم من أن هذا العرض يبدو مغريًا خاصة بالنسبة لمن عانى الأمرين فى السنوات الخمس الماضية، فإن عبدالرحمن يرفض هذا العرض.

ويزداد عدد جيشه ويكبر حتى العام التالى 756 حيث يلتقى بالأمير فى معركة خارج قرطبة.

وضد كل الظروف والتوقعات يفوز هذا الجيش المهلهل الذى يقوده عبد الرحمن الشجاع الذى لا يهاب شيئًا، وبذلك يُنَصَّبُ عبد الرحمن الأول أميرًا على الأندلس ويستعيد الحكم الأموى حتى إن كان ذلك فى هذا المكان البعيد. ولا يحوز هذا الأمير البالغ من العمر 25 عامًا علمًا يدخل به البلاد غير أن أحدهم يعلق عمامته الخضراء على رمح.

وتتلخص أولى مهام هذا الأمير الصغير فى كبح جماح حلفائه اليمنيين الانتهازيين الذين هم على وشك أن يشرعوا فى حملة طال انتظارها من الانتقام والسلب والنهب. ولا يستطيع عبد الرحمن الذى يرى نفسه حاكمًا عادلًا أن يسمح بذلك غير أنه يوقف ثورتهم هذه مضحيًا بفقدان تأييدهم له فى هذه اللحظة.

ليس هذا إلا أول تحدٍّ سياسى يواجهه. وإن اختار هذا السبيل فلسوف يقضى الثلاثين عامًا القادمة فى حكمه فى إخماد الثورات والمكائد والمنافسات. وفى أول خطبة دينية يلقيها فى المسجد سيشعر بالضعف الشديد لدرجة أنه سيتملق الخليفة العباسى فى بغداد الذى ذبح عائلته كلها ودفع به إلى هنا. أما بالقرب من الأندلس فسوف يحاول الحاكم المعزول الفهرى أن يثير عاصفة من السخط على الأمير الصغير ويقسم إنه سوف يقتله أو يطرده. وسيرسل أعداء عبد الرحمن فرقة تابعة للخلافة العباسية كى تغتال عبد الرحمن وبالفعل تصل هذه الفرقة إلى بوابات قرطبة فى عام 763 حيث سيلحق بهم الأمير الجديد الهزيمة المنكرة ويقطع رءوس قادتهم ويحنطها باستخدام الكافور ويشحنها إلى الخلافة فى الشرق. ومنذ ذلك اليوم فصاعدًا لن يذكر اسم الخلفاء العباسيين فى المسجد. وبعد مضى 200 عام سيشعر أحد أحفاده أنه من القوة بحيث يعلن نفسه الخليفة الحقيقى للإسلام.

ولكن الآن فى العام 756 ياترى ماذا يفعل؟ فالبيت الملكى والرؤيا التى كانت قد ماتت تقريباً فى دمشق قد عادا إلى الحياة مرة أخرى بالرغم مما يحيط بها من المخاطر فى هذه الأرض التى تبعد كل البعد عن الوطن. بيد أن هذه الأرض ليست بالغريبة تماماً. فهناك شىء مألوف فى هذا المكان يردد أصداء أيبيريا الرومانية وسورية الرومانية أكثر من المناطق الإفريقية وتلك الشرقية التى مر عليها فى أثناء ترحاله. فانتشار أشجار الأرز على تلك السهول الصخرية وهذا الضوء ولون التربة كلها تردد أصداء الوطن.

ويبدو كأن حملته التى بدأها منذ خمس سنوات للبقاء على قيد الحياة بعد زوال كل شىء واستعادته لمكانته السياسية ومهمته المستقبلية فى البقاءِ حيًّا والحفاظ على سلطته ليست كلها بالمهام الكافية. فعبد الرحمن لديه رؤية أكبر بكثير. فعند إلقائه نظرة فاحصة إلى تلك البلدة الثانوية التى أسسها الرومان، والتى استخدمها القوط الغربيون فى أثناء حروبهم ثم باتت بعد ذلك عاصمة لا يميزها شىء فى عهد الفهرى ـ يقرر عبدالرحمن أن يفعل شيئًا مختلفاً.

وهنا فوق السهول الصخرية والوديان الجافة لجنوب إسبانيا سيعيد عبد الرحمن إنشاء دمشقه المفقودة وكأنما بذلك يعيد عائلته الحبيبة إلى الحياة. ولسوف يعيد أمجاد تلك المدينة الأموية التى ركنت إلى حالة من الركود بعد كل التنمية والتطور الذى مرت به بكل وسائل الرى الحديثة التى تم اختراعها والمعمار الرومانسكى المختلط والمميز ومساحاتها المدنية الرحبة، والقصور والفيلات شبه الرومانية. لكن عبدالرحمن لن يعيد إحياء العاصمة الدمشقية السابقة فحسب، بل سيواصل تنفيذ برنامجه الكامل للتنمية الذى كان مقدرًا له أن يتم فى دمشق وسورية وأرض الخلافة برمتها لو كان قد أصبح خليفة هناك. وسينشئ عبد الرحمن مركزًا منافسًا للعلم والاختراع. ففى هذه البلد القوطية العتيقة فى شبه الجزيرة التى طالما كانت أشبه بالمياه الراكدة سوف يخلق مدينة وحضارة عالميتين.

وإنها لمدعاة للسخرية أنه بالنظر من مكان بعيد إلى هاتين العائلتين المتحاربتين ألا وهما الأموية والعباسية نجدهما تتشابهان أكثر مما تختلفان. وبالرغم من أنهما قد تختلفان حول التشكيل العرقى للبلاط الملكى أو ربما فى بعض التفاصيل الدقيقة حول العقيدة مثل هل ترفعان علماً أسود فى دمشق أم أبيض لكنهما مهتمتين اهتماماً شديداً بالفكر والفخامة. فهما تعشقان الأفكار والاختراعات ولا تهابان كسر القواعد وخرق الحدود.

وتتجلى المهمة الأولى من مهام عبد الرحمن كما سبقها إليه سلفه معاوية إبان أيام دمشق القديمة فى بناء البنية التحتية لدعم مثل هذا المجتمع. فهو يحتاج إلى طرق وجسور ومساجد ومدارس ويحتاج إلى مياه.

وسوف يقوم بغرس الأساليب الدمشقية والسورية فى إسبانيا. فالسكان سوريو المولد سوف يزرعون ويرعون مزارع الزيتون وبساتين البرتقال والليمون على الطريقة السورية وسوف يروون الأراضى باستخدام الآلات الشبيهة بتلك المستخدمة فى سوريا. وستحرك الآلات المائية السورية مياه الرى. وستضحى مدينة إشبيلية شبيهة كل الشبه بمدينة حمص السورية، وسيطلق الشعراء العرب على مدينة المدينة اسم «حمص الأندلسية». وفيما بعد سيُعلِّق المسافرون الأندلسيون إلى الشرق قائلين إنها إشبيلية الوحيدة من بين كل مدن المسلمين التى تذكرهم بموطنهم المدن السورية.

وفى العاصمة سوف يشيد عبد الرحمن حديقة شاسعة ورائعة يطلق عليها اسم الرصافة، وفى هذه الحديقة سيبنى قصرًا له أصداء الماضى ويسميه قصر دمشق. وفى العام 786 سيبدأ فى بناء مسجد قرطبة العظيم وستمتد جهود البناء هذه لتصل إلى 62 عامًا.

وفى قصيدة له يصف الأمير الذى بدأ الشيب يغزو رأسه - قائلًا:

تبدت لنا وسـط الرصافـة نخـلة	*تناءت بأرض الغرب عن وطن النخل*
فقلت شبيهى فى التغـرب والنوى	*وطول التنائى عن بنىّ وعن أهلى*
نشأت بأرض أنتِ فيها غريبـة	*فمثلك فى الإقصاء والمنتأى مثلى*
سقتك غوادى المزن فى المنتأى الذى	*يسح ويستمرى السماكين بالوبلِ*

بيد أنه من هذه البداية التى يشوبها الكثير من الحنين إلى ذكرى الوطن والإحساس العميق بالوحدة فى عام 756 ستنتقل رؤيا عبد الرحمن إلى أخلافه عبر القرون الثلاثة التالية وسوف تكون النتائج باهرة. فبنفس القدر الذى ينظر به عبد الرحمن تجاه الشرق إلى الماضى كى يكون مصدر إلهامه لن يعرف خلفاؤه شيئًا عن هذا الوطن الضائع بشكل مباشر فالأندلس ستصبح هى أرض أجدادهم. ومع مرور الزمن وبشكل حتمى ستأخذ الأندلس الأموية الجديدة شكلًا خاصًا بها بالرغم من أنها مستوحاة أساسًا من روما وبيزنطة وسورية والجزيرة العربية. وسيحكم المسلمون كل أو معظم أجزاء إسبانيا لقرابة 800 عام تقريبًا.

وخلال عصر إسبانيا الإسلامية سيتطور هيكل السلطة فى الأندلس وتتحول من إمارة أموية (929-756) إلى خلافة أموية (1031-929) ثم تدخل فى فترة طويلة من الدويلات يطلق عليها اسم الطوائف وتخضع للسيطرة الإسلامية والمسيحية.

وفى مرحلة متأخرة من مراحل الخلافة الأموية فى إسبانيا يتم توسعة وزخرفة مسجد قرطبة العظيم الذى بدأه عبد الرحمن الأول. كما يتم تشييد منطقة ملكية أخرى خارج قرطبة يطلق عليها اسم مدينة الزهراء. وتصل قرطبة إلى أوج مجدها وتصبح أكثر المدن حداثة فى أوربا ويبلغ عدد سكانها نصف مليون نسمة ويشيد بها 300 حمام عامٍّ و300 مسجد و50 مستشفى ونسبة عالية من المتعلمين يتجلى أثرهم فى المكتبات العامة والخاصة التى يزيد عددها على عدد كل الكتب الموجودة بأوربا.

وفيما بعد عندما تبلغ قرطبة قمة السلطة والنفوذ والثروة فى العام 1090 ستسقط قرطبة فى يد مجموعة من الغزاة الأصوليين من شمال إفريقيا يعرفون باسم «المرابطون» يسعون إلى تطهير الفكر الحر ومجتمع الأمويين الذى يحيا بقدر كبير من الانطلاق والحرية. وسوف تؤدى صدمة سقوط الخلافة إلى حدوث حركة من التصدع البطىء فى بنيان الدولة الإسلامية وتتحول إلى دويلات صغيرة. وفيما بعد ستضم الغارات القادمة من شمال إفريقيا مجموعة أشد من الأصوليين يطلق عليهم اسم «الموحدون» (1145–1232) ويخلفهم النصريون أو بنو نصر (1232–1492) وكانت هذه هى آخر الأسر الحاكمة لغرناطة وألمرية ومالقة.

وبالرغم من أن كل جماعة غازية ستدخل إسبانيا ولها وجهة نظر أكثر تعصباً عن أسلافها حول النموذج الأموى المتنوع والمتسامح والمبتكر فإن حدة هذا التعصب ستخف من جراء التجربة ذاتها وبذلك سيظهر مزيج جديد.

لم ينته، بشكل شبه إعجازى، زمن الإبداعات أو الاختراعات الإسلامية عند هذا الحد فى الأندلس، فسقوط الخلافة وصعود الدويلات سيؤذن بدخول آخر عصور الإبداع الإسلامى. فكل ملك من ملوك الدويلات سوف يشعر بأنه مسئول عن التنافس مع غرمائه من الطوائف الأخرى، وبذلك سيتنافس كل بلاط على التفوق على نظرائه فى مجالات المعرفة والتميز. فطوائف مثل مدريد وإشبيلية وسرقسطة وطليطلة سوف تضيف المزيد من العظمة على الإنجازات الإسلامية.

وسيمتزج هذا التحول فى شكل الفسيفساء السياسى من الإمارة إلى الخلافة إلى الطوائف مع النسيج السياسى والاجتماعى والدينى المتميز لإسبانيا. ومن خلال وجهة النظر المنفتحة والشاملة للأمويين ومن خلفهم ستمتزج قوى المجتمع المسيحية والمسلمة وتتمخض عن مجتمع ثلاثى الديانة يتميز بالتعايش مع بعضه البعض فهو عبارة عن شكل فريد للتعايش الاجتماعى والتعاون ما بين المسلمين والمسيحيين واليهود. ويتمتع أهل الكتاب أو أهل الذمة بمكانة ثانية وآمنة فى المجتمع ماداموا لا يبشرون بدينهم ولا يقوضون الإسلام.

أما المسيحيون الأيبيريون القدامى الذين لا يزالون يخضعون لروما فسيتعلمون

أن يتحدثوا ويكتبوا باللغة العربية وسيطلق عليهم اسم المستعربين. كما سوف تساعد مهاراتهم اللغوية، شأن النسطوريين فى بغداد، الأمويين فى ترجمة الكلاسيكيات اللاتينية والإغريقية والعبرية إلى العربية، كما أن هذا سيؤدى إلى ازدهار متواز فى الأفكار والعلوم والآداب كى تتنافس مع بغداد وأماكن أخرى داخل الدولة الإسلامية.

أما اليهود الذين كانوا يعيشون فى أيبريا قبل أزمان الرومان والذين تعرضوا للكثير من الظلم والاضطهاد من جانب القوط الغربيين فعند دخول طارق بن زياد سيجدون فى المسلمين حماة أفضل من سابقيهم خاصة عهد القوط الغربيين المنصرم. وسيتعلم هؤلاء أيضًا اللغة العربية إلى جانب معرفتهم بالعبرية واللاتينية. وسيرتقى أحد اليهود حتى يصل إلى ثانى أكبر منصب سياسى فى الدولة حيث سيصبح الحاخام أبو يوسف بن إسحاق بن عزرا الوزير الفعلى ووزير الشئون الخارجية للخليفة عبدالرحمن الثالث. وسيتفوق اليهود فى أمور التجارة والعلوم وبذلك يساهمون فى إثراء الإنجازات الفكرية المستقبلية فى الأندلس. وبينما يزداد عدد المهاجرين اليهود قادمين من أجزاء أخرى من المهجر يصبح هذا المجتمع أهم المجتمعات على الإطلاق فى خضم المجتمعات الأخرى المتناثرة. وسيطلق على اسم هذا الموطن اليهودى الجديد اسم سفرديم بالعبرية وسيبقى هذا المجتمع اليهودى أيضًا مدة 800 عام.

بيد أن هذا لا يعنى أن مثل هذا التعايش لن يتفكك فى يوم من الأيام وبالتدريج، وذلك فى المذبحة التى قتل فيها 150 عائلة يهودية فى غرناطة فى العام 1066 أو فى القرن التاسع عندما قتل 48 مسيحياً وأطلق عليهم اسم شهداء قرطبة بسبب سبهم الديانة الإسلامية وتعديهم على الرسول صلوات الله عليه وسلامه. كما أن هذا لن يعنى أيضًا أن المسلمين المتشددين فى شمال إفريقيا لن ينقلبوا على ما أطلقوا عليه «نجاسة» الوسائل الأندلسية ويسعون إلى «تطهيرهم». وهذا لن يعنى أيضًا أن المسيحيين المتعصبين لن يحاولوا أن يقوموا بإعادة غزو المكان.

وبالرغم من بعض الاختلافات والصراعات بينهم فإن هذه المجموعات الثلاث ستنجح فى التعايش وفى تغذية بعضها واحترام وإجلال البعض فى الكثير من الأحيان. وحتى الكاثوليكية المخلصة الملكة إيزابيلا التى تربت فى بلاط متنوع الأجناس والأديان مع أصدقاء يهود منذ الصغر سترتدى رداءً إسلامياً عندما تطلب رؤية آخر أمراء غرناطة، كما أن أحد أسلافها الكاثوليكيين وهو ألفونسو الحكيم سوف يتبنى نموذج الديانات الثلاث المتعدد هذا الذى ابتدعه الأمويون وسيسمح بوجود المستشارين المسلمين واليهود على جانبيه. وستستمر الكلمات العربية المنقوشة تزين الكنائس المسيحية والمعابد اليهودية حتى بعد مرور فترة طويلة من سقوط حكم الأمويين. وسيردد المعمار المدجن فى إسبانيا أصداء سورية والجزيرة



مسجد قرطبة العظيم فى إسبانيا الذى كان فى يوم من الأيام ثالث أكبر المساجد الإسلامية وقد تم تحويله إلى كاتدرائية فى عام 1236 عام الغزو المسيحى لقرطبة.

العربية حتى عندما تقرع أجراس الكنيسة الكاثوليكية الرومانية بصوت أعلى. كما سيعبر مزيج اللغات ما بين اللاتينية القديمة والعربية عن التراث المزدوج وعن التاريخ الضائع.

وخلال الفترة التاريخية الطويلة ما بين فتح طارق بن زياد للأندلس فى العام 711 ودخول الملكة إيزابيلا فى العام 1492 سيتمخض هذا المزيج المتميز فى الأندلس عن إبداعات رائعة فى المعمار والموسيقى والآداب والفلسفة والطب والعلوم. ولكن مع الأسف سقط كل هذا من سجلات التاريخ فى طى النسيان، ويضيع الجزء الأكبر بسبب الرعب الذى خلفته محاكم التفتيش الإسبانية وهروب اليهود والمسلمين من موطنهم القديم بإسبانيا إبان عمليات إجبار الناس على تغيير دياناتهم وفرض الضرائب واستئصال شأفة اللغات المختلفة وحرق المتطرفين للمكتبات التى تحوى كتباً قيمة لا تقدر بثمن. وبعد مضى 500 عام على ظهور محاكم التفتيش الإسبانية يتم استرجاع التاريخ الضائع ببطء. ولكن هذا التاريخ يظل مجهولاً للكثيرين حتى هؤلاء الذين يحملون نفس الجينات أو ألقاب العائلات أو يتحدثون نفس اللغة فكلهم بمثابة تجسيد حى لهذا التاريخ الضائع.

واقرأ قصيدة القرن الـ 16 هذه التى كتبها الإسبانى المسلم محمد رابضان أيام محاكم التفتيش الإسبانية:

أراد الله جل جلاله

لمور(*) هذه المملكة

العذاب والاضطهاد والعبودية

لقد فقدوا كتبهم القيمة

دون أثر

واختفى علماؤهم

بعضهم مات والآخر سجن

وأطلقت محاكم التفتيش يدها فى المكان

تبطش بلا رحمة

تقسو وتبالغ فى القسوة

تنتشر فى كل مكان

وتهتز الأرض تحت الأقدام

يبعثون الرعب فى كل الأركان

إنهم من عمدوا حديثًا

يفرضون عليهم يومًا بعد يوم

ألوانًا من العذاب

سجن وعذاب وحرق

وفواجع أخرى وبؤس

ويعلم الله وحده حكمة كل ذلك

القاهرة وسمرقند وأصفهان ودلهى؛ بينما ينتشر نتاج هذه الدائرة الإسلامية المركزة من الارتجال والابتكار خارج دمشق وبغداد وقرطبة فى القرون التالية ـ تظهر مراكز أخرى للإبداع لتتنافس مع أمهات المراكز. وينتشر الأسلوب الإسلامى الذى ظهر فى وقت مبكر، والذى يتميز بالارتجال والإبداع والسعى للنهل من بحور العلم والمعرفة والحكمة إلى أماكن جديدة. وتتميز تلك الأماكن، أكثرها، بحضارتها العتيقة، ومن ثم لا يكون الاختراع والنبوغ فيها أمورًا مستغربة.

(*) المور: لفظة تُطلق على مسلمى الأندلس.

وسيظهر أحد هذه المراكز فى مكان لم يكن له وجود تقريباً حتى تجتاحه الجيوش العربية القادمة من الجزيرة العربية والمتجهة إلى مصر. فمنذ عهد الإسكندر والرومان كانت الإسكندرية هى المدينة الرئيسية بمصر، فهى موطن كليوباترا ومدينة إغريقية تقع على فم نهر النيل. وعند أعالى النهر كانت توجد مستوطنة رومانية لا تبعد كثيراً عن المدينة الفرعونية هى ممفيس أو منف، غير أن هذه المدينة لم تكن ذات أهمية كبيرة حتى جاء العرب فى العام 642. ويطلقون على البلدة التى يحيط بها حصن ضخم اسم مدينة الفسطاط بمعنى آخر المخيم، ويحولونها إلى موقع عسكرى للقوات العربية.

ويقع الحصن على الضفة الشرقية للنهر، وبعد مضى أكثر من قرنين بعد فتح العرب للمكان يظل أشبه بالجزيرة التى فقدت فى محيط من الرمال المتدفقة تجاه جميع الآفاق. وتوجد الفسطاط فى مقر سهل فيضان النهر على رقعة ضيقة من الأرض تُزرع منذ عهد الفراعنة وتروى وقت الفيضانات السنوية التى تحدث بفعل ذوبان ثلوج الجبال والأمطار الشتوية التى تنهمر على إفريقيا. وعلى طول النهر وفى عدد محدود من الواحات تظهر أشجار نخيل البلح فوق الرمال الملتهبة.

بيد أن هذا الحصن الإسلامى المشيد على نهر النيل سيعرف فيما بعد باسم القاهرة وذلك عند وصول جماعة غازية فى العام 969 من طائفة الإسماعيليين الشيعية التى تأتى من تونس عاقدة العزم على تأسيس إمبراطوريتها العالمية. ويستغلون إحدى فترات التاريخ التى تتسم بالتشتت والضعف السياسى فى بغداد العباسية وعلى هذا يثبون وثبتهم. ويطلق على الإسماعيليين الغزاة اسم الفاطميين حيث يدعون أنهم من نسل إحدى بنات الرسول صلوات الله عليه وسلامه وهى السيدة فاطمة رضى الله عنها. وبالرغم من أقليتهم داخل المسلمين ينجحون فى غزو المكان. الأمر الذى يبدو غريباً مثل غزو الأمير الأموى الوحيد لعالمه الجديد فى الأندلس.

وفى أوج مجدها فى القرن الـ 11 تستحوذ الدولة الفاطمية على أجزاء من شمال إفريقيا شاملةً مصر وفلسطين وسورية وصقلية وأجزاء من الجزيرة العربية واليمن.

إن الفاطميين هم من وضع أساس معمار القاهرة فى العصور الوسطى وهى مدينة عالمية رئيسية ومركز عالمى للتعلم. ويتبع الفاطميون، بالطبع مع وجود بعض الاستثناءات، سياسة لإدماج المسلمين السنيين والمسيحيين واليهود فى المجتمع وفى اعتلاء المناصب حسب كفاءاتهم. كما ينضم الفاطميون إلى ركب العباسيين والأمويين فى النهل من العلوم الدنيوية والروحية. وفى العام 972 يؤسسون مسجداً رائعاً وجامعة ملاصقة له تعرف باسم الأزهر ستجذب إليها عبر قرون تالية العلماء من كل مكان وستصبح إحدى أكبر الجامعات الرائدة فى العالم. فعلماء مثل عالم الفلك ابن يونس والفيزيائى العراقى ابن الهيثم يأتون إليها حيث يغريهم الحاكم الفاطمى الحاكم

بأمر الله فى بداية القرن الـ 11 ليجد طريقة لوقف الفيضان السنوى لنهر النيل، غير أن ابن الهيثم يفشل فى إيجاد حل لهذه المعضلة ولكنه يطور فيما بعد نظريات الضوء وعلم البصريات بشكل غير مسبوق، الأمر الذى يمهد الطرق لعلماء مثل أنطوان فان ليونهوك فى أوربا بعد قرون من الآن.

تم تأسيس جامعة الأزهر فى الأساس كى تصبح مدرسة للطائفة الإسماعيلية، ولكن مع مجيء الأسرة الأيوبية السنية وتحت حكم صلاح الدين فى عام 1171 سيعاد تنظيم الأزهر كمركز سنى للتعلم، ومن ثم فسيواصل تأدية دوره كرائد فى المجال الفكرى.

وعلى الرغم من أن الأيوبيين سيعقدون العزم على تغيير كل جوانب الحكم الفاطمى وفكرهم الدينى، فإنهم لن يتخلوا عن المسعى الذى سبقهم إليه الفاطميون وهو النهل من بحور العلم والمعرفة والإنجازات المدنية. وسيحرص الأيوبيون وصلاح الدين فى إطار هدفهم لتعليم المسلمين إلى جعل الأزهر أكثر مراكز التعلم تطورًا وإبداعًا فى العالم الإسلامى. كما سيشتهر صلاح الدين بقدرته على قلب مجريات الأمور كما حدث إبان الحملات الصليبية حيث استطاع أن يعزز المقاومة الإسلامية المتهاوية فى نهاية القرن 12. ولن يغير صلاح الدين الأوضاع بالنسبة للمسلمين فحسب بل إنه أيضًا سيصبح رمزًا لروح الشهامة الإسلامية بالنسبة للأوربيين بسبب رحمته فى التعامل مع المسيحيين عندما يستعيدون أورشليم ومن خلال علاقته التى تتميز بالاحترام المتبادل مع ريتشارد قلب الأسد.

وسيؤدى سقوط بغداد على يد المغول فى القرن الـ 13 إلى جعل القاهرة مركز العالم الإسلامى السياسى والفكرى الرائد أمام العالم. كما ستنقل مجموعة متنوعة من المفكرين والمخترعين حياتها إلى القاهرة. وفى بداية القرن الـ 13 سيثبت العالم السورى ابن النفيس الذى يعمل ويدرس فى المستشفى المنصورى بالقاهرة أن الطبيب الإغريقى جالينوس قد أخطأ فى فهمه لحركة الدماء فى الجسم. كما سيشرح ابن النفيس كيف يتدفق الدم من القلب إلى الرئتين إلى الجسم ثم يعود مرة أخرى.

وفى عام 1250 ستسقط عائلة صلاح الدين الأيوبية لمجموعة من العبيد السابقين يعرفون باسم "المماليك وسيحكم هؤلاء القاهرة حتى عام 1517 عندما يأتى العثمانيون الأتراك ويطيحون بهم. وبالرغم من كل تلك الأحداث والتغيرات السياسية المزلزلة التى تحدث ما بين الأعوام 1000 و1500 فإن القاهرة تظل خلال الجزء الأكبر من هذه الفترة هى الرائدة فى المجال الفكرى فى العالم الإسلامى.

وفى الوقت نفسه ستقوم بلاد فارس وهى الرافد الرئيس المغذى للتفوق العباسى فى بغداد بتطوير مراكز إسلامية متميزة كى تنافس وتتفوق على مدن مرحلة ما قبل

الإسلام مثل مدينة إصطخر وجنديسابور. وعندما يصل المسلمون إلى بلاد فارس تكون هذه الأخيرة تمر بمرحلة من الركود والانهيار السياسى ولكن بطريقة غريبة. وبالرغم من سقوط بلاد فارس بسرعة فى يد الفاتحين العرب فإن هذا الفتح سوف يبث فيه روح ثقافة جديدة. فمدن فارس القديمة مثل خراسان وقزوين وتبريز ستعقبها نشأة أعظم مدن إيران الإسلامية ألا وهى أصفهان. وتزدهر أصفهان تحت حكم السلاجقة الأتراك فى القرن الـ 11. ويجتذب الحاكم السلجوقى مالك شاه وخلفاؤه السنيون العلماء والشعراء إلى بلاطهم.

وسيرتفع شأن السلاجقة، وهم قبيلة من قبائل الغز الأتـراك، لإدارة إمبراطورية تمتد من حيث توجد تركيا فى العصر الحديث إلى باكستان ما بين القرن الـ 11 والـ 14. وبالرغم من أصدائها التركية يتبنون وينشرون ثقافة فارسية لها طابع جمالى تتردد أصداؤها خلال مجموعات من خلفائهم من بينهم الأتراك العثمانيون. وتصبح مدنهم شأن نيسابور وأصفهان مواطن شعراء مثل العالم عمر الخيام وراعيه نظام الملك التى سميت المدارس النظامية ـ التى بنيت فى جميع أرجاء الشرق الأوسط ـ باسمه. كما تصبح العاصمة السلجوقية قونية فى الأناضول موطن الشاعر والفيلسوف الصوفى جلال الدين الرومى فى القرن الـ 13 والذى سيبجله كل من المسيحيين والمسلمين وتجتذب كتاباته أتباعًا جددًا حول العالم حتى بعد مضى 800 عام على وفاته إلى وقتنا الحاضر.

وبعد تراجع السلاجقة أمام الغزوات المغولية فى القرن الـ 13 ستهدأ مدينة أصفهان حتى ظهور الشيعة الصفويين وشاه عباس (1629–1587) بعدها تحدث أعظم وأفخم التحسينات المعمارية والمدنية التى تحث الرحالة البريطانى روبرت بيرون على أن يقول إنه عندما جاب المدينة لم ير لإبداعات أصفهان المعمارية شبيهًا فى أوربا برمتها ولا حتى فى بازيليك القديس بطرس أو قصر فرساى. فأقواس أصفهان المدببة ستتزين بقباب من البلاط الأزرق المتألق كما أن المساحات الخضراء الشاسعة التى تميز ميدان الإمام يحيط بها مساجد وقصور تبدو لامعة ببريق زجاجى.

وبينما تعلو وترتفع المدن الإسلامية العظيمة فى آسيا تخلف الثقافة والأسلوب الفارسى الحضرى أثرًا أقوى من أى ثقافة وطنية أخرى حتى وإن ظل الأثر الفارسى السياسى ثانويًا. فمنذ سمو شأن العباسيين وحتى انهيار المغول الكبار فى الهند والعثمانيين فى تركيا تقوم الثقافة الفارسية بأسمى الأدوار فى الشرق الأوسط ووسط وجنوب آسيا شأنها فى ذلك شأن الدور الذى أدته فرنسا من أول الغزو النورمندى لإنجلترا وحتى القرن الـ 21. فيستخدم بلاط الملوك من أول العثمانيين فى إسطنبول والتيموريين فى سمرقند والمغول الكبار فى الهند ـ الكتابة واللغة الفارسية وسينسخون التصميمات الفارسية الموجودة على السجاجيد ويكتبون تاريخ رجال البلاط كى يبدو

شبيهًا بأسفار بلاد فارس المنيرة بالعلم والمعرفة ويبنون آثارًا أسطورية تردد أصداء بلاد فارس.

ويصل الإسلام إلى وسط آسيا مصطحبًا ثقافته معه فى القرن الثامن ويدخل مدنًا مثل كابول وبخارى وغزنة وكلها ستساهم فى ظهور مراكز ومفكرين واختراعات إسلامية جديدة. بيد أن هذه المدن التى تقع على سهل واسع، والتى تتأثر كثيرًا ببلاد فارس وتتحدث اللغات الفارسية سيجتاحها المغول وجنكيز خان وحفيده هولاكو، والذى سيأتى بالاضطراب والخراب إلى وسط آسيا وجزء كبير من الشرق الأوسط وهو يؤسس إمبراطورية المغول مترامية الأطراف التى وصلت فى ذروتها حين امتدت من الصين حتى العراق وشمالًا حتى شرق أوربا وروسيا. وبالرغم من أن المغول يتعاملون بوحشية وبقسوة لا مثيل لها مع من يقاومهم فإن من يذعنون لهم فسيدخلون فى طيات ثقافة وإمبراطورية مختلطة جديدة تعكس بالتدريج الإسلام الذى تشربته وتدعم الإنجازات الفكرية والعلمية.

وفى عام 1406 والمغول يمرون بحالة ضعف ووهن ستظهر شخصية لها أصول مغولية من مكان بالقرب من سمرقند يدعى تيمور ويُعرف أيضًا باسم تيمورلنك أو لنك الأعرج. ويُطلق على اسم أسرته الحاكمة التى ستقتصر فترة حكمها على الفترة من 1336 حتى 1506 اسم الإمبراطورية التيمورية. وتصل هذه الإمبراطورية إلى أوجها عندما تمتد جنباتها من أعماق روسيا إلى شمال الهند وغربًا فى الأناضول. وبالرغم من أن تاريخ سمرقند يرجع إلى ما قبل فترة الإسكندر الأكبر فإن تفوقها وتألقها سيتحقق خلال حكم تيمورلنك وتصبح مركزًا للعالم. كما يساعد تدفق غنائم وثروات الحروب فى تطور وازدهار معمارها بشكل استثنائى، ويشمل ذلك تأسيس مجمع ريجستان للمراكز الدينية والتعليمية. وبالرغم من أن التيموريين كانوا من أصل مغولى فإنهم جددوا الولع بالثقافة والإبداع الفارسى مرة أخرى.

وبخلاف التمزق والتشرذم الذى أحدثته الغزوات المغولية والتيمورية ستتبدى بعض الآثار الإيجابية للحرائق الهائلة التى أشعلوها فى أماكن عدة. فعبر أجيال وأجيال تشبع الآلاف والآلاف من سكان وسط آسيا بالاختراعات التى ابتكرها المسلمون وسيهرب هؤلاء فيما بعد تجاه الغرب وبذلك يثرون الكثير من الأماكن فكريًا مثل الأناضول ومصر والأندلس. أما بالنسبة للمغول فلن يقضوا على بغداد عن بكرة أبيها فحسب، بل سيعتنقون الإسلام، فى نهاية الأمر، وهو أفضل ما فى الثقافة الإسلامية. ويُنشئ هولاكو خان الذى دمر بغداد فى القرن الـ 13 أعظم مرصد فلكى فى العالم فى مراغة. ويحذو تيمورلنك حذو هؤلاء حيث سيأخذ الفنون والكنوز الإسلامية التى استولى عليها إلى بلده الحبيب سمرقند كى يجعل منه مركز الاختراعات فى وسط آسيا.

ويعتبر العثمانيون هم الخلفاء الثقافيين للسلاجقة الأتراك حيث أسس أسرتهم الحاكمة فى عام 1299 بالأناضول عثمان. وبالرغم من أن العثمانيين سيفقدون الكثير من أراضيهم بفعل غزو التيموريين فى منتصف 1300 فإن العثمانيين سيصمدون أكثر من التيموريين ويعلو شأنهم مرة أخرى ويستولون على كثير من أراضى حضارة بيزنطة القديمة. وفى عام 1453 تحت حكم محمد الفاتح يغزو الأتراك العثمانيون القسطنطينية ويعيدون تسمية العاصمة باسم إسطنبول. وتغزو الإمبراطورية العثمانية أجزاء كبيرة من الخلافة الإسلامية باستثناء الأندلس ولكن بإضافة اليونان والبلقان. وتصل الإمبراطورية إلى أوج تألقها السياسى والفكرى تحت حكم سليمان القانونى، والذى يحكم الإمبراطورية من 1520 وحتى 1566 ويشتهر عصره بالسماحة الدينية وتطبيق مبدأ الكفاءة فى إسناد الوظائف للغير عن مبدأ الانتماء إلى النبلاء. كما جدد الضغوط الإسلامية العسكرية على أوربا وقام بحملات عسكرية على المجر وفرض حصارًا على فيينا.

أما بعيدًا فى اتجاه الجنوب الشرقى يمر المسلمون على بلاد السند شمالى الهند فى القرن الثامن ويمارسون أعمال التجارة عبر البحر العربى، وبهذا تصل الثقافة الإسلامية إلى الموانئ الهندوسية. وبحلول القرن الـ 12 تؤدى سلسلة من موجات الغزاة قادمة من وسط آسيا إلى تأسيس الوجود الإسلامى فى مدن مثل لاهور ودلهى. وتصل السلطنة الدلهية إلى قمتها ما بين الأعوام 1206 و1526 وتتحكم فى كل أجزاء شمال الهند من الحدود الأفغانية وحتى البنغال.

ويبزغ فجر العصر الذهبى الإسلامى فى الهند مع قدوم المغول من وسط آسيا فى القرن الـ 16 وتأسيس الإمبراطورية المغولية فى الفترة ما بين 1526 و1857. أول الغزاة المغول هو بابر، وهو من نسل تيمورلنك المباشر. وبالرغم من تفكك وزوال الإمبراطورية التيمورية يستطيع بابر من مركزه الرئيس وهو أوزبكستان فى وقتنا الحاضر أن يكون قوة عسكرية كافية وباسلة كى يعيد تأسيس الإمبراطورية التيمورية. ويتحول بابر بقوته العسكرية نحو الجنوب، وبعد مرور سنوات طوال عليه فى تحقيق الانتصارات وتلقى الهزائم فى الحروب وخسارة سمرقند مجموعة من الغزاة من الشرق والغرب - يقرر بابر أن يجرب حظه جنوب منطقة الهيمالايا، وبهذا يواجه سلطان دلهى ويهزمه ويتوسع فيما بعد تجاه إقليم الدكن. ويتسم بابر بتعليمه المتميز فضلًا عن كونه محاربًا مرهف الحس ويترك وراءه سيرة ذاتية مفصلة يطلق عليها اسم بابرنام.

ورغم أن مدن دلهى ولاهور ستأخذان نصيبهما من المجد والثراء فإن أعظم العواصم المغولية ستكون «أجرا» فى الفترة ما بين 1526 و1658.

أما حفيد بابر جلال الدين أكبر فسوف يكون أكثر ملوك المغول المحبوبين من جانب الهنود من غير المسلمين. وقد اشتهر بتعميق التسامح ما بين الأديان وإدماجهم



المسجد الأموى بدمشق الذى بنى عام 715 بعد الميلاد ويعد أحد أقدم وأكبر المساجد فى العالم.

داخل المجتمع، كما حاول أن يوجد ديناً جديداً عن طريق الدمج ما بين الإسلام والهندوسية. وسيؤسس سليله شاه جهان «تاج محل» فى أجرا والقلعة الحمراء بدلهى والكثير من التحف المعمارية الأخرى. وسيتزوج شاه جهان الأميرة الفارسية نور جهان، والتى ستدعو بدورها المهندسين المعماريين والفنانين والشعراء والمفكرين الفارسيين كى يحيوا ويثروا بلاطهم الملكى. وبالرغم من أن نتيجة ذلك ستتجلى فى ظهور صالون فكرى وثقافى متميز وستظهر اتهامات بالفساد والانحطاط. كما سيؤدى رفض الهنود من السكان الأصليين لهؤلاء الأجانب إلى الإطاحة بحكم جهان بواسطة ابنه.

وفى أوج إمبراطورية الهند المغولية فى العام 1700 ستمتلك تلك الحضارة 25 % من الثروة المادية فى العالم وسيبلغ عدد سكانها 140 مليون نسمة، الأمر الذى سيجعل أى أمة أخرى تبدو أشبه بالقزم بجوارها باستثناء الصين.

ويستمر تبادل الأفكار ما بين الشعوب والحضارات لآلاف السنين، خاصة بين الشرق والغرب بفضل تلك المراكز البعيدة وذلك بالرغم من الحروب والطاعون ومشقة السفر. وسَيُثْرِى المهاجرون من وسط آسيا وبلاد فارس والجزيرة العربية وبخارى وغزنة أماكن مثل الأندلس والعراق وشمال إفريقيا. كما سيتواصل الحوار ما بين بغداد وقرطبة ودلهى والقاهرة.

يزور الرحالة ابن بطوطة فى القرن الـ 14 معظم هذه المراكز من نقطة انطلاقه من شمال إفريقيا. ورغم الاختلافات بين الأجناس والأماكن واللغات سيشعر بوجود وعى مشترك بين تلك الشعوب فى مجال الاختراعات والإبداعات.

واستنادًا على هذه الخلفية المتكاملة للعالم الإسلامى، والتى اختفت فى وقتنا الحاضر سيجد العلماء والمفكرون والفنانون دورًا يؤدونه رغم أن هذا الدور سيسقط بين طيات التاريخ الضائع. وسيرسى هؤلاء أسس العالم الحديث. ويعى الأوربيون الأوائل من غير المسلمين كما يعى الناس في كل مكان هذا الدور الكبير، بل تبهرهم تلك الإنجازات حتى ليحفظوا عن ظهر قلب أسماء هؤلاء العلماء والمفكرين وأسماء اختراعاتهم وإبداعاتهم. ولكن مع مرور الزمن ينسونها ويعزون التقدم الذى يشهدونه فى العالم الحديث إلى أنفسهم وحدهم.



تجلى عظمة الله فى الأرقام

﴿وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾

[سورة الجن 28]

بنجالور، الهند 2007: من فوق ومن بعيد تبدو بنجالور عاصمة ولاية كارنتكا على هيئة شبكة حديثة تقطع جنبات أعشاب وأشجار السافانا الخضراء التى تكسو هضبة الدكن الفسيحة. ويبدو تصميم المدينة غير معتاد بالنسبة لهذا الجزء من العالم، ويرجع ذلك إلى تموجه المنتظم. وخلال موسم الرياح الموسمية يتجمع ركام ضخم من السحب مما يؤدى إلى وقوع العواصف الرعدية فى فترة ما بعد الظهيرة ويتبع ذلك انهمار الأمطار الغزيرة على النخيل والشجيرات الخفيضة والمبانى المربعة والربعيات المخططة التى تنم عن عصر حديث. وتتعلق طبقة من العوادم ضاربة إلى الزرقة وسط درجات الحرارة الاستوائية شاهدة على صخب وضجيج الحركة المرورية داخل وخارج المراكز المختلفة.

وتنم هذه الشبكة عن مدينة لها خصائص غير تقليدية بالنسبة لشبه القارة هذه. ويعود تاريخ بنجالور إلى 500 عام مضت داخل بلد له آلاف السنين من الحضارة غير أن النمو الذى لحق ببنجالور حدث فى الثلاثين عامًا الماضية فحسب. ويحتوى المتنزه العام فسيح الأرجاء على مبنى المحكمة العليا المصنوع على الطراز النيوكلاسيكى من الطوب الأحمر، فضلًا عن الهيئة التشريعية للدولة والمكتبة. تتشعب شبكة الطرق الحديثة حتى تصل إلى الضواحى المكتظة بسكانها وحركتها وأبراجها التى تتخذ شكل الصناديق، ثم إلى الحدائق المحيطة بالشركات الموحية بعصر الرأسمالية العالمية.

وفى أحد هذه المكاتب التى تطل على متنزه من المتنزهات تكتب فاهميدا خان اللوغاريتم الخاص ببرامج الكمبيوتر المعنية بالبضائع التى تسافر حول العالم وعبر أسعار صرف مختلفة شاملة شيكاغو وسنغافورة. واللوغاريتم عبارة عن مجموعة أرقام حسابية وعمليات إن تمّت بشكل منظم تؤدى إلى النتيجة المرغوب فيها. ويعد

اللوغاريتم ضروريًا بالنسبة لتصميم البرمجيات، كما أنه هام للكثير من العلوم الحديثة والهندسية، وتسمح للكمبيوتر والإلكترونيات الذكية أن تبحث داخل كمّ رهيب من البيانات والنصوص الرقمية، وتحسب العلاقات المكانية كما تشفر وتفك شفرة المعلومات السرية وتقوم بكل عمليات الحساب والتكنولوجيا والتجارة والعلوم الحديثة.

وقد قامت فاهميدا بتأسيس محل البرمجيات الخاص بها، ويعد من أكبر عملائها كبار صناع تكنولوجيا المعلومات فى العصر الحديث فى الهند شأن إنفوسييز وwايبرو، كما أنها بدأت تحصل على عقود من الشركات الكبيرة متعددة الجنسيات أيضًا. وقد بدأت تلك الأعمال الهندية أساسًا معتمدة على أعمال المقاولة من الباطن التى تقوم بها أمريكا الشمالية وأوربا، بيد أنه بدأت تتطلع اليوم كى ترتفع لتصل إلى مستوى العمل لتصميم نظام حسابات سلاسل المطاعم العالمية وكتابة البرمجيات وتصميم الأجهزة والدوائر الكهربية التى ستأتى بالموجة الجديدة من نظام الحسابات العالمى.

واللوغاريتم التى تعمل عليها فاهميدا تحول البيانات المالية إلى لغة تقنية عند نقلها، كما أنها تعمل على الجانب الآخر، ألا وهو فك شفرة هذه المعلومات. ويبدو اللوغاريتم غاية فى التعقيد بالنسبة للقراصنة واللصوص حتى إن الأمر ليستغرق الآلاف من أجهزة الكمبيوتر الضخمة التى تعمل لسنوات وسنوات كى تجرب كل عملية من عمليات تبديل اللوغاريتم حتى لتصل إلى مكان الرقم العشرى رقم 132 حتى تتبين الكود. إذن فالمحاولة لا تجدى فى هذا السياق.

تعلمت فاهميدا مهاراتها فى السليكون ڤالى حيث عملت بعد أن أتمت دراستها فى معهد كاليفورنيا للتكنولوجيا. عملت أولاً فى هيوليت باكارد جد شركات السليكون ڤالى، ثم التحقت بالعمل بعد ذلك فى أنظمة أوراكيل. وربما لو قدر لها أن تبقى فى أوراكيل لأصبحت الآن نائب مدير أو ربما اعتلت منصبًا أعلى من ذلك، ووفقًا للمدة التى قضتها فى الشركة ربما كانت الآن من أصحاب الملايين.

فى عام 1998 اتخذت قرارًا مصيريًا. فلقد تربت منذ نعومة أظافرها على أن تنظر تجاه الشمال والغرب حيث الدول الغنية فى أوربا وأمريكا، وإلى مراكز التعليم الأجنبية أمثال كال تيك، غير أنها قررت فى نهاية الأمر أن تعود إلى موطنها مضحية بدخلها الكبير ومكانتها المتميزة فى المجتمع وفرصها للالتحاق بشركات أخرى، وقررت العودة إلى الوطن حيث تؤسس شركتها الخاصة.

وقد اتخذ قرار العودة إلى الوطن آلاف من الهنود الآخرين ممن هاجروا إلى الولايات المتحدة الأمريكية، خاصة قرار العودة إلى بنجالور بالتحديد. وبالرغم من أن موجة المهاجرين العائدين هؤلاء كانت تتمثل بوجه أكبر فى العاملين فى مجال الأنظمة الحسابية والبرمجيات فإن آخرين من الأطباء وأصحاب المشروعات تشجعوا للقيام بنفس الخطوة. وعلى الرغم من أنهم جميعًا قد ضحوا بدخولهم المرتفعة حيث إن أجور العمالة فى الهند تنخفض كثيرًا وينخفض مستوى الحياة أيضًا فإنهم حظوا بسبل ترفيه أخرى مثل الاحتفاظ بالخدم وهو أمر شبه

مستحيل فى أمريكا وأوربا. وبهذا يستطيعون الحياة على قمة المجتمع الهندى بينما لم يكونوا فى المهجر إلا مجموعة من الطبقة الوسطى التى تعيش فى مستوى مناسب من الحياة. وبالنسبة لدولة غرقت كثيراً فى بحار الاحتلال والاستعمار وتعرضت لفترات مطولة من الركود بفعل الشيوعية، تأتى هذه الطبقة الجديدة بشيء أشبه بثورة اقتصادية لم يتخيلها أحد من الشيوعيين من قبل، ولا يعلم أحد أيضاً إلى أين ستأخذهم.

وأسرة فاهميدا كما يبدو الاسم من الأسر المسلمة بالرغم من أن تفاصيل مكان وزمان اعتناقهم لهذا الدين منسية. ولقد كان أجداد فاهميدا من الموظفين الذين عملوا لدى المغول الكبار ثم البريطانيين. واستقر أجدادها بعد ذلك فى بنجالور فى عهد الهند البريطانية. وبوصفهم أناساً متعلمين ممن يحيون داخل المدن الكبيرة فى أقصى الجنوب فقد كانوا بعيدين نسبيًا عن حركات الهجرة الداخلية والصراعات بين الأديان التى تحدث فى الشمال. ولقد وعوا خلال فترة الانقسام فى عام 1947؛ قلباً وقالباً فكر غاندى فى إحداث التناغم بين الأديان ولم يفكروا أبداً فى الانتقال للعيش فى باكستان أو بنجلاديش بخلاف عشرات الملايين الذين فعلوا ذلك.

كما أنهم شعروا أن قرارهم هذا له ما يبرره؛ فرؤيتهم للمسلمين من الهنود وهم ينهضون لاعتلاء أعلى مناصب النجاح والسلطة فى بوليوود وفى رئاسة البلاد وفى مجال الأعمال التجارية والترفيه قد جعلهم جد فخورين. كما أسعدهم أكثر كونهم هنوداً فى الأساس، وهو أمر يثلج صدورهم.

كما ازداد فخر عائلة فاهميدا عندما رأوها تنتقل إلى كاليفورنيا للدراسة وعندما سمعوا عن النجاح الذى حققته فى العمل. وعلى الرغم من أن القلق التقليدى كان يساورهم حول كونها فتاة وحيدة تحيا فى بلاد أمريكا البعيدة، وكانوا دوماً يحاولون أن يجدوا لها الزوج المناسب غير أنهم أعطوها منذ البداية حرية اختيار الشخص المناسب.

أما عن بنجالور فقد استولى عليها المغول الكبار فى القرن الـ 17 ويعكس معمار ميسور وبيجابور لب الرؤية الإسلامية بقبابها ومآذنها وأقواسها المدببة التى تردد أصداء العباسيين والفرس ووسط آسيا، لكن شكل مدينة بنجالور ذاتها لا يبدو إسلاميًا ولا حتى ولاية كارناتكا. ويشكل المسلمون فى الهند أقلية رغم أنهم كانوا من الصفوة السياسية الحاكمة لقرون طويلة. كما أنهم لا يمثلون سوى جزء فحسب من النسيج الثقافى والدينى لجنوب آسيا. ويمثل الهندوس السواد الأعظم لولاية كارناتكا وأماكن أخرى. ويحيط بالمكان المعابد الهندوسية مثل بيلور وهامبى، أضف إلى ذلك تأثير البرتغال الذين تاجروا على طول السواحل الهندية لمدة 500 عام، كما أن مستعمرتهم القديمة «جوا» كانت تبعد بضع مئات الأميال غرباً. وتظهر آثار وأساليب الإنجليز حيث كانوا يعتبرون الهند الحجر النفيس الذى يزين تاجهم الاستعمارى.

وبينما تتميز بنجالور بالثراء والازدهار فإن اقتصاد دولة مثل الهند ما هو إلا مزيج من الفقر العتيق والرأسمالية العالمية. وعلى الرغم من أن 600 مليون هندى لم تمسهم العولمة بعد ويعيشون على الكفاف بشكل لا يتخيله أى من الغربيين، فإنك عندما تصل إلى الـ 400 مليون المتبقين أو ما هو أكثر من ذلك تتدرج مستويات الثراء شاملةً طبقة وسطى تعد الأكبر على مستوى العالم بأسره.

وقد ساعدت المدارس الفنية الهندية التى ترقى إلى المستويات العالمية فى إيجاد طبقة من الصفوة فى مجال التكنولوجيا تغذى الشركات الضخمة الجديدة مما يساعد فى تحويل هذه الدولة صاحبة الحضارة القديمة إلى رائدة عالمية فى تكنولوجيا المعلومات.

وقد شكل قرار العودة إلى الوطن مشكلة كبيرة بالنسبة لفاهميدا وعائلتها الكبيرة. فبالرغم من أن هذه العائلات تشتاق كثيراً إلى من هاجروا من ذويهم وتنتظر يوم عودتهم بفارغ الصبر فإن آل خان من ناحية أخرى وفيهم والدة فاهميدا أحسوا بمشاعر مختلطة عندما واجهتهم بواقع عودتها إلى أرض الوطن حيث إنهم تشربوا من داخلهم إحساس أن الهند ليست بالمكان المناسب بفعل فترة محدودة فى تاريخهم ألا وهى فترة الاحتلال الإنجليزى التى عززت لديهم الإحساس بأن الأجانب أفضل منهم. فبالنسبة لهم كان الإنجليز جيدين، أما الأمريكان فكانوا أفضل منهم. وهكذا دار بين العائلة وابنتهم الناجحة جدل ساخن ومناقشات يعتريها اللبس والحيرة حول سبب عودة ابنتهم، وتركها كل النجاح الذى حققته.

وبالرغم من أن فاهميدا نفسها قد فكرت فى نفس هذا الكلام وأحست ذات المشاعر، فإنها لم تبح لهم بذلك. لقد كانت تشعر بالفخر بسبب الدرجة العلمية التى حصلت عليها من معهد كال تك ومن عملها فى هيوليت باكارد وأوراكل، غير أنها أدركت أنها تحمل فى داخلها نفس مشاعر التحامل بخصوص التعليم، ولكنها لم تكن تحب أى شىء له أصل بريطانى. كانت تحترم حداثة الحضارة الأمريكية ومدى التقدم الذى أحرزته هذه البلاد عبر فترة زمنية قصيرة، كما كانت توقن أن أفضل الجامعات، بشكل مجمل، هناك بلا منازع.

ولكن عندما رأت فاهميدا لمحة مماثلة من الحداثة فى بنجالور خلال زياراتها، ورأت المال المتدفق فيها وحدائق المكاتب، واستنشقت نفس الرائحة المألوفة لديها، والتقت بالكثيرين من السليكون ڤالى، هنالك غيرت رأيها، حتى إنها اقتنعت أنها بعودتها إلى موطنها والمساعدة فى بناء بنجالور، قد تساعد فى بناء الهند برمتها بل بناء نفسها أيضًا.

يتبقى لفاهميدا ساعة حتى تلتقى بعميلها التالى فى أحد فنادق وسط البلد. لقد جاءها هذا العميل من بوسطن وقد أبلت شركته بلاءً حسنًا. وتنظر فاهميدا من خلال نافذتها وتتوقع أن تسقط الأمطار قبل أن يحل الظلام، وهذا مما لاشك فيه سوف يؤثر بالسلب على حركة المرور.

ولا يزال يتبقى أمامها مشكلة حسابية خفية ما إن تحلها حتى تشعر أنها تستطيع أن تترك مكتبها اليوم، وتنظر أعلى إلى الأرفف وهى تبحث بعينيها عن أحد كتبها القديمة التى تعود إلى أيام الجامعة. يحمل الكتاب اسم عناصر اللوغاريتم ويظهر على غلافه الخارجى صورة أحد علماء الرياضيات العرب أو الفرس القدماء ويعرف باسم الخوارزمى وهو عبقرى اللوغاريتم. تعرف فاهميدا أن هذا الكتاب قد ظل على رف مكتبها لفترة طويلة من الزمن ولكنها لاتجده الآن، فهل أخذه أحد زملائها معه وهو يتناول غداءه بالخارج.

تدرك فاهميدا أنها بحاجة إلى هذا الكتاب وتعرف بالضبط الفصل الذى تحتاج إلى قراءته ونادرًا ما تلجأ إلى قراءة أجزاء أخرى. وهى لا تتذكر أى شىء عن الخوارزمى ولا يبدو أن للأمر أهمية فى اللحظة الحالية. كانت مقدمة الكتاب تحكى عنه شيئًا ربما قرأته هى منذ عشرين عامًا قبل التخرج، ولكنها لا تتذكر بالضبط شيئًا سوى اسمه. ولكن الأمر لايهم فالتاريخ ذو الصلة فى عالم تكنولوجيا المعلومات يعود إلى عامين من الآن فحسب.

ولكن ترى هل فقدتْ هذا الكتاب؟

بغداد عام 832 بعد الميلاد - هناك خيط من خيوط نسيج التاريخ الضائع مصنوع من الأرقام والحسابات، وتلك الأرقام التى ولدت من محض الخيال سوف تساعد الخيوط الأخرى داخل النسيج على التحول إلى شىء مادى.

إن القوة المحورية التى أوجدت هذه الأرقام والمعادلات تكمن فى بلاد فارس وتتجلى مع ولادة رجل فارسى فى عام 780 فى البلدة القاصية خوارزم فى محافظة خراسان بوسط آسيا ويطلق عليه اسم محمد الخوارزمى وتعنى أن محمدًا من بلدة خوارزم.

كان مسقط رأسه فى القرن الثامن على سهل فسيح؛ محطة على طريق الحرير الذى يبدأ أحد طرفيه من الصين ويمتد حتى يصل إلى روما. وبالرغم من أن طرفى هذا الطريق لم يلتقيا فى يوم من الأيام بشكل مباشر، فإنه يحدث عبر القرون قدر مناسب من التبادل ما بين العالمين. ويمر كل هذا على خراسان، وفى بعض الفترات يخف هذا التبادل حتى ليضحى مجرد نسمة هواء أو فراشة غريبة تائهة تتعلق فى الهواء لبضع ثوانٍ ثم تقذفها الرياح فى مكان آخر.

وتقع واحة خيوه (خوارزم) التجارية القديمة جنوب بحر آرال، ويمثل كل من الواحة والبحر ملاذين من الماء تحيط بهما صحراء كاراكوم التى تمتد أطرافها إلى ما لا نهاية. وتأتى مجموعات مختلفة من أديان ومعتقدات متعددة وتمر عبر الواحة أو تبقى أو تنتهى حتى تدب جذور الإسلام فيها. وتمر قوافل الجمال والخيول وجموع البشر وتخرج من الفراغ اللامتناهى كى تضع بضائعها وتعقد صفقاتها ثم تشرب وتستريح

وتروى قصصها وتتطلع إلى النجوم فى السماء. وتبتلع المساحات الشاسعة البلدة الصغيرة عندما يحل الظلام، أما فى النهار فتبدو كالنقطة الخضراء على وجه كيان أصفر ضخم. وبالرغم من أن خوارزم ستصبح فى يوم من الأيام جزءًا من دول أخرى وإمبراطوريات، فإن جذورها تعود إلى بلاد فارس القديمة. ويحمل الرجل النحيل ذو اللحية والشعر الأسود الطويل روح بلاد فارس بين ضلوعه. وبالرغم من أنه قد سمى على اسم أشرف الخلق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم مثل الكثير من أبناء المسلمين الذكور، فإن بعض العرب يطلقون عليه اسم المجوسى بمعنى الساحر مما يجعل البعض يعتقد أن ديانته السابقة أو ديانة أهله كانت الزرادشتية أو عبادة النار. كما أنه بسبب رجوعه إلى نصوص الرياضيات والفلك العبرية القديمة يعتقد البعض أن عائلته كانت من أصل يهودى.

بيد أن من أطلق على الخوارزمى اسم الساحر لم يجانبه الصواب حتى وإن لم يعرف كم كان على حق فى اختيار مثل هذا الاسم. فهذا الرجل داكن الشعر ذو العينين البنيتين الثاقبتين المستقرَّتين داخل تجويف عميق، والخدين اللذين أضنتهما النحافة والظروف الجوية ـ هو بالفعل ساحر ولكن فى مجالات أخرى. وحيث إنه تربى فى مكان تمسك فيه الناس بالدين وتقاليد السحر بدأ يبحث فى أسرار الكون ولكن بالأرقام. ويكتب الخوارزمى المسائل الحسابية ويحلم بالأرقام ويحول كل حركة من حركات اليوم إلى رقم حتى عدد خطواته إلى الحمام وزاوية انعكاس شعاع الشمس على الأرض والمثلث الذى يراه هناك ومنحنيات طريق الحرير الذى يمتد حتى منتصف الكرة الأرضية.

ويشعر الخوارزمى أن فى الأرقام والمعادلات والحسابات وفى تسلسلها شفرات الكون المختبئة، وأن هذا التمثيل الرقمى ما هو إلا تعبير عن مدى تعقد الخليقة وإبداع الله عز وجل. وكمسلم وفى وقت يؤمن فيه الناس بأنه يمكن الوصول إلى الله بالعقل والمعرفة سيساعد الخوارزمى فى إحداث ثورة فى عالم الرياضيات، وبذلك يرسل أول إشارة؛ إنه فى يوم ما فى المستقبل عندما يظهر عصر الحاسوب لسوف يتفوق هذا الجهاز على البشر فى سرعاته وقدراته مهما كان هذا العقل بارعًا.

وعند تأسيس بيت الحكمة فى عام 832 فى بغداد يرسل الخليفة المأمون بنفسه فى طلب الخوارزمى؛ وذلك للمساعدة فى اكتشاف قدرة الله وإبداعه فى الأرقام. وعندما يصل الخوارزمى إلى بغداد يلتقى بمترجمين بارعين مثل حنين بن إسحاق الذى كان تدريجيًّا يفك شفرة صيغ إقليدس المعنونة العناصر، والتى تأسست على علم الهندسة الذى طوره فيثاغورس وبطليموس وأفكار أرسطو وسقراط. ويقوم مترجمون آخرون بترجمة أعمال أرشميدس مثل الكرة والأسطوانة ومقياس الدائرة واتزان الأسطح والأجساد الطافية، وكل تلك الأعمال تؤثر على علماء الرياضيات المسلمين بشكل كبير. ويساعد الخوارزمى فى هذا المجهود المبذول حيث إنه يستطيع أن يقرأ اللغة الإغريقية ويحولها إلى العربية.

ويرى هذا الرجل القادم من وسط آسيا علماء فى الرياضيات وعلوم الفلك يرتدون العمامات العربية، يعملون فى غرف يستخدمون الخرائط والرسوم البيانية التى توضح النجوم والأسطرلاب وأدوات القياس الأخرى ويفكرون فى حل المشكلات معًا ويفحصون عمل بعضهم ويتأملون ترجمات بعضهم ويناقشون الأمور بلا نهاية. وبالنسبة لرجل اعتاد العمل وحده حيث إنه ما التقى بعلماء كانوا على مستوى ذكائه إلا نادرًا، يفاجأ الآن بكل هذا القدر من الذكاء والتنافس من مجتمع فى مكان واحد، الأمر الذى يبهجه ويخيفه فى آن واحد. ويتأكد الخوارزمى أن هذه الفرصة لا مثيل لها ومن ثم يقرر أن يستفيد منها أقصى استفادة.

وحتى مع تكشف معارف الإغريق شيئًا فشيئًا وبالتفصيل يومًا بعد يوم، يصمم الخوارزمى على البحث عن علوم الرياضيات أينما وجدها. ولقد سمع عن علوم الرياضيات التى تفوق فيها الهندوس. وإبان تأسيس بلاط الخليفة المنصور كان هناك عالم فلك هندى اسمه كانكا ويقال إن هذا العالم لجأ إلى نصوص هندوسية كتبها عالم رياضيات متوفى هو براهماجوبتا الذى كان يحسب موقع الشمس ومواقع الكواكب ويتوقع حدوث الخسوف وغيرها من الأمور. سمع الخوارزمى الكثير من الكلام عن هذا الكتاب والأسلوب المتبع فيه لكنه لم يستطع العثور عليه. ويقضى أيامًا وأيامًا يبحث فى الأرشيف محاولًا أن يعثر على النص الأصلى ويطلب من أمناء الأرشيف والمكتبة بإلحاح وبلا كلل أو ملل أن يجدوا الأوراق السنسكريتية التى كتبها براهماجوبتا، والتى استخدمها كانكا فى يوم من الأيام.

وعندما يعود أمناء الأرشيف إليه مرة أخرى يجلبون معهم الكثير من كنوز الهند، ومن ضمن هذه الكنوز يجد الخوارزمى والخليفة الكتب التى كانا يتوقان إليها وهى عبارة عن المعارف والأفكار المجمعة لشعوب وحضارات أخرى. كما يجد من بين تلك الكنوز أيضًا كتابًا يعود عمره إلى 200 عام بعنوان بداية الكون. وبالرغم من أن الخوارزمى لا يفقه إلا القليل من اللغة السنسكريتية، فإنه يشعر أن هذا الكتاب هو بغيته ويرسله إلى المترجمين كى يبدءوا أعمالهم على الفور.

ويصبح الاسم العربى لهذا العمل الهندوسى هو السندهند. وتضيع النسخة الهندوسية فى يوم من الأيام كما تضيع النسخة العربية لأعمال الخوارزمى غير أن الترجمة اللاتينية لعمل الخوارزمى تبقى.

وبينما كان المترجمون يفكون شفرة العمل الهندى القديم والأحرف السنسكريتية التى تبدو كالتعويذة السحرية وأسرارها الكائنة فى قرار مكنون واحد تلو الآخر حتى تأخذ شكل اللغة العربية المألوف، يبدو الخوارزمى فى البداية كالمصعوق ثم يشعر بالرهبة من تجلى هذه المعرفة وأخيرًا الامتنان لعمق إحساسه وروحه. وفى كل مساء ينتظر كشفًا جديدًا من كشوف علم الرياضيات. ويستلقى على سطح بيته الكائن فوق بيت الحكمة ليلة بعد ليلة كما كان يفعل وهو صبى صغير فى خراسان يشاهد نصف الكرة الأرضية والنجم القطبى والسماء

الوسطى والجنوبية وهى تنحدر نحو أقصى الجنوب. وفى منتصف قاعدة نصف الكرة الأرضية فى السماء يفكر فيما قد تعلمه اليوم السابق ويهرب النوم من بين جفونه وهو يترقب كشف الغد.

وبينما تتكشف له أمور لا حصر لها بفعل أقلام المترجمين يجد ما يبهره ويهز جنباته هو ذلك الشكل الهندى الذى يبدو أشبه بالنقطة السوداء أو رأس الدبوس الأسود أو النجم السالب. وتعد هذه النقطة السوداء هى أساس رؤية جديدة برمتها فى علم الرياضيات وفى العلوم وفى الكون. فتلك النقطة السوداء، والتى فى الأساس تعنى العدم، هى مصدر بناء علوم الرياضيات العليا التى ستنشأ لتوها الآن. إن العدم الذى توحى به هذه النقطة سيصبح مركز مصدر الكون المادى حولنا.

ويشعر الخوارزمى بالوهن من كل هذه المعرفة المتفجرة فى رأسه وينهل منها حتى الثمالة ويتأكد من أن الرياضيات ما هى فى النهاية إلا إبداع الخالق فى هذا الكون. فمن أول اكتشاف النقطة الهندية، والتى ستظهر فى عالمنا الحديث على شكل الدائرة المعروفة بالصفر، يرى عدداً غير محدود من المسارات والاحتمالات تتفتح فى كل الاتجاهات.

بيد أن كل تلك الأفكار لا تشغل بال الخوارزمى وحده؛ حيث إنه ـ فى بيت الحكمة ومراكز الرياضيات الأخرى التى ستظهر فى البلاطات الملكية الأخرى ـ يحاول العشرات وفى النهاية المئات من علماء الرياضيات والفلك ترتيب الكثير من الأمور والقضايا فى أذهانهم، وكل منهم ينظر إلى لغز الرياضيات هذا من زاوية مختلفة. وبلا وعى وبشكل حدسى يخلق رواد علم الرياضيات المسلمون نوعاً من الذكاء الجماعى وهم يتغذون على معلومات بعضهم ويقتبسون ويسرقون من بعضهم ويتنافسون حتى يحصلوا على امتيازات رعاتهم ويقعون فى أخطاء جسيمة ويحققون اكتشافات بديعة.

وبشكل أو بآخر يشبه بيت الحكمة فى بغداد والمراكز الإسلامية المماثلة له أول بيوت خبرة فى العالم، وهم أشبه بشبكة من الحسابات تستخدم مجموعة منسقة ومتشابكة من العقول البشرية بدلاً من الأجهزة.

ولا يقف الخوارزمى وزملاؤه وحدهم فى هذا الزمان أو الحقبة التاريخية، فبجانب الاختراع يستوعبون ويجمعون الكثير من العبقريات التى سبقتهم من البابليين وعبر الإغريق يرثون الكسر الستينى وهو مقياس الوقت الذى يقسم الوقت إلى 60 ثانية و60 دقيقة. ويترجم علماء الفلك المسلمون والعلماء الآخرون تلك الأرقام إلى أجزاء على البوصلة ثم إلى اتجاهات للكرة الأرضية والسماء تظل باقية حتى القرن الـ21. ويأخذون عن الهنود الدلالات الفلكية للأرقام، ومن خلال الفرس ومن الهنود يستوقفهم الصفر ويلى ذلك الوصول إلى علم الرياضيات العشرية وأول دلالات تمثيل الأرقام باستخدام الرموز وليس بالكلمات.

ويلاحظ الخوارزمى من ضمن أمور أخرى أن عملية كتابة الرياضيات تحتاج إلى المراجعة. وفى ذلك العصر كانت هناك ثلاث وسائل لحساب الرياضيات فى عالم الخلافة العباسية وضواحيها. فهناك وسيلة العد باستخدام الأصابع وهى وسيلة عالمية وتخدم أغراضًا بعينها مثل المعاملات المالية الصغيرة فى عالم الأعمال التجارية. كما أن هناك وسيلة عربية أكثر تعقيدًا باستخدام أحرف الهجاء العربية وهى وسيلة أفضل غير أنها لا تلبى الغرض بالكامل.

ثم هناك الأسلوب الهندوسى وهو نظام عشرى به رموز تمثل الكميات من 0 إلى 9 ثم تعود لتنظم فى تركيبات تزيد وتقل فى العالم اللامتناهى من الموجب والسالب من المصدر ألا وهو النقطة السوداء أو الصفر. وتعد الأرقام الهندوسية هى الأفضل على الإطلاق وهى الوحيدة الأنسب لكل الاحتمالات التى يراها الخوارزمى وأقرانه وخلفاؤه تتراقص فى أذهانهم، فمثلًا احتياجهم إلى حساب مساحة غير منتظمة الشكل أو إيجاد الكميات الناقصة باستخدام العلاقات ما بين تلك المعروفة واحتساب العلاقة ما بين الأرض إلى الشمس والنجوم، وذلك لتحديد التقويم بشكل أفضل والأيام الدينية كما أمرنا رسول الله صلوات الله عليه وسلامه بالإضافة إلى معرفة موقع مكة المكرمة حتى يصلى المؤمنون فى اتجاه القبلة وهم واثقون أنهم على صواب وليست مسألة تخمين للقبلة فحسب. ويصبح نظام الأرقام الهندوسى الإسلامى التراكمى ضروريًا للخروج بنظرية جديدة حول درجات الانحناء تبين كيفية حل مسألة وجود زوايا مختلفة أو منحنيات فى كونين مختلفين. ويساعد النظام الرقمى الجديد فى الإجابة عن المسائل الرياضية المتضمنة فى المساحات أوالمساقط مخروطية الشكل. كما تصبح الأرقام العربية الهندوسية ضرورية للإجابة عن الأسئلة التى تظهر فى القرن الـ21 بخصوص سلوك الضوء وخصائص الأجسام الصلبة. ولن يتسنى للتكنولوچيا والحضارة الحديثتين أن تنهضا وتتطورا بدون تلك الأرقام.

وفى عقل الخوارزمى وفى النظام الهندوسى يدور الكل فى مدار نقطة العدم. لقد اكتشف براهماجوبتا الصفر وحاول أن يدلل على خوائه وأن يكشف غموض المعادلة المكتوبة، كان أول عالم رياضيات على الإطلاق يحاول استخدام الصفر فى القسمة. وكتب الحقيقة المطلقة عن الصفر، ألا وهى أن صفرًا مقسومًا على صفر يساوى صفرًا. وبالرغم من أن فكرة هذه القسمة فكرة خاطئة فإنها غير مستحيلة. لقد كانت دائمًا لدى براهماجوبتا الرغبة فى التفكير بطريقة جديدة، الأمر الذى أطلق شرارة من العبقرية إلى العلماء المسلمين وأوقدت شعلة الفكر.

وبعد مرور 200 عام على إبداعات براهماجوبتا يستلقى الخوارزمى على سطح بيته ويضحك فى نفسه، ففكرة قسمة الصفر على الصفر تبدو غريبة ولا تثبت أى شىء وتنطلق ضحكته عالية على ذلك حتى تكاد توقظ النائمين. وتنادى عليه إحدى فتيات الليل متسائلة إن كان يريد صحبة فى هذا المساء، فهى لم تعتد سماع مثل هذه

الضحكات العالية تصدر عن ذلك الرجل الأسمر الوسيم، غير أنه يتوه فى أفكاره ولا يرد عليها.

ويدرك الخوارزمى أن الصفر واقع لابد من قبوله والإيمان بوجوده، غير أنه لا يمكن إثباته ويرى فى ذلك كله سخرية لاذعة، ومن ثم يقرر أن يشرك راعيه المأمون فى أفكاره هذه، ويعتقد الخوارزمى أن القيمة النهائية لعلم الرياضيات العقلى هى من وحى إلهام بحت من الله - جل جلاله - الذى يتكشف لك وجوده بالوحى وليس بشىء يمكن عده واحتسابه.

وبمعنى آخر، فإن علم الرياضيات المبنى على كمية مستوحاة غير مثبتة يعنى أن أرسطو كان على صواب كما ظهر فى حلم الخليفة. إذن فالوحى والعقل هما نفس الشىء وهما يبدأان من نفس النقطة، وكل شىء آخر فى الكون يدور حول هذا المدار.

ومنذ يوم انكشاف الأسرار الهندوسية وحتى نهاية حياة الخوارزمى يعمل هو وزملاؤه وأتباعه على رفع مستوى علم الرياضيات حتى يصل إلى المستوى الذى كان عليه أيام الإغريق والهندوس ثم يرتفع إلى ما هو أعلى من ذلك. فكما قام العباسيون والأمويون باستيعاب كل الهندسة المعمارية واللغات والفنون والأساليب التى أتت بها الشعوب المختلفة التى خضعت لحكمهم، يقوم الخوارزمى باتباع نفس المنهج فى مجال الرياضيات؛ حيث يشرع فى عملية متواصلة من استيعاب علوم الإغريق والبيزنطيين والهنود ويدمج هذا العلم داخل مستوى جديد أكثر تقدماً ورقيًّا.



طابع سوفييتى لإحياء ذكرى الخوارزمى عالم الرياضيات فى القرن التاسع، والذى يعود أصله إلى خوارزم (خيوة) وهى أوزبكستان فى وقتنا الحاضر.

وتأثرًا بكتابات هؤلاء الذين سبقوه إلى هذا العلم وبدءاً من أعمال براهماجوبتا يشرع الخوارزمى فى كتابة أعماله هو. وبوفاته فى عام 850 يكون قد كتب كتاباً عن الحسابات الجبرية وآخر عن الفلك وثالثًا عن الجداول الفلكية كما يكون قد صحح نظريات بطليموس وخرائط العالم. أما عمله الأساسى فى مجال الجغرافيا، والذى ارتكز على أعمال بطليموس فيقدم خطوط العرض وخطوط الطول لأكثر من 2400 مكان فى العالم شاملةً المدن والأقاليم والمحيطات والأنهار وسلاسل الجبال؛ وبذلك يرسى أساس خريطة العالم. ويتميز عمله عن عمل بطليموس بالدقة

الشديدة، خاصة داخل الأراضى الإسلامية وإفريقيا وآسيا. كما يكتب الخوارزمى كتابين آخرين؛ أحدهما عن الأسطرلاب والآخر عن الساعة الشمسية، إضافة إلى كتاب عن التقويم العبرى.

وكما جرت العادة فى تلك الأيام، فالدليل على عبقرية هذا الرجل يضيع على المستوى العالمى. ولكن عندما تبدأ ترجمة أعماله إلى اللغة اللاتينية كى يستفيد منها الأوربيون يكون قد مر على وفاة هذا العالم 300 عام. وبالرغم من هذه الفترة الطويلة التى تمر على كتابة كتبه، فإن الأوربيين لم يروا لها مثيلًا فى مجال الاستفادة من القدماء بل والبناء على أفكارهم أيضًا. وتدهشهم اكتشافات هذا العالم الفارسى الذى مضى على وفاته وقت طويل، كما أدهشت هذا العالم من قبل إنجازات الهندوس السابقين.

وحتى حلول القرن الـ 16؛ أى بعد مضى 700 عام على وفاة الخوارزمى، يحترم الأوربيون ويقدرون كل ما كتبه هذا العالم ويعتبرونه من المسلمات حتى الحواشى السفلية لكتابتهم تحتوى على ملحوظة «كما قال الخوارزمى»؛ أى أن كل حساباتهم قد تأسست على إيمانهم بكل علوم هذا العالم الفارسى. وتصبح الأعمال المترجمة للخوارزمى أساس كتب الرياضيات والفلك فى الجامعة فى أوربا والعالم الإسلامى.

ورغم كل ما سبق تصبح أهم إنجازات الخوارزمى هى وضع الصفر فى مركز عالم الرياضيات حيث تحيط بها القيم الحسابية بالموجب والسالب فضلًا عن تعزيز دور الأرقام الهندوسية كحل وحيد لتمثيل أكثر القيم الحسابية تعقيدًا وأكبر العمليات التجريدية. ومن ثم تضحى تلك الإنجازات الكبيرة والأساسية أمرًا شائعًا مسلمًا به لدرجة اختفاء أصوله. وفيما بعد يتذكر الناس هذا الرجل بعمله المتميز فى علم الجبر وهى الكلمة التى اقتبست من كتاب هذا الرجل المعنون «الجبر والمقابلة».

وفى كتابه هذا يكتب الخوارزمى أنه يرغب فى أن يعبر للقارئ عن:

. . . لطيف الحساب وجليله لما يلزم الناس من الحاجة إليه فى مواريثهم ووصاياهم وفى مقاسماتهم وأحكامهم وتجارتهم، وفى جميع ما يتعاملون به بينهم من مساحة الأرضين وكرى الأنهار والهندسة وغير ذلك من وجوهه وفنونه.

وقال أيضا:

وقد شجعنى ما فضل الله به الإمام المأمون أمير المؤمنين مع الخلافة التى حاز له إرثها وأكرمه بلباسها وحلاه بزينتها، من الرغبة فى الأدب وتقريب أهله وأدناهم وبسط كنفه لهم ومعونته إياهم على إيضاح ما كان مستبهمًا

وتسهيل ما كان مستوعرًا، على أن ألفت من كتاب الجبر والمقابلة كتابًا مختصرًا حاصرًا للطيف الحساب وجليله [12].

وتعنى كلمة «الجبر» «التعويض» أى الإشارة إلى نقل القيمة المطروحة إلى الناحية الأخرى من المعادلة، أما المقابلة فتعنى «المقارنة» وتعنى طرح كميات متساوية على ناحيتى المعادلة.

ولكن يبقى السؤال عن سبب ربط ذلك الاكتشاف باسمه بالرغم من أن أساس الصفر والأرقام المتطورة لم يتم ربطها باسمه؟ يرجع ذلك إلى أن الجبر سيكون أول وأعظم خطوة فى فصل مصدر الرياضيات عن كل ما هو مادى ومتحرك إلى كل ما هو تجريدى بحت.

وحتى هذا الزمان كان الكل يبجل الإغريق بسبب إنجازاتهم فى مجال الهندسة، وتعنى كلمة الهندسة باللغة الإغريقية «قياس الأرض» ولكن الهندسة كانت أرضية ومادية، فهى تعنى المساحات التى توصف فى بعض الأحيان باستخدام بعض المصطلحات التجريدية، غير أنه كان من الممكن دائمًا اختصارها فى الواقع المادى سواء كان قطعة من الأرض أو كان جانبًا من جوانب البيت أو شكل نصف الدائرة الذى اشتهر به المدرج الإغريقى.

أما عالم الرياضيات الخوارزمى فيؤسس نظامًا يقدم المفتاح الذى يبدأ فى فتح كل أسرار الكون. فأرقامه وطرقه الجديدة فى الحساب ستساعد على بناء الأبراج التى ترتفع إلى مائة طابق فضلًا عن الجسور التى تمتد على مسافة الميل وحساب النقطة التى يلتقى فيها مسبار الفضاء مع مدارات أحد أقمار كوكب المشترى وتفاعلات الفيزياء النووية والعملية الخلوية للتكنولوچيا الحيوية والبحوث الدوائية والتسويقية وحساب التفاضل والتكامل للاقتصاد العالمى ولغة وذكاء البرمجيات وسرية المحادثات على الهواتف المحمولة.

ولكن فى يوم من الأيام ينسى الأوربيون - ويليهم العالم - هذا الرجل أو إنجازاته رغم أنهم لا يزالون يستخدمون اسمه فى كلمة لوغاريتم. ويتوقفون عن الاعتراف بفضل هذا الرجل عليهم، بل ما هو أشد من ذلك هو أن بعض مؤرخى علم الرياضيات الأوربيين الذين يتذكرون اسمه ينكرون مقدار عظمته.

إن تاريخًا ضائعًا يستطيع أن يقوم بأشياء غريبة حتى فى علم الرياضيات، فيستطيع أن يحرم المخترع حقه ويجرئ المستفيد عليه فيبدو الأمر أشبه بالصيغة الحسابية التى تبنى على افتراض مغلوط، ومن ثم يصبح التاريخ الذى يمتلئ رداؤه بالثقوب أشبه بالخلطة التى يعتريها اللبس وتملؤها الأخطاء.

بيد أن الجانب المشرق لهذه القصة هى أنه بعد وفاة الخوارزمى تشع دائرة الاختراعات الإسلامية حتى يمتد نورها خارج مركز بغداد وتلمس حياة العشرات وفى النهاية المليارات. ويتوافد علماء الرياضيات العرب والمسلمون من العراق ومن بلاد فارس ومن الشرق من مصر وسوريا والأندلس، كلهم يسعون إلى فك شفرة لغز هذا الكون باستخدام الأرقام. وكما هو الحال مع أعمال الخوارزمى وعلماء الرياضيات بالهند، فعلوم الرياضيات المتقدمة للمسلمين لن تنفصل فى أغلب تاريخها عن علوم الفلك وتحديات قياس المكان والزمن باستخدام مواقع الأرض والقمر والنجوم؛ مما يؤدى إلى الخلوص إلى صيغ رياضية أكثر تعقيدًا.

وحتى عندما يسعى المفكرون المتطورون فى شرح حركة مواقع وأشكال الكرة الأرضية والسماء يبحثون أيضًا عن الإجابات الخفية والإشارات الخاصة بالألغاز والألعاب الرقمية وعن صيغ متماثلة تكشف عن متقابلات ومركبات من الأرقام التى حين يتم تربيعها وتكعيبها تكشف عن أنماط وقابلية للتنبؤ.

وتعد إحدى الأسر المؤثرة فى حساب علم الفلك هى «آل ثابت» فقد أنجبت هذه الأسرة ثلاثة أجيال من علماء الرياضيات والفلك. ويعود تاريخ هذه العائلة إلى البلدة القديمة حران ثم تنتقل إلى العراق ويجيدون تحدث الإغريقية والسريانية. أما مؤسس هذه الأسرة فهو ثابت بن قرة وهو ليس بمسلم، فهو على مذهب الصابئة الذين يعبدون النجوم على اعتقاد أنها تمثيل للأسماء اللامتناهية لله سبحانه وتعالى. كما استوعبت هذه الأسرة الكثير من الثقافة واللغة الإغريقية ومن ثم يؤدون دورًا كبيرًا فى ترجمة الكلاسيكيات الإغريقية.

وفى حديث يرويه الببليوغرافي النديم بعد مرور قرن من الزمان على وفاة المأمون يصف فيه دخول الصابئة إلى بيت الحكمة بالغريب. وفى القرن التاسع بينما يزحف الخليفة المأمون وجيشه شمالاً نحو بيزنطة يمر بالصابئة فى المكان الذى نعرفه فى وقتنا الحاضر باسم تركيا. ويعقد مناظرة مع كبار حكماء هذه الطائفة كى يحدد ما إذا كانوا من «أهل الكتاب» الذين تحق لهم الحماية أم ديانتهم من الأديان التى لا تجوز لها الحماية، وعلى هذا ينبغى أن تعتنق الدين الحق. ولكن ما يثير الكثير من اللبس هو أن تلك الطائفة تتبع بعض العناصر الموجودة فى الدين اليهودى وعناصر أخرى من الدين المسيحى ويقرءون من كتاب مقدس. وفى نهاية الأمر يخبرهم المأمون أنهم ليسوا ممن تجوز لهم الحماية، ومن ثم عليهم أن يتحولوا إلى الدين الإسلامى أو يواجهوا الموت، ويمهلهم فترة من الزمن حتى يعود من حملته الشمالية ضد البيزنطيين كى يقرروا ما هم فاعلون.

وبينما يحارب المأمون فى الشمال يتشاور الصابئة بكل ما أوتوا من قوة مع المحامين ورجال الدين. ويستغرقون فى قراءة القرآن حيث يجدون عدة آيات تشير إلى مجموعة محمية من الناس يعرفون باسم «الصابئون». وبالرغم من أن مجموعة لاحقة من العلماء ستخلص إلى أن الرسول نوه إلى جماعة أخرى فى الجزيرة العربية تحمل نفس الاسم، فإن الصابئة يتبنون بسرعة نفس الاسم ويزعمون أن لهم حق الحماية.

وهكذا بعودة المأمون إليهم يقدمون حجتهم ويمنحهم هو الحماية ويدعو مفكريهم إلى بيت الحكمة.

ومن بين المجموعة التى يدعوها المأمون لزيارة بغداد ثابت بن قرة. كان ثابت يعمل كصراف فى شبابه، غير أنه تلقى تعليمه فيما بعد فى مجال علوم الرياضيات المتقدمة. ويعمل فى مجال القطع المكافئ وتقسيم الزاوية إلى ثلاث قطع متساوية والمربعات السحرية وهى عبارة عن سلسلة من الأرقام مثبتة فى مربع بحيث يكون مجموعها واحدًا سواء أجمعت عموديًا أو أفقيًا أو قطريًا.

ومن المشكلات التقليدية التى يواجهها العلماء ـ الذين يساندهم المفكرون المسلمون مثل ثابت بن قرة هى تلك المشكلة المعروفة باسم رقعة الشطرنج، وتظهر هذه المشكلة فى كتب المسلمين كمثال على التسلسل الأسىّ. فالرجل الذى اخترع لعبة الشطرنج يطلب من حاكمه أن يسدى له خدمة ألا وهى أن يضع فى أول مربع من مربعات رقعة الشطرنج حبة قمح، ويضاعف هذا الرقم فى المربع التالى؛ أى يضع حبتين فيه وأربع حبات فى المربع الثالث وثمانية فى المربع الرابع، وهكذا حتى يملأ المربعات البالغ عددها 64 مربعًا. وتكون النتيجة النهائية رقم لا يُسْبَرُ غَوْرُه. وهكذا تصبح النتيجة المستنزفة للعقل كما حسبها البيرونى كالآتى:

615، 551، 709، 073، 744، 446، 18

ويعمل إبراهيم حفيد ثابت بن قرة فى مجالات مثل الحركة الظاهرية للشمس والقياس الهندسى للظل، ويؤدى به هذا إلى بلوغ أهم أعماله فى مجال القطع المكافئ استنادًا على كتابات جده وكتابات الآخرين، ويستطيع أن يخلص إلى وسيلة تمثل المساحات المنحنية كمربعات لها نفس المساحة المكافئة.

ويظهر عالم آخر فى الرياضيات من منطقة الصابئة وهى تركيا فى عهدنا الحديث ويطلق عليه اسم البتانى. ويعكس اسمه المسلم اعتناق الصابئة للإسلام فى نهاية المطاف. يعمل والد البتانى فى صناعة الأدوات الفلكية فى حران، وهكذا يحذو الابن حذوه ويعمل فى مجال مشابه لوالده.

وقبل ظهور التليسكوب وأجهزة الحاسوب بفترة طويلة يقوم البتانى ببعض

الحسابات الفلكية الهامة، فبجانب كتابته قائمة عن 489 نجمًا، يحسب البتانى طول السنة ويحددها بـ 365 يومًا و5 ساعات و48 دقيقة و24 ثانية، وتختلف دقة حساباته مجرد عدة دقائق فحسب عن طول السنة التى تحسبها الساعات الذرية والتلسكوبات فيما بعد.

ويحدد البتانى أيضًا مواعيد الاعتدال الربيعى أو الخريفى وهى عبارة عن حركة غربية لمراكز خط الاستواء تتسبب فيه الجاذبية الأقوى للشمس والقمر على الكتلة المادية لخط الاستواء، وبذلك تقل الفترات التى تلتقى بها الشمس مع خط الاستواء عن فترات أخرى بالعام. ويحسب هذا العالم مقدار ميل الدائرة الظاهرية لمسير الشمس وميل محور دوران الأرض المتناسب مع المجال الذى يقطعه مدار الشمس مع الكرة السماوية. وبدلاً من أن يستخدم الوسائل الهندسية مثل بطليموس فى حساب هذه الأرقام يخترع علم المثلثات.

وهناك عالم آخر فى علوم الرياضيات هو النيريزى الذى ولد فى القرن التاسع فى وسط بلاد فارس. وبناءً على عمل أسلافه ومعاصريه يكتب النيريزى كتابًا حول كيفية استخدام علم المثلثات فى حساب اتجاه الحرم المكى؛ أى الكعبة، حتى يتسنى للمؤمنين معرفة اتجاه القبلة التى يستقبلونها خمس مرات فى اليوم أثناء صلاتهم. ويلغى استخدام علوم الرياضيات المتقدمة أى تخمين فى تحديد موقع القبلة خاصة فى أثناء السفر. وأهم من ذلك أن هذا الاكتشاف يفتح الباب لاستخدام علم المثلثات فى عمليات أكثر تعقيدًا خاصة بتحديد المواقع الجغرافية.

ويبدو أن عالم الرياضيات السورى الإقليديسى الذى يعمل فى دمشق هو أول من تحدث عن الكسور العشرية فى علم الرياضيات الإسلامى، الأمر الذى مهد الطريق لمجموعة أكثر تعقيدًا ودقة من الحسابات الرقمية ومعالجة المعلومات بالكمبيوتر. وتستكمل الكسور العشرية تحديث وانسيابية الرياضيات الإسلامية التى تبدأ بالصفر والأرقام الهندوسية حيث كانت أرقام الخوارزمى غير العشرية تبدو بائدة؛ وذلك لأنها كانت تعود إلى أيام البابليين والقدماء المصريين وثقافات أخرى. وكانت هذه الأرقام غير العشرية مناسبة لوقتها. ولكن بعد أعمال الإقليديسى تنتهى الأرقام غير العشرية من علوم الرياضيات المتقدمة وتترك بذلك وراءها نظامًا أكثر وضوحًا ودقة.

وعلى نفس القدر من الأهمية الذى تحدثه اكتشافات المسلمين فى علوم الرياضيات والهندسة المتقدمة وترسى حجر الزاوية الفكرى بالنسبة لمجالات أخرى ذات صلة مثل الفلك والعلوم التجريبية ـ تضع أيضًا لبنة لمنهج هندسى متميز يتجلى فى الفن والمعمار الإسلامى. وحيث إن الرسول، صلى الله عليه وسلم، لم يكن يحبذ الفن التصويرى، فقد كانت نزعة المسلمين التجميلية تميل إلى العلوم الشرعية

والمدعومة من جانب العائلة المالكة مثل الحساب والفلك. تُستبدل بالزخارف السابقة شبه البيزنطية والرومانية للأمويين فى دمشق المثلثات المتداخلة والشكل المسدس وتساعى الأضلاع والنجمة التى تمثل الفن الإسلامى الكلاسيكى الذى يظهر فيما بعد فى بغداد وتدريجياً ينتشر فى بقية مراكز التميز. ويعقد علماء الرياضيات المسلمون فى بغداد وأماكن أخرى فى العالم ورش عمل مع الحرفيين والمعماريين موضحين فيها كيف يمكن عمل الأشكال الهندسية وتحويلها إلى رسومات بارزة من البلاط تزين المساجد والقصور والفيلات والمبانى الأخرى.

ويوفر رجل فارسى يدعى أبو الوفا يعيش فى بغداد فى القرن العاشر أدلة كى تساعد الحرفيين والمعماريين فى رسم الأشكال الهندسية على المبانى التى يشيدونها. كما يبدأ أبو الوفا أيضًا فى تحديد معالم عالم جديد من التعبير من خلال ترجمة الوقائع الرياضية، خاصة الهندسية، داخل وسط جديد من التعبير الفنى والزخرفى.

بيد أن ما سبق لا يعدو كونه إسهامًا بسيطًا لرجل اشتهر بكونه أفضل عالم رياضيات مسلم فى القرن العاشر. ويكتب أبو الوفا شروحًا لمؤلفات الخوارزمى وعالم الهندسة الإغريقى إقليدس وعالم الرياضيات البيزنطى ديوفانتوس. كما يؤلف كتابًا عن علم الحساب العملى ويخلص بحلول للمشكلات الهندسية بفتحة واحدة من فتحات البرجل. كما سيبين كيفية بناء مربع مساو لمربعات أخرى وكيفية عمل أشكال متعددة الجوانب. وأهم من ذلك يرسى أساس علم المثلثات ويقدم وسيلة أكثر كفاءة فى حساب جداول جيوب الزاوية. ويبدو أيضًا أنه أول من حسب القاطع، والذى سيطلق عليه فيما بعد اسم «قطر الظل» وهو إبداع تضيع تفاصيله ما بين صفحات التاريخ وربما يعزى إلى كوبرنيكوس بعدها بـ 600 عام.

وكل هؤلاء الرجال متعاونون فى أغلب الأحيان ومتنافسون فى بعض الأحيان، ومرات أخرى فى شبه عزلة يعملون كى يكتشفوا الشفرات الخاصة بمصدر الرياضيات التى تضع اللبنة لحسابات الأرض المستقبلية. ويبذل العشرات منهم بل المئات الجهود الحثيثة، ومعظمهم ليسوا أفضل من غيرهم، والكل يسعى ويأمل فى أن يحصل على عباءة الخوارزمى رغم أن قلة منهم يستحقونها، غير أن النتيجة النهائية تتمخض عن ظهور عمل ضخم فى مجال الرياضيات بعضه مغلوط والآخر مشتق عن أعمال أخرى والجزء الأكبر منه إبداعى.

ويعد علم الرياضيات ركيزة الفكر فى العصور الذهبية الإسلامية ويليه فى ذلك عصر النهضة الأوربية. وعلم الرياضيات هو علم عقلى بحت تدفعه الرغبة فى كشف أسرار النجوم. ويليه الإبداع فى مجالات أخرى عديدة.

ويمر الآن أكثر من قرن على وفاة الخوارزمى ويقول البعض إنه كان الأعظم وإنه لا نظير له.

بيد أنـه فى نهاية القرن العاشر يظهر شاب فى البصرة المدينة العراقية الجنوبية، وهو فى البداية لا يختار العمل فى مجال الرياضيات بل يذهب للعمل فى حكومة الخلافة، والتى تكون قد انتقلت فى هذا العصر إلى يد أسرة البويهيين الحاكمة التى امتد حكمها لفترة قصيرة من الزمن حيث سيعلو شأنهم فى بغداد من عام 945 حتى 1055.

يطلق على هذا الشاب اسم ابن الهيثم وفى يوم من الأيـام سينافس سلفه الخوارزمى. ويستفيد ابن الهيثم من كل اكتشافات من سبقوه ويؤلف قرابة الـ 200 كتاب فى موضوعات مختلفة كما سيضع حجر الزاوية للنظريات الرياضية والبصرية التى ستمكن علماء مثل جاليليو وكوبرنيكوس من فهم العلاقة الحقيقية بين الأرض والنجوم السماوية الأخرى فضلًا عن حجم الكوكب نفسه.

بيد أن كل ذلك لم يحدث بعد ولسوف يحدث عندما يبلغ ابن الهيثم سن الرشد.

يقع مسقط رأس ابن الهيثم فى البلدة المستنقعية التى تطل على نهرى دجلة والفرات، وتعد هذه البلدة ملتقى للعرب وكل هؤلاء الذين يبحرون إلى المدينة التى تطل على الميناء. وترتفع أشجار النخيل على ضفاف النهر وتلقى بظلالها على أفنية الدور المخفية. وكحال الموانئ بصفة عامة تعتبر البصرة مكانًا تختلط فيه الأجناس؛ مكانًا يصعب فيه التمسك بكل ما هو مطلق أو جامد، فالارتجال والاختلاط هما القاعدة السائدة. ولكن بالنسبة لصبى يشاهد المدينة المترامية من حوله وخلف غموض الحياة فى البصرة تكمن الشفرات والقواعد الرياضية.

وفى هذا الملتقى الذى يأخذ شكل الصحراء ويبدو نهره كالمرآة وتنعكس أشعة الضوء فيه خلال الضباب والسحب وشمس الصحراء الساطعة، يلاحظ ابن الهيثم التفاعلات المرئية ويتساءل بينه وبين نفسه. وتأسر لبه تلك الزوايا والمساحات التى توجد فى الفضاء الواسع والقواعد التى تحكم انكسار الضوء وانعكاسه.

ويجذبه أكثر من أى شيء آخر الضوء وتدفعه الرغبة فى اكتشاف المزيد عن أسرار هذا الضوء. ولكن ترى ما هذا الضوء؟ وفقًا لبحوث بطليموس الفلكية وكتاب المجسطى فالضوء هو شعاع يخرج من عين الرائى ويرتطم بالشيء المرئى. ولكن ترى هل هذا صحيح؟ وهل لنا أن نسلم بكل ما يقوله الإغريق القدماء؟ هل أفكارهم هى أفضل ما تم التوصل إليه بخصوص الحقيقة العقلية أم أنهم يخطئون أحيانًا؟

ويقرر أن ينحى هذه الأفكار جانبًا ليوم آخر. وبعد أن ينتهى ابن الهيثم من

تعليمه الحكومى وينجح مع مرتبة الشرف، يرتقى المناصب بسرعة فى السلم الحكومى. وفى نهاية المطاف يتولى منصب كبير وزراء البصرة وهو منصب غاية فى الأهمية يسعى إلى اعتلائه الكثيرون ويقع بين مستوى وظيفة المحافظ والعمدة. ويترتب على ذلك ضرورة مراجعته لكل جانب من جوانب مركز التجارة هذا. وحتى يتسنى لابن الهيثم التوافق مع الطبيعة الدينية للخلافة فى عصره عليه الانغماس فى القراءات الخاصة بعلوم الدين والمناظرات والخلافات الدينية وأن يواصل المراوغة فى قضية الوحى. ويقوم بذلك كجزء من واجباته لفترة من الزمان.

بيد أنه فى لحظة من اللحظات يشعر وكأنه قد أخذ كفايته من ذلك كله. وكما يحدث مع الكثير من العلماء التجريبيين يستنتج أن كل هذه الأنواع من الشقاق والحوار بين الفلاسفة الدينيين ليس بالضرورة صحيحاً. فكيف ندرك وجود الله العلى الكبير المتكبر جل جلاله بالعقل البشرى وحده؟ وكيف يمكن أن نثبت نظريات الخبراء حول الألوهية والإيمان؟ ومع الأسف فالرسول، صلى الله عليه وسلم، غير موجود للرد على كل تلك الاختلافات، ومن ثم يبدو الجدل عقيماً بالنسبة له. وفى مرحلة ما يقرر الانسحاب من مجلس مناقشة علوم اللاهوت.

وبدلاً من كل ذلك يقرر وزير حكومة الخليفة، العبقرى ابن الهيثم أن يجد ملاذه مثل الخليفة المأمون والكثيرين من العلماء ممن يرعاهم الخليفة ـ فى أفكار أرسطو. ويجد فى المذهب العقلى السبيل إلى الله. ويحول ابن الهيثم اهتماماته إلى العلوم التجريبية ويقرر الاستقالة من منصبه الحكومى. وبالرغم من أن الكثيرين يعتقدون أنه بذلك قد ارتكب خطأً فادحاً بتنازله عن موقع القوة والنفوذ الذى كان يتمتع به ولكنه لا ينظر إلى ما فاته أبداً. وعبر السنوات التالية تزداد مهاراته العلمية ويذيع صيته خارج البصرة إلى بغداد فالعراق.

بل إن شهرة ابن الهيثم تسبقه إلى خارج الخلافة فى بغداد. وإبان هذه الفترة تكون أراضى الخلافة قد تقلصت كثيراً على المستوى الجغرافى حيث أصبح الأمويون يحكمون الأندلس والفاطميون يحكمون شمال إفريقيا. وتصل شهرة ابن الهيثم وبعده عن مجالس الشقاق والاختلاف الدينى التقليدى إلى القاهرة عاصمة جماعة الإسماعيليين الفاطميين والخليفة هناك هو الحاكم بأمر الله الذى اعتلى العرش منذ أن كان عمره 13 عاماً.

ومن بعيد يبدو الحاكم بأمر الله أشبه بهارون الرشيد والمأمون. وللحاكم بأمر الله رؤية ضخمة وعظيمة فهو يحكم الجزء الأكبر من الخلافة العباسية القديمة ولديه نهم كبير لجمع أعظم المفكرين والمخترعين إلى القاهرة. وينوى الحاكم بأمر الله أن يحكم العالم بأسره فى يوم من الأيام ويجعل القاهرة أعظم المدن.

ولكن من قريب يشكل الحاكم بأمر الله معضلة ويتجادل عليه المؤرخون لآلاف السنين، بعضهم يرى أنه قد أسيء فهمه وهو حاكم غريب الأطوار بعض الشيء كرس نفسه لتحقيق التفوق الفكرى والتسامح الدينى، أما البعض الآخر فيرى أنه كان حاكمًا ضالًا، وفى أغلب الأحيان مختلًا عقليًا بسبب نوبات القسوة وعدم التسامح التى كانت تنتابه. ويغيم على التاريخ الضائع التنافس الشديد وغياب الثقة بين أصحاب المذهب الرئيس وهم السنيون الذين يتجسدون فى الحكم العباسى برؤيته العالمية، وأصحاب الرؤيا البديلة الإسماعيليين الفاطميين الشيعة. ويقف الحاكم بأمر الله ذو الشخصية المبهمة فى منتصف الخلاف بينهما. وخلال الجزء الأكبر من التاريخ يقبل الناس برأى السنيين فى الحاكم بأمر الله ويعتبرونه هو الرأى الصواب، بل ويشتهر باسم الحاكم المجنون.

وبالرغم من أن منتقدى الحاكم بأمر الله يؤكدون أنه كان حريصًا كل الحرص على حب العلم والمعرفة، فإنه كان فى ذات الوقت طاغية يدخل فى نوبات شديدة من الغضب لدرجة أنه يصبح متعصبًا فى الدين. ويحكون عنه أنه فى إحدى المرات يستفزه نباح الكلاب فى قرية الفسطاط التى تقع فى ضواحى القاهرة حتى إنه يدمر القرية ويقتل كل الكلاب. ويزعم المؤرخون أيضًا أنه كان يأمر بلاطه بالنوم نهارًا والعمل ليلًا. ولأسباب لا يعلمها إلا هو يحرم الشعب من تناول أنواع معينة من الخضراوات والطبق المصرى الرئيس، ألا وهو الملوخية.

كان الحاكم بأمر الله يقوم بجولات ليلية وحده وهو يمتطى ظهر حصانه ويجوب الصحراء خارج مدينة القاهرة معرضًا بذلك حياته للخطر فى عصر تهزه الخلافات السياسية، ولا يعرف أحد سببًا لذلك؛ فهل كانت شياطينه تدفعه للقيام بمثل هذه الجولات أم حبه لمراقبة النجوم فى السماء؟ ويقول عنه نقاده أيضًا إنه كان يذبح أعداءه دون أن تهتز شعرة فى جسده ولا تطرأ على باله أبدًا فكرة العفو أو المصالحة كما كان يعذب أعداءه قبل أن يعدمهم. ورغم أنه يبدأ حكمه كصديق للمسيحيين واليهود فإنه بعد فترة ينقلب ضدهم. وأكبر دليل على ذلك أنه يدمر كنيسة القيامة وترمز الكنيسة للمكان الذى دفن فيه المسيح ومن ثم فلها قدسية كبيرة بالنسبة لمسيحيى أورشليم.

ويقولون عنه إنه حرم لعب الشطرنج ـ غالبًا ـ لأنه لم يكن يجيد لعبها. ويصبح بلاطه مكانًا يخشاه الجميع ويتوقف وزراء الخليفة عن الذهاب إلى العمل حيث يخافون أن يشعلوا فتيل غضبه وانتقامه.

وبالرغم مما سبق سرده فإن رؤية جديدة للحاكم بأمر الله تبدأ فى التجلى فى منتصف القرن العشرين. فاستنادًا على روايات إسماعيلية ويهودية ومسيحية وشيعية يقدم المؤرخون صورة أفضل عن هذا الخليفة الفاطمى، بل إن إحدى صور المديح

اليهودى سوف تجعل الحاكم بأمر الله يبدو قائدًا كريمًا ومتسامحًا. ويصور المسيحيون الحاكم بأمر الله أيضًا فى صور المحسن والحامى لهم.

وتذكر تلك الروايات أن الحاكم بأمر الله صاحب المزاج المتقلب هو ابن لأم مسيحية. ومنذ بداية 1005 يشترك الخليفة الفاطمى هذا فى بناء أحد أهم مؤسسات التعليم العالى فى العالم الإسلامى ألا وهى دار الحكمة بالقاهرة. أما المسجد الذى يؤسسه فيطلق عليه اسم جامع الحاكم بأمر الله. ويعبر بناء هذا الجامع عن مفهوم النور فضلًا عن رمزه الخفى للمعرفة الإلهية والبشرية. ويرى المؤرخون أنه تحت الحكم الفاطمى تتطور الفلسفة الإسماعيلية إلى تركيبة قوية من المذهب العقلى والعلوم الخفية المتأثرة بالفلسفة الأفلاطونية الإغريقية والأفلاطونية المحدثة والمفاهيم الإسلامية والعلمية والصوفية. ويبدو أن الحاكم بأمر الله نفسه فضل أسلوب حياة الزاهد المتقشف عن الانغماس فى ملذات بلاط الحكام.

ويشير المؤرخون إلى أن الحاكم بأمر الله يضع اليهود والمسيحيين فى حكومته فى مناصب متخذى القرار خلال فترة حكمه برمتها، الأمر الذى يسبب ذعر المجتمعات الإسلامية. ويصور مصدر يهودى بعنوان «مقتطفات مصرية» الحاكم فى صورة إيجابية كالآتى:

كانت مملكته قوية وسامية بالأمجاد وكان عرشه أعلى من عرش أبيه وأجداده. بدأ حكمه وعمره 13 عامًا وواصل عمله بسعة من الصدر وفهم جيد لذا فلم يكن بحاجة إلى وزير أو مستشار. حيكت الكثير من المؤامرات ضده واجتمع الكثير من الأعداء عليه ولكن الله أتى بهم جاثين أمامه؛ لأنه كان يحب الاستقامة ويكره الخطيئة، وقد أرسل القضاة فى جميع أرجاء البلاد ليحكموا بالعدل والحق. كما قضى على الرجال القساة وعزل الحمقى ورفض وجود كل من ضل عن طريق الصواب وأكثر فى الفساد. ولكنه أحب أهل العلم وأحب العدالة واتباع الصراط المستقيم.

وسواء كان حاكم صوفى أسىء فهمه أم طاغية يعانى عقدة الاضطهاد، فإن الجانب المشرق فى شخصيته لا يمكن أن يغفله رجل علم مثل ابن الهيثم. والأهم من ذلك كله أن أى شخص متقد الذهن يستطيع أن يتقدم للدراسة فى دار الحكمة التى أسسها الحاكم بأمر الله كان مهما يكن فقيرًا أو مجهولًا بالنسبة للناس. فهذا المكان لا يقتصر فحسب على ذوى النفوذ والسلطة. كما أن الحاكم بأمر الله كان حريصًا أشد الحرص على الحفاظ على مركز المذهب العقلى تمامًا مثلما كان حريصًا على ذاته

وشخصه. وقد أصاب من أطلق على هذه المؤسسة العلمية دار الحكمة، فهى أشبه بالشعاع الذى يجتذب الكثير من المفكرين الواعدين إلى القاهرة، ولولاه لدفع غموض شخصية الحاكم بأمر الله بعيدًا عنها.

وتضحى القاهرة فى القرن الـ 11 ـ بالجامع الأزهر الشامخ الذى يضم المسجد والمدرسة الجامعة والقصور والحدائق الغنَّاء التى تطل على النهر والمحافل الفكرية ـ مركزًا للإبداع موازيًا لمراكز بغداد، بل إنه ليفوقها فى يوم من الأيام أيضًا. فالرجال الذين كانوا يتوافدون على بغداد منذ قرن مضى يحولون قبلتهم إلى القاهرة الآن.

وينمو إلى علم الخليفة الحاكم بأمر الله أن ابن الهيثم الذى كان لايزال مقيمًا فى البصرة قد توصل إلى وسيلة لتنظيم فيضان النيل، ويسترعى انتباهه منصب ابن الهيثم الكبير فيأمره بتنفيذ خطته هذه.

وبالرغم من أن فيضان النيل ضرورة لتجديد خصوبة هذا الشريط الضيق من الأراضى الزراعية الذى يمتد حتى الإسكندرية، ويمثل شريان حياة مصر منذ فجر التاريخ، فإن هذا الفيضان له آثاره المدمرة أيضًا، ومن ثم تبدو فكرة التحكم فيه أو فى مدته مسألة تسلب لب الحاكم بأمر الله.

ويقبل ابن الهيثم المهمة التى يسندها له الخليفة، ويسافر مع مجموعة من المهندسين الذين عينهم بلاط الخليفة على نهر النيل لتحديد أنسب نقطة للتحكم فى الفيضان. وبالرغم من أن الرحلة النيلية هذه تبدو ساحرة، حيث تأخذ هؤلاء المهندسين المسلمين إلى آثار الفراعنة الخالدة فى الأقصر و«أبوسمبل»، فإنه فى مرحلة ما بعد أسوان يدرك العالم القادم من البصرة أن خطته لا يمكن تطبيقها، فالنهر شاسع الاتساع، كما أن درجة انحداره طفيفة وتدفق المياه كبير وموارده محدودة.

وعلى ابن الهيثم أن يعود الآن إلى الخليفة ويخبره بأن خطته لن تنجح. وعند هذه المرحلة يخبرنا التاريخ التقليدى أن ابن الهيثم يرتعش من الخوف من فكرة الذهاب إلى الخليفة وإخباره بفشله فى التحكم فى فيضان النهر، وحتى يتسنى له أن ينقذ حياته يقرر ابن الهيثم أن يدَّعى الجنون ويتصرف بجنون أكبر من جنون راعيه. ويخاطر ابن الهيثم كثيرًا بهذا السلوك، بيد أن هذا يبدو أفضل من قول الحقيقة. وتنتاب ابن الهيثم حالة من الهذيان فى كلامه ثم تصيبه حالات من الإغماء التخشبى.

ولا يستطيع التاريخ أن يجزم بأن ابن الهيثم يمثل هذا الدور بالفعل أم لا. فالقصة تناقلتها المصادر الكثيرة التى غالبًا ما اعتراها التحيز، كما أن تاريخ هذه القصة يعود إلى 200 عام. ولكن ما هو معروف هو أن ابن الهيثم لا يكمل خطته ولا يظهر فى

بلاط الخليفة بل يبقى فى القاهرة ويواصل بحوثه العلمية والحسابية وتدعمه فى ذلك راعية خفية؛ غالباً ما تكون أخت الخليفة ست الملك، وتشتهر هذه السيدة بكونها من أثرى النساء المسلمات، ويواصل ابن الهيثم عمله من بيته، ربما بسبب حبسه لفشله أو لغير ذلك من الأسباب.

ويستأنف ابن الهيثم بحوثه الخاصة ولكن فى هذه المرة عن الضوء وهو الموضوع الذى بهره منذ أن كان شابًا. وهكذا يبدأ أعظم مشروعاته طوال تاريخه الطويل المثمر.

وبينما يشرع ابن الهيثم فى استكشاف قدره فى هذه الحياة ينتهى الخليفة من رحلته فى الحياة الدنيا. ففى عام 1061 يعلن الحاكم بأمر الله أنه تجسيد الله فى شكل أرضى (حاشا لله). ويحيط نفسه بمجموعة من عباده الذين يؤمنون بأنه المنقذ الحقيقى للإسلام، وأنه الخليفة الذى يرشده الوحى الإلهى الذى سيطهر الإسلام. وعندما يختفى الحاكم بأمر الله فى إحدى الليالى وهو يجوب وحده أحد السهول يدعى تابعوه أنه دخل فى حالة من الاحتجاب وأنه سوف يعود يوم القيامة فى صورة المهدى حسب منظور الشيعة؛ وذلك لوضع الإنسانية جمعاء على الطريق الصحيح.

وتملأ أخبار اختفاء الخليفة واحتمال وفاته نفس ابن الهيثم بالارتياح والريبة فى ذات الوقت، فقد تحرر أخيرًا من الخوف من عدم القدرة على التنبؤ بأحوال الحاكم بأمر الله ويستطيع الآن أن يواصل عمله على المستوى العام. كما يبدو أن ست الملك التى ترث العرش الفاطمى من أخيها وتحكم البلاد لمدة عامين تواصل رعايتها لابن الهيثم. على أى حال تفرض الظروف الجديدة بعض التغيرات على حياة ابن الهيثم، حيث يترك المنزل الذى أعطاه له الخليفة وينتقل إلى القبة وهى عبارة عن مبنى صغير له قبة يقع عند بوابة مسجد الأزهر الكبير. ويُدرِّس هناك علم الرياضيات ويعيد ترجمة الكتابات اليونانية باستخدام معرفته بعلم الرياضيات ويترجمه بعمق أكبر من كثير من المترجمين، كما يبنى مؤلفاتٍ على المؤلفات المستنيرة التى جمعها من 200 عام السابقة.

ويبدو بيته الجديد فى الأزهر كالجوهرة المشعة فى معمار القاهرة الفاطمية، بيد أنه بالنسبة لابن الهيثم يعنى ما هو أكثر من ذلك. ففى مآذنه وقبابه وأقواسه العباسية وصفوف أعمدته وأقواسه المصفرة التى يفيض عليها ضوء النهار والظل يراقب حركة الضوء عن كثب، فهندسة القبة والضوء الخافت الذى يسقط على المؤمنين وهم يصلون من النوافذ العالية وظلال الصباح وما بعد الظهر والشمس تتحرك من الفجر المتلألئ الأبيض الوضاء إلى اللون الأصفر فى ذروة النهار فالقرنفلى الضارب إلى الزرقة ساعة المغيب. ويعلو إلى مسامعه صوت همس المصلين وضحكات طلابه.

وأى مكان أفضل من هذا المكان فى البحث وراء نظريات الضوء وسط معبد النور هذا فوق أرض الصحراء المصرية!

فطوال السنوات التى كان يدخل فيها الحاكم بأمر الله فى نوباته الغريبة، والتى كان ابن الهيثم أيضًا فيها يدعى أنه أكثر جنونًا من راعيه، كان ابن الهيثم يكتب أجزاء من كتابه الكبير ويخفيها. بيد أنه كان يعرف أنه إن جاءه عدو يبحث قد يفقد كل ما كتبه، ولكنه نجا كما نجت مؤلفاته.

وبالرغم من أن ابن الهيثم ألّف 200 كتاب وضاع الكثير منها فى نهاية الأمر، فإن مجلداته السبعة حول علم البصريات ستبقى وربما تكون تلك هى أهم أعماله. وتعد أهم الدروس المستفادة من أعماله أن العلوم ينبغى أن تقوم على أساس التجربة. وعلى حد علمنا بابن الهيثم فإنه أول عالم طبق مبدأ التجربة بلا تنازل على الإطلاق. وبينما وعى الإغريق أهمية الاختبار العلمى والتجربة كانوا يميلون إلى إثبات نظرياتهم من خلال التحليل الفكرى.

بيد أن ابن الهيثم كان على دراية وعلم أكبر من ذلك؛ حيث وعى تمامًا أنه مهما كان العقل البشرى بارعًا وعبقريًا، فإنه لا يستطيع أن يدرك العالم المادى من خلال النظريات العقلية فحسب. فالعالم المادى يحتاج إلى القياس والملاحظة. ومن خلال كل مؤلفاته يتضح أنه يتشكك فى كل الافتراضات العلمية حتى يثبت صحتها من خلال الاختبار. وكغيره من العلماء الذين سبقوه بآلاف السنين لم يقبل أى عبارات علمية تتحدث عن الدين.

ويُعد من أعظم اكتشافات ابن الهيثم ـ والذى قد يبدو غير ذى قيمة لأول وهلة ـ إثباته أن أشعة الضوء لا تنبعث من مقلتى عين الرائى. وتبدو نظريات بطليموس المضادة لهذه الفكرة أشبه بالهزل الآن. وتبدو افتراضات ابن الهيثم حول مبادئ الفيزياء متطرفة فى عصره. وبهذا ينبغى أن يسبح ضد تيار المعرفة التقليدية السائدة فى هذا العصر كى يثبت عدم صحتها.

وانطلاقًا من نقطة البداية الأساسية هذه، ينخرط ابن الهيثم فى أعماق الخصائص المتنوعة للضوء التى أسرته منذ أن كان صبيًا يحيا فى البصرة. ويركز فى كيفية مرور الضوء داخل الأوساط المختلفة كالمياه والزجاج والورق والدخان. وبينما هو يقوم بذلك يبدأ يتلاعب بفكره انقسام الضوء إلى مجموعة من الألوان المُكونة له. وبالرغم من أن ملاحظته سوف تختلف عن المفهوم الحديث لنظرية انكسار الضوء، فإنه يبدأ فى طرح الأسئلة الصحيحة. ويأخذ ابن الهيثم نظرياته من داخل المعامل إلى الخارج ويبدأ فى ملاحظة ألوان السماء والأفق الجنوبى ساعة غروب الشمس والغسق. ويقضى سنوات محتارًا فى التفاعل بين الضوء والظل وسلوك المرايا وتأثير المرايا المحدبة على حركة الضوء.

ويتأمل كسوف الشمس وخسوف القمر محاولًا فهم هاتين الظاهرتين الطبيعيتين الرهيبتين آخذًا فى الاعتبار وجهة نظر بطليموس حول الشمس والنجوم التى تدور حول الأرض. ولكن هذا لا يضيف إليه الكثير من المعلومات ولا يعلم سبب ذلك. وكما يكتشف أن الضوء هو طاقة مستقلة منفصلة عن مقلة العين ـ وتعارض نظريته هذه نظرية بطليموس تمامًا ـ يشعر أن منظور بطليموس حول السماء يحتاج إلى إعادة تقييم جذرية. ويحذره البعض أنه على وشك أن يقع تحت مخالب الهرطقة الفكرية.

ولا يعنى هذا التحذير أى شىء بالنسبة له، فدافعه الوحيد هو نهمه الشديد لنهل المزيد من العلم ولفهم مقدار تعقد الكون الذى خلقه الله جل جلاله، ورغبته فى أن يعثر على مفاتيح شفرة هذه الصيغة الحسابية وأن يكتشف الحقيقة أينما كانت ومهما كانت اللغة والمعرفة التقليدية أو المبادئ السائدة.

ينتشر شعاع قوس قزح الضخم بعد يوم مطير من أيام ربيع القاهرة ويرى نفس الطيف الذى سبق أن رآه فى المعمل مع وجود الزجاج والمنشور وزجاجات المياه. ويعيد هذا الانفصال الواضح للضوء الأبيض إلى عدد كبير من الأطياف الصغيرة ابن الهيثم إلى جدول حساباته.

وينبهر ابن الهيثم بطبيعة مقلة العين البشرية ويبدأ فى دراسة تشريحها محاولًا فهم كيفية دخول الضوء فى القرنية وما يحدث بين العدسة وظهر مقلة العين. ويعطى شرحًا وافيًا حول كيفية عمل مقلة العين، وفيما بعد يستفيد العلماء من منظوره هذا فى تطوير شرح الحديث حول الرؤية البصرية البشرية. وتأثرًا بمقلة العين يبدأ ابن الهيثم فى عمل ما يطلق عليه فيما بعد الحجرة المظلمة. وقبل ظهور ليوناردو دا فينشى بخمسة قرون يخوض ابن الهيثم فى أمور يُعزى الفضل فيها فيما بعد لهذا الإيطالى العظيم ولكبلر وديكارت بينما هم مثل مفكرى عصر النهضة وما بعد عصر النهضة يحاكون أو يبنون على ما أسسه هذا العالِم المسلم العظيم منذ زمن بعيد.

وباستخدام الحجرة المظلمة هذه يقرر ابن الهيثم أن الضوء يسافر فى خطوط مستقيمة، وهذا مفهوم أساسى لأى دراسات عليا حول الضوء غير أنه لم يثبت قبل ظهور ابن الهيثم. وفى كتاب المناظر لابن الهيثم يقول:

وإن اعتمد معتمد جسمًا كثيفًا فثقب فيه ثقبًا دقيقًا وقابل به جرم الشمس وجد الضوء ينفذ فيه ويمتد على سمت مستقيم. وإن اعتبر المسافة التى يمتد عليها الضوء الذى بهذه الصفة وقاسها بمسطرة وجدها فى غاية الاستقامة. فيتبين من جميع ذلك أن ضوء الشمس ليس يمتد إلا على المسافات المستقيمة (13).

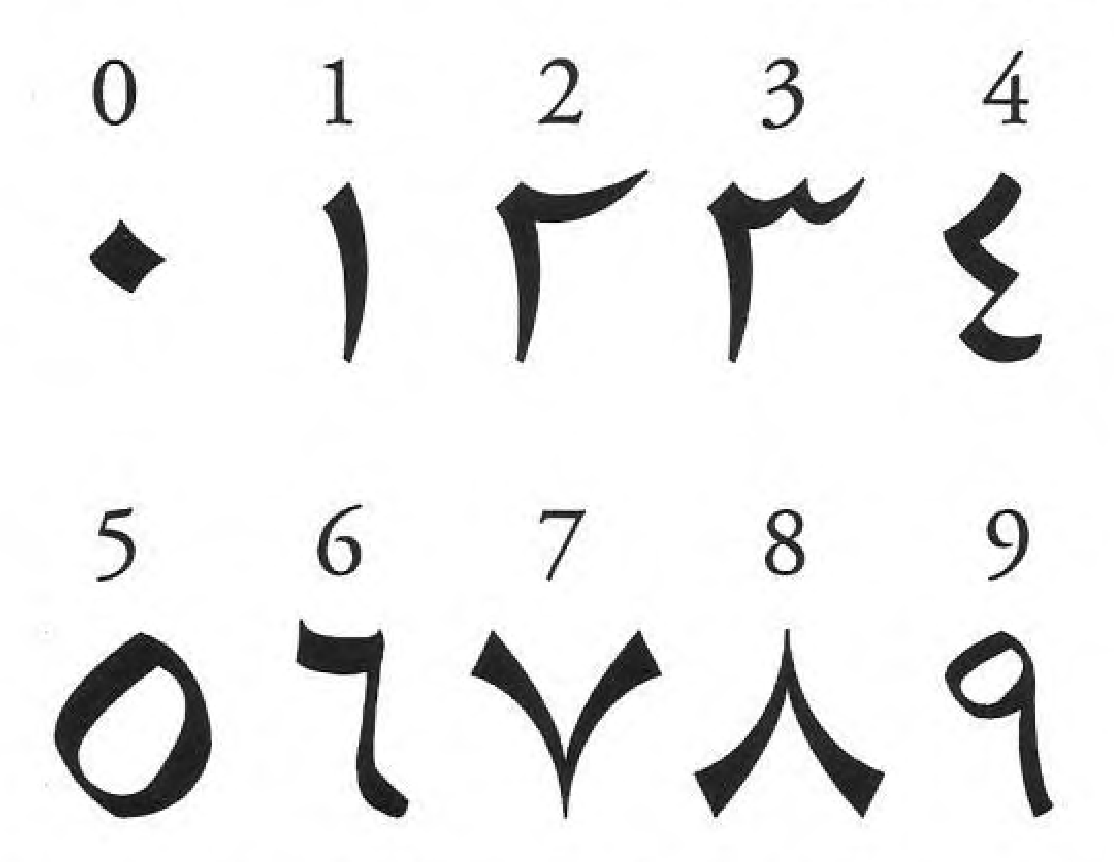
ويحاول ابن الهيثم أن يكتشف ميكانيكيات الرؤية البصرية للبشر. ويتساءل لماذا تبدو الشمس والقمر أكبر من حجمهما فى الأفق عن حجمهما وهما أعلى السماء؟ ويقدم التفسير الصحيح لذلك. وينخرط فى المضامين الحسابية للمرايا الكروية والقطعية المكافئة، وتأخذه كل تلك المسائل إلى آفاق جديدة من الحسابات الرياضية. ويبدأ فى فهم قدرة العدسات على التكبير، وهو اكتشاف خطير مكن جاليليو وكوبرنيكوس وأنطوان فان ليفنهوك من اكتشاف النجوم والميكروبات.

ويمهد عمل ابن الهيثم لظهور الشكل الأولى لحساب التفاضل والتكامل. ويكون لهذا العمل الأثر الكبير فى تشكيل علم الرياضيات حتى يبلغ الهند. وفى أحد أعظم انتصارات ابن الهيثم العلمية وأجرَئها على الإطلاق يكتشف أن الشفق الذى يبدو للرائى العادى أشبه باللحظة السحرية له العديد من التفسيرات الحسابية والفيزيائية. ويحسب أن ظاهرة الشفق تحدث عندما تنخفض الشمس بدرجة 19 أسفل الأفق. وبناءً على هذا الكشف يقترب كثيراً من قياس عمق الغلاف الجوى، وهو أمر لم يتم التحقق منه حتى القرن العشرين وهو عصر رحلات الفضاء.

ووصولاً إلى حدود الفيزياء المتقدمة يعى ابن الهيثم وجود الجاذبية نفسها ويكتب عن انجذاب الكتل قبل جاليليو والسير إسحق نيوتن بـ 600 عام.

وفى إحدى لحظاته الشاعرية يحاول أن يقيس من خلال نظرياته البصرية للحسن والجمال يقول:

فأما الحسن المدرك بحاسة البصر فإن البصر يدركه من إدراكه للمعانى الجزئية التى قد تبين كيفية إدراك البصر لها. وذلك أن كل واحد من المعانى الجزئية التى تقدم بيانها يفعل نوعًا من الحسن بانفراده، وتفعل المعانى أنواعًا من الحسن باقتران بعضها ببعض... والوضع قد يفعل الحسن، وكثير من المعانى المستحسنة إنما تستحسن من أجل الترتيب والوضع فقط، وذلك أن النقوش كلها إنما تستحسن من أجل الترتيب. والكتابة المستحسنة إنما تستحسن من أجل الترتيب؛ لأن حسن الخط إنما هو من تقويم أشكال الحروف ومن تأليف بعضها ببعض... والتفرق يفعل الحسن، ولذلك صارت الكواكب المتفرقة أحسن من اللطخات وأحسن من المجرة... ولذلك أيضا توجد الأنوار والأزهار المتفرقة فى الرياض أحسن من المجتمع منها والمتراص. والاتصال يفعل الحسن، ولذلك صارت الرياض المتصلة النبات المتكاثفة أحسن من المتقطع منها والمتفرق. وإن كانت الرياض مستحسنة من أجل ألوانها فالمتصل منها أحسن (14).



تشتق الأرقام فى العصر الحديث من نظام الأرقام العربى الهندى الذى ظهر فى القرون الوسطى. ويمكن تبين أوجه الشبه حتى يومنا هذا.

ويظل الكثير من هذه الأسئلة بلا إجابات لآلاف السنوات على الأقل حتى يظهر عبقرى آخر مهووس بعلم الحساب والضوء، ألا وهو ألبرت أينشتاين فى زيورخ. وآخذًا فى الاعتبار ريادة عمل ابن الهيثم ومحدودية الموارد فى هذا الزمن، فيجب أن يقف ابن الهيثم على قدم المساواة مع أينشتاين بالرغم من أن الجزء الأكبر من اكتشافاته قد سقط فى طى النسيان.

ويخبو ضوء حياة ابن الهيثم فى القاهرة فى العام 1040 وهو يناهز الـ 75 من عمره مع تدهور بصره وصحته. ويكون الضوء الذى يراه دارس الضوء هذه المرة هو ضوء العالم الروحى. وتنقضى عدة قرون قبل أن تتم ترجمة المجلدات التى كتبها ابن الهيثم إلى اللغة اللاتينية أولًا فى عام 1270 ويطبعها فريدريش ريزنر فى عام 1572. ويشتهر ابن الهيثم لدى الأوربيين باسم الحسن. ولفترة طويلة يعتبرونه عملاقًا فى علمه، حيث يسبق أوربا فى العصور الوسطى بأشواط وأشواط. ثم مع حلول عصر النهضة يطمسون ـ من يحاكونه أو يتوسعون فى أعماله ـ شخصيته.

بيد أن كل هذا لم يكن ليعنى ابن الهيثم؛ فقد كان شغله الشاغل الإجابة عن أسئلة

الكون ولم يدر بخَلَده أن يكرمه أحد عن عمله، فقد كان يسعده فقط أن يكتب ويدرس ويعزل نفسه فى ملاذه الخاص.

ولو كان قد قدر له أن يرى المستقبل بعد رحيله لامتلأت نفسه بالحماسة، ويرجع ذلك إلى أنه فى مكان بعيد فى وسط آسيا وبلاد فارس.

ومع مرور الأحداث وتطورها يولد عملاق مسلم آخر فى مجال علم الرياضيات، رجل يتذكره الغرب فيما بعد ليس لحساباته الرياضية بل لشعره.

فى العام 1048 يولد غياث الدين أبو الفتح عمر بن إبراهيم خيام النيسابورى فى نيسابور، وهى مدينة فارسية تقع داخل وادٍ خصب تحيط به سلسلة جبال بينالود الوعرة. وكانت هذه المدينة هى عاصمة السلاجقة لمدة 10 سنوات.

أما هذا الصبى الذى يشب كى يصبح عبقرياً فى الرياضيات والفلك ربما يعد متميزاً من بين مجموعة علماء الرياضيات؛ لكونه يحمل بين ضلوعه روح الشاعر. كما يضحى هذا الرجل فيلسوفاً يتحدث عن الأمور اليومية فى حياة البشر، ويعشق كل ما هو حسى وصوفى ويتجرأ على طرح أسئلة فى لب الدين.

ويوازن كل ذلك بحس من الشجن حول مأساة هذه الحياة وعدم جدواها أو جدوى العمل أو الإنجاز. وحتى عندما يكدح بالنيابة عن حكامه ورعاته لفك شفرة الأرقام وأسرار النجوم، يغامر بقوله إنه كان يفضل أن يقضى وقته فى احتساء النبيذ فى الحانات أو الاسترخاء بين أحضان الحبيبة. ويشتهر هذا الرجل أمام العالم باسم عمر الخيام، ويشتق لقب عائلته من صناعة الخيم، فقد كان أفراد عائلته يكتسبون رزقهم من هذا العمل.

يعد السلاجقة الأتراك أول مجموعة من غزاة وسط آسيا الذين يبدءون تدريجياً بهز استقرار الخلافة العباسية ثم اجتياحها هى والثقافة العربية الفارسية. ويبدأ القادمون من وسط آسيا بتحديد معالم العالم الإسلامى. ولم يكن هؤلاء من البربر الأميين؛ لذلك فقد بنوا على القواعد التى أرستها الحضارات القديمة التى التقوا بها فى طريقهم، وبذلك حصدوا ثمار العديد من العصور الذهبية التى صادفت سبيلهم.

يبدأ السلاجقة فى تأسيس الحضارة التركية الفارسية التى ستدوم لـ 900 عام بأشكال مختلفة وتحت أنظمة متعددة متمثلة فى أسرة السلاجقة الحاكمة وفروعها فى بلاد فارس والأناضول وسوريا من القرن 11 وحتى أوائل القرن الـ14، وفى الحكم المغولى فى القرنين 13 و14 فى عهد تيمورلنك والمعروف باسم تامرلان وورثته من عام 1336 حتى عام 1405، وفى حكم العثمانيين الأتراك من عام 1299 و1922 وفى الحكم المغولى من عام 1483 و1857.

وقبل ولادة عمر الخيام بزمان تمتعت مدينته بالثراء بسبب مناجم أحجار الفيروز النفيسة بالقرب من نيسابور وتجارة القوافل وصناعة البلاط والسيراميك. ويتخلل اللون الأزرق جنبات نيسابور ويبدو مهيمناً على المدينة ليس من أعلى ومن بعيد فحسب، ولكن أيضًا فى قباب المساجد والقصور المبلطة وفى صفوف الأقواس وفى محيطات الأضرحة وفى الأشكال الهندسية البارزة الناتجة عن الصيغ الهندسية للإغريق والعرب. وقبل زمن عمر الخيام ربما توازى ثراء نيسابور مع ذلك الذى فى بغداد أو القاهرة.

بيد أن طعم الثراء لم يذقه كل أبناء نيسابور فقد كانت عائلة الخيام فقيرة. أما بالنسبة لعمر الخيام فأثرَى لياليه قضاها على سطح منزله ليلًا وهو يتطلع إلى السماء التى لا تعكر صفوها سوى بعض السحب المترامية والغبار المنبعث من الصحراء البعيدة. وفى مدينة نيسابور فى القرن الـ 11 وبخلاف بعض الدخان الناشئ عن احتراق حطب نيران الشتاء ومصابيح الزيت لم تكن لدى الإنسان أية وسائل لحجب ضوء النجوم. وينظر عمر الخيام إلى أعلى حيث يرى بحرًا من النجوم ومجموعات النجوم المعروفة فضلًا عن ضبابية درب اللبانة التى تبدو واضحة لعالم هذه الفترة من الزمان. وتعد سماء الليل أشبه بالبانوراما البديعة، أكثر سبل الترفيه تسلية خاصة لشخص ذى موارد محدودة.

وبالرغم من أن النجوم تنادى عليه فهو لا يستطيع الهروب من واقع حياته على الأرض. وفى مرحلة ما يموت أبو عمر الخيام وتنتقل إلى عاتق عمر ووالدته تحمُّل مسئولية إخوته الصغار. بيد أن والدته تعلم أن لابنها مواهب متميزة وأن أمامه مستقبلًا رائعًا ينتظره غير إصلاح الخيام لإطعام إخوانه وأخواته.

وفى تلك الأيام فى نيسابور كان الشخص الذى يتمتع بالذكاء والطموح يذهب ليتتلمذ على يد الإمام موفق. وتروى الأسطورة أن أى شخص يتعلم على يد هذا الإمام يطرق الحظ باب حياته فى يوم من الأيام مهما كانت مهنة هذا الشخص. وكرجل كريم ومسلم من أصحاب المذهب العقلى للخليفة المأمون يعد الإمام موفق الباب الوحيد لفرص حياة أفضل لشباب محافظة خراسان.

فى بداية الأمر يبدو الإمام متشككًا فى أمر عمر الخيام، ولكن بعد أن يحقق هذا الأخير نجاحًا باهرًا فى اختبار الحساب الذى يعده له الإمام يقبله بعده كتلميذ عنده، تبدأ واحدة من أكثر قصص النجاح البشرية فى تاريخ العالم الإسلامى الضائع.

وبالرغم من عدم معرفة الخيام لهذا الأمر، فإنه فى مدرسة الإمام قد رسم شكلًا غير معتاد لمثلث من العلاقات، تصبح فيما بعد رمزًا للاضطراب فى العالم الإسلامى فيما بعد لآلاف الأعوام المقبلة وتجسد ثلاثة أنواع من الحياة المختلفة عند أطرافها.

ويضيع الدليل الوثائقى لهذه العلاقة المثلثية بين صفحات التاريخ، ومن ثم يتم التعامل معها على أساس أنها خرافة وليست واقعًا، غير أنه سيتوافر اتساق درامى فى هذه القصة يجذب الكتاب والمؤرخين بشكل يجعل الكثير منهم يدخلها فى نسيج قصصه.

وفى مدرسة الإمام موفق ينضم إلى الخيام ابن غنى لأب يشتهر بأنه غريب الأطوار ومتعصب، ويطلق على هذا الابن اسم حسن بن الصباح. ومن خلال الإمام موفق يتعرف الخيام على المعلم الموقر نظام الملك.

وتحكى الرواية أيضًا أنه فى نيسابور كانت هناك جارية تدعى دريا وأن كلًّا من حسن بن الصباح وعمر الخيام يتنافس على حبها غير أن الخيام يفوز بحبها فى النهاية.

بعد ذلك ينطلق كل منهما فى طريقه وتفرق بينهما الأيام. يستكمل عمر الخيام دراسته فى مدن وسط آسيا مثل بلخ مسقط رأس زرادشت وقلب المركز الثقافى الذى يطلق عليه فيما بعد اسم أفغانستان وسمرقند وهى مركز تجارى آخر تأسس على طريق الحرير على السهل الذى انضم فيما بعد إلى أوزبكستان. وفى تلك السنوات يركز على بعض الصيغ الحسابية وقد ألَّف عملًا عن القواعد التى تتحكم فى الجذور الموجبة للأرقام، وكتب ذلك الكتاب المعروف باسم فى «شرح ما أشكل من كتاب الموسيقى»، حيث يتحدث عن الهيكل الحسابى للموسيقى.

ولقرون عديدة قبل زمن الخيام وبعده ينظر الناس إلى الموسيقى على أنها ليست فنًا بقدر ما هى امتداد لعلوم الرياضيات والعلوم التجريبية، وذلك استنادًا إلى النظريات البيزنطية والعربية الفارسية للسلم الموسيقى الذى يتكون من 8 درجات والعناصر الجزئية لصنع الآلات الموسيقية وما شابه ذلك من الأمور، فالموسيقى تعتبر التمثيل الصوتى للصيغ الحسابية، وهى الحساب والفلك تتقاطع فى مفاهيمها مع موسيقى الكرة الأرضية التى وضع نظرياتها فيثاغورس، حيث تنبأ فيها أن المسافة ما بين الأرض و«الكرة السماوية» هى أفضل مثال على التناغم الموجود فى العالم. وبناءً على هذه النظرية فسر المسلمون أن الأجرام السماوية التى تدور فى الفضاء لها تمثيل موسيقى فى حركتها، ويمكن تصغيرها باستخدام الحسابات إلى صيغ تعبر عن مداراتها ودرجات ميلها وسرعاتها وكتلها وأحجامها.

وفى فترة مبكرة من رحلته العقلية يدرك الخيام الصراعات النظرية الفكرية بين أصحاب المذهب العقلى من المسلمين ومفسرى نصوص اللاهوت والفلسفة والعلوم، والصراع السياسى على السلطة بين السنة والشيعة. وبذلك يبدأ الخيام فى تشكيل فلسفته الخاصة التى تشبه إلى حد كبير فلسفة التنوير التى تظهر فى أوربا بعدها بـ 700

عام، فبينما يؤمن بالله العزيز الجليل يؤمن فى ذات الوقت أن الكون الذى ندركه بحواسنا تتحكم فيه القواعد العلمية التى يمكن اكتشافها بالدراسة والبحث فحسب. ويغامر بطرح المفهوم المتبجح المستقبلى القائل بأن الله جل جلاله لا يتدخل فى العالم المادى (حاشا لله) (*).

ويتأثر الجميع بذلك الجدل الفاسد بين الحرفية النصية والمذهب العقلى. ولحسن حظ رجل مثل الخيام يكون الحكام من السلاجقة الأتراك فضلًا عن الخلافة العباسية ممن يميلون نحو المذهب العقلى. ومن دواعى السخرية أيضًا أن الإسماعيليين الشيعة يميلون تجاه المذهب العقلى أيضًا. ففى كثير من الأحيان يجد الحكام المسلمون المختلفون بشكل غريزى أن المجتمع لا يمكنه الإبداع والوصول إلى العظمة إن لم يتحرر عقله. وبالرغم من أنه فى زمن عمر الخيام كانت الخلافة العباسية فى حالة ضعف شديد وكان الأمويون يحكمون بلاد الأندلس البعيدة، فإن وسيلتهم المشتركة فى دعم المخترعات والبحوث وتوفير الهبات المناسبة لها يلاحظها ويتبناها الكثيرون من خلفائهم بدءاً من الفاطميين بمصر ووصولًا للغزاة المختلفين فى بلاد فارس وأسيا.

وإبان عمله فى بلخ وسمرقند ونيسابور، يضع الخيام منهجًا لحل المعادلات التكعيبية والتى لن يفهمها إلا الطلاب المتفوقون فى الرياضيات حتى ألف سنة تالية. والمعادلة التكعيبية هى معادلة متعددة الحدود حيث الأس الأعلى للرقم المجهول هو الأس الثالث ويوضح المثال التالى هذه النظرية:

$$\chi^3 + 200\chi = 20\chi^2 + 2000.$$

وتنجح طرق الخيام من خلال تحقيق تقاطع بين القطع المكافئ والدائرة.

بالإضافة إلى ذلك يكتشف الخيام المعادلة ذات الحدين وهى صيغة بالغة الأهمية تعطى مفكوك الأس المرفوع له الأعداد. وينتقد نظريات إقليدس فى التوازى. وتبدأ كتاباته فى هذا المجال تجد لها طريقًا نحو أوربا؛ حيث تساعد فى التطور التدريجى لعلوم الهندسة خارج أطر نظريات إقليدس. كما أن عمله أيضًا فى مجال الفلك له نفس مقدار الأهمية والتعقيد. وتحمل طرقه العملية بين طياتها تطبيقات محتملة فى مجال ضبط التقويم مما يؤدى إلى الوصول إلى مستوى أعلى من الكفاءة فى العمل داخل الحكومة والتجارة.

بيد أن الحياة تبدو غير مضمونة العواقب بالنسبة لعمر الخيام، فبالرغم من المهام

(*) المترجم.

المنتظمة التى يوكلها إليه الأغنياء وذوو النفوذ، فإنه لا يزال يعتمد على رعاته فى توفير احتياجات الحياة وطلبات المعيشة. وفى أثناء إقامته في سمرقند يساعده على الحياة أبو طاهر القاضى الشهير، حيث يسمح له بأن يقوم بالكثير من الأعمال فى مجال علم الجبر، غير أن هذا العمل يضحى عملًا مؤقتًا كما يكتب ابن الخيام فيما بعد قائلًا:

لم أستطع أن أكرس نفسى لتعلم الجبر ومواصلة التركيز عليه بسبب العقبات التى ترميها أمامى تقلبات الزمان، والتى عاقتنى عن ذلك؛ لقد حرمتنا من كل أهل العلم إلا مجموعة صغيرة العدد تعانى الكثير من المشكلات، وكل همها فى الحياة هو أن تقتنص الفرصة فى غفوة من الزمان لتكرس نفسها للبحث وإكمال علم من العلوم؛ ذلك أن غالبية من يقلدون الفلاسفة يخلطون الحقيقة بالزيف؛ وهم لا يفعلون شيئًا سوى الغش وادعاء العلم، كما أنهم لا يستخدمون مايعرفونه من علوم إلا لأغراض دنيئة ومادية، وإذا ما رأى هؤلاء إنسانًا ما يسعى وراء الصحيح ويتحرى الحقيقة ويفعل ما بوسعه؛ لدحض كل ما هو زائف وغير صحيح تاركًا النفاق والغش جانبًا، فإنهم يسخرون منه [15].

وأخيرًا تسترعى انتباه بلاط السلاجقة الأتراك كتب الخيام الآسرة وينتقل الآن إلى المدينة الفارسية أصفهان. ولكن الخيام ليس بالقروى الذى لا يعرفه البلاط، فمن حسن الطالع أن نظام الملك صديق أستاذ ومعلم الخيام السابق الإمام موفق قد أصبح من كبار وزراء الحاكم السلجوقى ملكشاه. وهكذا فى عام1073 بسبب إنجازات الخيام واتصالاته يُدعى إلى بلاط السلطان فى أصفهان كى يصبح عالمًا فى الرياضيات والفلك هناك.

وفى أثناء رحلته إلى المدينة الفخمة أصفهان يرى الخيام القباب الزرقاء لمساجدها وقصورها التى تلمع تحت أشعة شمس بلاد فارس، وفجأة تُفتح أبواب الدنيا على مصاريعها أمامه. كم هو محظوظ لمجيئه كل هذه المسافة إلى هنا! فهو فى الأصل ابن صانع خيام، ولكنه الآن قد أُمر أن يأتى ليعمل فى بلاط ملك يحكم نصف الدنيا.

وفى أصفهان توكل إلى الخيام مهمة بناء مرصد وإعادة حساب التقويم السنوى. وبالرغم من أن ملكشاه هو راعى المفكرين، فما كان منهم. ويكمن هدفه الرئيس من ذلك المشروع فى الوصول إلى علم التنجيم وليس الفلك. فَكَغَازٍ وحاكم يرغب فى أن يعرف ما الذى تبشر به النجوم فيما يتعلق بمستقبله وعالمه، ومن ثم فعلى الخيام أن يعلم السلطان بحرص ويوجه انتباهه إلى أن النجوم لا تتنبأ بالمستقبل.

بيد أنه بدلًا من كل ذلك يترأس الخيام مجموعة من علماء الرياضيات والفلكيين ويبدأ فى بذل الجهد لإيجاد تقويم سنوى جديد أكثر دقة. وهو يؤمن أنه بهذا التقويم الدقيق سوف يسمح للمؤمنين أن يحددوا الأعياد الدينية بدقة أكبر بالإضافة إلى حفظ السجلات بشكل أفضل وتحسين نظام جباية الضرائب.

ولمدة 19 عامًا يتمتع الخيام بأكثر فترات حياته أمنًا واستقرارًا، وحتى عندما تتحد القوى التى تعارض راعيه على بعد ذراع واحد من الملكة يكون هو فى قمة مراحل إنتاجه.

وفى عام 1079 فى أحد إنجازات العقل البشرى الباهر فى مجال الحساب بدون أجهزة الكمبيوتر يحسب الخيام طول السنة ليكون 24219858156، 365 يومًا. وفى القرن 21 وباستخدام تلسكوب هابل والساعات الذرية وأجهزة الكمبيوتر يحسب طول السنة على أنه 242190، 365 يومًا، فخطأ الخيام فى وضع العلامة العشرية سوف يؤدى إلى خطأ فى أجزاء الثانية.

وفى إنجاز آخر يوضح الخيام أمام جمهوره المندهش أن الأرض تدور حول نفسها وليست الكواكب هى التى تدور حولها. وسوف يثبت هذه الحقيقة للجمهور الذى يقال إن من بينهم الفيلسوف البارز الغزالى. ويقوم الخيام بعرض هذه الحقيقة من خلال بناء شكل محاكٍ لمجموعة من النجوم وكوكب الأرض الذى يدور حول نفسه ويستخدم الشموع لتمثل النجوم والشمس.

بيد أنه على أرض الواقع تبدأ أمور ما فى الحدوث تقوض العقدين اللذين تمتع فيهما الخيام بالأمن والأمان. ويعد أحد الأطراف الرئيسة فيما سوف يحدث زميل دراسته الحسن بن الصباح الذى يتولى منصبًا فى حكومة السلاجقة؛ غالبًا منصب الوزير.

ولكن أجزاء التاريخ الضائعة والروايات المختلفة التى يرويها كل من المؤرخين السنة والإسماعيلية سوف تلقى بظلال من الغموض على أجزاء كبيرة من هذه القصة. ووفقًا لما جاء فى الروايات التقليدية يحاول الحسن بن الصباح أن يقتل نظام الملك الذى كان راعيه فى يوم من الأيام، غير أن محاولته تبوء بالفشل، ويهرب إلى منفاه وينضم إلى مجموعة فارسية من الطائفة الإسماعيلية باستخدام نفق تحت الأرض. وتمثل هذه المجموعة نوعًا من المقاومة السياسية للسنة ويتهمهم البعض بارتكاب بعض الاغتيالات السياسية المستهدفة. وبجانب مقاومة السلاجقة والعباسيين يقوم ابن الصباح بمهمة أخرى موازية، ألا وهى الحفاظ على الطائفة الإسماعيلية فى مواجهة العداء المتنامى الذى يقوده السلاجقة.

ولسخرية القدر ورغم تعارض دين ابن الصباح مع المنظور السياسى والعقائدى

للسنة، فإنه يستوعب ذلك المزيج من المذهب العقلى الإغريقى والهدى القرآنى ومعتقدات العلوم الخفية، ويصل إلى حد أن يعلن أن العقل الإنسانى يقف على قدم المساواة مع الورع الدينى. ولكن هذا الجسر الفلسفى لا يرأب صدع الاختلاف العقائدى ما بين السنة والشيعة.

ويتحول نظام الملك لدى طائفة السنة وتحت نفوذ السلاجقة إلى ألد أعداء ابن الصباح. فالسلاجقة يعتبرون الإسماعيليين غرماءهم وأعداءهم فضلًا عن كونهم مهرطقين. وعلى سبيل الدفاع عن النفس أو ربما لتعزيز الانفصال، يؤسس ابن الصباح شبكة من القصور الجبلية شمال بلاد فارس بالقرب من حصون الجبال المنيعة، حيث يتسنى لقادة وتابعى الطائفة الإسماعيلية مجابهة موجة عداء السنة لطائفتهم الدينية. وبذلك تعمل معاقل ابن الصباح على توفير الملاذ الآمن لعقيدة الطائفة الإسماعيلية كى تزدهر وتتطور على مدار القرن والنصف القادمين. وكى يحمى الإسماعيليون مجتمعاتهم الجبلية من تهديد السلاجقة الدائم تلجأ «الكتيبة السرية» المكونة من صفوة الجنود إلى استخدام استراتيجيات متعددة كى تصد جيوش السلاجقة الأكبر عددًا. ويُعد الحد من سفك الدماء ودوافع الانتقام؛ أحد التكتيكات المستخدمة وذلك بتخويف قادة الجيش والمحافظين حتى يتركوا الأراضى الإسماعيلية وشأنها.

ويؤثر هذا الصراع السياسى العقائدى الكبير على الخيام تأثيرًا مباشرًا، الأمر الذى يضعه على السنان مع صديق طفولته الحسن بن الصباح. ويبدأ هذا القدر مثلثى الشكل فى الكشف عن أنيابه. ففى عام 1092 يُغتال الصديق والراعى الرائع والوزير الحكيم ومؤسس جامعات النظامية التى تنتشر عبر أرجاء العالم الإسلامى نظام الملك. وقبل ذلك الحدث بشهر واحد يسقط ملكشاه صريع المعركة. وبالرغم من أن زوجته هى التى تولَّت شئون الحكم لفترة قصيرة، فإنها لم تكن يومًا من أصدقاء نظام الملك، ونتيجة لذلك لم يكن الخيام أيضًا من المفضلين لديها، وعلى هذا يتم إجباره على ترك بلاط أصفهان.

بيد أن الإهانة التى يواجهها الخيام لا تتوقف عند هذا الحد. فانزعاجًا من وجهات نظره غير التقليدية التى لا تتسم بالوقار يتم استجواب الخيام من جانب مجموعة من رجال الدين السنيين حول عقيدته. وتذكرنا هذه الواقعة بالمحاكمات التى تعرض لها جاليليو بعد 500 عام من الآن وهكذا يبدأ استجواب عمر الخيام فى مسائل الدين.

ويبدأ المعسكران الجدال على مستويات مختلفة، فعمر الخيام عالم الرياضيات والعلوم التجريبية لا يعتنق الأمور التقليدية للدين، ويحاول قدر الاستطاعة أن يشرح وجهة نظره، غير أن الشروح تؤجج المزيد من النيران وتدفع بأمواج

الاضطراب أكثر من تسكين أو تلطيف الأجواء. وأخيرًا كى يثبت إيمانه يتم إجباره على الحج إلى مكة المكرمة، ويساعد هذا فى الإبقاء على حياته، ولكن لا يعيده إلى منصبه السابق.

وخلال هذه المرحلة المظلمة تبدو رحلة حياة الخيام الطويلة على وشك الانتهاء ولكن مع ضربة أخرى من ضربات الحظ لا يحدث ذلك. فى عام 1118 وبعد بضع زوابع يتولى الابن الثالث لملكشاه الحكم ـ وقد كان أحد رعاة الخيام ـ وينقل عاصمته إلى «مرو» المدينة الفارسية التى حكمها المأمون فى أثناء الخلافة العباسية ثم أصبح خليفة فيها منذ 300 عام. ومن ثم ففى السنوات الأربع الأخيرة من حياته ومع وجود راع جديد له فضلًا عن اقتناعه بالعلم والبحوث، يستأنف عمر الخيام عمله.

ويخبر الخيام أحد الأشخاص فى أواخر حياته أنه سوف يُدفن فى نيسابور وأن الأزهار سوف تغطى مقبرته. ويزعم أحد الزوار بعد موت الخيام بقرون أن مقبرته فى نيسابور تغطيها الزهور لدرجة يصعب معها رؤية الكتابة الموجودة عليها.

وبالرغم من عبقرية الخيام فى علم الرياضيات والفلك فإنه يشتهر لدى غير المسلمين «بتيجان الزهور» التى ذكرها فى شعره. ولا يزال الجدل مشتعلًا حول المعانى الأصيلة والنية الحقيقية من وراء كلمات شعره. وتمتلئ ترجمة رباعيات الخيام التى قام بها إدوارد فيتزجيرالد فى القرن الـ 19 رغم إلهامها بالكثير من الأخطاء.

وفى رباعياته يتحدث الخيام عن الوجود البشرى فى الترجمة التى أتمها عمر على شاه وروبرت جريفز فى القرن الـ 20 كالآتى:

كل شىء مسطر، مكتوب؛
ذاك لوح عن الورى محجوب،
فيه يُمن لنا، وفيه الخطوب؛
والمواضى، كما كتبن، سطور؛
والأواتى مقدرات تصير؛ [16]

وحوالى عام 1120؛ أى عامين قبل موته، كتب الخيام قصائدَ أطلق عليها «الشهادة»:

أمس أبصرتُ جارنا الخزَّافا
يجبلُ الطينَ كيف شاءَ اعتسافا

ويكيلُ المقدارَ منه جُزافا

وكأنى أسمعتُهُ ملءَ فيهِ

صوتَ ذات مظلومة تشتكيهِ

آه رفقًا فأنتَ طينٌ وماءُ

أيها المرءُ لا تسمنى العذابا

فبقايا الأسلاف ما أنتَ منه

صانعٌ ما يُحيّرُ الألبابا (17)



أشـكـال النجـوم

﴿لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾

[يــس: 40]

معمل الدفع النفثى لوكالة ناسا الفضائية بباسادينا كاليفورنيا 2007

يقف روبرت بيلى فى موقع عمله فى لوس أنجلوس يراقب أحدث المعلومات التى يرسلها الرادار من سفينة كاسينى الفضائية وهى تمر عبر أحد أقمار كوكب زحل الضخمة الملقب باسم تيتّان. ويحدق روبرت فى الغلاف الجوى الذى يسوده الضباب الدخانى المكون من الهيدروكربونات المفرطة التبريد حيث اكتشفت سفينة الفضاء كاسينى بحيرات واسعة من الميثان السائل فى القطب الشمالى للكوكب ولا يختلف ذلك كثيراً عن جغرافية البحيرة والسهول الجرداء فى المنطقة القطبية الشمالية لكوكب الأرض، بالرغم من الاختلاف الكبير فى التكوين الكيميائى والحرارة. وكل مرة تحلق فيها سفينة الفضاء كاسينى بشكل منخفض فوق أحد الأهداف المعينة مسبقاً تأتى بتفاصيل أفضل من سابقاتها للصورة الضبابية لقمر التيتان حتى هذه اللحظة.

وفى مكان آخر على قمر التيتان توجد قارة ـ بحجم قارة أستراليا ـ يطلق عليها اسم زانادو. ويشكل سطح هذه القارة وتنحته براكين المياه الثلجية ورياح الإيثن وأمطار وأنهار الميثان. ويضىء القمر بلون أزرق يشبه الغسق ويعترض انعكاسات أشعة الشمس التى تأتى من كوكب زحل الضباب والسحب المثلجة.

ويعشق بيلى عمله، وهو يعمل الآن فى مشروع كاسينى لأكثر من عام بعد أن قضى بعض الوقت فى مقر وكالة الفضاء ناسا فى واشنطن العاصمة. وبالرغم من أنه لم يكن سعيداً بتلك الفترة التى قضاها فى واشنطن العاصمة فقد كانت خطوة مهمة فى مساره المهنى، حيث كان يساعد الإداريين فى إعداد الرسائل التى توجه إلى الكونجرس. وبالرغم من أن ساعات العمل الطويلة والضغوط الكبيرة جعلته يحصد العديد من الترقيات، فقد راح يفضل التعامل مع ضباب قمر

التيتان عن التعامل مع ضباب العاصمة. بالإضافة إلى ما تقدم فالحياة فى المدينة مكلفة والحركة المرورية فظيعة. ورغم أنه كان سعيدًا لقضاء أبنائه بعض الوقت فى مدينة تتقبل كل الأجناس وتتسم بالتنوع الكبير إلا أنه رجل علم وليس رجل سياسة أو صياغة سياسات.

ولكن تجربة واشنطن العاصمة باتت مرهقة بشدة، لدرجة أنه فكر فى أن يلتحق بالعمل فى إحدى الشركات الخاصة، وذلك قبل أن تتاح له فرصة العمل فى مشروع ناسا الجديد هذا.

ويعود أصل بيلى إلى ولاية چورچيا وهو من الجيل الثانى - على التوالى لعائلته - الذى يحصل على تعليم جامعى. وقد نال درجة الدكتوراه فى الفيزياء الفلكية من معهد چورچيا للتكنولوچيا بأطلانطا. ولقد كان والدا روبرت يعملان فى إحدى المدارس العامة على ساحل ولاية چورچيا، أما أجداده فقد كانوا من المزارعين، أما أجداد أجداده فكانوا من الأسرى الذين تم إحضارهم من إفريقيا من منطقة يوروبا بنيچيريا إلى ساحل چورچيا حيث أجبروا على العبودية. ولحسن حظ هذه العائلة فهى لم تعان من تشتت أفرادها، حيث ظلت تحيا مع بعضها البعض - بالقرب من المكان الذى رست فيه فى أمريكا - قرابة القرنين.

وكان على بيلى أن يتعامل مع واقع الأسرة العرقى والقبلى طوال حياته. أما زوجته فتنتمى إلى جنس آخر. ولقد التقيا وتزوجا وهما فى معهد چورچيا للتكنولوچيا. ولهذه الأسباب كان يقدر أن الوقت الذى قضاه فى واشنطن على الأقل كان مفيدًا لأبنائه. وبالرغم من أنه قد قضى بعض الوقت فى أطلانطا وهى مدينة أخرى تتسم بالتنوع والتسامح مع الأجناس المختلفة فإنه مع ولادة أبنائه كان يقيم مع زوجته فى كيب كانافيرال ثم هيوستن. وقد تم إيقاف ابنه الكبير عدة مرات من جانب شرطة تكساس بدون أى سبب واضح، أما ابنته الصغيرة فقد رأت لافتات عنصرية مكتوبة على الجدران فى فلوريدا.

ولكن بيلى يشعر بأنه محظوظ، فبعد أن قضى 20 عامًا فى ناسا يحقق دخلًا مكونًا من ستة أرقام كما أنه كون مدخرات واستثمارات وفتح حسابًا للتقاعد كما احتفظ ببيتيه فى فلوريدا وتكساس بعد أن انتقل من الولايتين وحولهما إلى عقارات تدرُّ دخلًا من خلال تأجيرهما. أما زوجته فقد اكتسبت خبرة فى مجال العقارات والاثنان لديهما ثروة تتخطى المليون دولار.

وبينما يدرك بيلى أنه كدح كثيرًا فى حياته حتى يصل إلى ما هو عليه الآن يعى فى ذات الوقت أهمية الحظ فى حياته. فقد كان محظوظًا منذ البداية أن ولد لأبوين يقدران أهمية التعليم، كما كان محظوظًا إذ توافر لديه الوقت والمال للدراسة طوال هذه السنوات.

يواصل النظر بتمعن فى الصور التى التقطها الرادار لهذا القمر البعيد ذى اللون الأزرق الثلجى الذى يدور داخل إحدى حلقات واحد من أبدع الكواكب داخل المجموعة الشمسية. أطلق على هذا القمر التابع المتجمد اسم أحد الآلهة الرومان الذى رعى چوبيتر وكل آلهة الرومان. فقمر كوكب زحل المسمى تيتان قد سمى خلفًا لأول موجة من العملاقة وجدت على ظهر هذا الكوكب. وكى يريح بصره ينظر إلى غيوم الهيدروكربون الباهتة لباسادينا بأشجار الحور وأشجار الأوكالبتوس والنخيل وطرقها الحرة وسياراتها وهى تدور عند مخرج معمل الدفع النفثى. ويدرك فى هذه اللحظة مدى سعادته بتحرره فى عمله من القيود التى تربطه بالأرض. فعالم السياسة والشئون البشرية اليومية يجلب الكثير من اللبس والحيرة. الدين والعرقية والقبيلة والذات.. كل تلك الأشياء يتمنى لو ينحيها الناس جانباً حتى يكون الناس أناسًا فحسب وليسوا مجرد أداة فى يد القدر.

وعندما يكون عقل بيلى سارحًا فى الفضاء يبدو الانقسام والاختلاف ما بين البشر غير ذى قيمة بجانب هذا الكون المنتظم المتناغم البديع العظيم.

وفى الفضاء الخارجى بين المجرات الأكبر والأصغر حجمًا ووسط هذا السواد الأعظم الذى يحيط بالمساحات التى تفصل ما بين النجوم والكواكب يصبح الإنسان مجرد مصدر للطاقة أو هوية أخرى تظهر على موجات الراديو أو الرادار أو نغمة موسيقية داخل سيمفونية مجرات الفضاء وترنيمات الكواكب وانفجارات الشمس وضجيج النجوم والزئير المتلاشى لنجم بعيد يسقط فى مكان مجهول.

وبالعودة إلى الأرض مرة أخرى وداخل غرفته فى وكالة ناسا الفضائية يجد قصاصة من جريدة «أطلانطا جورنال كونستيتيوشن» بعثتها إليه أمه البالغة من العمر 80 عامًا الآن، والتى لاتزال تقيم على ساحل ولاية چورچيا. وفى غرفة نومه توجد صور لوالديه وزوجته وأبنائه ممتزجة بملصقات ملونة كبيرة لكواكب المريخ وزحل والمشترى.

أما المقالة فتتحدث عن مجموعة من الخبراء فى علم الإنسان كانوا يعكفون على دراسة جزيرة چورچيا الصغيرة التى عاش فيها آل بيلى لـ 200 عام. وقد ركز الباحثون على الأصول الإفريقية للبلدة، حتى عائلته، فاكتشفوا أن الجد الأكبر الإفريقى لآل بيلى هو رجل من يوروبا يطلق عليه اسم بيلالى وغالباً هو مسلم الديانة. وعلى الأقل ثلث العبيد الذين جاءوا إلى أمريكا كانوا من المسلمين ومعظمهم انتهى بهم الأمر على جزيرة آل بيلى ذاتها.

وبحث علماء الأنثروبولوچيا أيضًا فى أصول الكنيسة المعمدانية الإفريقية القديمة حيث تم دفن معظم أفراد عائلة بيلى واكتشفوا أن هذه الكنيسة، فضلًا عن الكنائس الأخرى على الجزيرة التى يعود تاريخها إلى أيام العبودية كلها تتجه نحو الشرق

إلى قبلة مكة المكرمة. كما أن أهل المدينة من كبار السن يواجهون اتجاه الشرق عندما يتلون صلاتهم المعمدانية، مما يعنى أن الأفارقة المعمدانيين الذين يستقبلون الشرق عند أدائهم لصلاتهم هم من المسلمين الذين تم تنصيرهم، غير أنهم نسوا من كانوا فى يوم من الأيام.

وفوق كل ذلك تم تحويل مسمّى عائلة بيلالى إلى الإنجليزية وتسميتهم آل بيلى قبل نشوب الحرب الأهلية بزمان. ويرجع أصلهم إلى الإفريقى بلال فى القرن السابع، وهو من أول الناس الذين اعتنقوا الإسلام وكانوا من أتباع الرسول صلوات الله عليه وسلامه. كما كان أول من رفع الأذان فى صحراء الجزيرة العربية منذ 1400 عام. وبالرغم من ضعف هذا الاحتمال، فقد يكون آل بيلى الذين يعيشون فى ولاية چورچيا من سلالة أول مؤذن مسلم يرفع الأذان ويشق صوته عنان سماء الصحراء وقت الفجر.

وقد قرأ بيلى كل هذا، بيد أنه لم يرد على والدته بعد. ترى ما هو الرد الذى تنتظره منه؟ هل ينبغى عليه أن يعبر عن فرحته لكونه الآن سليل أقسى نظام للعبودية تأسس فى العالم، وقد أصبح الآن منحدرًا من سلالة تابعى إحدى الديانات التى يهاجمها الوعاظ المعمدانيون صباح كل أحد فى الكنيسة.

هل يخبر أبناءه بهذا أيضًا؟ هل يصدمهم بحقيقة أخرى؟ لقد كان شاقًا فى يوم من الأيام أن يخبر هؤلاء الصغار الأبرياء أن هناك أنواعًا معينة من البشر تناهضهم بسبب لون بشرتهم فقط. لا لن يخبرهم بآخر الأخبار التى توصلت إليها أمه، فالأمر يخصها هى وحدها إن رغبت أن تصبح مسلمة تنتمى إلى أسرة بلال فى سن الثمانين فلها ذلك.

ولن يعير الأمر اهتمامًا، فهو أحد الأشياء التى تجذبه إلى الماضى بعيدًا عن النجوم. ثم ما صلة كل ذلك به فى النهاية؟

بغداد عام 780 بعد الميلاد - ومثلها مثل الرياضيات حفزت علوم الفلك تدفقًا علميًا هائلًا خلال جميع العصور الذهبية الإسلامية. وفى واقع الأمر لا يمكن التفرقة بين عبقرية علماء الرياضيات وعلماء الفلك المسلمين. ويعلو شأن علماء الفلك فى بغداد حتى قبل تأسيس بيت الحكمة إبان عصر مؤسس المدينة الخليفة المنصور ثم عهد الخليفة هارون الرشيد. ويعتبر هؤلاء العلماء أنفسهم علماء فى الرياضيات وفلاسفة كما أنهم عشاق للنجوم.

وتدفع التساؤلات الخاصة بالسماء والكواكب الكثير من البحوث الحسابية خلال عصر الخلافة العباسية. ويحسب العلماء حركات النجوم ومراحل وتوقيت السنة القمرية، ويشرحون ويتنبئون بخسوف القمر، ويحاولون قياس ومعرفة طبيعة الوقت ذاتها عن طريق تتبعها من خلال المواقع المؤقتة للشمس والقمر والنجوم.

ولكن لماذا كل هذا؟ يعود الجزء الأكبر في ذلك إلى وحى وتعاليم النبى محمد صلى الله عليه وسلم حول أمور الدين الرئيسية فقد بلغ المؤمنين أن الصلاة كتبت عليهم خمس مرات يوميًا بدءًا من صلاة الفجر فالظهر والعصر والمغرب حتى العشاء، كما أوضح صلى الله عليه وسلم أن المسلمين يجب أن يستقبلوا اتجاه الكعبة فى مكة المكرمة عند إقامة الصلاة. وعلمهم أن السنة تتكون من 12 شهرًا منها أربعة أشهر حرم، والشهر التاسع شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن.

وحتى العصر الإسلامى تنافست مجموعة من التقويمات السنوية لاسترعاء انتباه الشرق الأوسط ووسط آسيا. وتعد أقرب ديانتين للإسلام هما اليهودية والمسيحية من حيث استخدام تقويمات سنوية مشابهة ولكن بها الكثير من القصور وعدم الدقة أدى إلى إضافة شهر 13 كل 19 عامًا لإحداث التناغم بين التواريخ ومواضع الشمس.

ولكن القرآن يوضح بجلاء أن فى السنة 12 شهرًا:

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾. [التوبة: 36].

بالإضافة إلى ذلك، فبعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم قرر المسلمون أن التقويم الإسلامى سيحسب باستخدام السنة القمرية وهى أقصر من السنة الشمسية بنحو 11 يومًا. وفوق كل ذلك ستوكل إلى علماء الفلك المسلمين مهمة تنطوى على الكثير من التحدى فالشهور الإسلامية لن تبدأ مع اكتمال القمر، بل ستبدأ عندما يكون القمر على شكل الهلال.

ومن ثم تفرض مسألة استطلاع الهلال تحديًا آخر على علماء الفلك المسلمين. وفى البداية عندما لا يتوافر للمجتمع الإسلامى منهج فلكى رياضى مطور لمعرفة وقياس مرور الوقت يستخدم الناس مراحل اكتمال القمر لوضع التقويم، ويعتمدون فى ذلك على رؤية القمر، وبهذا يعتبر أول هلال مرئى علامة على بداية الشهر. وفيما بعد عندما تصبح المناهج الرياضية الفلكية مقبولة بشكل أكبر لدى الناس، سوف يعتمدون عليها بشكل أكبر من اعتمادهم على رؤية القمر. وبحلول القرن الـ 21 تعتمد بعض الدول على الأسلوب التقليدى لرؤية الهلال، بينما تتبع دول أخرى الحسابات الرياضية.

وفى حسابات أخرى ولمعرفة توقيت اليوم يكون التحدى الحسابى فى هذه الحالة هو تحديد الجوانب والزوايا غير المعروفة لمثلث ضخم يتكون من الكرة الأرضية

والكرة السماوية باستخدام الجوانب والزوايا المعروفة. وينبغى على علماء الفلك المسلمين أن يرسموا مثلثًا تمثل نقاطه الثلاث الرئيسة موضع الشمس وسمت السماء والقطب الشمالى السماوى. أما النسب المعروفة فهى موضع الشمس والقطب السماوى الشمالى والوقت هو زاوية التقاطع للقوسين: أحدهما قوس سمت السماء والقطب والآخر قوس الشمس والقطب.

وبينما كان الإغريق الأوائل يستخدمون وسيلة مرهقة من الحسابات المكررة لقياس الوقت لم يكن أسلوبهم عمليًا، حتى إنهم عند وصولهم للإجابة يكون الوقت الذى حسبوه قد مر ودخلوا فى ميقات آخر. وعبر عدة قرون يستطيع المسلمون أن يُبسطوا هذه العملية باستخدام صيغ أكثر عملية لعلم المثلثات، فعلى الرغم من أن إحدى دالات علم المثلثات قد أتت إليهم من الهند مثل جيب الزاوية يستطيع علماء الفلك فى بغداد أن يحددوا الدالات الخمس المتبقية وأن يطلقوا العنان للقوة الكاملة لعلم المثلثات. والدالات هى جيب التمام وظل الزاوية وظل التمام ومعكوس جيب التمام وقاطع التمام.

ويساعد تحديد اتجاه قبلة الصلاة وتكوين التقويم الإسلامى بشكل كامل فى الدخول فى علم الهندسة الكروية ودراسة الأجسام الكروية، والتى تذهب إلى ما وراء الهندسة المستوية إلى قمم أخرى تمثل قاطرة دفع الكثير من عمل علماء الفلك والرياضيات.

بيد أن الرسول ــ صلوات الله عليه وسلامه عليه ــ والدين لم يكونا الدافع الوحيد للبحوث الفلكية الإسلامية. وعلى المستوى الإدارى اليومى توجد أسباب وجيهة تجعل الإمبراطورية التى تمتد جنباتها من المحيط الأطلنطى إلى إفريقيا فوسط آسيا وعلى سواحل الجزيرة العربية والهند تبحث فى علم النجوم، فالخلافة تحتاج إلى ممارسة الملاحة كى تجد طريقها من مكان إلى آخر.

وأخيرًا فهناك علم التنجيم الباقى على استحياء وقد راجت ممارسته فى عصور ما قبل الإسلام عند الزرادشتيين والهندوس واليهود وغيرهم من الطوائف والأديان عبر الألفيات التالية. ويتهم علم التنجيم بأنه يخالف الشريعة الإسلامية، بيد أنه لن يختفى تمامًا من الوجود، فبينما يرفض بعض علماء الفلك علم التنجيم كليةً يُبقى عليه آخرون.

ويتأثر أوائل علماء الفلك المسلمين بكتاب براهماجوبتا الذى جاء من الهند تحت عنوان «بداية الكون». ويُستخدم هذا الكتاب ذو العلوم الفلكية فى حساب التقويم الهندوسى. وبالرغم من أن أصوله وأساليبه الحسابية ترتكز على الافتراضات أكثر من الشروح العلمية لا يقدر الكتاب ــ لدى المسلمين الأوائل الذين يواجهون تحديات فى تحديد الوقت المرتبط بالأحداث السماوية ــ بثمن.

بيد أن أبعد المصادر الأجنبية يتجلى فى أعمال بطليموس الفلكية وكتابه الذى أطلق عليه اسم المجسطى بمعنى الأعظم على الإطلاق. وعندما تتم ترجمة هذا الكتاب من العربية إلى اللاتينية من خلال المترجمين الكاثوليك واليهود يحتفظون بهذا الاسم.

ورغم أن هذا الكتاب يشوبه الكثير من الأخطاء بما فيها مركز الأرض بالنسبة للكون، حيث يزعم الكتاب أن الأرض هى مركز الكون فسوف تصمد تلك النظريات حتى ظهور حسابات كوبرنيكوس. ويعتبر المسلمون أعمال بطليموس أفضل نظرة عامة لشرح وظائف السماء، ويكرسون الكثير من الوقت والجهد لفحص وتحقق ونقد وتحسين صيغ بطليموس. ويبدأ البعض منهم فى اكتشاف أخطاء وتناقضات وحتى إن بعضهم يتشكك فى نظرية أن الأرض هى مركز الكون.

وتزداد الأدلة الخاصة بوجود مناقشات دائرة حول حركة الكرة الأرضية ما بين الفلاسفة وعلماء الفلك المسلمين. ويشمل هذا الجدل علماء مثل البيرونى فى القرن الـ11 والطوسى في القرن 13. ويتشكك البيرونى ومصدر إلهامه فى ذلك النظريات الهندية التى ترى أن الشمس هى مركز الكون فى نموذج بطليموس، الذى يرى أن الأرض لا تتحرك. أما حجة البيرونى فى ذلك فهى أن الأرض ربما تكون تدور حول نفسها. وبحلول القرن 13 يعترض علماء الفلك المسلمون على الأدلة التى يقدمها بطليموس ويرون أن حجج بطليموس لا تقطع بأن الأرض ثابتة بلا حراك.

وعلى هذا يصبح العمل على إيضاح الإشارات التى تنوه إلى دوران الأرض وتقديم الأدلة القاطعة على حركة الأرض من أكثر الأمور الجدلية فى علم الفلك الإسلامى بعد القرن الـ 13 وصولاً إلى فترة كوبرنيكوس، بل ربما يغذى هذا الجدل هذه الفترة أيضًا.

ويدور جدل مواز للجدل السابق ذكره فى أوربا ما بين علماء اللاهوت أشباه الفرنسى نيكول دوارسيم وجان بيوريدان. وبينما تتفتح عقول العلماء المسلمين لفكرة دوران الأرض يرفضون أن يجزموا بذلك حتى تظهر أدلة قاطعة عليه. وتنتشر المناقشات الخاصة بدوران الأرض فى أماكن أخرى فى أوربا بالرغم أن مثل هذه القضايا تظل داخل إطار علوم اللاهوت بينما هى فى العالم الإسلامى تضحى جزءًا من الخطاب العلمى البحت.

وهناك بعض الأدلة تشير إلى أن كوبرنيكوس يأخذ هذه المسائل الفلكية الهامة من علوم الفلك العربية. ويستخدم كوبرنيكوس حججًا مماثلة لدحض أدلة بطليموس الزاعمة بأن الأرض ثابتة. ويحاول فى ذات الوقت إيجاد صرح حسابى يتناول حركة الكواكب. ويشبه هذا الصرح الحسابى النموذج الذى صممه الطوسى وعلماء الفلك المسلمون الآخرون. وتكمن عبقرية كوبرنيكوس فى إثباته أن الأرض تدور حول نفسها كما أنها تدور حول الشمس. ويبين المؤرخ العلمى توماس كوهن فى

كتابه ثورة كوبرنيكوس ـ دور علوم فلك الكواكب فى تطور الفكر الغربى أن هذه «الثورة الفلكية» تحدث نتيجة للعديد من العوامل الاجتماعية والاقتصادية والفلسفية وليس مجرد مراجعة للفكر العلمى الناتج عن أدلة علمية واضحة.

وفى القرن 15 يكون عالم الفلك المسلم القشجى أكثر انفتاحًا لفكرة دوران الأرض. ووفقًا لما جاء على لسان الأستاذ جميل رجب من جامعة ماكجيل قال القشجى إنه فى حالة ظهور فيزياء أكثر إقناعًا قائمة على أساس مقدمات منطقية معينة والدليل المبنى على الملاحظة فهو على أتم استعداد لأن يقبل بفكرة دوران الأرض. وتجعل هذه العبارة «القشجى متميزًا بين علماء فلك وفلاسفة القرون الوسطى».

وتعد إحدى النقاط التى يصيب فيها بطليموس، والتى يقبلها أيضًا المفكرون المسلمون فكرة أن الأرض كروية. وبحلول العصور الوسطى يكون الدليل المادى على أن الأرض كروية موجودًا لدى بعض الناس، وذلك بالرغم من أن الخرائط الأوربية تظهر الأرض على أنها مسطحة. كما كانو يكتبون عند الحواف العبارة التالية: «بعد هذا الحد توجد تنانين». ولكن منذ العصور القديمة لاحظ البحارة أن للأرض شكلًا كرويًا. واعتمد حسابات خطوط الطول على أن الأرض دائرية وبدون ذلك لم يكن للهندسة الكروية أن تتطور.

ويستفيد المسلمون أيضًا من خرائط النجوم الساسانية (الفارسية) التى يطلق عليها اسم «الزيج» وهو عبارة عن نظام متميز لمراقبة ورسم السماوات. ويعد ما شاء الله بن آثار الذى أطلق عليه المترجمون اللاتينيون اسم Messahala عالم فلك يهوديًا من أصل فارسى ويعمل مع نوبخت فى بغداد داخل بلاط الخليفة المنصور وهارون الرشيد. ويستشير هارون الرشيد هؤلاء الرجال فى أمور فلكية خاصة باختيار موقع بغداد الجديد وذلك بخلاف أمور أخرى.

ويُستدعى إبراهيم الفزارى، وهو فارسى، من قندوز (المكان الذى يطلق عليه الآن اسم أفغانستان) إلى بلاط هارون الرشيد. وهناك يكتب بحثًا عن الأسطرلاب وهى عبارة عن آلة فلكية قديمة ترجع أصولها إلى الإغريق وعهد بطليموس غير أن هذه الآلة تصل إلى أعلى مراحل تطورها أيام المسلمين. والأسطرلاب عبارة عن جهاز مناظر للكمبيوتر يتسم بتعقد تركيبه وبنائه ويسمح للمستخدم المتمرس على استخدامه بتحديد خطوط العرض عن طريق التنويه إلى أقرب مجموعة من النجوم الثابتة إلى الشمس ساعة بزوغ النهار، ثم عند الظهر يقوم بقياس درجة الاختلاف بين الشمس والأفق باستخدام إبرة متحركة. ومن خلال مقارنة هذه القياسات بخريطة يستطيع المستخدم أن يحسب خطوط العرض. ويعد الأسطرلاب أساس عمل الملاحة حتى القرن الـ 18 عندما يتم استبدال الآلة السدسية به. ويساعد الأسطرلاب فى تحديد المواقع فضلًا عن مواقيت الصلاة.

وتصل أجهزة الأسطرلاب الإسلامية إلى قمة تطورها فى القرنين التاسع والعاشر وتجد طريقها إلى الأندلس، ومن الأندلس إلى إنجلترا فى القرنين 13 و14. أما الكاتب والشاعر الإنجليزى چيفرى تشوسر صاحب حكايات كانتربرى فتجذبه قوة الأسطرلاب ويكتب مقالة عنه. وينبهر العلماء فى جامعة أكسفورد بهذا الجهاز ويبدءون فى تطوير أدواتهم الخاصة ويدمجون النصوص العربية القديمة وأسماء النجوم العربية داخل تصميماتهم.

أما أسماء تلك النجوم التى سوف تدوم حتى وقت رحلات الفضاء وما بعد ذلك فستردد أصداء بيت الحكمة، حتى عندما تواصل مسابير الفضاء الغوص أكثر فأكثر فى أعماق الكون ويوجهون وجهتها إلى النجوم ذات الأسماء العربية التى أطلقها عليهم فلكيون مسلمون منسيون. فأسماء مثل سمت وسموت تُشتق أساساً من اللغة العربية، كما أن أسماء النجوم تبدو وكأنها نابعة من لغة الشعر العربية الصحراوية مثال فيجا (النسر الواقع) والطير (النسر الطائر) وذنب (ذنب الدجاجة) بيت الجوزاء والرجل والدبران وفم الحوت والجوزاء وكوكبة الإكليل الشمالى والفرس والمراق.

ويواصل الفزارى ويليه ابنه محمد بحثهما، وذلك بأن يبدأا فى ترجمة النصوص الهندية الرقمية إلى اللغة العربية وهى مهمة يستكملها الخوارزمى فى القرن التاسع.

ويحدث العالِم الأندلسى المجريطى فى مدريد الجداول الفلكية التى صممها الخوارزمى بعد مرور 200 عام ثم تتم ترجمة هذه الجداول إلى اللغة اللاتينية بواسطة أبيلار فى عام 1126. وتشكل جداول الخوارزمى والمجريطى أساس علوم الفلك الأوربية والآسيوية لمئات السنوات التالية.

وبالرغم من كل الاكتشافات الفلكية التى تحققت فى ظل خلافة المنصور وهارون الرشيد فإن العصر الذهبى لعلوم الفلك الإسلامية لن يحدث إلا فى القرن التاسع تحت حكم المأمون وبرعاية بيت الحكمة. فالمأمون لن يجذب علماء الفلك ليأتوا إلى بغداد فحسب، بل سيدعم إنشاء شبكة من المراصد الإسلامية. ويتم تأسيس أحد هذه فى المراصد فى جنديسابور مقر مركز التعلم الفارسى القديم. وفى أثناء العمل فى هذه المراصد يطور علماء الفلك المسلمون مقياس دائرة خط الزوال بشكل أكثر دقة من الإغريق وهو الخط الشمالى الجنوبى النظرى على سطح الأرض.

ويؤسس المأمون مراصد أخرى أحدها على البوابة الشمسية فى بغداد وآخر على جبل قيسون الذى يطل على دمشق. ويدير مرصد الشمسية اليهودى الذى اعتنق الإسلام سيد بن آل. وتُشيد مراصد أخرى فى واسط بالعراق والأفاميا فى سورية.

وفى كل هذه المراكز يكرس علماء الفلك والرياضيات جهودهم لترجمة وإثبات وتحليل نظريات بطليموس. ويحاولون قياس درجة طول دائرة خط الزوال ويحسبون أبعاد الكرة الأرضية ويفهمون ظواهر الخسوف والكسوف والاعتدال الربيعى أو الخريفى والمذنبات.

ويقومون بكل هذا بدون استخدام التلسكوبات وبتطبيق علم المثلثات المتطور لديهم على الهندسة الكروية. ويحسب علماء الفلك العباسيون أن قطر الأرض يبلغ 7909 أميال (وهو فى واقع الأمر 7932 ميلًا) وأن المسافة حول خط الاستواء هى 24835 ميلًا (وهى فى الواقع 24906 أميال). كما يحسبون متوسط درجة طول دائرة خط الزوال على سطح الأرض وتختلف تلك الحسابات بمقدار 2800 قدم فحسب فى دقتها عن الأصل؛ أى أكثر بقليل من نصف الميل. ويقوم علماء الفلك المسلمون بحساب زاوية ميل الأرض على محورها المعروفة باسم انحراف دائرة البروج وخطوط العرض على سطح القمر الموازية لخط استوائه وتمايل الكرة الأرضية على محورها وهى الظاهرة المشهورة باسم مبادرة الاعتدال الربيعى أو الخريفى. ويعد كل ما سبق من أهم الحسابات التى أجريت فى العصور الوسطى.

ويُستدعى للحضور إلى بيت الحكمة أيضًا عالم الرياضيات الفارسى والفلكى الفرغانى من مدينة فرغانة القديمة التى تقع فى منطقة وسط آسيا، والتى تعرف فى وقتنا الحاضر باسم أوزبكستان. ويخرج الفرغانى من قلب أرض الزرادشتيين بالقرب من البوابات الغربية للصين حيث كان الرجال يتطلعون إلى السماء بحثًا عن معنى ورسالة ما منذ أيام الملوك الثلاثة الفارسيين أو المجوس الذين سافروا إلى بيت لحم بعد أن جذبهم إليه حدث كونى باهر. ويتشابك حب الفرس الآسيويين للنجوم مع معرفتهم بالسحر والعلوم الهرماتية ورغبتهم فى تقديس أسرار الحياة والكون. ويُفرز هذا المزيج الثرى من علوم الفلك والمدارس القديمة للتنجيم والسحر مجموعة من أعظم علماء الفلك يولدون فى سهل منطقة وسط آسيا. وربما يخبرنا هذا أنه بالرغم من تطور العلوم يبقى حب التنجيم، حتى عندما يشير عدد لا حصر له من المفكرين والحكام أن القرآن الكريم ينفى تمامًا ارتباط مقدرات البشر وتأثرها بقوى ما وراء الطبيعة وأن الله وحده جل جلاله هو الذى يتحكم فى تلك الأقدار.

ويكتب الفرغانى موجزًا عربيًا جذابًا لكتاب بطليموس الشهير المجسطى فى حدود عام 833. ويوزع هذا الموجز سريعًا داخل أرجاء العالم الإسلامى ثم يُترجم إلى اللغة اللاتينية فى صور مختلفة بعد ذلك بنحو 300 عام. ويقوم بأعمال الترجمة هذه كل من جون السيفيلى وجيرارد الكريمونى. ويتحول اسم الفرغانى باللاتينية إلى الفراجانوس ويطلق على أحد فوهات القمر.

وقبل عصر النهضة الأوروبية بزمان بعيد يكتب الشاعر الإيطالى دانتى فى

القرن الـ 13 باستخدام اللغة الإيطالية العامة بدلًا من اللاتينية ويصف فى ملحمته الشهيرة الكوميديا الإلهية صعوده إلى درجات مختلفة فى السماوات. وتأتى فكرة الكرة السماوية لدانتى من خلال قراءته للترجمة اللاتينية المأخوذة أساسًا من الترجمة العربية لكتاب المجسطى فى أثناء دراسته فى الجامعة، فضلًا عن قراءته لبعض الكتب ذات المصادر العربية التى تحكى قصة صعود النبى محمد، صلّى الله عليه وسلم، إلى السموات السبع (أو المعراج).

وفى بيت الحكمة فى القرن الـ 10 يضع عالم الرياضيات البتانى، الذى يشتهر فى أوربا باسم الباتجينوس، الجداول الحسابية الخاصة به. وتجد الجداول الفلكية المنقحة طريقها إلى اللغة اللاتينية والإسبانية فى القرنين الـ 12 و13. ولأسباب مبهمة تحقق هذه الجداول رد فعل محدودًا فى العالم الإسلامى إلا أن النسخ الأوربية منها تستقبلها الدول الأوربية بالكثير من الحفاوة. وبعد مضى 700 عام على كتابة تلك الجداول يشير كوبرنيكوس إلى جداول البتانى 23 مرة فى كتابه المعنون بـ «ثروة الكرات السماوية».

وفيما بعد عندما تمر الخلافة العباسية فى بغداد بمراحل الاضطراب فى القرن الـ 11 ومع بزوغ فجر الأسرة الفاطمية فى مصر ينتقل المشهد الفلكى الإسلامى إلى القاهرة، ويميز مرحلة الانتقال هذه وقوع حدث سماوى نادرًا ما يشهده بشر، اللهم إلا المحظوظون، بيد أن هذا الحدث يبدو عظيمًا وغريبًا لدرجة أن البعض يعتبره شئومًا أكثر من كونه خيرًا.

ففى عام 1006م عندما يكون الخليفة الفاطمى ـ المتقلب المزاج غير أنه بعيد النظر ـ الحاكم بأمر الله فى الـ 21 من عمره وبعد مضى عام على تأسيس دار الحكمة فى مصر يظهر فى السماء نجم جديد ساطع ليلًا فى السماء الجنوبية، ويلمع هذا النجم على جدران جامعة الأزهر ومآذن جامع الحاكم بأمر الله وفوق الشريط النحاسى لنهر النيل وأهرامات الجيزة جنوب المدينة. واستمع إلى الوصف الذى يقدمه عالم الفلك الشاب المغمور ابن رضوان:

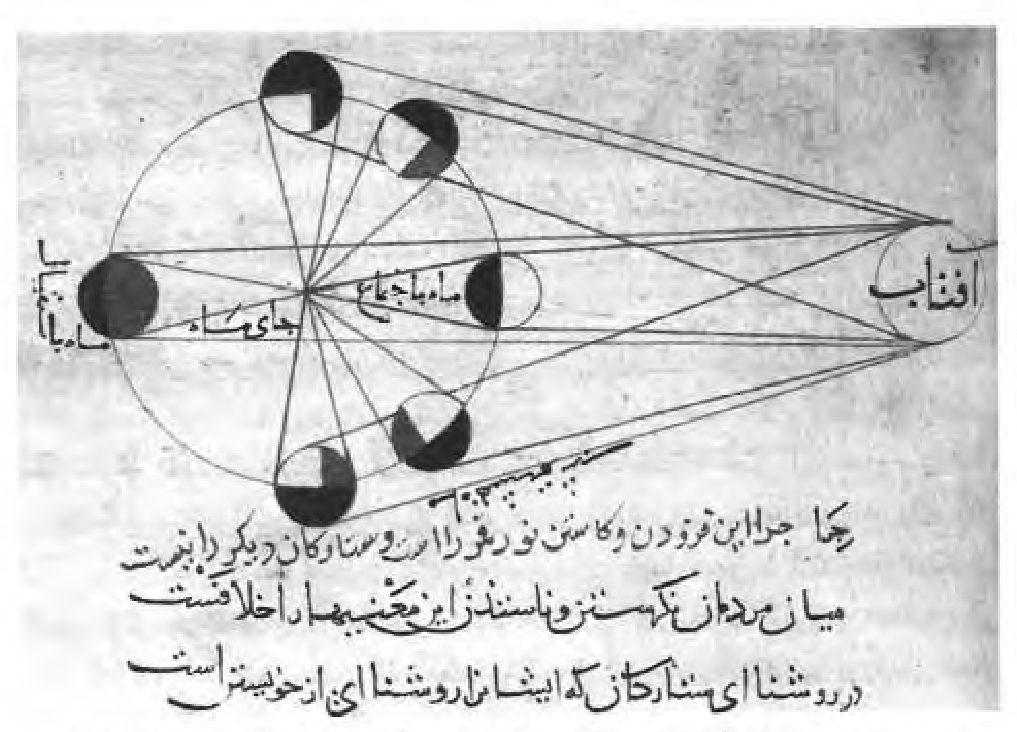
سوف أصف الآن المشهد الذى رأيته عند بداية تعلمى. هذا المشهد ظهر فى برج العقرب فى الاتجاه المعاكس للشمس، كانت الشمس فى ذلك اليوم على بعد 15 درجة فى برج الثور (أى على بعد 15 درجة من بداية برج الثور على الدائرة الكسوفية) وكان المشهد على بعد 15 درجة من برج العقرب. هذا المشهد كان جسمًا دائريًا كبيرًا قطره ما بين 2.5 إلى 3 مرات قطر كوكب الزهرة. وكانت السماء تشع بسبب ضوئه العالى. حيث كان ضوءه يزيد قليلا عن ربع إضاءة القمر. وقد ظل فى مكانه إلى أن أصبحت الشمس على بعد ستين درجة منه فى برج العذراء (السنبلة) فاختفى [18].

ويشهد الناس هذا الحدث الجلل ويتم تسجيله من سويسرا حتى الصين فضلًا عن الأقطار التى تقع بينهما غير أن أحدًا لن يفهمه. وتتكشف أسرار هذا اللغز بعد مرور ألف عام عندما يهل عصر سفن الفضاء ويدرك علماء الفلك هاهنا أن ما شهده ابن رضوان كان شيئًا خارقًا، حيث شهد انفجارَ نجمٍ.

وبالرغم من أن الكثير من المراقبين ينوهون إلى رؤية هذا الحدث السماوى، فابن رضوان هو الوحيد الذى يقدم وصفًا واضحًا لموقع هذا النجم الساطع ومدة بقائه فى السماء وبذلك يستخدم العلماء وصفه هذا بعد مرور ألفية كاملة. وباستخدام هذا الوصف الذى قدمه ابن رضوان للنجم يستطيع العلماء فى بلد يطلق عليه اسم الولايات المتحدة فيما بعد أن يحددوا موقع بقايا هذا النجم، ويطلقون عليه اسم المستعر الأعظم أو الطارف الأعظم لعام 1006 بعد عام من اكتشاف هذه الظاهرة. ويبعد هذا النجم 7000 سنة ضوئية عن الأرض، كما أن البلازما الداخلية له لاتزال تحترق بدرجة مليون درجة مئوية فى القرن الـ 21. ويحسب العلماء درجة لمعانه ويجدون أنها فى عام 1006 كانت 7.5 مما يجعل لـ «المستعر» أكثر وأعظم توهج تم تسجيله فى التاريخ كما أنه أكثر لمعانًا من كوكب المشترى بمقدار 100 مرة.

وبالرغم من أن ابن رضوان لن يواصل اهتمامه بالنجوم حيث يصبح طبيبًا فيما بعد فإنه يكتب وصفه للمستعر الأعظم فى عام 1006 وهو فى الـ 18 من عمره. ويبين هذا أن القاهرة الفاطمية سوف تفرز العديد من علماء الفلك المسلمين. ويتربع على عرش علماء الفلك هؤلاء أعظمهم على الإطلاق، ألا وهو ابن الهيثم مؤلف كتاب المناظر، حيث يمزج ما بين اهتمامه بالعلوم التجريبية والبصريات والضوء والسماوات وبذلك يخرج بأكثر نظريات الكون المادى دقة حتى عصر جاليليو وكوبرنيكوس. ويعد أحد الفلكيين البارزين الآخرين «ابن يونس» الذى يصمم جداول للنجوم تحت رعاية الحاكم بأمر الله وتعرف باسم «الزيج الحاكمى». ويضحى الزيج الشامل الذى يخلص إليه أساس معرفة الوقت بالرجوع إلى السماء لمدة 800 عام فى جميع أرجاء العالم الإسلامى، وذلك بالرغم من أن الأوربيين لن يعرفوا شيئًا عنه حتى القرن الـ 19. ولن يتميز الزيج الذى يضعه ابن يونس بسبب دقته فحسب؛ ولكن لكونه يستهله بمائة تعليق يشرح فيها الظاهرة السماوية مثل ظاهرة الاقتران ما بين جرمين سماويين فضلًا عن خسوف القمر وكسوف الشمس.

وفى القرن الـ 10 يفقد العباسيون فى بغداد قوتهم أمام البويهيين، الذين يعود أصلهم إلى المحافظة الفارسية ديلم التى تقع جنوب بحر قزوين. بيد أن أسرة البويهيين التى يستمر سلطانها لفترة قصيرة ستواصل رعايتها لعلم الفلك وبقية العلوم. ويرعى أحد الحكام البويهيين أبو محمود حامد بن الخضر الخُجندى الذى يولد فى المكان الذى يعرف اليوم باسم طاجكستان وهو سليل إحدى القبائل ذات المنزلة السامية فى المنطقة.



رسم بيانى صممه العالم الفارسى البيرونى يوضح أن خسوف القمر يحدث عندما يحجب كوكب الأرض وصول ضوء الشمس إلى القمر.

ويتذكر الناس الخجندى بسبب إنشائه لآلة فلكية ضخمة فى القرن العاشر على قمة جبل فى مدينة الرى فى بلاد فارس لا تبعد بكثير عن طهران. وتشبه وظيفة هذا الهيكل الضخم عمل الآلة السدسية وهى اختراع آخر من اختراعات المسلمين. ويستند اختراعه هذا إلى اعتقاد المسلمين الذى له مبرراته فى ذلك الوقت بأن كبر حجم جهاز القياس يؤدى إلى دقة أكبر فى أخذ القياسات فضلًا عن دقة الحسابات الفلكية الناتجة عنه.

ويبدو هذا الهيكل الذى أسسه أشبه بالحجرة المظلمة الضخمة التى توازى ما وصفه ابن الهيثم، فهو عبارة عن هيكل له فتحة من أعلى تسمح بدخول ضوء الشمس وتتقاطع مع جدار من الخطوط والحسابات. وتسمح عمليات أخذ قياسات زوايا ضوء الشمس إبان انقلاب الشمس الصيفى والشتائى للخجندى بحساب خطوط عرض مدينة الرى وزاوية الدائرة الظاهرية لمسير الشمس، كما أن هيكله الضخم هذا هو أول أداة فلكية قادرة على قياس أجزاء الثانية، وهى عبارة عن وسيلة قياس أكثر دقة للزوايا عن الدرجات وأجزاء الدقيقة.

وتتردد أصداء انتشار المعرفة الفلكية والعلمية من بغداد لدى الخلافة الأموية فى قرطبة، وذلك فى القرن الـ 11 والأندلس فى قمة ثروتها وتطورها. وبالرغم من أن أول قرنين من التطور الفكرى فى الأندلس كانا عبارة عن محاولة طموح منها للحاق

بمدينة بغداد البعيدة إلا أنه بحلول القرنين الـ 10 و11 ينجذب عدد كاف من العلماء والمفكرين من أقصى أطراف العالم الإسلامى بواسطة الرواتب المغرية التى تضعها الخلافة الأموية كى تجعل من قرطبة مدينة منافسة. ويضم علماء الفلك الذين يأتون بخبرتهم الطويلة فى مجال الفلك العالم ابن تيمية من بغداد، بيد أن أول عالم فلك يخرج من تربة الأندلس هو مسلمة المجريطى. ولكن موطن هذا العالم ليس قرطبة بل مدينة إسبانية ذات شمم وإباء تصبح فى يوم من الأيام العاصمة الرئيسية للملوك الكاثوليك وهى مجريط أو مدريد.

ويؤسس مدينة مجريط تاسع الخلفاء الأمويين الأمير محمد الأول على الأراضى الجافة والمرتفعة لمنطقة شمال وسط إسبانيا ويحميها جدار جبال البرانس من شتاء الشمال الرطب. ويأمر الأمير بتشييد قصر صغير وجامع بالقرب من نهر مانزاناريس الذى يتدفق من سلسلة جبال جوادارما. وتعنى كلمة مجريط بالعربية «مجرى النهر» وتزدهر مدينة مجريط حتى الغزو المسيحى الذى يقوده ألفونسو السادس فى عام 1065. وبعد الغزو يعاد بناء المسجد ويتحول إلى كاتدرائية المدينة ويختفى قصر الأمير فى يوم من الأيام تحت القصر الملكى، وبذلك تنتهى آثار المعمار الإسلامى فى مدينة مدريد الحديثة بين غيابات التاريخ. بيد أنه حتى حكم الملكة إيزابيلا وتحت الحكم الإسلامى ثم الكاثوليكى تظل إسبانيا مكانًا خصبًا للتمازج بين الشعوب. ويعيش فى مدريد فى القرن العاشر المسيحيون المستعربون من سلالة الرومان والقوط الغربيون ويتعلمون اللغة الجديدة فى إسبانيا، فتجد فى هذه البلاد اليهود الذين يتحدثون العربية والمسلمين من جميع الأجناس والأعراق. وحتى عهد محاكم التفتيش الإسبانية تعيش كل هذه المجموعات وتعمل فى سلام موصول.

وينظر المجريطى كصبى إلى أعلى حيث الهواء الجاف العليل لمدينة قشتالة (كاستيل) ويراقب نفس النجوم والكواكب كما تبدو من السماء الشرقية البعيدة وذلك مع اختلاف البانوراما والحركة الخاصة بموقعه فى الغرب. ويهتم المجريطى ـ الذى يقف وتحيط به بساتين الزيتون والبرتقال والليمون ـ بكل من السماء والأرض، وينظر إلى الحقول والحدائق الغناء ذات الشكل المنظم والمنتظم وإلى الطرق التى تشير إلى اتجاهات البوصلة وإلى الجدران التى تطوق قطع الأراضى التى يمتلكها الأغنياء والفقراء والنبلاء والعامة ويفكر فى هندسة الأرض. ويكتشف أن مسطح الأراضى فى مدينة مجريط ينقسم إلى مربعات ودوائر ومستطيلات. ثم تنتقل عيناه لترصد قطع الأراضى ذات الأشكال غير الاعتيادية شأن متوازى الأضلاع والمعين والمخمس ثم قطع الأراضى الزراعية التى نحتتها الأنهار. ويمعن التفكير فى المضامين الحسابية لكل هذه الأشكال.

وفيما بعد فى أثناء خدمته للخلفاء الأمويين يدرس ويحلل ترجمة الخوارزمى والترجمات العربية الأخرى لكتاب المجسطى ويضيف إليها المزيد من التعليقات. كما

يصحح الجداول الفلكية للخوارزمى بعد مضى 150 عامًا على وفاة مبدع الأرقام هذا. وفى هذه البلاد البعيدة للعالم الإسلامى يخترع المجريطى وسيلة عبقرية لتحويل التقويم الفارسى القديم إلى تواريخ تعتمد على التقويم الإسلامى، وبذلك يساعد لأول مرة فى القيام بحسابات أكثر دقة وتحديدًا للتواريخ والأحداث الفارسية التى وقعت فى فترة ما قبل الإسلام.

ولعل ما يعد أهم من تلك الابتكارات والإسهامات الشخصية أن المجريطى يساعد من خلال شهرته المتزايدة داخل موطنه وشمال البرانس فى واحدة من أعظم عمليات نقل الأفكار عبر الثقافات المختلفة فى تاريخ البشرية. وتبدأ تلك العملية على نطاق ضيق من خلال ترجمته لأعماله إلى اللغة اللاتينية. وتغذى هذه الترجمات النهم الأوربى للحصول على المزيد من الأفكار من كل المعلمين والأسلاف القادمين من البلاد البعيدة بدءًا من بطليموس ومرورًا بالخوارزمى فوصولًا إلى البتانى. وبعد مرور قرن على وفاته فى عام 1006 يشرع القساوسة الكاثوليك والمفكرون فى اعتياد السفر إلى إسبانيا الإسلامية. وهناك تشكل أعمال المجريطى نقطة البداية بالنسبة لهم وبذلك تفتح الأبواب إلى عالم أعمال العلماء المسلمين فى مجال الفلك والرياضيات والفلسفة، فلن يدرس البابا سلفستر الثانى أول بابا فرنسى فى إسبانيا ويعرف الكثير عن المجريطى فحسب، بل كذلك بيير أبيلار وجيرارد الكريمونى وروبرت من تشستر وأفلاطون من تيبور، وكثيرون آخرون يدخلون عالم الأسرار هذا من خلال أعمال المجريطى.

وبخلاف نقل التاريخ تكوّن لأفكار المجريطى تأثير مباشر على أرض الواقع، فباستخدام التحسينات العربية الشرقية التى تم إدخالها على الأسطرلاب يستفيد من هذه الآلة فى قياس مساحات الأراضى وهى نفس المساحات التى بدت له على غرار الأشكال الهندسية عندما كان صبيًا. وباستخدام الأسطرلاب يستطيع المجريطى وزميل له يُدعى ابن الصفار أن يدخلا أول تطور فى أسلوب قياس الأراضى الأوربية منذ عهد الرومان، فالأسطرلاب لن يستخدم فحسب فى تقسيم بساتين الزيتون والبرتقال والليمون، بل يستخدم أيضًا فى رسم حدود ترع الرى سورية التصميم التى سوف تروى المساحات الجافة الشاسعة فى أراضى الأندلس.

وتنتشر روح إبداع المجريطى ورؤيته عبر شبه الجزيرة، ولن يتوقف تردد أصدائها إلا فى زمان حرق المكتبات والطرد الجبرى للأجناس المختلفة فى عام 1492.

وبعد مضى 20 عامًا على وفاة فلكى مجريط يولد صبى جديد يحمل بداخله أسئلة جديدة عن الوقت والنجوم. وهذا الصبى الذى يدعى «أبو إسحاق إبراهيم بن يحيى الزرقالى» ويعرف باللاتينية باسم Arzachel. ويعلو نجم هذا العالم فى طليطلة وهى مدينة الصلب الأندلسى التى تقع على ضفاف نهر التاجة.

ويعود تاريخ مدينة طليطلة إلى ما قبل الفتح الإسلامى. ويروى التاريخ أن هذه المدينة قد تأسست فى القرن السادس قبل الميلاد بواسطة مجموعة من المستعمرين اليهود الذين كانوا جزءًا من الحضارة الفينيقية التى تعود أصولها إلى لبنان البعيدة. ويطلق هؤلاء اليهود على هذه المدينة اسم توليدوث التى تعنى «أم الشعوب». وبحلول عهد الرومان تشتهر المدينة بكونها مدينة الجمال وصناعة الأسلحة. وتزداد أهمية هذه المدينة بحيث تصبح عاصمة القوط الغربيين فى عهد الملك لذريق فى 709.

أما فى ظل حكم المسلمين بالرغم من أن طليطلة لن تكون العاصمة فسوف تزدهر كثيرًا. وتتخذ اسمها العربى طليطلة. تتميز هذه المدينة بالثراء والإنتاجية كما تنتج مسابكها أفضل السيوف فى العالم. أما بالنسبة لشعبها فتعتبر طليطلة القلب الثقافى والروحى والفكرى لإسبانيا. وفى يوم ما فى المستقبل تصبح هذه المدينة هى مدينة ألفونسو الحكيم وميجيل دى ثربانتس وألجريكو.

هذا هو العالم الذى يولد فيه الزرقالى فى عام 1029، ولا ينتمى إلى عائلة من العلماء بل إلى الحرفيين الماهرين. فهم يصنعون الأدوات والأجهزة بناءً على توجيهات العلماء والحكماء. ولا يذهب الزرقالى إلى بيت الحكمة أو أى دار علم بل يمتهن مهنة أبيه وأعمامه ويتعلم جوانب كثيرة فى مجال النقش على الحديد والمعادن، وتعنى كنيته بالعربية «النقاش».

ويوكل إليه أحد رعاته مهمة عمل جهاز فلكى كى يستخدمه مجموعة من الفلكيين البارزين. ويتميز عمل الزرقالى بالدقة الشديدة، الأمر الذى يسترعى انتباه الفلكيين فيرسلون فى طلبه ويمتحنونه فى معرفته للعلوم والفلك، فيضحك ويقول إنه حرفى وليس عالمًا ويزعم أنه لم يفتح كتابًا فى حياته.

ويقرر الفلكيون أن عمل هذا الشاب يتسم بمنهجية خاصة وأسلوب ينوهان إلى وجود موهبة دفينة لديه. ويشجعونه على الذهاب إلى المدرسة فيفعل ذلك وهو فى سن الـ 31. وعندما يعود إليهم بعد مرور عامين يبهرهم التقدم الذى أحرزه، وبذلك يجعلونه عضوًا فى مركز الاختراعات ثم يصبح مديرًا لهذا المركز فيما بعد.

يصمم الزرقالى ويبنى أسطرلابًا متطورًا. وأهم من ذلك أنه يكتب مقالًا عن الأسطرلاب يؤدى إلى ظهور نوعية معينة من الأدبيات تغوص فى أعماق جهاز الأسطرلاب. وبعد أكثر من 200 عام من وفاة الزرقالى يقوم ملك قشتالة ألفونسو العاشر بإجراء ترجمتين لمقالاته.

يتحول الزرقالى فيما بعد إلى صناعة آلات الزمن. وفى نفس العام أى عام 1062 يصمم ويبنى ساعة طليطلة المائية الأسطورية الضخمة. ولا تشير هذه الساعة إلى ساعات الليل والنهار فحسب، ولكن إلى أيام التقويم القمرى أيضًا، ذلك الضرورى جدًا للعالم الإسلامى. ويصف أحد المراقبين الساعة كالآتى:

ومن غرائب الأندلس: البيلتان[*] اللتان بطليطلة، صنعهما عبد الرحمن [أبو القاسم عبد الرحمن الزرقال] . . . فصنع هو هاتين البيلتين خارج طليطلة في بيت مجوف في جوف النهر الأعظم في الموضع المعروف بباب الدباغين، ومن عجيبهما أنهما تمتلئان وتنحسران مع زيادة القمر ونقصانه، وذلك أن أول انهلال الهلال يخرج فيهما يسير ماء، فإذا أصبح كان فيهما ربع سبعهما من الماء، فإذا كان آخر النهار كمل فيهما نصف سبع، ولا يزال كذلك بين اليوم والليلة نصف سبع حتى يكمل من الشهر سبعة أيام وسبع ليال، فيكون فيهما نصفهما، ولا تزال كذلك الزيادة نصف سبع في اليوم والليلة حتى يكمل امتلاؤهما بكمال القمر، فإذا كان في ليلة خمسة عشر وأخذ القمر في النقصان نقصتا بنقصان القمر كل يوم وليلة نصف سبع [حتى يتم القمر واحدًا وعشرين يومًا فينقص منهما نصفهما ولا يزال كذلك ينقص في كل يوم وليلة نصف سبع] فإذا كان تسعة وعشرون من الشهر لا يبقى فيهما شيء من الماء، وإذا تكلف أحدٌ حين تنقصان أن يملأهما وجلب لهما الماء ابتلعتا ذلك ثم حينهما حتى لا يبقى فيهما إلا ما كان فيهما من تلك الساعة، وكذا لو تكلف عند امتلائهما إفراغهما ولم يبق فيهما شيئًا ثم رفع يده عنهما خرج فيهما من الماء ما يملؤهما في الحين. [19]

ويعمل هذا الجهاز العجيب حتى القرن الـ 12 عندما يأتي مخترع مسلم أقل إبداعًا فيطلب من الملك ألفونسو السابع ملك طليطلة التي أعاد المسيحيون غزوها بفك أجزاء الساعة كي يفهم كيف تعمل. ويوافق الملك على ذلك، بيد أن هذا العالم يفشل في فهم ميكانيكيات الساعة، ومما يزيد الطين بلة عجزه عن تركيب أجزائها مرة أخرى.

ويساهم الزرقالي أيضًا في حساب الأزياج الطليطلية التي تعتبر من أدق حسابات البيانات الفلكية حتى ذلك الوقت. ويكتب واحدًا من أوائل الكتب في مجال المناخ، ويطلق عليه اسم «الصحيفة الزيجية». وقد دخلت كلمة «المناخ» إلى اللغات اللاتينية وأصبحت (almanac) ويحتوي هذا العمل العبقري على مجموعة من الجداول تسمح للمستخدم بمعرفة ميعاد بدء الأشهر الإسلامية والفارسية والرومانية والقبطية. وتتنبأ الجداول أيضًا بخسوف القمر وكسوف الشمس وتسمح للفرد بمعرفة مواقع الكواكب في أي يوم محدد.

(*) البيلة: حوض النافورة، وترادفها في الاستعمال أحيانًا لفظة «خصة» وهي بالإسبانية والإيطالية "Pila".



صورة عمر الخيام الشاعر الفارسى والفلكى وعالم الرياضيات الذى عاش فى القرن الـ 11وقام بجمع الأزياج الفلكية وضبط التقويم

وحتى عندما يصل الزرقالى إلى أوج نجاحه يضطر إلى الرحيل من مدينته الحبيبة طليطلة بسبب العنف وعدم الاستقرار الذى يأتى به الغزو المسيحى. وتسقط طليطلة فى يد ألفونسو السادس فى عام 1085 وتليها مجريط. وبالرغم من المجموعات الأولية

للدويلات التى يحكمها المسيحيون بنظام التعايش بين الديانات السماوية الثلاث فلن تشبه بأى حال من الأحوال عهد الملكة إيزابيلا التى تتميز بالطهارة العرقية لمدة 400 عام، مما يعنى أن الاختراعات الإسلامية داخل الطوائف المسيحية ستستمر الآن، ولكن تحت الرعاية المسيحية.

وبعد مرور عقود على موت ضابط الوقت الطليطلى يولد فى المغرب نور الدين ابن إسحاق البطروجى ويعرف باللاتينية باسم ألبتراجيوس. وفى نهاية المطاف يجد طريقه إلى مدينة إشبيلية البديعة.

وتعتبر مدينة إشبيلية من المدن العتيقة ذات التاريخ العريض، مثلها فى ذلك مثل طليطلة، كما أنها تعد ميناء؛ حيث إنها تطل على نهر الوادى الكبير. وربما يكون قد غزا هذه المدينة الفينيقيون أيضًا وأصبحت فيما بعد موطنًا للرومان والإغريق. وتعتبر إشبيلية بالنسبة للأمويين ثم الملوك المسلمين والمسيحيين جوهرة إسبانيا. ويزين المسلمون جنباتها بجامع فخم يدمره المسيحيون فيما بعد كى يؤسسوا كاتدرائية. ويعاد استخدام مئذنة هذا الجامع المرتفعة التى لها لون الرمال، والتى كانت من قبل تقوم أيضًا بوظيفة المرصد فيما بعد كبرج لأجراس الكاتدرائية. ويطلق على هذه الكاتدرائية اسم الجيرالدا. أما قصر الموريين، وحدائقه التى أسسها الموحدون كى تواجه الساحة العامة المركزية للمدينة فسيصبح فى يوم من الأيام قصرًا للملوك المسيحيين.

وبالرغم من أن إشبيلية لم تكن العاصمة السياسية لإسبانيا الأموية فقد كانت أغنى وأكبر المدن وأقواها نفوذًا داخل العالم الإسلامى الأيبيرى، وانتعش اقتصادها بفعل محاصيل الزيتون والموالح وتجارة الموانئ.

وينضم البطروجى عبر استخدام التطور الشرقى فى علم المثلثات والهندسة الكروية إلى ابن الهيثم فى انتقاد بعض جوانب عمل بطليموس. وبالرغم من أن البطروجى يركز على المدارات غير الاعتيادية للكواكب والشمس ولا يتناول النموذج المتعلق بمركز الأرض. ويبذل الجهود الحثيثة لإعادة المدارات إلى تسلسلها قبل عهد بطليموس حيث كانت عبارة عن دوائر متحدة المركز. وبالرغم من أن نظريته هذه سيثبت خطؤها فيما بعد مثلها فى ذلك مثل عمل بطليموس فإن أساليبه ومناهجه ستزيل بعض الغموض والتعقيد عن منهج بطليموس. وتتم ترجمة أعمال البطروجى إلى اللغة اللاتينية بواسطة الاسكتلندى المقيم فى صقلية والمعروف باسم مايكل سكوت. وتجذب أعمال البطروجى الجالية اليهودية النشطة التى تعيش فى إشبيلية. ويترجم رجلان منهم أعماله إلى العبرية الأول هو موسى بن طيبون والآخر هو يهوذا بن سليمان كوهن.

ويجد عمل البطروجى الذى تم تطويره فى القرن الـ 12 طريقه إلى أوربا فى القرن الـ 13 حيث تتم دراسته وتكييفه وحتى سرقته مرارًا وتكرارًا. وحتى

كوبرنيكوس الذى خرج على العالم بنظريته الثورية حول مركز الشمس فى القرن الـ16 يقتبس من البطروجى.

ويصبح الآن طابع علم الفلك الأندلسى أكثر تعقيدًا. ويمتزج التاريخ الإسلامى فى علم الفلك بالأندلس مع بقية العلوم التجريبية والطب والفلسفة فى ذلك الموقع الغربى للإسلام ويرتبط فى معظم الأحيان بالتاريخ اليهودى. وبحلول القرنين التاسع والعاشر تصل الجاليات اليهودية فى المجال الفكرى والاقتصادى داخل إسبانيا المسلمة إلى قمتها فى مدن مثل قرطبة وإشبيلية وطليطلة. فاليهود لم يرتقوا لاحتلال المركز الثانى فى الواقع السياسى فحسب فى عهد حسداى بن شبروت الذى كان يعمل لدى الخليفة عبد الرحمن الثالث فقط، فقد كان لديهم إنتاجهم الخاص من الآداب والموسيقى والفلسفة والفكر العلمى الثرى. وفى بعض الأحيان كان مثل هذا النتاج الفكرى يتم بشكل مستقل وفى أحيان أخرى بالتعاون مع الديانات الأخرى. وتصبح مواقعهم المتميزة داخل المجتمع الأندلسى وتحت الخلافة الأموية وفيما بعد فى عهد المرابطين حديث الجاليات اليهودية الأخرى البعيدة فى شمال إفريقيا وغيرها. وفى القرن العاشر تعزز وتثرى هجرة اليهود إلى إسبانيا مدن الخلافة وتبث فيها روحًا جديدة.

ويعتبر من أعظم المفكرين اليهود الإسبان موسى بن ميمون الذى يشتهر فى أوربا باسم ابن ميمون. ويتذكره الناس أكثر بسبب جهوده فى المجال الطبى وفلسفاته فضلًا عن تركيزه على التسامح والمدنية ويحقق تناغمًا ما بين الفكر الأرسطى الذى يحتل مكانة هامة تحت حكم الأمويين والعباسيين والتراث اليهودى. كما يغوص أيضًا فى أعماق علم الفلك. ويولد ابن ميمون لعائلة يهودية من المفكرين فى قرطبة فى عام 1135 ويجيد اللغات العربية والعبرية والإسبانية، ويقضى الجزء الأكبر من شبابه فى عاصمة اليهود الإسبانية التى ازدهرت فى ظل حكم الأمويين. وداخل مركز التسامح الدينى والاختراعات هذا تعيش الديانات الثلاث التى انبثقت عن سيدنا إبراهيم عليه السلام جنبًا إلى جنب. بيد أن كل هذا ينتهى عندما يستولى الموحدون الأصوليون على قرطبة عام 1148. وهذا الإنذار الذى يشبه إلى حد كبير ذلك الإنذار الغريب الذى تنطق به الملكة إيزابيلا فى عام 1492 يضع اليهود بين نارين إما اعتناق الإسلام وإما النفى أو القتل.

وموسى بن ميمون الذى كان يبلغ من العمر ساعتها 13 سنة يهيم على وجهه مع عائلته إلى أقصى شمال إسبانيا لمدة 10 أعوام. وفى النهاية تنتقل العائلة إلى شمال إفريقيا وبعد دراسته للطب فى جامعة فاس بالمغرب ينتقل للعيش فى القاهرة. وهناك يعمل طبيبًا فى بلاط الخليفة ثم يصبح كبير الوزراء لدى السلطان صلاح الدين القائد المسلم المستنير المتسامح الذى قاد الجيوش الإسلامية ضد الحملات الصليبية المسيحية.

ولا تعتبر مسألة لجوء ابن ميمون للهرب في شمال إفريقيا من قيود الإسلام الشديدة بدلًا من أوربا مجرد مصادفة. فابن ميمون لم يلجأ إلى أوربا المسيحية بل إلى شمال إفريقيا المسلمة حيث يعرف ابن ميمون وعائلته أن الناس فى المراكز الحضرية الإسلامية الرئيسة أكثر تسامحًا وتفتحًا عقليًا عن أى أحد فى القرن الـ 12 فى أوربا.

وينكب ابن ميمون على علوم الفلك مثله فى ذلك مثل معاصريه. ويتولى معالجة التناقضات الكامنة فى حسابات بطليموس. وبصفة خاصة يتشكك ابن ميمون فى نقطة الإيكوانت لكوكب زحل حيث تبدو الحسابات خاطئة؛ لأنها تقع فى المسار المدارى لكوكب عطارد. والإيكوانت هذا عبارة عن جهاز حسابى اخترعه بطليموس لشرح الحركات غير الاعتيادية للكواكب حول الأرض. وإيكوانت كوكب زحل مثل بقية الأجرام السماوية هو عبارة عن دائرة وَفْقًا لنموذج ذلك الوقت حول المحيط الذى يتحرك فيه الكوكب.

وابن ميمون ليس فيلسوفًا متعدد المواهب فحسب تجذبه حركات الكواكب والنجوم بل هو أيضًا مفكر أندلسى يؤثر بشدة على العلماء من الديانات السماوية الثلاث على مدار مئات السنوات. ويتساءل حول ماهية مدارات الكواكب هذه.

يولد ابن رشد الذى يعرف فى اللاتينية باسم Averroes فى القرن الـ 12 المليء بالقلاقل فى قرطبة ويشتهر بفلسفته أكثر من علوم الفلك. ويرتكز أساس معتقداته على الفكر الحر والنظام غير المتشدد ومرة أخرى يدور محور تفكيره حول المذهب العقلى لأرسطو. ومن ثم لا تختلف فلسفته عن نظيره الشرقى عمر الخيام ويكون لهذه الفلسفة أثر قوى لدرجة أنها تؤثر على المواطنين اليهود وابن ميمون فضلًا عن المفكرين المسيحيين أمثال طوما الأكوينى، ويتجسد ابن رشد فى اللوحة الجصية المعنونة باسم «مدرسة أثينا» التى يرسمها رسام عصر النهضة رافايل كأحد أعظم فلاسفة زمانه.

ومثل كل المفكرين الشجعان الذين يعارضون التقاليد والأمور المتفق عليها يدخل ابن رشد وسط دائرة الخطر. بيد أن تفكيره الحر وتمسكه بالمذهب العقلى يُفزع رجال الدين المتحفظين فى قرطبة. بل إن بعض المراقبين لهذا العصر يرون أنه يبدو أقرب إلى البوذيين منه إلى المسلمين. وفى أحد الانتصارات الفكرية لعالم السياسة يتمتع ابن رشد لفترة برعاية أحد الحكام الموحدين الرئيسيين وهى نفس الأسرة المتزمتة التى تفرض المذهب التحفظى على إسبانيا. ويتسم ابن رشد بالذكاء الشديد لدرجة تجعله دائمًا يفند حجج المتحفظين. ولكن فى نهاية الأمر يكثر عدد أعدائه ويتم نفيه فى المغرب حيث يمضى بقية حياته فى الكتابة والتأمل. وبالرغم من كل الاضطراب الذى يحيط به فما من شيء يمر بدون ملاحظته له وهكذا يغوص ابن رشد فى كتابات بطليموس ويكتشف الأخطاء.

وتدريجياً يبدأ فى توجيه هجوم شرس على عالم الفلك الإغريقى. ويكتب من الإسكندرية قائلًا:

«. . . فإن علم الهيئة فى وقتنا هذا ليس منه شيء موجود، وإنما الهيئة الموجودة فى وقتنا هذه هى هيئة موافقة للحسبان لا للوجود» [20].

وينضم ابن رشد إلى البطروجى فى رفض الكثير من التركيبات الحسابية لبطليموس ويؤيد النموذج المتحد المركز لمدارات الكواكب حول الأرض.

واستنادًا على الخلفية الأندلسية الفكرية والجدل الدائر وعدم الاستقرار السياسى الذى يعززه إثراء الثقافات الفرعية لبعضها البعض تظهر نقاط انتقال العلوم الفلكية الإسلامية والعلوم الأخرى إلى أوربا وما وراء جبال البرانس. وفى القرن الـ 13 يأمر الملك ألفونسو الحكيم بترجمة أهم أعمال ابن الهيثم إلى لغة قشتالة. كما تتم ترجمة هذا العمل فيما بعد إلى اللغة اللاتينية ويطالب علماء الفلك والرياضيات الأوربيون بإلحاح بأخذ نسخة من أعماله.

ويموت العظماء الثلاثة؛ أعلام الفكر الأندلسى الرفيع وعلوم الفلك فى القرن الـ 12 واحدًا تلو الآخر يفصل بينهما ثمانى سنوات فحسب، وهم البطروجى وابن رشد وابن ميمون حيث وافت المنية ابن رشد فى عام 1198 وابن ميمون فى عام 1204 والبطروجى فى عام 1206.

ويقف موتهم شاهدًا على مرور فترة من الاضطراب وبدء فترة أخرى مليئة بالمزيد من القلاقل. وبينما تتفكك الأندلس وتتشرذم إلى دويلات يطلق عليها اسم الطوائف وتمر بعصور من الصراع بين المسيحيين والقوات الغازية من شمال إفريقيا، يمر الإسلام أيضًا فى الشرق الأقصى بصراعاته الخاصة فضلًا عن ظهور موجة جديدة من الإبداع الفلكى.

ويُشكل الاضطراب والقلق فى الشرق الأقصى جزءًا من الدراما التى تحركها القوة الآسيوية الغازية القادرة على اجتياح قارات بأكملها وإمبراطوريات وشعوب وهى أشد من غارات المرابطين والموحدين القادمين من شمال إفريقيا.

قلعة ألَموت، بلاد فارس عام 1256 – هم قادمون وتعود الروايات التى تحكى عن هجومهم وسطوتهم وقوتهم إلى نصف قرن أو جيلين. لقد مر على تحركهم ردحٌ من الزمن الآن لدرجة أن مآثرهم السابقة أصبحت أشبه بالأساطير وتاهت بين غيابات العقود ولكن هاهم يستيقظون مرة أخرى على آخر قصصهم المفزعة. وعبر

فترات منصرمة من الزمن كان الناس يفرون من تقدمهم نحو بلادهم إلى الغرب والجنوب وإلى أى مكان تستطيع أقدامهم ونفوذهم أن تأخذهم إليه. وبيعت المنازل والمزارع والأعمال التجارية وتم هجر الأصدقاء القدامى وتركت المنازل كى ترتع فيها الجرذان والرياح قبل أن تجتاحها موجات الخطر.

فقد سقطت تحت أقدامهم كل مدينة وطئوها سواء فى الصين أو روسيا أو بلاد ما وراء النهر وبلاد فارس. ويحكى الناجون قصصًا عن مهاجميهم فيرون أنهم لا يبدون كالبشر بل هم عبارة عن كيان قاتل يتكون من رجل وفرس، ويبدون كأنهم لا حدود لهم، فعددهم رهيب وكأنه محيط من البشر وهم أشبه بالموجة التى لا يصدها شيء تتجه بقوة نحو الغرب. هؤلاء هم المغول الذين ولدوا على الأراضى العشبية شمال الصين ويدفعهم تعطشهم للحرب دفعًا.

وبفعل الدمار الذى لحق بالصين وكوريا ووسط آسيا يتدفق آلاف من اللاجئين إلى القاهرة فموسكو وصولًا إلى مدن مثل تركيا والهند. وفى خضم هذه العملية كان هؤلاء المهاجرون يغذون المجتمعات التى تستقبلهم بثراء فكرى وثقافى عظيم ولكنهم كانوا فى ذات الوقت يستنزفون الآبار الفكرية فى وسط آسيا بفعل هروب الكثير من المفكرين.

ويبقى السؤال هو: ما الذى يبعث كل هذا الخوف داخل النفوس من هؤلاء المغول فهم عبارة عن تحالف من القبائل الآسيوية لا يزيد عددهم على مليونى نسمة بالإضافة إلى بضعة أضعاف العدد من الخيول السيبيرية. ويبدو هؤلاء المغول مجردين من أى شكل من أشكال التحضر أو الهدوء فهم عبارة عن آلة حربية فعالة كما أنهم يأخذون عددًا قليلًا من الأسرى.

وفى هذا المركز الآمن الصغير والحيوى لهذه الإمبراطورية المتنامية يتمركز معسكر جنكيز خان الحربى، والذى يعرفه الصينيون باسم تيموجن هو وعائلته وأتباعه. ويلازمه عدد محدود من المسيحيين النسطوريين والمفكرين.

يالسخرية القدر فالقبائل المغولية لها ميل مسيحى. يبين التاريخ الضائع أن النسطوريين قد واصلوا هجرتهم نحو الشرق عندما كانوا يؤسسون بيوتًا جديدة لهم فى الشرق الأوسط وبلاد فارس. وبحلول القرن السابع يكونون قد وجدوا طريقهم نحو بوابات الصين. ومع مجيء القرن العاشر يكون بعض المغول الأتراك قد اعتنقوا النسطورية كإحدى ديانات دولتهم. وعلى أعتاب القرن الـ 13 يُزوج جنكيز المهيب أحد أبنائه إلى أميرة نسطورية لها أصل منغولى تركى وتكون هذه هى والدة هولاكو خان الذى يخرب بغداد وقوبلاى خان الذى يصبح إمبراطور الصين وابنًا ثالثًا.

ويساعد قوبلاى خان النسطوريين فى الدخول إلى قلب الصين حيث يتولون مناصب ذات نفوذ فى بلاط الإمبراطور ويتعايشون مع الطاويين والبوذيين. ويتم إيقاف حملات تبشير الفرنسيسكان القادمة من أوربا من خلال القوة السياسية قصيرة الأمد للنسطوريين. ولن يُستبعد النسطوريون وتختفى المسيحية تدريجياً من الصين إلا بحلول القرن الـ19 عندما يسقط الحكم المغولى فى القرن الـ14 وتقوم أسرة مينج الحاكمة.

ويتشكك بعض المؤرخين فى الصورة الفظيعة التى تم رسمها لقبائل المغول. ويقولون إن المغول كانوا يخيرون غرماءهم بين الاستسلام حتى يتركوهم يعيشون فى سلام ودفع إتاوة لآل خان وبين الحرب.

ويقول المدافعون عن المغول إنهم كانوا يفعلون ما يفعلونه كى يبقوا على قيد الحياة فلم يكن لديهم المدن ولا الموانئ ومناجم الحديد والأراضى الزراعية الخصبة والأنهار العذبة والمياه. كان كل ما لديهم هو خيولهم وشجاعتهم لذلك كانوا يغزون البلاد تجنباً للموت جوعًا.

كانت جيوش المغول تنتظم فى شكل صفوف واسعة الانتشار يتكون كل منها من 10000 رجل بخيولهم ويطلق عليهم اسم التيومن أو الوحدة المكونة من 10000. وكانت الجيوش تتقدم بسرعة الخيل. وبالنسبة لهؤلاء الذين لا يستسلمون فى أثناء تقدم جيوش المغول فلا يتمتعون بأى نوع من الرحمة. وتخيم الصدمة والجزع على أساليب المغول. وتُسوى المدن التى تتم مهاجمتها بالتراب وتتعرض للحرق. وبخلاف بعض الخونة والحرفيين من أهل المدن وآخرين ممن يستطيعون مساعدة آلة الحرب هذه يقتل المغول الجميع. ويصف الشهود ساحات المعارك بعد انتهاء المعركة بكونها أشبه بأكوام من الجثث والعظام المحترقة ورائحة النتانة التى تمتد لأميال وأميال فضلًا عن أبراج الدخان الناجمة عن الأجساد والملابس المحترقة.

ويكتب المؤرخ ابن الأثير عن عام 1221 المشئوم عندما اجتاح المغول بلاد فارس قائلًا:

لقد بقيت عدة سنين معرضًا عن ذكر هذه الحادثة استعظامًا لها كارهًا لذكرها فأنا أقدم إليها رجلًا وأؤخر أخرى فمن الذى يسهل عليه أن يكتب نعى الإسلام والمسلمين ومن الذى يهون عليه... إلا أنى حثنى جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدى نفعًا... وأما الدجال فإنه يبقى على من اتبعه ويهلك من خالفه وهؤلاء لم يبقوا على أحد بل قتلوا النساء والرجال والأطفال وشقوا بطون الحوامل وقتلوا

الأجنة فإنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم. لهذه الحادثة التى استطار شررها وعم ضررها وسارت فى البلاد كالسحاب استدبرته الريح فإن قومًا خرجوا من أطراف الصين فقصدوا بلاد تركستان مثل كاشغر وبلاساغون ثم منها إلى بلاد ما وراء النهر مثل سمرقند وبخارى وغيرهما فيملكونها ويفعلون بأهلها ما نذكره ثم تعبر طائفة منهم إلى خراسان فيفرغون منها ملكًا وتخريبًا وقتلًا ونهبًا ثم يتجاوزونها إلى الرى وهمذان وبلد الجبل وما فيه من البلاد إلى حد العراق ثم يقصدون بلاد أذربيجان وأرانية ويخربونها ويقتلون أكثر أهلها ولم ينج إلا الشريد النادر فى أقل من سنة. . . فعلوا هذا فى أسرع زمان ولم يلبثوا إلا بمقدار مسيرهم لا غير (21).

وتهز القرون القادمة من الغزوات المغولية أرجاء العالم الإسلامى وتؤثر فيه، الأمر الذى يضع الهنود والأوربيين فى حالة تأهب دائم. ويراقب الأوربيون تقدم المغول العاصف فى بولندا والمجر ويبعثون بفرق الاستطلاع لديهم حتى تصل إلى فرنسا. بيد أن الفكر الإسلامى بما فى ذلك علوم الفلك لن يسحق بل يثرى الحضارة الإسلامية. ولكن ترى كيف يكون ذلك؟ تسقط الإجابة عن هذا السؤال بين طيات التاريخ الضائع فالجوانب الأخرى للثقافة المغولية تطمس بفعل آلة الحرب الجبارة لديهم. ومع مجىء المغول إلى الأراضى العربية تكون لديهم إمبراطوريتهم التى استوعبت ثقافات المدن المتقدمة وأفكار هذا الزمان شاملةً الثقافات الرفيعة للصين والتبت وشمال الهند ووسط آسيا وبلاد فارس. فعلى سبيل المثال فإن قانونهم الذى طوره جنكيز خان والمعروف باسم الياسق بالرغم من قسوته فى الكثير من الأحيان فهو يؤيد أفكارًا جميلة مثل التسامح الدينى والسلام والتجارة وسيادة القانون وذلك لحماية المجتمعات من السرقة والجريمة.

بالإضافة إلى ذلك فالحملات الحربية المغولية ليست عشوائية كما تروى القصص. بل هى محسوبة ومخطط لها جيدًا من جانب القورولتاى، وهم عبارة عن مجموعة من الأرستقراطيين والحكام الذين يحكمون الإمبراطورية المغولية من مدن الصين. واعتمادًا على شبكات التجارة الإسلامية الأقدم حالًا يطور المغول نظامًا متقدمًا للتجارة مع البلاد الأجنبية ويسنون القوانين لحماية التجار المسافرين. ويُقدر المغول العلماء والمفكرين والفنانين ويستوعبونهم داخل إدارة الحكم. وعلى نفس القدر من الأهمية تكون التحالفات التى يؤسسونها مع المسيحيين والبوذيين والمسلمين، والتى تتحقق فى أثناء غزوهم للأراضى الشاسعة. ومباشرة بعد غزو العالم الإسلامى يشيد المغول مدنًا عظيمة فى بلاد

فارس ووسط آسيا والهند مما يؤدى إلى عصر من النهضة الفكرية فى هذا الجزء من العالم لقرون تالية.

وبهذا تنصهر الأفكار والثقافات الصينية والإسلامية والأوربية فى بوتقة واحدة دينامية وثرية.

ويعد أحد اللاعبين الرئيسيين فى هذه الدراما للغزو المغولى هو المفكر العبقرى محمد بن الحسن الطوسى. يولد هذا العالم فى 1201 فى خراسان الفارسية فى المدينة العتيقة طوس. وتردد أصداء مدينة طوس بذكرى العديد من الرجال العظام حيث يولد فيها نظام الملك وزير السلاجقة المستنير وراعى عمر الخيام. كما أن أعظم شعراء بلاد فارس وأحبهم على الإطلاق فى تاريخ الشعراء فى هذا الوقت هو الفردوسى الذى يرجع أصله إلى مدينة طوس أيضًا فى القرن الـ 11. ويقال إن الخليفة العباسى هارون الرشيد دفن فى هذه المدينة أيضًا.

وينتمى الطوسى إلى التيار الشيعى الرئيس كما أن والده وعمه من المعلمين الشيعة المبجلين ومن فقهاء الدين. وفى طوس يتعلم أساس علوم اللاهوت فضلًا عن علوم الجبر والهندسة والفيزياء.

ولأول 13 عامًا فى حياة الطوسى يكون جنكيز خان مشغولًا بالتهام الصين على مسافة 4000 ميل تجاه الشرق. ولكن فى عام 1214 يتجه نحو الغرب مما يدفع بدفق ثابت من هجرة لاجئى وسط آسيا بقصصهم المفزعة عن المغول. وإبان هذه الفترة ينتقل الطوسى إلى نيسابور التى تقع على بعد 50 ميلًا غرب مدينة طوس كى يستكمل دراسته العليا.

وبحلول عام 1220 يكون المغول قد وصلوا إلى طوس حيث تتعرض البلاد لحملات سلبهم ونهبهم هى وأجزاء من خراسان، وذلك بالرغم من تركهم لنيسابور مؤقتًا. وفى هذه المرحلة يقرر جنكيز خان أن يستأنف حملته تجاه الشرق ويترك الغرب لأبنائه وأقاربه. وتكون نتيجة ذلك هجوم مغولى يشوبه اللبس وعدم الانتظام تاركًا بعض أجزاء العالم الإسلامى آمنة نسبيًا بينما يقضى على أجزاء أخرى.

وفى هذه الأثناء يكون الطوسى قد ذاع صيته كعالم فى الرياضيات بين مفكرى وعلماء نيسابور وتصل شهرته إلى ما هو أبعد من ذلك أيضًا. ومثله مثل سلفه عمر الخيام من قرن مضى يحتاج الطوسى إلى راع يمنحه الاستقرار والأمن كى يواصل عمله. بيد أنه ما من أحد فى العالم الإسلامى يستطيع أن يوفر له هذا النوع من الأمن والأمان. فتجاه الغرب تمر الأندلس بفترة من القلاقل والاضطراب. وينتشر المغول

فى بعض أجزاء العراق. وتنعم مصر بالسلام النسبى ولكنها تقع على مقربة من الضربة القادمة لآلة الحرب المغولية.

ويتخذ الطوسى قرارًا مصيريًا ويقرر البقاء بالقرب من موطنه وبذلك يقبل رعاية المحافظ الإسماعيلى نصر الدين عبد الرحيم. وكى يبرهن على وفائه يطلب الطوسى أن يدخل فى الطائفة الإسماعيلية ويقبل. ويتهمه البعض فيما بعد بالانتهازية غير أن الحقيقة تسقط فى طى النسيان.

ويقبل عبد الرحيم بوجود هذا المفكر الشاب فى بلاطه داخل قلعة ألْمُوت التى تقع على مفترق الطرق بين بلاد فارس القديمة والأراضى العشبية وصحارى آسيا. ولا يتحكم عبد الرحيم فى قلعة ألْمُوت فحسب بل لديه أيضًا شبكة من القلاع الجبلية تمتد على سلسلة جبال البرز فى بلاد فارس، والتى توفر الحماية لهم من هجمات المغول الذين يفضلون الحرب على الأراضى المسطحة.

وهكذا وفى تحالف غير معتاد يُبرم فى قلعة تقع على قمة جبل ـ متأثرًا بالحلم السيئ عن تقدم المغول ـ يجد الطوسى الموارد والأمن اللذين يدفعانه إلى تحقيق أهدافه فى مجال الفلسفة والرياضيات والعلوم والطب والفلك، ويكون نتاج عمله مئات الكتابات التى تتحدث عن تلك الموضوعات. وعلى مدار الـ 25 عامًا القادمة يبقى الطوسى فى قلعة ألْمُوت ويستخدم مكتبتها الثرية فى كتابة أحد أهم أعماله العلمية والفلسفية. ويطلق على أحد أعماله اسم مذكرات عن علم الفلك، والذى يكون له أثر كبير على التاريخ التالى لعلوم الفلك داخل حدود العالم الإسلامى وخارجه. كما أن دراسته لحركة الكواكب تهز أساس نظرية الكون التى يضعها بطليموس ويقرب العالم شيئًا فشيئًا من الثورة التى يحدثها كوبرنيكوس فيما بعد. ويشتهر الطوسى أيضًا بعمله المتميز فى مجال علم المثلثات الكروى والمسطح وجهوده لجعل علم المثلثات مجالًا مستقلًا فى بحوث الرياضيات. فى عام 1232 ينشر كتابه عن الأخلاق ويهديه لراعيه الإسماعيلى.

وبالنظر إلى الوضع الراهن من برجه العاجى يشعر بذلك التوازن المتوتر بين حكم المغول فى سهل بلاد فارس واللاجئين الإسماعيليين فى قمم الجبال. وفى 1228 يرسل الإسماعيليون إلى المغول مقترحين عمل تحالف. وعلى مدار 3 عقود تظل الإجابة هى عبارة عن سلام الوضع الراهن بالرغم من أن بعض الروايات تقول إن جنكيز خان يتشكك كثيرًا فى نوايا الإسماعيليين ويعتبرهم عقبة فى طريق تحقيق سيطرته الكاملة على بلاد فارس.

وتأتى الإجابة النهائية فى صباح أحد الأيام من عام 1256 عندما يستيقظ الإسماعيليون وخدمهم فى يوم من الأيام ليروا القوة الكاملة للمغول تنتشر فى الوادى أسفلهم وتُحاصر قلعة ألْمُوت. وتواجه تلك القلعة التى لم ينجح أحد فى اختراقها لقرون عديدة ـ التحدى الفاصل والذى ستكون نتيجته إما الحياة وإما الموت.

وبسماعه لتقارير عن تقدم المغول يرسل الحاكم الإسماعيلى وريثه الصغير إلى بلاد الأناضول البعيدة حيث يقضى خلائفه من الأئمة عدة أجيال فى المخبأ. وتمنع هذه الحركة التى يقوم بها الحاكم الإسماعيلى فى ذلك الوقت انقراض الطائفة الإسماعيلية.

ويقود هذه القوة المغولية المتقدمة هولاكو حفيد جنكيز خان الذى ورث عن جده رئاسة آل خان. وتعنى كلمة الخان باللغة المغولية نائب الحاكم. وبحلول عام 1256 تتحكم أسرة الخان فى أكبر إمبراطورية فى تاريخ الإنسانية فى هذه المنطقة حيث تشمل ثلثى مساحة الكتلة الأرضية وما يقدر بـ 100 مليون نسمة. ويتسم هولاكو بقلب متحجر مثله فى ذلك مثل جده كما يتمتع بريعان شبابه. ومن خلال خبرته فى محاربة المسلمين ينمو داخله حب للعلوم بالرغم من كونه بعيدًا كل البعد عن اعتناق الإسلام. وتعتنق أسرته الإسلام بعد ذلك بـ 50 عامًا عندما يختار غازان خان أن يعتنق الإسلام. ويتأرجح هولاكو ما بين المسيحية النسطورية والبوذية حيث إن أساس هاتين الديانتين لا يصلح لآلته الحربية.

وسواء كان هولاكو متدينًا أو كان غير ذلك فهو يدرك أنه لن يستطيع أن يحكم السيطرة على بلاد فارس إلا عندما يقضى على الطائفة الإسماعيلية من على الجبال. ولقد هوجمت القلاع الإسماعيلية فيما مضى غير أنه فى هذه المرة يختلف الأمر كثيرًا. فبالرغم من أن المحاربين الإسماعيليين لا يخشون الموت إلا أنهم يشعرون برعشة تسرى فى أجسادهم فى هذا الصباح المصيرى. ويبدو لهم أن الحصار سيدوم طويلًا ويتساءلون إن كان مخزونهم من المياه والطعام سيكفيهم خلال حصار المغول لهم.

وتلوح فى الأفق روايتان للمؤرخين حيث يروى البعض أن الحاكم الإسماعيلى ركن الدين يقرر أن يستسلم ويسلم قلعة ألْمُوت. أما القصة الأخرى فتحكى أن أحد الأشخاص يشى بسر الممر المؤدى إلى أعلى الجبل. أيًا كانت الحقيقة فالجميع يتفق على ما حدث بعد ذلك حيث تأتى نهاية الإسماعيليين بسرعة وبدون سابق إنذار. ففى إحدى اللحظات يشاهدون العدو المغولى من شرفات القلعة وبعدها يجدون العدو يدخل فى داخل حرمهم.

ويذبح المغول الإسماعيليين بسرعة كبيرة ويقضون عليهم كليةً. ويقتل القائد الإسماعيلى ومعظم من فى بلاطه. ولكن كالمعتاد يبقى البعض على قيد الحياة منهم الجواسيس أو من لهم مهارات عالية مفيدة.

ويبقى الطوسى من بين الأحياء بالرغم من أن سبب الإبقاء عليه يصبح نسيًا منسيًا، وبدأ البعض يتهامس عليه. كما أن قبوله لعملية إنقاذه واستعداده لمقابلة هولاكو تزيد من همس الشائعات حوله. وفى أثناء هذا اللقاء العظيم تختلف القصص التى تحكى

ما جرى فيه. ويزعم البعض أن الطوسى يتخلى عن الطائفة الإسماعيلية ويُقسم بأنه كان دوماً من التيار الرئيس للشيعة. وفى مرحلة تالية يتزوج الطوسى من امرأة مغولية.

ويبقى السؤال هو: من الطوسى الحقيقى؟ هل هو ذلك الرجل الذى طلب أن ينضم إلى الطائفة الإسماعيلية كى يفوز بالرعاية؟ أم هو ذلك الرجل الذى يقبل بحكم المغول وذلك الأمير الغازى الذى يستطيع أن يبقى على بعض الناس أحياءً ويقضى على آخرين من الملايين؟ وتكون جائزة انضمام الطوسى للمغول عظيمة؛ فهولاكو الذى يتنامى بداخله حب المعرفة والبحث مثله فى ذلك مثل القائد الإسماعيلى الذى اغتاله يعين الطوسى كمستشاره الرئيسى فى مجال العلوم والمعارف كما أنه يوليه الشئون الدينية.

ويزعم بعض الناس أن الطوسى يصاحب هولاكو وقواته فى أثناء تقدمهم نحو الغرب مستهدفين القلب الفكرى للإسلام ألا وهى بغداد مدينة الخلافة وبيت الحكمة. وبانضمامه إلى هولاكو يكون الطوسى بذلك قد قضى على تراثه الفكرى.

وبحلول عام 1258 عندما تحيط قوات المغول بالمدينة العظيمة التى تقع على ضفاف نهر دجلة وتجتمع حاشية هولاكو الكبيرة عند الطريق الأخير المؤدى إلى مدينة بغداد؛ تلك المدينة التى حكمت أراضى شاسعة وصاحبة 500 عام من العظمة. فقد بقى فيها العباسيون اسمياً فقط بينما ذهب النفوذ الحقيقى إلى البويهيين والسلاجقة ومجموعة من العبيد المعروفين باسم المماليك. وتكثر بها الأسر الحاكمة لدرجة يصعب معها تذكرهم جميعاً. والخليفة الشرفى الذى يرث التراث الرائع للمأمون هو المستعصم وهو رجل أحمق منحط فى أخلاقه له نزعة فنية حيث يهوى مرافقة الشعراء والفنانين والمهرجين عن مصاحبة الجنود والذهاب إلى أرض المعارك.

فى البداية يرفض المستعصم أن يستسلم أمام جيوش المغول ويقول لهم إن العالم الإسلامى كله سيأتى لنجدته. ولكنه عندما يرى تلك القوة المنتظمة الصفوف تزحف تجاه بغداد يعرض على هولاكو أن يصبح سلطان بغداد بيد أن الأوان يكون قد فات فى هذه اللحظة.

وتبعث المعركة مع المغول على الشفقة. فى البداية تُقتل قوات المستعصم بسرعة فائقة ثم يموت من فى بلاطه والمقدر عددهم بنحو 300 شخص ويُخنق الخليفة حتى الموت بعد ذلك ببضعة أيام. ويدخل المغول إلى المدينة ويأخذون سكانها البالغ عددهم قرابة 800000 نسمة إلى الصحراء الفسيحة وتحت شمس بغداد الحارقة يُذبح الرجال والنساء والأطفال ويتم وضعهم فى أكوام فوق بعضهم البعض. ويتم نهب وسلب وتخريب مبانى المدينة ثم حرقها فى النهاية وهكذا تتحول بغداد إلى مجرد حجارة.

وتُدمر المدينة بشكل رهيب حتى عندما يحاول البعض إعادة بنائها بعد مضى عدة قرون لا تعود أبدًا إلى المكانة المتميزة التى كانت تحتلها من قبل إلى أن يتم اكتشاف حقول البترول بها فى القرن 20.

ويتوازى سقوط بغداد فى خطورته مع هزيمتين أخريين لهما نفس الأثر الثقافى والرمزى ألا وهما ضياع القسطنطينية البيزنطية واستيلاء العثمانيين الأتراك عليها فى عام 1453؛ أى بعد مضى 600 عام على هجمات المسلمين المتقطعة وغزو الإسبان للمكسيك فى عام 1521.

ولكن ترى ما هو رأى الطوسى فى كل هذا الانهيار والمذابح؟ ترى هل يعتقد أنه كان من الأفضل له أن يبقى على قيد الحياة وينضم إلى العدو الغازى؟ هل تصور يومًا لو كان مثل هؤلاء البشر الذين تم ذبحهم ووضعهم فى أكوام من الجثث؟

إن الأفكار التى تدور بخلده فى هذه اللحظة لن يعرفها أحد، فقد ضاعت بين صفحات التاريخ. ولكن ما نعرفه هو أن قائد المغول هولاكو مبتهج بسبب تدميره لرمز المقاومة الإسلامية وهو سعيد لدرجة تجعله يقبل بأى مشروع يقترحه الطوسى عليه.

وفى هذه اللحظة المأسوية والرمزية يكون الطوسى مستعدًا بمشروعه. ويكون لدى عالم الرياضيات والفيلسوف وعالم الفيزياء الطوسى مشروع فلكى عظيم لم ير العالم مثله من قبل. فحتى عندما ينزف العالم الإسلامى تأثرًا بجراحه يبدأ عصر ذهبى جديد للعلوم الإسلامية.

وتكمن خطة الطوسى فى بناء أكبر مرصد على الإطلاق. ويتم تشييد هذا المرصد فى مدينة مراغة، والتى تعرف فى وقتنا الحاضر باسم أذربيجان وهى المدينة التى اختارها هولاكو كى تكون عاصمة لإمبراطوريته. ويتم بناء المرصد على سهل البازلت غرب مراغة. ويؤدى هذا المرصد وظيفة الحصن أيضًا حيث ترتفع جدرانه لتصل إلى 6 أقدام سمكًا و1000 قدم فى 400 قدم.

وهذا المرصد الذى يُستكمل بناؤه فى عام 1262 هو عبارة عن مركز سماوى ضخم يحتوى على أشياء لم يكن لها وجود من قبل. فعلى سبيل المثال فى هذا المرصد توجد آلات فلكية ضخمة مثل الربعية المصنوعة من النحاس وربعية زاوية السمت. وزاوية السمت تعنى اتجاه الجرم السماوى، والذى يقاس مع اتجاه عقارب الساعة حول أفق الرائى من الشمال. ومن ثم فأى جرم تجاه الشمال له زاوية سمت تقدر بدرجة 0 والجرم تجاه الشرق له زاوية سمت تقدر بـ 90 درجة والجنوب بـ 180 درجة والغرب 270 درجة.

وكما استفاد المأمون وبيت الحكمة من الثقافات الهندية والفارسية والإغريقية يستفيد الطوسى من الثقافة الفلكية لبلاد الصين البعيدة والمركز الآخر للحضارة العالمية.

وبالرغم من أن الحكمة والمعرفة الصينية قد جاءت من اتجاه الغرب لألفيات فائتة، فقد كانت عملية تناقلها متقطعة على طريق الحرير أو عبر المحيط الهندى ولم يتم الحفاظ عليها فى إطار جهود مستمرة أو شاملة.

ولكن حيث إن أخا هولاكو قوبلاى خان هو إمبراطور الصين والأرض تبدأ الثروات الفكرية لعلوم الفلك الصينية فى التدفق غربًا تجاه بلاد فارس. وكلها الآن داخل نظام واحد حيث إن جميعها جزء من دولة متفوقة.

ويأتى التدفق الفكرى من اتجاهين حيث إنه لن يأتى من الصين غربًا فحسب، ولكن ينبع من داخل البلاد الإسلامية تجاه الصين كذلك. وهذا التدفق الفكرى يضيع فى صفحات التاريخ بالنسبة للكثير من الصينيين. ويُبقى المغول على مرصد مراغة مركزًا محوريًا لتعلم علوم الفلك الإغريقية العربية الفارسية لقرون قادمة. ويعزز مثل هذا المركز علماء مثل الشيرازى الذى كان أول من أعطى تفسيرًا صحيحًا لتشكل ظاهرة قوس قزح والفلكى السورى الأردى الذى أنشأ نماذج للكواكب والفوطى أمين مكتبة مرصد مراغة الذى كان مسئولًا عن 400000 كتاب. ويأتى هؤلاء العلماء من أنحاء مختلفة من العالم الإسلامى لإثراء ذلك المركز الذى يترأسه الطوسى. ويتم التركيز على الأعمال الفلكية التى تمت فى مراكز دمشق وأنطاكيا وبغداد والرى والقاهرة وفاس وإشبيلية وقرطبة وطليطلة فى مرصد مراغة حيث تنتقل قرون من المعارف الإسلامية إلى الصين.

وفى عام 1267 يأتى العالمُ الإسلامى جمال الدين إلى بلاط قوبلاى خان بتقويم فارسى يغطى 10000 سنة وسبع آلات فلكية وكرة جغرافية خشبية عظيمة غالبًا هو الذى صممها (أى الطوسى) وتكون مثل هذه الآلات بمثابة الإلهام الذى يدفع المهندس الملكى كو شو شينج لتطوير آلات شبيهة لها من أجل الخان. وفى السبعينيات من القرن الـ 13 يعين قوبلاى خان مهندسين وفلكيين مسلمين كما يحتفظ بلوحتين فلكيتين إحداهما إسلامية والأخرى صينية. ويحفز هذا تطوير أساليب جديدة ومراصد أخرى فى بكين فضلًا عن تطوير عملية رسم الخرائط، والتى ستؤدى فى النهاية إلى تفوق الصين فى الملاحة فى القرن الـ 15 تحت قيادة الأدميرال المسلم تشينغ خه.

وبعد أقل من 20 عامًا من بناء مرصد مراغة فى بلاد فارس يتم بناء المرصد الملكى لبكين. ويخضع هذا المرصد لرئاسة الفلكى الفارسى جمال الدين وتوجد فيه أدوات شبيهة صنعها المهندس كو. ويتحدث بعض المؤرخين عن تأثير المراصد الإسلامية

على الصين خلال القرن الـ 13. وفى هذه الفترة الثرية للتبادل الثقافى بين الأراضى الإسلامية والصين يترأس جمال الدين أيضًا مسحًا جغرافيًا خرائطيًا موسعًا لأراضى قوبلاى خان.

ويوجد لدى مرصد الطوسى مكتبات ملاصقة له ومراكز للبحوث كما أنه يسمح للعلماء الصينيين والفارسيين والعرب أن يسعوا وراء أى شىء له صلة من قريب أو بعيد بالعلوم. وبذلك يكون ذلك الشاهد على تدمير بيت الحكمة فى بغداد هو مؤسس لبيت من العلوم خاص به.

ومن داخل مركز الفكر هذا يتدفق نهر من البحوث والاكتشافات. كما يصدر الطوسى بيانًا ضخمًا بأسماء النجوم ويصمم أدق الأزياج التى تتحدث عن حركة الكواكب. ويطلق عليها اسم الأزياج الخانية وذلك تكريمًا لراعيه هولاكو خان. وتُعتبر هذه الأزياج حصاد 12 عامًا من العمل الشاق فى الملاحظة والحساب. وفى بحثه حول علوم الفلك سيعبر عن أكبر معالجة شاملة ومتطورة لنظام كواكب بطليموس، وبذلك يخلص إلى كشف فلكى حسابى يطلق عليه اسم ازدواج الطوسى، والتى سوف تحل الحركة الخطية فى مجموع حركتين دائريتين. ويكرر هذه النظرية كوبرنيكوس بعد مضى 250 عامًا على ظهورها ويدور جدل عما إذا كانت قد تم اقتباسها من الطوسى أو من مصدر وسيط آخر.

ويحسب الطوسى دقة الاعتدال الربيعى أو الخريفى وتمايل محور دوران الأرض عند 50.3 جزء من الثانية أو دورة كاملة فى 25.700 عام ويكتب بحوثًا أعمق فى مجال الأسطرلاب. كما يقدم تعليقات غزيرة ونظريات عن الكرات والأسطوانات وبعض جوانب الرياضيات المتقدمة ويقود العالم فى كونه أول من يفصل ما بين علم المثلثات كمجال مستقل فى علم الرياضيات وليس ملحقًا لعلم الهندسة أو الجبر. وكعلامة من علامات عبقرياته فى علم الحساب المتقدم كان أول من قام بحساب الحالات الستة للمثلث الكروى ذى الزاوية اليمنى. ويقدم مجلدات عن المعادن ونظرية التلون ويكتب عن الطب والأخلاق والفلسفة.

ونتاج كل هذا العمل حتى بعد ضياع بغداد وتخوف القاهرة من هجمة مغولية قادمة وأفول نجم الأندلس بعد الغزو المسيحى وتحول بلاد فارس إلى محافظة مغولية هو اعتراف بعض الناس بفضل الطوسى وبجهوده الكبيرة لإحياء العلوم الإسلامية والحفاظ على استمراريتها أكثر من أى شخص آخر فى زمانه.

ويكبر الطوسى فى السن ويبدو أشبه بذلك النجم المتفجر الذى ظهر فى عام 1006 ورآه العالم الشاب ابن رضوان فنجم الطوسى يلمع ويتوهج بشدة ثم يخرج من دائرة الرؤية.

بيد أنه أشبه بالمستعر الأعظم لعام 1006 الذى مازالت البلازما الداخلية له تحترق بدرجة مليون درجة مئوية. فوهج الطوسى وكل زملائه من العلماء المسلمين يخلد للأبد وحتى وإن كانت أوربا والصين قد نَسِيَتَا أسماءهم، وحتى إن لم يحصل كثير منهم على اسم لاتينى، وحتى وإن تاهوا فى غيابات التاريخ فهم سيبقون دومًا فى مكان مثل مرصد بالومار بكاليفورنيا وتليسكوب هابل الفضائى. فالحسابات الإسلامية الفلكية والرياضية ستساعد فى إجراء كم رهيب من الحسابات فى يوم من الأيام بواسطة الآلات المفكرة. ويبقى السؤال: لو لم يولد هؤلاء هل كان علم الحساب الفلكى سيتطور بنفس هذه الطريقة؟

إن إسهاماتهم فى علوم وتكنولوجيا الفلك الحديثة لا حصر لها ففى مجال علم الفلك وحده يساعدون فى تطوير نظرية فلكية حديثة وأدوات جديدة ومراصد دولية ضخمة ومناخ من البحث والاكتشاف يكون نموذجًا لعصر النهضة والتنوير ويؤثرون حتى فى علوم فلك القرن الـ 21.

وفى نظرية النجوم يقدمون تحليلات هامة لأفكار بطليموس كما يطورون أدوات مهمة. ويكتب المؤرخ العلمى ديفيد كينج عنهم فى يوم من الأيام قائلًا:

> *ما أظهرته آخر البحوث العلمية فى وقتنا الحاضر هو أن كل الابتكارات فى الأجهزة الفلكية فى أوربا حتى عام 1550 كانت مأخوذة بشكل مباشر أو غير مباشر من الحضارة الإسلامية أو تحدث عنها أحد الفلكيين المسلمين فى مكان ما.*

بيد أن هذا لا يبخس قدر الإنجازات المستقلة التى حققها الأوربيون فى علم تطوير الآلات وصناعتها ولكنه يبين الدور الهام الذى أدته الآلات الإسلامية فى تاريخ العلوم.

فالمسلمون يطورون مراصد ضخمة تتم بداخلها مشروعات مكلفة. وقد تم توثيق أثر المراصد الإسلامية على الصين والهند وأوربا بشكل كبير. وفى عام 1576 يحتوى مرصد تايكو براهه فى الدنمارك على آلات شبيهة جدًا بما هو موجود فى مرصد تقى الدين بإسطنبول، والذى يسبقه بعدة سنوات. ويردد مرصد بكين أصداء مرصد المراغة. كما أن مراصد الهند الخمسة المسماة بجنتار منتار، والتى بناها المهراجا جاى سينج فى القرن الـ 18 ستعيد جزئيًا عظمة مراصد الحاكم التيمورى أولجه بيج فى القرن الـ 15 فى سمرقند. وعبر عدة قرون تدفقت المعلومات من الدول الإسلامية إلى أوربا والصين والهند وتُشكل طبيعة مثل هذه المراصد حتى العصر الحديث السابق لاختراع التليسكوبات.

ولقرون طويلة يظل علم الفلك العربى محور المعرفة العالمية، فعلوم الفلك التى طورها العلماء المسلمون لم تكن عنصرًا أساسيًّا فى الثقافة الإسلامية فحسب، بل أدت أيضًا دورًا مركزيًّا فى طريقة قياسنا للأرض فى وقتنا الحاضر ورسم خرائط القارات وأراضيها وملاحة المحيطات وحساب الزمن وقياس العام وتطوير فن المعمار وتحديد مواقع الصلاة والخروج بأساليب جديدة ووضع معايير حديثة واكتشاف علوم جديدة.

ومن نقاط البداية المتداخلة هذه تتجلى عظمة الله سبحانه وتعالى فى الأرقام ومجموعات النجوم وتخرج العلوم الإسلامية إلى النور. فالهندسة الإسلامية والكيمياء والمعمار والطب تجد أساسًا لها فى الأرقام والنجوم. ووراء كل هذا لا يوجد شىء سوى حب العلوم التجريبية الذى يدعمه ابن الهيثم وأمثاله الذين جعلوا هذا العلم أمرًا ممكنًا.

وما يلى ذلك ضاع مع ما ضاع من التاريخ.



المختـرعـون والعلمـاء

﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لاَ تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ ﴾

[سورة الرحمن: آية 33]

مدينة الدوحة، قطر فى 2007: عن بُعد تظهر دولة قطر فى شكل شبه جزيرة واقعة بين اللون القاتم للصحراء اللانهائية والمزيج الأزرق الفاتح للمحيط والسماء. وفى الأعلى عبر الغمامة البرتقالية التى تغلف بها رطوبة الصيف الجو تقف العاصمة الدوحة فى شكل جرف منفصل من أبراج المكاتب ومراكز التسوق والفنادق الفاخرة حيث يسقط طرف شبه الجزيرة العربية فى المياه والفراغ.

الدوحة هى واحدة من أحدث المدن فى العالم حيث مُهدت شبكة شوارعها وطرقها السريعة فقط خلال العقدين الفائتين محاكية بذلك الحس الفنى للحداثة التامة والعولمة المحضة. من المتوقع لحديقة العلوم والتكنولوجيا، وهى أحد مشاريع چون هاسدا، والتى على وشك الافتتاح قريباً، أن تضع «قطر» فى صدارة الاختراعات التكنولوچية الحديثة وتقف أمام مد استنزاف عقول العمال المهاجرين من ذوى المعرفة ممن تركوا بلادهم حيث تكون الكثير من الدول المتقدمة فى حاجة أكثر إلحاحاً لهم. يهدف المشروع إلى دعم القدرات التكنولوچية للدولة بما يقل عن مليون شخص على حافة واحدة من أكثر صحارى الأرض قسوة وعلى بُعد ألف ميل من مكة على الجانب الآخر من شبه الجزيرة حيث تلقى الرسول، صلى الله عليه وسلم، رسالته من الله عز وجل.

چون هاسدا هو المدير الهندسى الإقليمى لواحدة من كبرى شركات المقاولات فى العالم ومقرها أوربا. عاش وعمل فى الدوحة مدة خمس سنوات أقام فيها العلاقات مع القوى السياسية المتوافرة وكافة الشركات المحلية والدولية التى تعمل فى قطر وفى

أعلى شبه الجزيرة العربية وأسفلها. يسافر دومًا مع زملائه من الأجانب من الكويت فى الشمال إلى البحرين وأبوظبى ودبى والمدن السعودية الكبرى مثل الرياض وجدة فى الجنوب.

يطل مكتب چون على كورنيش مدينة الدوحة عارضًا لساعات الذروة فى أثناء غمامة ما بعد الظهر، وحوله تنتشر الصور الكبيرة لكافة مشاريع شركته الجارى تنفيذها فى الخليج الفارسى. توجد أيضًا صور له مع رئيس الشركة ورؤساء ووزراء لدول مختلفة، أضف إلى ذلك صورًا مع مجموعة منتقاة من أصحاب المقامات الرفيعة الذين تقابل معهم فى كل من الاجتماعات الكبرى والمناسبات الاحتفالية عند التوقيع على اتفاقيات هامة أو عند الانتهاء من مبنى جديد.

كما توجد أيضًا صورة لصديقته السابقة ياسمين، وهى الآن فى ماليزيا ولم ير بعضهما البعض منذ عام ونصف، فقد أرادت الزواج والإنجاب بينما لم يكن هو مستعدًا لذلك.

إنه لتكليف عظيم لرجل مثله لا يزال فى العقد الثالث من العمر ولكن لوجوده فى ميدان العمل منذ وقت طويل بدأت تنتابه المخاوف من أن هذا العمل لن يتعدى ما هو عليه الآن. ومع اعتياده على التجول أثارته فرصة الوجود فى الدوحة عندما لاحت فى الأفق ولكن بعد مرور خمس سنوات بدأ يشعر بالحيرة.

تعتبر الدوحة وغيرها من المدن الساحلية مثل دبى أماكن مثيرة للفضول خُلقت تقريبًا من لا شىء حيث كانت مدنًا عربيةً تقوم على الصيد وبناء المراكب، والآن يقف قادتها لمنافسة دول مثل سنغافورة وهونج كونج حيث يريدون لهذه المدن أن تصبح مجمعًا للشرق الأوسط وبوابة على العالم ومنه. ولقد نجحوا جزئيًا فى مسعاهم مخلفين وراءهم مدنًا أقدم وأكبر مثل القاهرة ودمشق، مع وجود العشرات من الفنادق «الخمس نجوم» سواء القائمة بالفعل أو الجارى بناؤها. بدأ السائحون فى المجىء إلى تلك الدول من الهند وباكستان والدول العربية وإيران وروسيا وأوربا للإنفاق على بضائع الأسواق الحرة من مجوهرات وملابس وسيارات، أضف إلى ذلك امتلاك الشقق. تمتد منتجعات الشواطئ وملاعب الجولف بمساحاتها الشاسعة نحو الإمارات العربية المتحدة من الشرق أو الخلاء الداخلى للمملكة العربية السعودية نحو الغرب. يستطيع المرء أن يقول إن الدوحة هى مكان رائع لعقد الصفقات، ولكنها تبدو تقريبًا خالية من التاريخ. على الرغم من المحافظة على المدينة الصغيرة للدوحة القديمة والاعتناء بها، وهى مكان جميل لاحتساء الشراب أو تناول العشاء، فإنها تقزمت بانجراف عوامل الحداثة المحيطة بها. إن الدوحة تبدو كمزيج من لاس فيجاس وميامى بيتش ولكن مع وجود المزيد من الرجال والنساء فى زى عربى وجنوب آسيوى تقليدى وجميعهم يثرثرون عبر الهواتف المحمولة.

إن الدين الواضح تمام الوضوح عبر الحدود والمياه يبدو أكثر هدوءًا فى خلفية هذه الدولة، وهذا إنما هو أمر متعمد حيث لم يرد آباء هذه المدينة كبح جماح تدفق الأعمال بالصراعات الدينية السياسية الواقعة على بعد أميال قليلة. من ثم كان چون مرتاحًا مع هذا الوضع حيث إنه لم يكن شخصًا متدينًا.

يعتبر كل من السفر والترحال أمورًا طبيعية بالنسبة لچون فقد كان جده رجل أعمال هولنديًا يعمل فى شركة داتش إيست إنديز عند اندلاع الحرب العالمية الثانية. ثم انتقلت عائلته إلى منطقة الكاريبى فى أثناء الحرب، وبعد ذلك توفى جده وجدته وانفصل والداه وماتا فى سن الشباب ولم يكن له أى أشقاء. وبعد الحصار فى باريس أصبح چون شرق أوسطى بحتًا.

ومثله مثل مدن الخليج الفارسى، لا يمتد إرثه إلى هذ الحد؛ فهو شخص حديث فى عمر الزمان. ظهر اسم هاسدا من مكان غير معلوم فى أمستردام وچاكرتا فى عشرينيات القرن الماضى وحسب علمه، لا عائلة أخرى تتهجى اسمها بنفس الشكل. دائمًا ما يتقبل الناس خارج هولندا الاسم على أنه اسم هولندى ولكن لا يوجد هاسدا فى هولندا.

أثيرت هذه المسألة مرة مع صديقته ياسمين، وهى شابة جميلة مسلمة من أصل صينى وماليزى. قابلها أول مرة فى دبى عندما كانت تأخذ دورة للمضيفات الجوية لدى الخطوط الجوية الإماراتية، وقد كانت فى دبى عندئذ منذ عام وارتبطا ببعضهما البعض، ثم انتقلت إلى المقر الإماراتى فى كوالا لامبور. قامت بزيارته بعد ذلك بل وجاءت به إلى جزيرة جميلة فى ماليزيا بتذكرة مجانية، ولكن عندما لم يبادلها هذه الأحاسيس بدأت العلاقة بينهما يشوبها الفتور. عندها كان والداها بالفعل موصومين بأن ابنتهما تحيا حياة مستقلة وحدها، ومما زاد الأمر سوءًا أن تكون مع رجل أجنبى على جزيرة وحدهما.

فى يوم من الأيام فى ليلة شتاء موحشة بعد انفصالهما عندما خلت حانات فنادق الدوحة من مرتاديها اتجه إلى منزله، وبشكل تدريجى انتهى به الأمر أمام الكمبيوتر. إذا ما فكر فى تلك الآونة كان ليدخل على أحد مواقع المواعدة ولكنه بدأ فى تقصى بعض الأمور الأخرى، ثم وجد نفسه يبحث عن عائلة هاسدا ليرى إذا ما كان هناك أى تاريخ لعائلته أو إذا ما كان بالفعل يتيمًا وحيدًا فى هذا العالم باسم ما هو إلا خطأ مطبعى لموظف ما.

لم يحتج إلى البحث مدة طويلة فقد كان هناك بالفعل «هاسدا» آخرون فى العالم. قد كانوا فرعًا من عائلة أكبر وأقدم يتهجون اسمهم هاسداى. كان كل من هاسدا وهاسداى من أصل يهودى سيفردى (يهود شرقيون) من إسبانيا. أقامت مجموعة من عائلة هاسدا اجتماعًا للم شمل الأسرة فى أورلاندو بفلوريدا من بضع

سنين مضت وهذا الاجتماع أتى بأفراد من عائلة هاسدا من نيويورك وساو باولو وبوينوس آيرس وإسطنبول والدار البيضاء والقاهرة وأثينا وطهران ولشبونة ولوس أنجلوس وتل أبيب، وفى أثناء هذا الاجتماع قام أحد الحاضرين بتدوين قصة بطولات العائلة.

بعد مرور ما يزيد عن ألف عام فى إسبانيا واجهت العائلات إنذارًا من إيزابيلا ألا وهو التحول إلى الكاثوليكية وإلا النفى أو الموت. تخلف بعض أفراد هاسدا وأصبحوا مجرد ذكرى وتحولت أسماؤهم إلى أسماء آبائهم الروحية الكاثوليكية الإسبانية. بينما وافق آخرون على عرض السلطان التركى العثمانى وهو أن يأتوا بمهاراتهم وممتلكاتهم التى يستطيعون المجىء بها إلى إسطنبول، ومن ثم أصبحوا جميعًا أتراكًا لأجيال عديدة تلت ذلك. ذهب بعض خلفائهم شرقًا إلى إيران، وغيرهم إلى الأمريكتين، ولا يزال غالبيتهم يعتبرون أنفسهم من السفرديين، وهم يهود سيفارد الذين ظهروا فى أثناء الحكم الإسلامى لإسبانيا.

جلس چون ينظر إلى كل هذه التفاصيل فى تشكك، ولكن الأمور بدت له منطقية فقد قيل له إن جده نقلهم إلى منطقة الكاريبى هربًا من الحرب، وهذا إنما يعنى هربًا من محرقة اليهود.

وباستثناء الوقت القصير الذى مر فى هولندا، فإن أسلافه قد أمضوا 1300 عام يتفاعلون مع المسلمين، وهو نفسه كان على وشك أن يقع فى حب واحدة منهم.

أو قد يكون الأمر برمته غلطة، فمن الممكن أن يكون أسلافه قد قاموا بتلفيق أسمائهم، أو قد يكون شخص ما عن دون قصد اختلق هذا الاسم عن طريق تهجئة غير صحيحة. هذا لا يهم بعد الآن فهو تاريخ قديم ومضيعة للوقت. إنه مدعو الآن إلى حضور حفل استقبال الليلة فى دبى فى فندق برج العرب، وهو الفندق الذى يشبه شراع المركب ويطل على مياه الخليج. إنه حفل استقبال لوزراء العلوم والتكنولوچيا من دول الخليج كافة.

فجأة يشعر بافتقاده لياسمين ووالديه وشىء لا يستطع تحديده. إنه بحاجة إلى الانتقال إلى أوربا فهو يشعر وكأنه يخسر شيئًا ما.

مدينة قرطبة، الأندلس فى 852 م – بينما تبرهن عملية التوثيق على أن الكثير من جوانب العلوم الإسلامية سوف تُسقط من التاريخ، إلا أن بعض الروايات التاريخية سوف تظل حديث الناس لآلاف من السنين.

فى إحدى القصص الشهيرة تجمع حشد من الناس فى الميدان المقابل للمسجد الكبير فى قرطبة ليشاهدوا رجلًا إما أنه كان ينوى الانتحار وإما أنه كان ينوى فعل أمر سيغير مجرى التاريخ فبالأعلى فى شرفة المئذنة، فى المنطقة التى تعلو تلك الأسقف المصنوعة من القراميد على الطراز الرومانيسكى السورى، تلك الأسقف المثبتة

بالدعامات، ففى تلك الشرفة الصغيرة حيث يقف المؤذن ليؤذن للصلاة خمس مرات يومياً، يقف الآن رجل آخر قطعًا ليس بالمؤذن. تنتشر الهمهمة بين الزحام وتدوى بعض الصرخات نحو هذا الرجل، البعض بالتشجيع والآخر بالسخرية.

يصرخ أحدهم قائلًا: «انزل أيها المجنون» بينما يقول آخرون: «اقفز!».

وتتساءل إحدى السيدات قائلة: «هل حصل على إذن من الإمام حتى يقوم بذلك؟» وتنطلق الضحكات المتقدة بين الجموع.

ويتجرأ آخر قائلًا: «لقد سمعت أنه رشا الإمام» وتشق الضحكات مرة أخرى جموع الناس.

هذه هى قرطبة، جوهرة إسبانيا الأموية. لقد مضى نحو مائة عام على انتزاع عبدالرحمن الداخل لهذه المدينة من الأمير السابق، وقد توفى هذا الفاتح الأموى الشاب منذ زمن طويل ويحكم المدينة حالياً الأمير عبدالرحمن بن الحكم أو عبدالرحمن الثانى. وبعد ذلك بقرن، سوف يعلن الأمويون قرطبة عاصمة الخلافة الإسلامية.

فى عام 852 أسرعت عجلة تقدم الأمويين الإسبانيين ليحظوا بمكانة من الأهمية مماثلة لأهل بغداد. فقرطبة الآن تعتبر أكبر المدن الأوربية وأكثرها تقدمًا حتى فى ذلك الوقت؛ أى منتصف القرن التاسع، تظهر قرطبة تغمرها آخر صيحات الموضة والموسيقى الجديدة والتألق الحضرى الذى جاء به إلى تلك المدينة الموسيقى العراقى ووسيط الذوق الرفيع أبو الحسن على بن نافع والمعروف بزرياب. هذا الرجل متعدد المواهب تعرض للإغواء حتى يترك بلاط هارون الرشيد من قبل الحاكم الأندلسى بإعطائه راتبًا سنويًا 200 دينار ومكافأة سنوية 1000 دينار علاوة على مكافآت إضافية فى أيام الأعياد الإسلامية بجانب قصر «متواضع» وبعض الفيلات فى قرطبة وحولها. مع تحوله من عبد عراقى موسيقى إلى رجل أندلسى ثرى، صار زرياب يعلم الناس كيف يلبسون ويطهون ويؤلفون الموسيقى ويعيشون حياة متأنقة مثلهم مثل منافسيهم؛ أى أهل بغداد. يقوم القرطبيون وغيرهم من الأندلسيين بمحاكاة زرياب فى ثيابه وتصفيفة شعره وطريقة كلامه. وقد جاء زرياب إلى امرأة قرطبة بأول صالون للتجميل كما عرفها أنواعًا جديدة من العطور وأدوات التجميل، أما الرجل فقدم إليه أول معجون للأسنان. علاوة على كل ما تقدم قام زرياب بتطوير أسلوب عزف العود، فقد أضاف إليه وترًا خامسًا، وبذلك أصبح يشبه الشكل الحالى للجيتار الإسبانى. كما قام بأول إصلاح للحياة اليومية منذ وصول المسلمين فقد حول العاصمة الغربية للإسلام من مدينة قاسية تتسم بفجاجة الطراز القوطى الغربى إلى مكان يغط بالموضة والأدبيات والتألق.

يصرخ أحد الأشخاص: «اقفز!» وآخر يكمل: «يا جبان!» وتعج الجموع بالضحك ولكن فى نفس الوقت ينساب إحساس من التوتر والعطف فيما بينهم؛ فإنهم يتعاطفون مع هذا المتهور المسكين الواقف فى الأعلى.

اسمه أرمين فايرمان ويجنى رزقه من خلال القيام بمثل هذه المخاطر، كما أنه يدخل فى رهانات من هذا النمط وأحيانًا يحالفه الحظ ويحصل على مقابل. وإذا ما نجا واقترب من تحقيق هدفه، ينتقل بعد ذلك إلى تحدٍّ آخر.

ضمن الحشد المتجمع المكون غالبيته من عامة الناس فى قرطبة وقف مراقب غير عادى يلاحظ ما يجرى، اسمه عباس بن فرناس، والذى استقطع بعضًا من وقت عمله العلمى لدى الأمير حتى يرى أحدث أعمال أرمين فايرمان المثيرة.

جاء ابن فرناس فى الأصل إلى البلاط كى يُعلم الموسيقى تحت رئاسة زرياب ولكن عند بلوغه منتصف العمر تفرع إلى مجالات أخرى. فانجذب إلى الأدوات الميكانيكية والساعات وإلى أنماط الزجاج والبلور. هو أيضًا فلكى وسوف يقوم فى يوم من الأيام ببناء نموذج آلى يمثل النظام الشمسى يحتوى على كواكب دوارة من أجل الأمير.

سوف يقوده اهتمامه بالبلور والمرو والرمل إلى إيجاد طريقة لإذابة الرمل فى الزجاج، الأمر الذى سوف يمكنه من عمل أكواب الشرب الأندلسية وإجراء التجارب بالعدسات واستخدام خصائصها المكبرة علاوة على أى شىء آخر يأتى من الزجاج. حتى ذلك الوقت كانت آنية الشرب مصنوعة من الخشب أو الطفل أو المعدن أو جلد الحيوانات. بالإضافة إلى ذلك فإنه سوف يصل إلى صيغة لعمل البلور صناعيًا.

لكن فى عام 852 فاقت اهتماماته هذا وذاك، فقد سمع حينها عن الأسطورة الإغريقية إيكاروس وديدالوس. والآن لمعرفة أن شخصًا ما يحاول بالفعل محاكاة الأسطورة هو أمر بالغ الإثارة.

فى أعلى البرج يقف الرجل المتهور أرمين فايرمان بفكرة جديدة، فالطريق طويل إلى أسفل وسوف تترك الأحجار المحيطة بالبرج آلامًا شديدة على جسده. حتى يقوم فايرمان برحلته الطائرة قام بعمل بذلة حريرية بها أعواد تثبيت خشبية وقد صنع هذه البذلة سريعًا معتمدًا على دراسة خاطفة لميكانيكية الأشياء الطائرة بطبيعتها مثل الطيور والأغصان والبذور والفراء. من ثم اتسم مجهوده بالتسرع؛ وذلك لأنه ليس بعالمٍ ولكنه شخص محب لأعمال الإثارة.

يقف ابن فرناس فى الأسفل يلاحظ ما يحدث فى هدوء، يغطى وجهه جزئيًا بثوبه، وذلك حتى لا يكتشف أحد هويته. ويلوح السؤال فى الأفق هل سيتشكك علماء قرطبة فى حكم ابن فرناس العظيم إذا ما علموا أنه يقف فى الميدان لمشاهدة الشخص المجنون المحب لأعمال الإثارة؟

أخيرًا جاءت اللحظة المنتظرة وبدأ صبر الجموع فى النفاد، بل وأصبحوا أكثر عداءً. بدأ البعض فى الاندفاع والمراهنون فى التفكير بأن أرمين فايرمان قد خسر.

فليس هناك سبيل للرجعة أمام محب الإثارة، هذا إذا أراد أن يأتى بقوت يومه. فإما أن ينفذ حركته الآن وإما فقدها إلى الأبد. الآن مع مد ذراعيه فتح أرمين فايرمان «جناحيه».

وقفز فى الهواء وهبط فى شكل عمودى وانتفخت بذلته الغريبة بالهواء بما يكفى حتى تُبطئ من سقوطه وبذلك يكون ارتطامه بالأرض مسيطرًا عليه ولا يكون سقوطه بكامل سرعته. اضطربت أنفاس الجموع وصرخت النساء وصفق الرجال كما قام بعض الأشخاص رفيعو المقام والتجار بقرطبة بفتح نوافذهم لمشاهدة نهاية هذا المنظر.

مع ارتطامه بالأرض تعرض أرمين فايرمان لآلام خفيفة وأصابه الذهول لبعض الوقت ولكنه لم يشل ولم يمت، فكان لا يزال متمتعًا بحواسه بالشكل الكافى حتى يتسنى له النداء على من راهن ضده فقد فاز حتى الآن.

على الرغم من أن اللفظة التى تصف هذا الموقف لن تظهر إلا بعد ألفية أخرى فإنه من الممكن أن يوصف أرمين فايرمان بأنه أول من قام بأول قفزة باراشوت فى العالم. لم يكن فايرمان ليولى اهتمامًا أقل مما فعل فكل ما كان يريده هو المال.

وبرقعة ليست بعيدة عن المكان الذى ارتطم به أرمين فايرمان، كان ابن فرناس واقفًا يسجل ملاحظاته، فقد كانت البذلة غير متقنة الصُنع واتسمت المحاولة نفسها بالسذاجة، لكن النتيجة بهرته أكثر مما كان يتوقع، فقد فتحت هذه التجربة أمامه خطًا جديدًا من التفكير. يوجد لديه صورة لحظية لرحلة طيران الطيور؛ أى إيكاروس وديدالوس فوق بحر إيجة، ومن ثم بدأ فى تخيل رجل فانٍ مثله يطير فى المملكة الإلهية.

بينما كانت الجموع المبتهجة تلتف حول أرمين فايرمان كان ابن فرناس يتخذ قرارًا مهمًا. لقد قرر أن عمله فى الزجاج والموسيقى والساعات والكواكب سوف يتسع فهو الآن سوف يلقى نظرة قريبة للغاية إلى علم الطيران.

استغرق الكثير من الوقت مع تشكيلة من المنعطفات والارتباكات، أضف إلى ذلك أثر مرور السنوات فهو لم يصغر فى العمر.

ولكن أخيرًا فى يوم جميل من أيام قرطبة فى عام 875 أى بعد مرور قرابة 23 عامًا بعد قفزة أرمين فايرمان المثيرة، قام ابن فرناس بكل ثقة بدعوة أصدقائه وعلماء من البلاط بالإضافة إلى كل من ينتابه الفضول حتى يشهدوا محاولته الخاصة فى الطيران. لقد تخطى زمن الإحراج من كونه شخصًا مولعًا بالإثارة فهو الآن يؤمن تمامًا بما يفعل ويريد أن يحاول تحقيق حلمه ما دام يحيا ويقوى على ذلك.

دعا تابعيه إلى نفس سلسلة الجبال المتدنية الواقعة غرب المدينة والتى سوف يبدأ الخليفة عبدالرحمن الناصر لدين الله أو عبدالرحمن الثالث فى بناء مدينة الزهراء بها يومًا ما. على هذه التلال المكسوة بأشعة الشمس والمتناثرة الغابات تشتد سرعة

الهواء من أسفل الوادى إلى أعلى، ويقف ابن فرناس مشاهدًا الطيور محلقة فى الجو، تركب التيارات الهوائية الصاعدة، تحملها إلى أعلى فتهبط الطيور بها لترتفع بها التيارات مرة أخرى.

أمضى ابن فرناس كلَّ هذه السنين يدرس بشكل متقطع حركة طيران الطيور والمخلوقات الأكثر قربًا لنموذج الطيران البشرى الذى يتخيله. قام بصناعة جناحين من الحرير والخشب وحاك على الحرير ريشًا حقيقيًا بالإضافة إلى هذا المجهود تدرب قليلًا بدون جمهور، أما الآن فهو يشعر بأنه مستعد أن يقوم بمحاولته على رءوس الأشهاد.

واقفًا على حافة التل والرياح تتصاعد نحوه ويقف أصدقاؤه ومعاونوه لمشاهدته، ربما فى ذهول وتشكك مثل الحشد الذى تجمع فى الميدان من سنين عديدة مضت، انتابته لحظة خوف؛ فاليوم تبدو رياحه أكثر من المعتاد. على الرغم من أن الرياح قد تساعده فى محاولة الطيران فإنها أيضًا قد تتسبب فى فوضى شديدة. وأخيرًا بدا الهواء هادئًا بالشكل الكافى حتى يبدأ عندها، جرى ببطء وقفز من على الجرف فى هواء الأندلس الصافى الأزرق.

وقف الجموع فى ذهول؛ وذلك لأنه لم يسقط على خلاف أرمين فايرمان متحديًا كافة المعارف والخبرات، حلق ابن فرناس فى الهواء منسابًا فى الأفق مثل الطائر. طار ابن فرناس فى دوائر تشبه حركة الطير فى حركات ملتفة ومنخفضة لمدة بدت للجمهور أقل من عشر دقائق وحلق فوق الوادى الكبير بمزيج من الطائر والإنسان لما بدا له مدة طويلة.

بدا هذا الفاصل من الطيران بالنسبة لابن فرناس وهو محلق فى السماء، والمدينة والبحر والوادى متناثر أسفله وكأنه لا نهائى، وكأنه مرَّ فى لمح البصر فى نفس الوقت. لقد حقق حلمه فهو الآن يطير فى الآفاق السماوية للملائكة والجن أو الأرواح متحررًا من قيود الأرض. يتعجب من كم الهدوء الذى يحسه والهواء يتسارع بالقرب من أذنيه ووهج الشمس يقع فوق رأسه منيرًا قنوات الرى بين صفوف أشجار الزيتون والبرتقال والليمون مع ظهور مزارع الهليون والبقدونس التى قدمها زرياب لجعل موائد الأندلس أكثر ثراءً وتنوعًا. ودعا عندئذ ابن فرناس قائلًا: حمدًا لله عز وجل على السماح لى بهذه التجربة.

عندما بدأ فى النزول إلى الأرض عاد مرة أخرى إلى الواقع، فإنه لم يفكر مليًا فى الهبوط؛ حيث إن تركيزه الأكبر كان منصبًا على الإقلاع والطيران. لكن الآن مع الاقتراب السريع من الأرض بطريقة تفوق أى شىء آخر قد يصطدم الإنسان بالأحجار والأغصان وأشجار البساتين، فقد أدرك ابن فرناس عندها أنه ارتكب خطأً قائلًا: يا الله! إننى مجرد فان غبى.

ارتطم بالأرض بشدة بالغة وسريعة حتى نفضت الرياح عنه وسقط سقطةً قويةً

قلبته رأسًا على عقب وعندها لم يشعر بأثر الارتطام على نفس قدر سماع دويه فى أذنيه وطقطقة عظامه وقوة اصطدام جسده وجمجمته بالأرض. كانت الصدمة عظيمة وشديدة للغاية إلى الحد الذى جعله يشعر وكأنه خارج جسده يشاهد ما يحدث وهو يشعر من بعد بالضربات الشديدة واللطمات العنيفة التى تعرض لها.

قضى بعض الوقت فى مكان مظلم مهيمنة عليه سحابة غضب مظلمة بسبب غبائه، وعندما أفاق وجد مجموعة من الناس حوله، بعضهم لاحقوه على ظهور الخيل وغيرهم ممن تجمعوا عند سفح الجبل لتقديم المساعدة فى حالة الحاجة إليها.

نادى عليه أحد الأشخاص: «أبو العباس» هل أنت حى؟

فرد قائلًا: «نعم إننى حى» ولكن بدا صوته بعيدًا ومشمئزًا.

ثم سأله أحدهم: «هل أنت مصاب؟».

فأومأ برأسه قائلًا نعم، إننى مصاب إصابة شديدة.

تركز الألم لديه فى ظهره وسوف يستمر معه طوال حياته؛ أى 12 عامًا من التعاسة وسيكون تذكر هذا الوقت بالنسبة له بمثابة عقاب وانتقام لتلك اللحظات القليلة من البهجة المقتنصة.

كانت آلامه ومعاناته عظيمة إلى الحد الذى سوف يجعل البعض يتهامسون حتمًا بأنه وصل إلى ارتفاع كبير وأن الله هو الذى دنا به من هذا الارتفاع فما هى إلا خطوات كتبت على المرء، وقد كتب على ابن فرناس أن تتوقف رحلته عند بلوغه هذا الحد.

ظل ابن فرناس يسمع هذه الهمسات والدمدمات ما تبقى له من الوقت. وعلى الرغم من أنه سوف يشفى بالشكل الكافى الذى سيسمح له ببناء النموذج المتحرك للكواكب من أجل الأمير وينتهى من محاكاة الرعد والبرق وساعات المياه وماكينات الوقت، وعلى الرغم من أنه سوف يذيب الرمال فى الزجاج ويصل إلى صيغة للبلور الصناعى، فإنه سوف تغويه بعض الأمور غير المشروعة مثل الخمر والمخدرات وذلك للتخفيف من آلامه.

كان يصلى أحيانًا كثيرة من أجل التحرر ولإيجاد أى شىء يوقف الألم، وطوال الوقت يفكر ويفكر فى الخطأ الذى فعله. ينتهى به التفكير إلى أن خطأه لم يكن الإساءة إلى الذات الإلهية بوصوله لهذا الارتفاع بالطبع لا، ولكنه توصل إلى أن الخطأ الغبى الذى ارتكبه أنه ألغى شيئًا ما يبطئ من عملية الهبوط ويصل به إلى سيطرة الطائر على الهبوط، حيث إن الطائر لا ينزل على الأرض بسرعة طيرانه. يتمتع الطائر بعنصر أساسى يُطلق عليه الذيل وهو الأمر الذى يعطى للطائر التوازن والسيطرة؛ فالطائر يستخدم جناحيه وذيله وقدميه فى تناغم حتى يبطئ من سرعته ويوقفها فوق الأرض مباشرة وذلك حتى يستطيع الهبوط بأقل سرعة ممكنة.

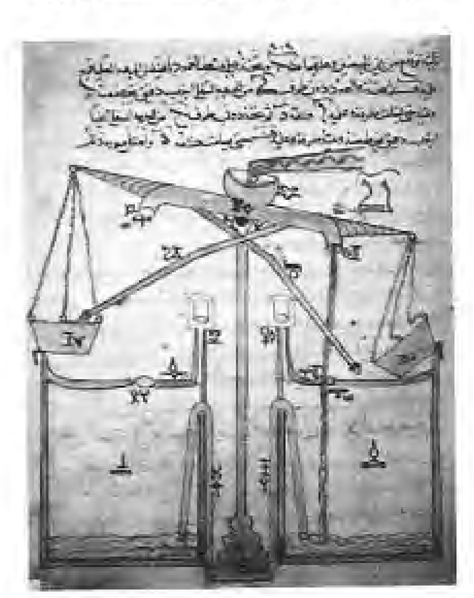
«لقد نسيت تصميم الذيل». سوف يظل يفكر فى هذا الأمر حتى يوم مماته «لقد نسيت بغباء تصميم الذيل».

مدينة بغداد، الخلافة العباسية فى 805 - فى مدينة الكوفة العراقية على بعد 90 ميلاً من العاصمة يوجد رجل عجوز يجلس فى معمله محاطًا بأكوام من المخطوطات، وتكتظ الطاولات بالأدوات المختلفة والأطباق والآلات المعدنية والقارورات وحاويات البودرة والمستخرجات والأصباغ والمحاليل. كل هذه الأشياء معنونة بخط يده المعقد بكلمات هو الوحيد القادر على فك رموزها وهو فى حقيقة الأمر ليس بحاجة إلى قراءة تلك العناوين فهو يعرف بالذاكرة أماكن الأشياء المختلفة الموجودة فى مكان عمله فى خضم هذه الفوضى.

تلطخ يده الألوان وتملؤها الندبات بسبب كثرة ما فيها من الحروق والجروح الناتجة عن المواد الكيماوية، بالإضافة إلى ذلك فهو دائم السعال بسبب أنواع الغازات والخلطات والبخار التى استنشقها سواء عن قصد أو دون قصد. تتسم عيناه بالإرهاق ورموشه فى طريقها للظهور مرة أخرى بعد حرائق الانفجارات المتعددة. ومرة أخرى نراه يسعل.

فى الخارج على الشارع يقف مجموعة من الجنود العباسيين لحراسة مدخل بيته ومجرد رؤيتهم تشعره بالأمان. لكنهم فى حقيقة الأمر ليسوا هناك لحمايته بل لتحديد إقامته. فقط احترامًا للإنجازات التى قام بها على مدار حياته وإلا ضاعت حياته هباء.

يبلغ من العمر 81 عامًا وهو من المعتقلين السياسيين حيث يقع تحت الإقامة الجبرية بأمر من الخليفة هارون الرشيد، وعلى الرغم من ذلك فهو لا يهتم بهذا الأمر. فإنه ما عاد فى حاجة إلى عظمة البلاط والتذلل له فهو سعيد لكونه حيًا وآمنًا نوعًا ما. وما دام يتنفس ولديه مكان للعمل فإنه سيظل يلهو بأنواع البودرة والأمزجة المختلفة الخاصة به فهذا هو هدفه الأساسى فى الحياة.



مضخة المياه الموضحة أعلاه هى واحدة من الماكينات العديدة التى رسمها مخترع القرن 13 الجزرى فى كتابه الجامع بين العلم والعمل النافع فى صناعة الحيل

اسم هذا الرجل دائم السعال هو جابر بن حيان، وسوف يعرف لدى صفوف الخيميائيين الأوربيين باسم جيبر أبو الخيمياء والكيمياء. كلتا الكلمتين؛ أى خيمياء وكيمياء مشتقتان من اللغة العربية، ولكن هاتين السلالتين الفكريتين التابعتين لفن المزج القديم فى الكوفة سوف تتخذان طريقين مختلفين؛ فإحداهما سوف تتعرض للفساد وتضل

طريقها ضمن وسائل السحر والتنجيم بينما الأخرى تصبح دربًا محترمًا من دروب العلوم تطلق العنان للتطور العالمى فى مجالات الاختراع والابتكار. بالنسبة لجابر فإن الخيمياء والكيمياء أمر واحد فقط، وفيما بعد سوف يقوم المفكرون بالوصول إلى تمييز اصطناعى بينهما.

واجه هذا الرجل العجوز حياةً طويلةً ومليئةً بالتحديات. كان عربياً من أصل يمنى، وُلد فى أعماق فارس فى مدينة طوس فى خُراسان، وكان والده عالمًا صيدلياً، ورغم أنه كان يقوم باستخراج بودرة وأكثر من ذلك لعلاج الصداع؛ فقد كان يشتغل أيضًا بالسياسة. على الرغم من أن الأمويين كانوا لا يزالون يحكمون من دمشق عندما وُلد جابر فى عام 722 فإنهم سوف يظلون فقط مدة ثلاثة عقود بعد ذلك. فى غضون ذلك وفى خضم مراكز الفكر شديدة الحماس فى فارس حديثة الإسلام قام الفرس بالوصول إلى هدف مشترك مع العباسيين الساخطين فى مكة. ومعًا استطاعوا التدبير والترصد والإعراب عن عدم الرضا عن المجموعة الصغيرة للأمويين علاوة على بعض التحالفات السورية ممن كانوا يُحكمون قبضتهم على كافة السلطات. وبالرغم من أن الفارسيين هم الذين كانوا يوفرون الكثير من السلطات الفكرية والمالية للخلافة الجديدة، فإنهم كانوا يُعاملون على أنهم مواطنون من الدرجة الثانية. وعى العباسيون موقع المستقبل الحقيقى للخلافة ولم يكن ذلك إلا باستثناء الجميع فيما عدا قبائل مكة.

تحالف والد جابر مع الفرس على وجه الخصوص مع عائلة يطلق عليها البرامكة. وفى يوم من الأيام عندما يتم عزل الأمويين عندئذ سيكون كل من العباسيين والبرامكة هم المنتصرين. سيكون العباسيون هم الخلفاء والبرامكة وزراءهم، وعندها ستجد عائلة جابر نفسها تنتقل من الضواحى إلى بلاط عائلة الخلافة الجديدة.

بذهابه إلى بلاط هارون الرشيد كطبيب، سوف يصبح جابر فيما بعد الكيميائى الخاص بالبلاط. تعتبر السياسة ضرورة دنيوية للمفكرين الشباب من ذوى الطموح مثل جابر، ولكونه كيميائياً فإن قلبه وحبه مغلفان بطبقات من الغموض والأسرار. إنه مثل أول علماء الرياضة والفلك المسلمين يعتقد أن أسرار الكون مدفونة بعمق فى العالم المادى المحيط به وأنها مسألة فك لشفرات الكون حتى يعرف الحقيقة. ومثله مثل غيره من المفكرين المسلمين فإنه يعتقد أن هذه الأسرار التى خلقها الله عز وجل من الممكن فك غموضها فقط من خلال قلة ممن هم على استعداد للبحث الطويل ومن ثم يستحقون عند الله عز وجل أن ينجحوا.

هذا الابن العربى لوالد صيدلى تربى فى فارس ونهل بعمق من الولع الفارسى القديم بالسحر ناهلاً من بئر زاخرة بالمعرفة السحرية ترجع أصلها إلى السحرة الزرادشتيين والطبقة المنغلقة الكهنوتية بالإضافة إلى مفكرى السحر المصريين مثل

هيرميس تريسميجيستوس. خلال حياته سوف ينجذب جابر إلى قطبين؛ إلى السحر والتصوف من جانب وإلى العلم المنطقى من جانب آخر. سوف يضع كتاباته بشكل مشفر تفصيلى ومتعدد الطبقات؛ وذلك لأنه يريد تغطية المعرفة التى يكشف عنها حتى لا يستطيع إلا قلة مختارة الحصول عليها، وهى الفئة القليلة المقصودة بتلقى هذه المعرفة السرية والقادرة على إدارتها.

لن ينجذب جابر إلى العامل الروحى الصوفى للأمور والعمليات المادية فحسب، ولكنه سوف ينجذب أيضًا إلى الصوفية. تتبنى هذه الحركة المتجهة نحو الانجذاب الصوفى الرفيع فكرة أن الحقائق المطلقة ليست بالضرورة موجودة فى العقل ولكن بالأحرى فى طمس الذات.

سوف يجد الجانب العلمى الصوفى لدى جابر ضالته فى الخيمياء، ووفقًا للبعض فإن الهدف الأقصى لجابر لم يكن تحويل الصفيح إلى ذهب لكن البحث عن التكوين، وهذا إنما يعنى حرفيًا خلق الحياة الاصطناعية فى المعمل. سوف يجد بحثه الجرىء صدى خفيًا بين الأوربيين بعد مرور قرون لاحقة وذلك فى أسطورة فاوست الخاصة بالباحث الوحيد الذى يعيد الحياة إلى القزم التابع له فى أنبوب اختبار بمدينة براغ فى القرون الوسطى، ثم بعد ذلك فى الشكل الأكثر صراحة وشعبية، أى قصة فرانكيشتاين للكاتبة مارى شيلى. ودارت أحداث أسطورة فاوست إبان العصور الوسطى بوسط أوربا، وقد احتلت أهمية بالغة فى الأدب القصصى والمسرحى والفلسفة، وكانت محفلاً للآراء العالمية، وقد عبر عنها كلٌ من كريستوفر ماركو ويوهان ولفجانج فون جوتيه، إلا أنه من عجائب سخرية التاريخ ألا تكون هذه الأسطورة من أصل أوروبى، إنما أتى بها رجل من بغداد القديمة وكان أساسها الممارسات القديمة للسحر فى فارس ومصر.

ما من أحد سيعرف بشكل مؤكد ما إذا كان جابر ينوى بالفعل خلق حياة عضوية فى تجاربه أم أن كلامه مجرد مجاز صوفى للتقرب من المعرفة الإلهية.

سوف تكون اللغة العربية نفسها هى العامل المساعد له فى بحثه الغامض الخفى؛ حيث إنه فى الشعر الصوفى والكتابات المقدسة ترتبط الحروف والكلمات العربية التى تُعرِّف الأشياء والعمليات والمفاهيم بالأرقام، ومن ثم ترتبط بالشفرة الأساسية للوجود التى توجه هذا الكون المعقد والموحد.

سوف يكون لمنهج جابر الخاص بفك شفرات مفاهيمه استخدام ذو طابع أكثر عملية، وذلك لأنه يدفع بالمفاهيم العلمية والفلسفية إلى ما بعد الحدود اليومية، والبعض يقول إنه يكتب بأسلوب خاص به حتى يحمى نفسه من عقوبات الهرطقة. وفى أحد الأيام سوف يتم اشتقاق كلمة جابرى من اسم جابر.

فى الآونة التى عاش فيها جابر عندما لم يتم الفصل بين أى من الفروع الفكرية بشكل فعلى والدراسة الأساسية للأرقام والنجوم فإن انجذابه للمكون الروحى والصوفى فى الكيمياء سوف يمثل على نحو ملائم التفكير المتكامل والشامل لليوم. كل الأمور تتناسب مع بعضها البعض فى كون الله عز وجل، فما من شىء يحدث عشوائيًا أو بدون غرض، ومن ثم تتناسب تمامًا كل من الكيمياء الروحية وشبيهتها الفاسدة الأوربية الخيمياء.

لكن حدة الذهن والفوارق هذه، والتى ترجع إلى القرن التاسع، سوف تصير نسيًا منسيًا وتضيع أكثر معالمها فى الترجمة، وفى يوم ما بعد مرور حوالى ألف عام، هؤلاء ممن يسعون لتشويه سمعة الفكر العلمى الإسلامى سوف يرجعون «الخيمياء» الإسلامية إلى درب من دروب النصب والاحتيال بينما تُنَصِّب أوربا كمكان مولد "الكيمياء" الحديثة التجريبية. كما أنهم سيتجاهلون حقيقة أن آباء العلوم الأوربية مثل العالم إسحاق نيوتن إنما سيكون من فخر الخيمياويين. بالإضافة إلى ذلك لن يساعد التاريخ العلمى الأمين هؤلاء ممن يقفون عند نهاية النطاق الفكرى الصريح ممن يسيئون استخدام الممارسات الخيميائية العليا فى مسائل ذاتية حتى يصبحوا أثرياء على سبيل المثال فى تحويل الصفيح إلى ذهب.

ما أكثر أخطاء وتشوش كتابات التاريخ الفكرى! فإن جابر ليس فقط باحثًا روحيًا وصوفيًا، بل هو أول كيميائى حقيقى فى العالم. وبينما ستتذكره مجموعة بجانبه الصوفى سوف يتذكره آخرون من كبار المفكرين لقائمته الكبيرة من الإنجازات العلمية.

مثله مثل ابن الهيثم الذى سيقوم فى يوم من الأيام بالاحتفاظ بالمنهج التجريبى إلى جانب الإيمان والنظرية غير الدلائلية، سوف يقوم جابر بتمهيد الطريق قبل 200 عام من القيام بذلك. من المنقول عن جابر حديثه التالى:

> *فمن كان دَرِبًا كان عاملًا حقًّا، ومن لم يكن دربًا لم يكن يعلم، وحسبك بالدُّرْبَة فى جميع الصنائع أن الصانع الدرب يحذق، وغير الدرب يعطل*[22].

هل يوجد أى تعبير أكثر توضيحًا للمنهج التجريبى من ذلك؟ مع هذه المقدمة المنطقية كمنهج لعمله وفلسفته فسوف يفتح جابر سيلًا من الاكتشافات الكيميائية والعلمية ذات الأهمية لهذا المجال مثل رؤى الكشميرى فيما يخص ولادة الرياضيات الحديثة. فى أثناء سنوات خدمته للخلفاء العباسيين والوزراء البرامكة سوف يكتب جابر أكثر من

200 كتاب ويخوض تجارب، ويقوم بابتكارات لا حصر لها، والتى سوف تمهد الطريق للكيمياء الحديثة.

سوف يخترع أول إمبيق؛ وهو أداة بسيطة سوف يتم استخدامها بعد 1.200 عام لتقطير الكحول. كما أنه سيكتشف الحمض الهيدروكلوريدى وهو أحد أقوى الأحماض ومكون رئيسى للجهاز الهضمى البشرى، بالإضافة إلى اكتشافه لحامض النترات وهو حامض آخر سام وقوى، ثم سيمزج هاتين المادتين الكيماويتين ليخرج بمادة تعرف فيما بعد بأوا ريجيا أو المياه الملكية، والتى على الرغم من عدم استقرارها تستطيع بعد مزجها بوقت قصير إذابة عدد من المعادن الثمينة مثل الذهب والبلاتين. علاوة على ما تقدم سوف يكتشف أيضًا الأحماض الثلاثة المختلفة الموجودة فى الموالح والخل والخمر.

لن تكون تجاربه مجرد ألعاب عديمة الجدوى؛ وذلك لأنه سيظل دومًا يبحث عن طرق لتحويل اكتشافاته إلى تطبيقات عملية. نتيجة لاكتشافاته سوف تبتكر طرق لجعل الحديد والصلب مقاومين للصدأ، وإزالة الآثار الخضراء من المنتجات الزجاجية، وصباغة الأقمشة ومعالجتها كى تكون ضد المياه، بالإضافة إلى الحفر على الذهب. وسوف يتعثر فى بخار قابل للاحتراقِ نتج عن خمر مغلى وهو اكتشاف سيتناوله بالتفصيل خليفته الرازى، والذى سيعرفه العالم فى يوم من الأيام بالإيثانول، وهو نوع بديل للوقود مشتق من السكر من الممكن له إحلال المنتجات البترولية.

فضلاً عن ذلك سوف يخترع كلمة ومفهوم «قلوى» وهى مادة قاعدية إذا ما امتزجت بمادة حمضية تبطل مفعول الحمض.

سوف ينشر كتبًا حول الخصائص الكيميائية والأوزان والمقاييس والمعادلات الكيميائية والصبغات. كما سيقوم ببناء ميزان معملى دقيق، والذى سيكون أكثر الموازين دقة فى ذلك الوقت. وفى لمحة بديهية للذرات والجزيئات سوف يضع نظرية تشير إلى أنه عندما يتم مزج الكيماويات تختلط مكونات صغرى مع بعضها البعض على المستوى المجهرى، ولكن تظل كل منها تحتفظ بخصائصها الأصلية. وسيقوم أيضًا باختراع ورق ضد اللهب ونوع من الحبر يشبه الفلوروسنت للقراءة فى الظلام.

لن يقف جابر عند هذا الحد ولكنه سيخترع صبغات للشعر وسيجد طريقة لاستخدام معدن بيريت الحديد للكتابة بالأحرف الذهبية. وسيلقى نظرة ثاقبة على المغناطيس ويصنف الشحوم والدهانات والأملاح، وسيتم استخدام تقدمه المعرفى فيما بعد فى أول مسبوكات للمعادن وصقل للخزف.

محاطًا بالذكريات والسجلات لكافة تلك الاكتشافات والاختراعات يتقدم فى العمر ولكنه يستمر ما دامت عيناه ورئتاه تسمح له بذلك. مثل نظرائه؛ على الرغم من كل إنجازاته فإنه يشعر وكأنه فقط خدش سطح ما يريد الوصول إليه. وخلال فترة الشيخوخة القاسية يتساءل ما إذا كان هناك من سيستكمل عمله، وينظر إلى الحراس

الذين يحتجزونه ويدرك أنه ما من مفكرين عظام فى الخارج ويتساءل من سيكون؟ هل سيكون أحد تلاميذى؟ هل سيكون شخصًا وجد منفعته مع العباسيين فى بغداد، أحدًا لم يلطخه البرامكة؟ هل سيكون أحدًا من خراسان البعيدة؟

لم يمر الكثير من الوقت وهو على فراش الموت تحت الإقامة الجبرية حتى يظهر خلفٌ له ولكنه غير معلوم له. ولم تكن الإجابة ضمن ما جال بخاطره، فخَلفه ليس بتلميذ له وليس من بلاد فارس إنما هو عربى مثله.

إنه صبى صغير يبدأ لتوه تعلم القراءة والكتابة ولكنه ليس بعيدًا تمام البُعد، فهو فى الكوفة وهو من أسرة قد تستعفف التحدث للكيميائى الطوسى العجوز حتى لا تطلب معروفًا. سوف يعرف خَلف جابر بالكندى ووالده حاكم عباسى.

هذا الصبى الخلف هو الكِندى، ابن أحد الحكام العباسيين.

من حظه الكافى أن يحيا ويعمل لوقت طويل من عمره فى زمن المأمون وخَلفه الحكيم، فسوف يستطيع الكندى بكل تأكيد البناء على عمل جابر، بل وسوف يدخل فى مجالات أكثر من سلفه، فسيعمل فى الموسيقى والطب والفلسفة والرياضيات والفلك، أضف إلى ذلك الكيمياء. وسوف يكتب 361 كتابًا رائعًا فى كافة هذه المجالات. سوف يستطيع الكندى أن يواجه الطعنات الأولى لإجابته عن بعض الأسئلة الجادة ذات الأهمية والمتعلقة بالفيزياء والكون، وهى التى سوف تشغل بال الكثير من العقول العظيمة لمدة 1.200 عام قادمة.

والسخرية الغريبة فى ذلك الوقت أن هذا العالم خَلف جابر سيكون معاديًا شديدًا للخيمياء حيث لم يستهدف ـ بشكل كبير مثل جابر ـ الدجالين المضللين ممن ذهبوا للبحث عن الإكسير لصناعة الذهب.

سوف يحصل الكندى على جائزة الانضمام إلى عضوية بيت الحكمة فى عصر المأمون. وكتابع متفان لأرسطو سوف يتقلد منصبًا سياسيًا وفكريًا، وهو الأمر الذى لم يفعله جابر فى سنواته الأخيرة. لكن كما سيراها الكندى فيما بعد كنظرية ومعرفة أولية أنه ما من شيء مُطلق أو دائم إلى الأبد ولا حتى الوقت أو الحظ السعيد.

فى مجال الكيمياء سوف يتعرض الكندى لكل من الأمور الدنيوية والمطلقة. فيما يتعلق بالأشياء الدنيوية فإنه سيكتب مجلدًا ضخمًا عن الروائح وغيرها من مكونات العطور والزيوت والمراهم والمرطبات. سوف يعمل بكد واجتهاد فيما سيعرف فى يوم من الأيام بعلم العقاقير ودراسة العناصر المختلفة وتفاعلاتها مع الكائنات الحية. بالنسبة للنتيجة الكبرى لهذا الأمر فإنه سيخلص إلى نظام رقمى معقد من أجل عمل الأدوية وتنظيمها، وبالنسبة للنتيجة الدنيا فإنه سيخرج بأول بدائل منخفضة التكلفة للعلاجات الهامة، والتى كانت باهظة التكاليف فى نفس الوقت.

بمشاهدة أشياء لا تُحصى تسقط على الأرض مثل الأغصان والبلح والطوب من مشاريع البناء والقلم من على المكتب فإنه سيتساءل عن الجاذبية الأرضية.

لكن على ما يبدو، فإن أكثر أعماله عمقًا ونفاذًا للبصيرة سوف تأتى فى شكل أفكار حول النسبية والعلاقات بين الأمور والزمان والمكان. كما أنه سيستخدم النسخة العربية لكلمة "نسبية" والتى بعد مرور ألف عام فيما بعد سوف تشتهر على يد شاب هو عالم رياضيات يهودى يعمل بشكل مغمور فى مدينة زيوريخ. بينما يبدو هذا الاستخدام المشترك للكلمة التى تفصل بينهما لغة مختلفة وألفية من الزمن مصادفة بحتة، إلا أن السؤال هو: هل يوجد رابط خفى للفكرة يشرح التطور المتوازى لهذه العقول العظيمة؟ يقول الكندى:

فإن كانت حركة كان زمان، وإن لم تكن حركة لم يكن زمان. والحركة إنما هى حركة الجرم، فإن كان جرم كانت حركة، وإن لم تكن حركة.... إن كانت حركة كان جرم اضطرارًا، وإن كان جرم وجب أن تكون حركة اضطرارًا [23].

إن هذا الرأى المقابل القائم على الحدس والخاص بالزمان والمكان والأمور المتعلقة بهما قد يكون بمحض المصادفة فى سياق مدينة بغداد فى القرن التاسع. إن هذه الفكرة قد يتجاهلها أو يعارضها الكثير ممن يتبعونه، ليس فقط من المسلمين ولكن أيضًا أمثال إسحاق نيوتن ورينيه ديكارت. فليس لدى الكندى أية طريقة رياضية تبرهن على نظريته.

سوف يغامر الكندى أيضًا فى المجال المحدد للكتابة بالشفرة. على الرغم من وجود أشكال بسيطة من الكتابة السرية منذ قرون فإنه مع وصول الرياضيات الجديدة بعد الخوارزمى سوف تصبح الكتابة بالشفرة أكثر تعقيدًا، وسوف تكون لها أهمية خاصة لدى القادة والحكومات والجواسيس منذ زمن المأمون وبعده.

سيكون الكندى أول من يشرح تحليل التكرار فى الكتابة بالشفرة:

فمما نحتال به لاستنباط الكتاب المعمى إذا عرف بأى لسان هو أن يوجد من ذلك اللسان كتاب قدر ما يقع فى جلد أو ما أشبهه فنعد ما فيه من كل نوع من أنواع حروفه، فنكتب على أكثرها عددًا الأول، والذى يليه فى الكثرة الثانى، والذى يلى ذلك فى الكثرة الثالث، وكذلك حتى نأتى على جميع أنواع الحروف، ثم ننظر فى الكتاب الذى نريد استخراجه فنصنف أيضًا

أنواع صوره، فننظر إلى أكثرها عددًا، فنسمه بسمة الحرف الأول، والذى يليه فى الكثرة فنسمه بسمة الحرف الثانى، والذى يليه فى الكثرة فنسمه بسمة الحرف الثالث، ثم كذلك حتى تنفد أنواع صور حروف الكتاب المعماة التى قُصِدَ لاستنباطه [24].

كل شيء نسبى، فسوف يسقط التأييد عن الكندى فى فترة ظهور التحفُّظ ومعاداة العقل تحت ولاية الخليفة المتوكل فى أربعينيات القرن التاسع. فالبعض من عائلة «بنو موسى»، الذين من المفترض أنهم يستشيطون غيظًا من الكندى، سيشيرون إلى أن بعض علماء بيت الحكمة يشوهون سمعة الخليفة ويخونونه، ومن ثم سوف يتعرض الكندى للضرب وتتم مصادرة مكتبته بشكل مؤقت. فيما بعد سيحدث تحول سياسى آخر؛ والذى سينال فيه الاستحسان مرة أخرى وذلك تحت حكم الخليفة المُعتمد.

لكن الحظ فى العالم المادى ليس بدائمٍ على حال ويعتبر نسبيًا تمامًا ولا يعيره الفيلسوف العالِم الكندى أى اهتمام. فبعد أن يضربه القدر عدة لطمات تنتابه حالة من الانكسار، حيث شعر أن الشر أمسى هو السيد المسيطر، وخيبة الأمل أصبحت الملاذ والمنتهى، فهو يرى أن الثروة الحقة تكمن فى قلب الرجال، والفخر يخالج أرواحهم؛ لذا فالثروات تنبع ممن يملك القليل ويتعفف، بينما من يسعى وراء الثروة المادية ينتهى به المطاف مفلس اليدين.

تقريبًا فى عام 1017 يتجه جيش المسلمين الفاتح عبر الممرات الشاهقة لجبال الهيمالايا قاصدًا مدن الهند الهندوسية الثرية القديمة. وعلى الرغم من تركيز بعض المسلمين على الثروة والمتعة والغنائم فقد كان بينهم أبو ريحان البيرونى الذى كان يبحث عن كنز من نوع مختلف.

فهو هناك شبيه بالسجين، فلو أنَّ هناك مكانًا أفضل يستطيع أن يكون فيه، أو فاتحًا أفضل يمكنه خدمته، أو حتى مكانًا يشعر فيه بحريته، لرحل إليه. لكن لا يهم، فعلى الرغم من أنه لا يتمتع بحريته فإنه حصل على لحظات وفرص كهذه وإنه سوف يغتنمها إلى أقصى حد ممكن.

يجلس أبو ريحان يحتسى الشراب بين الجبال الشاهقة الضاربة فى السماء فوق وادى كشمير الحلو كما تقف أعلى قمم الأرض متوجةً بالثلج مخترقةً السماء الزرقاء والسحب المكتظة بالعواصف. ينظر ليرى كيف تقف الجبال والسماء فى شكل حائط وسقف فوق حديقة ضخمة بالإضافة إلى الغابات والأراضى والمزارع المزهرة الواقعة على قمة العالم.

تنسكب المياه من الثلوج والسحب لتضفى اخضرارًا وحياةً ورائحةً ونعومةً للمشهد. تلك هى العتبة الفاخرة إلى مقر كنز الهند فهى قارة وحضارة يرجع تاريخها إلى بداية البشرية.

ينظر البيرونى لجدار الدفع العلوى للجبال الممتدة شرقًا وغربًا، والمكونة من صفوف بعضها فوق بعض متجهةً نحو ظلال باهتة، كل منها أعلى وأبعد من تلك الواقعة فى الطليعة. كما يرى الأنهار تنتشر من منابعها الباردة وتهوى إلى الأسفل مارةً بالشقوق والوديان تجمع فى طريقها المياه والقوة.

يرى تلك الأنهار العظيمة تصب من أرض الجبل الرئيسية فى السهول الساخنة وتسير الآن على نطاق أوسع وبحركة أبطأ لتتجمع فى السهول وأراضى الدلتا الواسعة حيث يعيش عشرات الملايين من الرجال والنساء يحرثون الأراضى المستوية ويوفرون الغذاء والقوت لواحدة من أقدم الحضارات على وجه الأرض.

ما التفسير الطبيعى العلمى، والذى يتم بيد الله عز وجل لينتج عنه هذا المنظر؟ ما الذى يؤدى إلى عملية الدفع العلوى بالجبال الشمالية؟ ما الذى يوجه السهول النهرية المنتشرة والساخنة نحو الجنوب؟ وكيف شكلت العقل والحياة الهندية؟

وُلد البيرونى فى مدينة خيوة وهى إحدى بلاد فارس، والتى ستُعرف فى يوم من الأيام بأوزبكستان. وهو مثل الكثير فى زمنه يحاول البقاء والتعبير عن المكنون الضخم للاختراع وفهم الأشياء الموجودة داخله، ومن هنا جاءت الرحلة الجديدة إلى الهند للبدء فى مرحلة جديدة من الرؤى.

على قمة جبل يقع على بُعد من البحر يجد البيرونى قواقع بحرية مقصورةً ومكسورةً ومتكلسةً ولكن من الواضح أنها لم توجد هناك بفعل الإنسان. فكيف استقرت هذه القواقع على قمة الجبل هذه؟

ثم يرى بعد ذلك أرض الهند القديمة والنابضة بالحياة والباعثة للحيرة وشعبها وأديانها وتقاليدها الكثيرة فى مزيج من الثراء الظاهرى والفقر المدقع. أدرك أن الكوكب الذى يعيش عليه والجنس الحاكم له مثير للدهشة والاستغراب فى آن واحد، وما من مكان أفضل من الهند لدراسة هذه الأمور؟

على الرغم من أن البيرونى سوف يخدم العديد من السادة والأسر الحاكمة خلال سنى عمره الخمس والسبعين، والتى يواجه صعوبة فى تذكرها جميعًا، فإن تلك الحملات إلى الهند فى عام 1017 والتى كانت فى خدمة السلطان محمود الغزنى هى التى سيكون لها عظيم الأثر عليه.

مما يدعو للسخرية أن راعى هذه الحملات الاستكشافية إلى الهند التى لا تُقدر بثمن إنما هو حاكم قاس وفاسد. فى الأيام السيئة كان السلطان محمود يقوم بتعذيب

البيرونى بلا رحمة، وهو الذى جاء فى هذه الرحلات كمعلم ومستشار ملكى. قام السلطان محمود بتعيين البيرونى بسبب حكمته العلمية وفى أغلب الظن بسبب معرفته بعلم التنجيم.

فى أعماق قلبه كان البيرونى لا يؤمن بعلم التنجيم؛ فمن وجهة نظره لا يُعد التنجيم علمًا إنما هو نزعة صوفية. إنه يؤمن بشدة بالعلوم التجريبية مثل الكندى وابن الهيثم وبالنسبة له مهما كانت النظرية إلزامية فإنها يجب أن تخضع للملاحظة والاختبار.

مثل الكثير من المفكرين المسلمين ممن تاهوا فى غيابات التاريخ من زمن لا يوجد فيه اتجاهات فكرية، يأتى البيرونى كرياضى وفلكى متمرس، يأتى على نفس مرتبة الكندى وغيره من فلكيى بيت الحكمة. كما أنه أحد أفضل مختبرى الطب والصيدلة ويتشابه مع عملاق الطب الإسلامى ابن سينا.

علاوة على ذلك فإنه أحد أفضل المؤرخين المسلمين والمراقبين الثقافيين للأزمنة كافة. سوف ينغمس بعمق فى الفلسفة الهندوسية والدين الهندوسى، وفى المقابل سيقوم بتعليم علماء الهندوس حكمة الإسلام والمفكرين الإغريق. لكن فى خضم نهمه للعلم وطموحاته فإنه أيضًا جغرافى وجيولوجى ذو ريادة. وعلى الرغم من ذلك فإنه يقتات من التنجيم؛ فزبائنه من الأثرياء وأصحاب السلطة يحبون التنجيم ويؤمنون به وسوف يدفعون من أجله ومن ثم يعطيهم ما يريدون.

الآن هو المُستخدَم السجين لدى السلطان محمود حاكم الإمبراطورية العظمى والكبرى الغزنية، وعاصمتها مدينة غزنة الواقعة فى المنطقة التى ستُعرف فيما بعد بأفغانستان. فى يوم من الأيام بعد مرور ألف عام سوف تصير مدينة غزنة أطلالاً مهجورة تمتزج بالوحل فى دولة مزقتها الحرب. لكن فى زمن البيرونى والسلطان محمود والأسرة الغزنية سوف تتمتع مدينة غزنة بسلطة هامة وسيقع الكثير ممن هم فى مراكز السلطة، وأكثر ثراءً وقوةً تحت رحمتهم؛ حيث ستصل جيوش السلطان محمود إلى عمق البلاد إلى مناطق هى اليوم فى كل من باكستان والهند.

لكن يخلص البيرونى إلى أن كافة الأمور ما هى إلا مد وجزر بدءًا بحياته وقيام الأسر الحاكمة وسقوطها وحتى تشكيل الأرض. فى إحدى رحلاته سوف يتتبع نهر الجانج المقدس من منبعه البارد وحتى مصبه فى خليج البنغال. ومنه سيأتى باكتشاف هام؛ فسوف يلاحظ أن حجم جسيمات ترسيب النهر ترتبط بشكل مباشر بسرعة تيار النهر. هذا إنما يعنى أنه فى أعلى النهر وبالقرب من قمته حيث يتدفق النهر إلى الأسفل مسرعًا تكون الترسيبات أكبر حجمًا، تتراوح ما بين الصخور والحصوات حتى حبيبات الرمل الكبيرة، ومن ثم تكون الترسيبات عند أعلى مصب النهر أقل خصوبة. ولكن عند أسفل النهر بالقرب من المحيط حيث تتباطأ حركة النهر سوف تستقر الجزيئات الصغيرة مكونة الطمى الداكن والغنى لحقول

الوادى الخاصة بأراضى الدلتا، حيث يكون من أفضل الأماكن لزراعة الأرز وغيره من أنواع الغذاء.

سوف يبين كيف تقوم عوامل التعرية بتشكيل الأرض بدءًا بالتكوينات العريضة للأرض وحتى الصخور المستديرة المتدفقة نحو الاستقرار بفعل المياه الجارية من الجبال إلى البحر.

فى إحدى هذه الرحلات سوف يتعثر فى النظرية الهندية التى تقول بأن عمليات جزر المحيط ترتبط بالمراحل المختلفة التى يمر بها القمر. هذه النظرية بهرته على الرغم من أنه لن يستطيع تفسير السبب وراء ذلك، من اكتشافه القواقع البحرية أعلى قمم الجبال، سوف يخرج بنظريته التى تقول بأن وادى الجانج كان فى وقت من الأوقات يقع تحت المحيط.

ثم سيتحول انتباهه إلى العناصر اللامتناهية التى يجدها فى الأرض وتحتها. أما بالنسبة لعمله المتعلق بالأحجار الكريمة، والذى سيكتبه فى وقت لاحق من عمره تحت ولاية سلطان آخر من سلاطين الغزنية، فسوف يركز على كل من الأحجار والمعادن الثمينة. سيقوم بوضع بيان مصور لمائة نوع من الأحجار الكريمة والمعادن علاوة على تحليلها متفحصًا قيمتها وكيفية صنعها أو صقلها ومدى صلابتها وألوانها. والجدير بالذكر أن قياسات الكثافة المعدنية التى توصل إليها سوف تكون أكثر القياسات دقة لقرابة 700 عام، حتى تأتى عمليات التقدم الأوربية كى تبنى عليها.

سوف يفسر كيفية خروج المياه من الآبار المتدفقة والينابيع الطبيعية عبر نظرية أطلق عليها الاتصال الهيدروستاتى للمراكب. بالإضافة إلى ذلك سوف يسلم بأن الأرض تدور على محورها وسوف يحسب خط العرض وخط الطول لمئات المدن، موضحًا التشابه الفكرى بينه وبين ابن الهيثم، وهو الذى كان أيضًا منبهرًا بخصائص الضوء والأطياف، والذى من الواضح أنه لن يقابله أبدًا، سوف يقوم البيرونى بتفحص المساحات السلبية التى تُسفر عن غياب الضوء. وبالتالى سوف يطلق على أحد أعماله التى بلغت ما فوق المائة عمل «الظلال»، فمثل انجذاب ابن الهيثم إلى الضوء فالبيرونى سوف ينجذب إلى الجوانب الرياضية والزمنية للظلام. كما سيقوم بحساب مواقيت صلوات المسلمين من زوايا الظلال، وسوف يقوم أيضًا فى كتابه الظلال بتقديم أسلوب جديد لإيجاد نقطة الالتقاء فى مكان ثلاثى الأبعاد.

من رحمة الله، فى سنواته الأخيرة عندما بدأت صحته تضعف وبصره ينزوى، فلقد كان فى خدمة حاكم كريم تركه يحيا فى راحة وأمان سعيدًا بوجود مفكر عظيم مثل البيرونى فى نهاية أيامه.

على خلاف الكثير من نظرائه فى العصور الوسطى لن تتم ترجمة أعماله إلى اللغة اللاتينية أو إعطاؤه اسمًا لاتينيًا. وسيظل اسمه غير معلوم لدى الأوربيين حتى القرن العشرين حتى عندما يشير إليه المؤرخ چورچ سارتون إليه بأنه «سيد من يعلم».

جنوب شرق الأناضول - المسورة بالجبال المنخفضة من الجنوب وجبل أرارات من الشرق هى مكان دائم التغيير للحدود السياسية. رثيت إمبراطوريات واعتقد أمراء وخلفاء أنها ملك لهم على الرغم من أنها لم تنتسب لأى شخص لمدة طويلة من الزمن.

جاء عليها وذهب البيزنطيون والأتراك والفرس والعرب. رأى البيزنطيون والعباسيون والسوريون والفارسيون أنها تتبعهم فى وقت من الأوقات. فقط وتحت خط بصرهم ومع مرور الوقت لاح فى الأفق ظل مملكة كوردستان التى تريد أن تولد ولكن لا تتسنى لها القدرة على أن تتحرر.

العاصمة غير الرسمية لهذه الأراضى هى مدينة دياربكر، وهى مكان مسكون بالصخور السميكة والجدران المبنية التى تحجز السهول الأناضولية الصخرية الجافة، وتحتوى على حدائق داخلية ترويها جداول المياه ومساجد صلبة تعتليها المآذن السلجوقية وخانات لإيواء من يسافر على طريق الحرير شرقًا وغربًا. ما من قباب بصلية الشكل هنا، فهذا المكان له حس جمالى مختلف بعض الشىء فهو مكان الحاجة فيه أعظم إلى حصن متين عنها إلى معبد جميل الشكل. تُرى أستتحول دياربكر هذه يومًا إلى مركز للعبقرية؟

سوف يعرف العالم الإجابة عن هذا السؤال فى يوم من الأيام، عندما تخبو قوة السلاجقة زمن عمر الخيام لتتحول من سلطة مطلقة إلى منافسة بائسة بها العشرات من الفاعلين، حيث ستتحرر مدينة دياربكر لبعض الوقت. وعندها فى الوقت الذى يطرد الصليبيون أحد الجنرالات السلجوقية فى الجيش المتفكك للملك شاه من القدس فى عام 1098 يبحث هذا الجنرال عن مكان ليستقر فيه وعندئذ ينتقى هذه المدينة كقاعدة له.

اسم هذا الجنرال العاطل عن العمل هو أرتوك وسوف يُطلق على عائلته الحاكمة، وهى من العائلات التركية قصيرة الأمد، اسم العائلة الأرتوكية. فى خدمتهم ستكون أسرة من الحرفيين والمصممين المهرة ممن بحثوا عن طرق جديدة لقياس الوقت ولحراسة المياه النفيسة وتنظيمها ونقلها لغسل الأشياء ولتيسير الحياة. فتحب هذه الأسرة بناء الأشياء وأعمال الصفيح؛ لأنها ليست أسرة من الرياضيين أو العلماء.

فى القرن الثانى عشر جاء وليد صبى لهذه الأسرة، وهو أفضل من فى أهله. فهو طفل عمل كحرفى لدى والده وأعمامه فى ورش العمل الأرتوكية حيث تعرف على الأدوات المختلفة وكيفية تقدير الأشياء وأصبح من المألوف له كافة الأشياء والآلات صغيرة الحجم شديدة البراعة، والتى إذا اجتمعت مع غيرها أصبحت أكثر قوة من إجمالى أجزائها وحدها.

اسم هذا الطفل هو الجزرى، ولكن بالنسبة للتاريخ الضائع فسوف يُعرف أيضًا للعالم باسم ليوناردو دافنشى.

و بالنظر إلى تلك الأمور الصغيرة ومكوناتها المُركبة والموجودة فى ورش العمل بالقصر، يرى ذكاءً يختلف عن ذكاء الإنسان، فهو ذكاء بكل تأكيد يقل عن مستوى الذكاء البشرى فى مداه ومرونته حيث يفتقر إلى الإبداع والوعى الذاتى. لكن مما تجدر الإشارة إليه هنا أن هذا النمط من الذكاء إنما هو أكثر استدامة بسبب قوته البحتة وقدرته على اتباع صيغة معينة والالتزام بها على مرور الأيام والسنين فى الوقت الذى يكون فيه العقل البشرى مع مرور الزمن قد وهن من الخرف. يرى أن الأنابيب والآنية والقوارير المعدنية والقواديس والأوتاد والإطارات الخشبية والأطواق والأحزمة الجلدية عندما تجتمع كل هذه الأشياء بأسلوب ما فإنها تستطيع أن تحمل بين طياتها المعرفة.

فى فترة ما بين الطفولة والمراهقة الناضجة تشتعل جذوة فى ذهن الجزرى ويعى أن عنصر الذكاء الميكانيكى هذا إنما يسيطر على كافة العهود والتطبيقات. وعندما تتحول هذه الجذوة إلى لهب تام فسوف يتضح ليس بالكثير من النظريات والصيغ مثل التصميمات والنماذج والأشياء الحقيقية التى تقوم بمهام حقيقية أحيانًا ما تحدث بقليل من الذكاء حيث لا تحتاج إلى العقل البشرى ليوجهها ولكن تحتاج إليه فقط لصونها وفتحها أو غلقها.

ما يدعو للسخرية عند الكثير من المخترعين والحرفيين المسلمين هو أنهم لا يتسمون بالأمانة عند كتابة ما قاموا به أو عند التسجيل الدقيق للمواصفات والقياسات الهامة الخاصة بأدواتهم واختراعاتهم. بينما رأى مخترعون آخرون أن اختراعاتهم ستكون السجل الأوحد على وجودهم؛ فلن يكون هناك رسومات أو نسخ مصورة لمن يتبعهم. أما الجزرى فقد كان مختلفًا فسوف يستخدم بصيرته النافذة وحدسه بالإضافة إلى عوامل التجربة والخطأ حتى يبنى اختراعاته وسوف يسجلهم جميعًا.

سيحاول الجزرى أن يترك ولو كتابًا واحدًا فقط -وهو الذى أطلق عليه كتاب الجامع بين العلم والعمل النافع فى صناعة الحيل المنشور فى عام 1206 ويكتمل هذا الكتاب بالرسومات والنسخ المصورة. لم تتم ترجمة هذا الكتاب للغة الإنجليزية إلا فى القرن العشرين غير أن قطعًا وأجزاء من هذا الكتاب سوف تخرج من دياربكر إلى أوربا عبر الصليبيين فى المشرق أو المسلمين فى صقلية وإسبانيا.

إن هذا الكتاب ليس بعمل أدبى مثل كتب الفلاسفة أو علماء الرياضة أو الفلك لكنه كتاب يحوى توضيحات وتصميمات، تصميمات لأشياء فى يوم من الأيام سيتم التعامل معها على أنها مسلمات تختبئ فى غرف آلات الضغط ومحال الماكينات وأماكن الأجهزة. لكن هذه التصميمات تُعتبر غاية فى الأهمية لإضفاء الطابع الحضارى على الحياة، والتى عندما تظهر لأول مرة ستبدو وكأنها عجائب شبه إلهية وقد يراها البعض على أنها تحوى لمحات شيطانية.

اخترع الجزرى العمود المرفقى المنخفض، والذى بالكاد فكر فيه غالبية البشر اليوم ولكنه أمر أساسى للكثير من الماكينات التى تساعد فى الحياة الحديثة. كما أنه اخترع مضخة عبقرية لنقل المياه مستقلة عن دواليب المياه والجواميس المحركة للمياه، والتى تدور بشكل عجيب. تقوم كل من الأنابيب النحاسية والتروس المشتبكة بدقة والأعمدة المرفقية وصمامات المسرب بالعمل الموكل لها. ومن ثم سينبهر المهندسون والمفكرون بهذه المضخة لقرون قادمة.

سوف تستطيع مضخة المياه الضخمة الخاصة بالجزرى بما فيها من كباسات ومجاديف وعمود للحدبات باستغلال تدفق النهر حتى توجه عمل المضخة بدفع المياه إلى أعلى عبر الأنابيب ثم إلى الخارج حتى شوارع المدينة أو حقول الفلاحين.

تتسم مضخة المياه الثالثة له بالتصميم الفريد وتتصف بأناقة تجعلها قطعة من التكنولوچيا الدقيقة بشكل يتوازى مع الأسطرلاب والتليسكوب. أما بالنسبة "لساعة الفيل" الخاصة به ذات التفاصيل الرائعة والبالغ عرضها أربعة أقدام وارتفاعها ستة أقدام فتستخدم مجموعة معقدة من المنبهات التى تقودها الجاذبية والتروس وتدفق المياه حتى يقوم طائر مُسقسق فوق رأس الفيل بإصدار صوت بعدد الساعات. وإحدى ساعات المياه المحمولة الخاصة به هى ساعة على شكل كاتب يجلس على طاولة يشير إلى الوقت باستخدام قلم الكاتب كعقرب للساعة.

سوف يبدأ هذا النوع من التكنولوچيا فى الظهور فى أوربا بشكل سريع للغاية. بيد أنه سوف يدور جدال بين المؤرخين فيما إذا كان تطور مثل هذه التكنولوچيا بشكل متساو وبالمصادفة أم هو مأخوذ عن الجزرى، ولكن الإجابة لن تكون واضحة للكثيرين بعد أن صارت الماكينات جزءًا من الحياة الأوربية والعالمية، فإن الإجابة عن مثل هذا السؤال لم تعد هامة. ما كان فى يوم من الأيام مهارة رفيعة وبراعة فنية سوف يصير الاتجاه السائد فى العمل اليومى غير أن روح الجزرى ستظل فى كل ترس وعمود مرفقى.

وبمجرد نزول المغول غربًا على أراضى المسلمين بترسانة رعبهم العجيبة، وهو الأمر الذى لم تره هذه الأماكن من قبل، بأنابيب النيران الصارخة مقابل الأسهم المشتعلة، والتى توجد منذ وجود الأسهم. انطلقت هذه الأدوات الجديدة من الأرض فى اندفاع صارخ من الدخان واللهب يشق عنان السماء؛ ليجلب الرعب والدمار على العدو.

تلك كانت الصواريخ الأولى، وما من أحد يعرف اسم مخترعها على الرغم من أنه أو أنها كانت فى الصين القديمة وقام بهذا العمل لتبجيل الآلهة الصينية فى

أوقات الاحتفالات. من ثم فإن الصواريخ الصينية أول ما ظهرت كانت مجرد وسائل زخرفة ومتعة دينية، حتى أدرك أحد الأشخاص إمكانية استخدامها لأغراض الحرب. بمرور الوقت صار الصينيون قبل تحولهم للمغول يعتمدون عليها أكثر فأكثر لصد المغول حتى خسروا أخيرًا واستطاع العدو التعامل مع هذا السلاح الجديد ضمن ترسانة الأسلحة الخاصة به. واستمر الصاروخ المغولي ليصبح في شكل وقود صلب من البارود مغلق بإحكام ليكون أول آلة حرب. بالاعتماد على حجم الصاروخ من الممكن سماع دوى الاصطدام من على بُعد عشرات الأميال ويحرق الأرض ويدمرها لعدة ياردات حول منطقة الاصطدام.

فى عام 1241 على ضواحى مدينة بودابيست حطمت الصواريخ المغولية المدافعين الهنغاريين المرتعدين. من أقصى الجنوب يرى سكان مدينة بغداد صواريخ المغول تمطر عليهم منذرةً بالقضاء الوشيك.

لكن كما حدث بعد هزيمة عبدالرحمن الغافقى عندما جرد شارل مارتيل الفرسان المسلمين من ركابهم فى مدينة تور عام 732، سوف تترك بعض الهجمات المغولية أمورًا للأذكياء من الناس لبحثها ودراستها واستيعابها.

إن البارود الموجود فى الآلات ليس بمجهول على الكيميائيين المسلمين؛ فإنهم كانوا يصوغون أنواعًا من البارود لقرون من الزمان ويشاهدون المسحوق وهو يشتعل. الآن يرون استخدامًا جديدًا للمسحوق القابل للاشتعال غير حرق الرموش والإصابات الرئوية.

فى القرن الـ 13 يستوعب سورى «باسم الرمَّاح» الأسلوب المغولى لخلط الملح الصخرى والفحم النباتى والكبريت لصناعة الصواريخ ثم يكتب نصًّا سيتم تداوله ليس فقط لأسباب علمية محضة. في تلك الآونة من غزو للقبائل والحدود التى تسقط بين ليلة وضحاها كان الحكام والقادة العسكريون مهتمين بهذه الأداة الجديدة بغرض الحماية.

ولم يتفحص الرمّاح علمياً فقط البارود المغلف لكنه سيقوم أيضًا برسم ووصف «بيضة» نفاثة لها رأس حربىٌ ينطلق على سطح المياه فى مقابل سفن الأعداء. سوف يخلُص المحللون فيما بعد إلى أنها أول قذيفة طوربيد، ومن ثم سينطلق هذا النص بسرعة كبيرة إلى أوربا.

أحد تطبيقات البارود الأخرى هو قذف الرصاص والقنابل وعلى الرغم من وجود بعض الدلائل على وجود أسلحة شبيهة بالمدافع فى الصين فإنها تظهر بوضوح أكبر فى العالم الإسلامى وغالبًا فى الصراعات مع مسيحيى أوربا. كما توجد دلائل على استخدام المسلمين للمدافع ضد الصليبيين.

فقط قبل ثمانى سنوات من سقوط بغداد فى عام 1250 أشارت بعض روايات الحملة الصليبية السابعة إلى استخدام المسلمين للصواريخ ضد الجيش الأوربى للملك الفرنسى لويس التاسع فى معركة المنصورة.

سوف تنتهى الفترة الطويلة من الحرب ضد الصليبيين، والتى استمرت من القرن الـ 11 وحتى نهاية القرن الـ 13 بفوز المسلمين.

كما استخدم المسلمون الإسبان المدافع ضد المسيحيين فى معاركهم العديدة الخاسرة فى أثناء إعادة الغزو الكاثوليكى فى القرن الـ 13. سوف يأخذ المسيحيون الفائزون أسلحة المسلمين ويحتفظون بها.

سوف يأخذ الأتراك العثمانيون كلًا من المدافع والصواريخ التى أخذها العرب من المغول وسوف يستخدمونها فى حصارهم المنتصر لمدينة القسطنطينية فى عام 1453 وأيضًا فى هجومهم على النمسا وهنغاريا فى القرنين الـ 16 والـ 17.

مع سقوط القسطنطينية وميلاد إسطنبول سيكون الأتراك هم من سيحقق الحلم المنسى منذ زمن بعيد للعباسيين بمحو مدينة بيزنطة من على وجه البسيطة. بحلول عام 1453 فى عشية معركة القسطنطينية تضاءلت الإمبراطورية البيزنطية التى حكمت فى وقت من الأوقات كلًا من الأناضول وبلاد المشرق والشرق الأوسط لتضم العاصمة القديمة وضواحيها الغربية، بالإضافة إلى العديد من الأقاليم الصغيرة فى اليونان وعلى الساحل الأناضولى. بالرغم من مقاومة آخر البيزنطيين ببسالة فإن العدد الذى كانوا فى مواجهته فاقهم بجدارة فقد كانوا 10,000 مقابل 100,000 أو أكثر تحت العلم العثمانى. لم يُجْدِ استنجادهم بالبابا نيكولاس الخامس أى شىء فى المقابل، كما أن ملوك أوربا لم يكن لديهم الرغبة فى محاربة الأتراك، فقد كانت إسبانيا محاصرة فى المحاولة الأخيرة لإعادة فتحها، أما فرنسا وإنجلترا فكانتا فى حالة إنهاك بعد حرب المائة عام. لاحت فى الأفق كافة النُذر المشيرة إلى نهاية بيزنطة، والتى شملت خسوفًا للقمر وضوءًا أحمر غريبًا يتراقص على قبة آيا صوفيا، وفيما وراء الغزاة الأتراك وهو ما يرمز عند المسيحيين إلى رحيل الروح المقدسة من الكنيسة القديمة. يا لها من فرحة تغمر قلوب الأتراك ويا له من حزن يملأ قلوب الأوربيين حيث تحقق الحلم القديم للمأمون وكافة الخلفاء والسلاطين فى امتلاك بيزنطة عبر سيمفونية وهج النار والصواريخ. ستمائة عام من العمل هل هو انتصار للعرب أم السلاجقة. أخيرًا فوز أخير على بيزنطة يأتى على يد خلفاء عثمان مؤسس الأتراك العثمانيين.

لا يهم أن يفقد هذا الصراع الألفى من أجل القسطنطينية مغزاه الأصلى وأهميته، أو أن قسطنطينية ظلت تحتضر لقرون، أو أن مجدها وعظمتها يرقدان فى زمن ماض حتى إنها أصبحت أشبه بإحدى الأساطير الإغريقية. ولا يهم انتظار المسلمين المهاجمين

لوقت طويل على البوابات ماضين فى تهديدهم حتى أصبحوا أشبه بجيران بغيضين مضى عليهم زمن طويل فضلاً عن كونهم أغرابًا جاءوا عليهم من الصحراء.

لا يهم إذا ما شارف عصر المسلمين الذهبى على النهاية، لا يفكر حتى أبناء عثمان فى ذلك ولا ينظرون إلى الظلال التاريخية العميقة المتجهة نحو الغروب، إنه غروب الرؤية، بل غروب أسلوب حياة. أضاءوا الظلال بوهج الصواريخ فوق البروج البيزنطية وغطوا همسات الشك بانفجارات المدافع المدوية.

وأثناء عودة الصليبيين وتقدم الأتراك وتقهقر المسلمين من إسبانيا، سوف تتسرب تلك الأسلحة الخطيرة والعجيبة إلى فرنسا وإيطاليا وإنجلترا وألمانيا لتصبح يومًا من الأيام أساس البارود والعتاد الذى سيزود عصر الإمبريالية الذى سيبدأ تقريبًا فى عام 1860. لكن حتى مع مرور قرون عدة فى أثناء غزو الأوربيين لضم الكثير من أنحاء العالم سوف تنهض تلك الأسلحة الآتية من بغداد والقسطنطينية لتردد أصداء التاريخ. أحد هذه الأحداث الأخيرة هى المعركة البريطانية الهندية عند حصن سرنجاباتام فى مدينة ميسور الواقعة جنوب الهند فى عام 1799. فى ذلك الوقت استسلم الهنود للغزاة البريطانيين ولكن تحت قيادة الحاكم المسلم تيبو سلطان كانوا لا يزالون يحاربون. إحدى الخطط التى وضعها والد سلطان وهو حيدر على هى استخدام قوة صاروخية رائعة. كان لكل كتيبة هندية 200 من مطلقى الصواريخ مسلحين بإمدادات وفيرة من الصواريخ القادرة على قطع ألف ياردة وتعتلى أطرافها رءوس حربية مميتة، منها الأطراف المدببة المحشوة بالبارود ونوع من الشفرات الملفوفة التى تمزق أى نقطة اصطدام وكأنها مفرمة لحوم. على الرغم من أن أوربا فى تلك الأحيان كان لديها صواريخ، لكن لم يكن لديها مثل هذه الأنواع المميتة من الصواريخ. وفى أثناء المعركة ضربت الآلاف من القذائف الهندية القوات المعادية بشكل بطأ من تقدمها، وأخيرًا عند سقوط الحصن استحوذ البريطانيون على مئات من قاذفات الصواريخ محشوة وآلاف من دون حشو. تم تعبئة بعض هذه الأسلحة وتم شحنها إلى بريطانيا من أجل الدراسة وقد جذبت انتباه شخص يدعى ويليام كونجريف وهو خبير فى الأسلحة فى خدمة الإعداد السريع لمواجهة العدو حيث رأى أهمية إدخال التصميمات الهندية فى القوات البريطانية.

ثم بعد مرور 14 عامًا عندما تعرضت الولايات المتحدة لهجوم من نفس الإمبراطورية البريطانية سالفة الذكر تم إطلاق الصواريخ المعروفة باسم كونجريف، والتى تم تصميمها وفقًا للصواريخ الهندية، على الأمريكيين غير المتعاونين على وجه الخصوص من سفن فى خليج شيسابيك فى اتجاه حصن ماكهنرى مما أدى إلى التخلى عن المدينة الأمريكية بالتيمور.

سيشاهد أسير أمريكى لدى البريطانيين فى أثناء الليل إطلاق معتقليه وابلًا وراء وابل من صواريخ كونجريف فى اتجاه الحصن الأمريكى. فى صباح اليوم التالى

عندما يرى العَلم الأمريكى الممزق وهو يرفرف فوق الحصن سوف يلهمه كتابة أغنية وطنية اسمها «العَلم المُرصع بالنجوم».

يعرف معظم الأمريكيين فرانسيس سكوت كى ونشيدهم الوطنى ولكن بسبب ضياع التفاصيل بين صفحات التاريخ لا يعرفون أن أساس الصواريخ المُلهم للأغنية ظهر أول ما ظهر فى أقصى بلاد الصين، ثم جاء إلى الغرب عبر المغول لإحداث مثل الهجوم على بغداد، ثم تحول من خلال المسلمين إلى أسلحة حرب متعددة الجوانب ثم نال من الأوربيين على يد الصليبيين عبر إعادة فتح إسبانيا من خلال الهجوم التركى على بوابات ڤيينا وبعد ذلك على يد المقاومة الإسلامية الهندية الأخيرة ضد البريطانيين.

كما أنهم ما علموا أنه فى يوم من الأيام سيقوم خلفاء جدد لتلك الصواريخ والقائمين عليها بإحياء ذكرى إراقة الدماء فى القرن 21 فيما سيطلق عليه صدام الحضارات مثل المعارك التى تاهت فى غيابات التاريخ فى الكثير من الأماكن السابقة أى بغداد وإسرائيل وأفغانستان.

إنها إحدى أشكال سخرية التاريخ الضائع، إنها شفرة تقطع فى الاتجاهين.

إنه عام 1630، حيث يقف عالم تركى فى أعلى برج جالاتا المطل على نهر البوسفور. تم بناء هذا البرج البالغ من العمر 282 عامًا على يد الجنوى لإحكام قبضتهم على القسطنطينية. يقف فى الأسفل مجموعة من المراقبين وغيرهم فى قواربهم فى نهر البوسفور وحتى آخرون من المتفائلين فى الجانب الآسيوى عند أوزكودار.

مر حتى هذه اللحظة 755 عامًا على وقوف ابن فرناس فى أعلى الجرف فوق مدينة قرطبة وقيامه بمحاولة الطيران التى غيرت حياته. اسم هذا الرجل التركى هو أحمد سيلبى وهو من إحدى تلك العائلات المنغمسة فى العلوم واللغات والأفكار والآراء. مثل ابن فرناس؛ كان دائمًا مولعًا بالطيران وتناول التفسيرات الأندلسية ونظر إلى تصميمات ليوناردو دافينشى للماكينات الطائرة وشاهد النسور وهى تحلق فى السماء. فقام بعمل اصطناعى لجناحين وذيل.

انتابه شعور الخوف الذى أحس به ابن فرناس لكنه فكر فى أنه إذا سقط، فعلى أسوأ الحالات سيقع فى المياه على الرغم من أنه سيكون على ارتفاع كبير وسيسقط بسرعة هائلة وهو الأمر الذى سيجعل المياه تبدو فى صلابة الجرانيت. أحمد سيلبى ليس برجل عجوز فهو فى أواخر العشرينيات من العمر ويتمتع بالقوة الجسدية والصحة الجيدة، فبخلاف تقدم العلم كان يتمتع بميزة أخرى عن الطيار الإسبانى القديم.

إما الآن وإما فلا، ويسقط من أعلى البرج وتلتقطه الرياح ويحلق منحدرًا من أوربا إلى آسيا ويرى أصدقاءه فى المراكب والسفن المتجهة إلى البحر الأسود والبحر المتوسط والسفن الحربية والتجارية وأبراج قصر توبكابى ومآذن مسجد السليمانى

والعشرات من المساجد الأخرى فى هذه العاصمة للإمبراطورية العثمانية. تلك هى الإمبراطورية التى حبست كل ما تبقى من الخلافة العباسية القديمة.

انطلق من أوربا إلى آسيا قاطعًا مسافة ميلين وعند نزوله كان مستعدًا للهبوط الذى أخطأ فيه ابن فرناس. استقر ببطء ودون جروح على أرض تركيا الآسيوية، وهلل مشاهدوه، وزفت الأخبار إلى السلطان مورات الرابع وصدر قرار من أحدهم بإعطاء لقب هيزارفين، والذى يعنى «ألف علم» إلى سيلبى.

انبهر السلطان بشدة حتى إنه أعطى هيزارفين ألف قطعة ذهب ورغم صغر سنه بدا وأن الطيار الجسور من المقدر له أمر أكثر عظمة. من ثم يبدو ما حدث له فيما بعد عكس ما هو مُقدر له؛ حيث إنه بعد مرور وقت قصير وصمه رجال الدين بالكفر لأعماله وتعرض للنفى إلى تونس حيث مات هناك وعمره واحد وثلاثون عامًا.

غير أن تلك المحاولة لم تكن برحلة الطيران الأخيرة عند الأتراك، فبعد مرور عامين على عمل سيلبى البطولى قام أحد أعضاء أسرته واسمه لاجارى حسن سيلبى بتصميم ماكينة طائرة نفاثة تتكون من حجيرة ذات سلوك معدنية تعلوها صواريخ، إحياء لذكرى ميلاد ملكية، وسوف ينطلق فى ظلمة الليل فوق بحر مرمرة ويجأر عبر المياه فاصلًا القارتين. وفقًا لبعض الحسابات قام بهبوط هادئ على مياه البوسفور وكافأه السلطان بأن ولاه منصبًا عسكريًا فى الجيش العثمانى.



المعالجون والمستشفيات

﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾

[سورة الشعراء: آية 80]

مدينة قرطبة، فى 2007 - تقع مدينة قرطبة ضمن مقاطعة الأندلس الإسبانية الواقعة على جانبى نهر جوادالكيفير، هذا النهر العتيق والمعروف بالعربية باسم الوادى الكبير. تلك المدينة التى كانت من أكبر المدن فى العالم أصبحت الآن محدودة النطاق بمساحة تبلغ 350,000. تتمتع المدينة بالهدوء والرخاء وتنعم بخلوها من الحروب والصراعات التى تزحم شتى أرجاء العالم. بهذه النظرة الخاطفة على الوقت الحاضر يتضح أن قرطبة هى مدينة محلية وليست بعاصمةٍ ولا بمركزٍ عالمىّ. وعلى شاكلة باقى أوربا تبدو وكأنها دائمًا تتسم بروعة الجِمال وهدوء السلام.

بالنظر إلى ما يجاورها قد يبدو أيضًا أنه ما من شىء هام قد حدث فى هذه المدينة يزيد على غيرها من المدن المتشابهة الأوضاع والمنسوجة أحداثها بثراء على طول البحر المتوسط العظيم فى أوربا.

ويبدو جوهرها القديم ذو الطابع الرومانى والعربى والمتعلق بالقرون الوسطى من خلال شوارعها التى تبدو متضاربة الأسماء مثل شوارع «كايى دامسكو» أو شارع دمشق و«أبينيدا الناصر» أو طريق الناصر. كما يوجد جسر من زمن الرومان وقلعة ملكية من طراز المُدجن يطلق عليها اسم الكاثار (القصر) أضف إلى ذلك كاتدرائية كاثوليكية وردية وترابية الألوان ولقد تم بناؤها على هيكل عبادة لدين قديم. تكتنف كل هذه المعالم مدينة تقليدية لإسبانيا الحديثة بها ضواحٍ ذات سمة نفعية، من العسير وصفها، من الطراز الذى يحيط الآن بمعظم مدن أوربا.

على أطراف المدينة القديمة يوجد مستشفى ملحق بجامعة الملكة صوفيا وهو مستشفى كبير وحديث، وعلى الرغم من أن طرازه المعمارى عمومًا لا يتصف بالتميز لكنه

مستشفى مزدهر ومتنام ويكتظ بالسيارات كغيره من مستشفيات القرن الـ 21. وإذا ما نظرنا إليه من كافة الجوانب فربما وُجد فى أى مكان آخر بخلاف قرطبة مثل مدينة كانزاس أو سنغافورة فهو يبدو غير مرتبط بالشكل العام أو بتاريخ المدينة الواقع فيها باستثناء الاسم.

ويرجع اسمها إلى ملكة إسبانيا، التى لاتزال على قيد الحياة، ويمتد أصلها إلى أسرة ملكية إغريقية تنتمى إلى كافة أقارب الملكة ڤيكتوريا ملكة إنجلترا الراحلة. أما زوجها الملك خوان كارلوس فقد استطاع أن يخرج بإسبانيا من فترة الدكتاتورية العسكرية الشرسة. الجدير بالذكر أن الزوجين الملكيين يحظيان بقدر كبير من الحب والاحترام على المستوى العالمى.

فى مستشفى الجامعة تقوم الدكتورة باتريتشيا جونثاليس دى مدينة بإجراء رابع عملية ولادة فى ذلك اليوم. تبدو الدكتورة منهكة نوعًا ما؛ إذ قامت بالعمل لمدة ستة أيام متواصلة دون توقف، حيث تغطى غياب زميلتها التى ذهبت لحضور مؤتمر فى المكسيك وقد اضطرت لتأجيل إجازتها مرتين وإنها لتتساءل لماذا تقوم بكل هذا العمل الشاق فى هذه السن.

تتذكر سنوات دراستها للطب بجامعة ستانفورد وخدمتها بمستشفى بالو ألتو. زاخرة بطاقة الشباب، فى ذلك الوقت كانت تعمل لمدة 60 ساعة متواصلة وتقوم بمهام لمدة 48 ساعة وزادُها طيلة هذه المدة هو القهوة والسجائر فى الوقت الذى كان فيه تناول تلك الأشياء غير لائق كمظهر سياسى. ظلت مولعة بهذه الوتيرة المحمومة لمدة من الوقت؛ لأنها تحب مهنة الطب وتشعر بالفخر لانضمامها لواحدة من أفضل كليات الطب فى العالم. وعلى الرغم من أنها تشعر بفتور دائم تجاه الثقافة الأمريكية مثل معظم الإسبان على خلاف الأوربيين الآخرين فقد كانت على وعى بوضع البحوث الطبية هناك، فالأمريكيون سواء أحبتهم أو لا كانوا هم القادة فى هذا المجال ولطالما أرادت الارتباط بهذا الأمر.

لكن الإحساس بالفتور لازمها طيلة الوقت وكانت على دراية بأنها لن تظل فى أمريكا بمجرد الانتهاء من فترة تدريبها، فإنها سترجع إما لوطنها إسبانيا أو ستذهب إلى أمريكا اللاتينية سواء بوينوس آيرس أو مونتيڤيدو.

كانت مدينة كاليفورنيا محتملة بالنسبة لها بسبب شمسها ومناخها، كما أنها تمتعت بأصداء تُذكرها بموطنها، غير أنها تلاشت مع مرور السنين. فقد أضفت عليها الواجهات الإسبانية الطراز لمقر استانفورد والأقواس والأسطح ذات القرميد الأحمر إحساسًا يُشعرها نوعًا ما بأنها فى وطنها. كانت أسماء الأماكن كلها إسبانية وهو الأمر الذى منحها إحساسًا بالراحة بالرغم من أنها تتحدث بالكاد مع أى شخص هناك اللغة الإسبانية.

يا له من يوم! فكل حالة ولادة كانت أشدُّ صعوبة من التى قبلها خاصةً الحالة الأخيرة لوجود الجنين فى وضع خطأ وكون الأم فى حالة خطيرة من النزيف، ولم تكن إحدى مريضات باتريتشيا، ولكنها جاءت إليها من خلال قرعة الاختيار، هى أمور أضفت جوًا من الرعب على الجميع. أجبر وضع الأم الصحى باتريتشيا على تجنب الولادة القيصرية الأكثر يسرًا واستخدام الكُلاَّب لتعديل وضع الجنين. دائمًا ما ارتأت باتريتشيا الكُلاَّب ملجأ أخيرًا لها، فلطالما رغبت فى وضع أفضل ولكن فى هذا الموقف ما من وضع أفضل.

تستريح باتريتشيا فى مكان استراحة الدور الرابع تشرب القهوة وتنظر إلى مشهد غروب الشمس. لاتزال أمامها 4 ساعات أخرى من العمل فقد أوشكت على الانتهاء والرجوع إلى منزلها واحتساء كأس لذيذ من النبيذ بالرغم من أن شقتها ستكون هادئة كما هو حالها منذ طلاقها. تركها زوجها رودريجو من أجل امرأة أخرى تعمل فى نفس شركة المبيعات التى يعمل فيها. لم تُرزق هى ورودريجو بأطفال فكان يخالجها إحساس دائم بألا تحاول القيام بذلك.

تدور حياتها الآن حول العمل وساعات قليلة من الراحة والإجازات. ولكونها فى الأصل من مدينة مدريد فقد قبلت هذا المنصب فى مدينة قرطبة؛ وذلك لأنها قد استنفدت ما يكفيها من العاصمة علاوة على أنه كان منصبًا أفضل وبمسئوليات أكثر.

لكنَّ هناك شيئًا تفتقده وهى تعلم أن هذا الشيء ليس رودريجو، فقد كانت سعيدة بذهابه كما أنه ليس متعلقًا بمتع الحياة؛ لأنها حقًا تستمع بعملها. لقد مثلت لها مدينة قرطبة الكثير، حيث إنها تهتم بالمواقع القديمة الجاذبة للسائحين والمتاحف والشوارع الصغيرة الضيقة بطرازها المعمارى الموديجانى.

فى الأفق الغربى، حيث الشمس تعكس ظلها تستطيع أن ترى تلك الأطلال. إنها مدينة ملكية قديمة متهدمة هى مدينة الزهراء التى بناها أحد الخلفاء منذ ألف عام. يبدو الموقع محبطًا بعض الشيء للسائحين وذلك لتهدم الكثير منها أو انتقاله فهى غير مصونة على القدر الذى عليه المسجد القديم الواقع فى وسط البلد. أما بقايا المدينة فقد تهدمت وانهارت مع مرور الوقت على غرار مدينة بومبى التى رأتها فى أحد الأيام. ويقوم أحد المطورين ببناء بيوت فوق تلك الأطلال كما يحب الأزواج من الشباب فى الوقت الراهن إقامة أعراسهم عند القناطر المتبقية هناك.

اعتقد الناس فى بادئ الأمر أن هناك رابطًا بينها وبين تلك الأطلال لمشاركتها إياها فى الاسم ولكنها كانت تقول دومًا إنها مجرد مصادفة. ويعرف عن عائلة مدينة أنهم من الكاثوليك الملتزمين، واسمهم متداول مثل اسم جارثيا. ولم يذهب المعنى الذى يتضمنه الاسم إلى ما هو أبعد من ذلك، فهى لم تذهب إلى موضوع النسب، وعلى خلاف الكثير من الإسبان لم يهتم من يحملون اسم مدينة بالنسب العائلى. هل كان عليها

البقاء فى أمريكا وأن تتزوج من أمريكى وتتجب أطفالاً؟ هل هذا هو السبب الذى تركها من أجله رودريجو؟ الأطفال؟

عند هذه اللحظة فقط تدخل عليها إحدى ممرضاتها لتخبرها أن أم الرضيع التى أجرت لها عملية الولادة للتو بالكُلاّب لم تنجُ. لم يكن السبب الكُلاب حيث إن الأم قد تم نقلها إلى العناية المركزة ودون إنذار حدثت لها صدمة وأصابتها سكتة قلبية ورحلت بعد خمس دقائق.

على الرغم من فقدان باتريتشيا لأمهات وأطفال من قبل فما عادت تحتمل مثل هذه الأمور بعد الآن. هذه الطبيبة المتخصصة فى التوليد المحترفة والصلبة تشعر وكأنها على وشك الانهيار. تقف وتنظر إلى الأطلال ينتابها شعور بالاكتئاب الشديد وتتساءل عما فقدته؟ هل هى طفولتها؟ أحلامها؟ ولم تستطع الوقوف أمام هذه النافذة أكثر من ذلك فتندفع نحو السُلم وتترك المستشفى عبر أحد مخارج الطوارئ. فى الخارج تقف باكية على خسارتها الحالية والسابقة وتتساءل كيف يتسنى لها الرجوع مرة أخرى لإنهاء ورديتها.

مدينة بغداد، فى 865 م – كثير من المؤذنين ينادون لصلاة الفجر فى المساجد فى كل جهات البوصلة. تبدأ مدينة الخلافة فى الاستيقاظ ببطء على ظلال المآذن والقباب المقابلة للسماء المشرقة وتنطلق الخيول والجمال على الجسور المعلقة والشوارع المملوءة بالغبار متجهة نحو بوابات المدينة مع حركة آلاف الرجال والسيدات. تدوى الضحكات من ساحات الديار غير المرئية وتخبو الهمسات السرية فى الحدائق المورقة والقصور الفاخرة وتُسمع المناقشات من نوافذ البيوت الكبرى حيث يقوم الأثرياء والعباقرة بالاحتفال والجدال وسرد القصص.

ينطلق الكثير والكثير من الصيحات وأصداء الضوضاء من الشوارع الخلفية، حيث يعيش وينام العمال والصيادون والحمالون وسائقو الجمال والباعة المتجولون والسحرة والحانوتية والكناسون والغسالات.

منذ حوالى 230 عاماً بعد وفاة الرسول، صلى الله عليه وسلم، تزايدت سرعة الاندفاع إلى المدن الإسلامية الكبرى فترك مئات الآلاف من الأشخاص حياتهم السابقة فى الصحارى أو الحقول أو الأماكن الصغيرة والقديمة غير المواكبة لحركة التطور ليتجهوا إلى بريق الإثارة والتغيير.

إن منشأ المدن ناجم عن نبوءة تنادى بمجتمع عادل وإنسانى، نبوءة ترفع من مستوى طلب العلم والمعرفة، نبوءة تُبجل التجارة، حيث إن النبى، صلى الله عليه وسلم، كان تاجراً، فهى رؤية لمجتمع نظيف وصحى كما وصى به النبى، صلى الله عليه وسلم.

ماذا تمثل ثقافة التحضر الجديدة هذه للمسلمين؟ إنها لتعنى بالنسبة للمفكرين والفنانين والمخترعين كلاً من الرعاية والدخل كما تعنى المكتبات ومراكز للتعلم والمناقشة وإقامة الحوارات والمجادلات، علاوة على تفاعل الكثير من العقول فى محاولة للوصول إلى الحلول الكونية من خلال الاتفاق والاختلاف. بل وتعنى أيضًا أماكن الذوق والرقى وقصورًا من الخيال، حيث يمكن لأفكار الكثيرين التجمع والتراكم وهى أيضًا أماكن يحاول فيها الرجال الترفع عن مستوى الصراع لإيجاد ما يكفى من الطعام والمياه والمأوى؛ للبقاء على وجه الأرض والحصول على الطاقة والوقت للبحث فى المسائل الكبرى.

أما بالنسبة للحُكام فإن المدن إنما تعنى نُصباً تذكارية وشهودًا على العصر والفن المعمارى المدنى فى المساجد والقصور التى ستُخلد ذكراهم وتجسد تصوراتهم ورؤاهم. كما تعنى لهم مجتمعات البلاط حيث سيكون الأكثر براعة والأفضل على مقربة واستعداد للمشاركة حتى يجعل الحياة أكثر ثراء ومتعةً.

وتمثل المدن لعائلات التجارة أماكن الالتقاء ونقاط التفاعل حيث يتصل كل من البائع والمشترى وتوجد مجموعات كبيرة ممن يريدون الملبس والمأكل والمتعة.

وتمثل هذه المدن فرصًا أفضل للنساء لإقامة أطفالهن وإمكانية الحصول على مستقبل أفضل حالًا من الماضى. أضف إلى ذلك الطعام والشراب النظيف والوفير. توفر لهنّ المدن الملابس الجميلة والمجوهرات وأحمر الشفاه والألوان المختلفة للأعين وصبغات الشعر، فالمدن تتيح لهن بعض الحرية والاستقلالية.

وللمسئولين عن هذه الأماكن تمثل المدن تقييم الضرائب وإنفاقها على المياه ومواد البناء والشوارع والأسواق والمدارس والمساجد. كما تعنى الحاجة إلى الاهتمام بالصحة العامة؛ وذلك لأنه ليس بوسع أولئك الملايين من الأشخاص فى المراكز الأساسية للدول مع ملايين آخرين العمل إذا كانت المدن كذلك مراكز للأمراض المعدية والقاذورات والبؤس. إن صحة المجتمع فى صحة كلُ فرد من أفراده سواء كان خليفــة أو سقّاءً.

خلف هذا الستار فى حوالى عام 865 هناك طبيب معلم نحيل فى الستين من العمر له لحية رمادية، استعمله العباسيون. يقف هذا المعلم فى منتصف النهار فى ساحة داره الواقعة بالقرب من بيت الحكمة ليتناول غداءً فى هدوء مع أحد تلاميذه الأجلاء وهو فتى فارسى يتمتع بعقلية نافذة غير عادية. وفد هذا الصبى من مدينة الرى لتحصيل أفضل المعارف من كثير من الأساتذة. ينظر كل منهما إلى قنينة من سائل أصفر مأخوذ من جثة.

يسأل التلميذ معلمه: «هل تعتقد أن جالينوس محق بشأن الأخلاط؟». إلا أن المعلم لم يُجبْهُ أولًا لأن قليلاً من الناس -هذا إن وُجد أصلاً- قد تشككوا بالفعل فى نظريات

جالينوس؛ وثانياً لأنه على ما يبدو أن تلميذه الشاب إنما يفكر بنفسه. رد المعلم قائلًا «ربما يجب علينا كلينا البدء فى العمل على كتاب حول جالينوس» وهنا أشرق وجه التلميذ، واستطرد المعلم قائلًا: «لكنى أحذرك من أن الكثيرين سوف يزعجهم سماع أن أحدًا يتشكك فى أمر السيد».

هذا المعلم من أسرة يهودية قديمة من مرو، معروفة باسم سهل وقد تحول هذا المعلم إلى الإسلام واسمه على بن سهل رابان الطبرى. تدرب الطبرى على المناهج الفارسية والإغريقية القائمة إلى حد كبير على نظريات مفكر إغريقى وطبيب من مدينة بيركامون بالأناضول يُدعى جالينوس منذ 600 عام.

والفتى الفارسى هو زكريا الرازى، من أسرة من المحتمل كذلك أن تكون تحولت من اليهودية إلى الإسلام.

يبين لهما جالينوس الذى توفى منذ زمن طويل الطريق إلى الحكمة الطبية بالنسبة للبيزنطيين والمسلمين والأوربيين منذ حوالى 1,300 عام بعد موته، فإن جالينوس فى الطب مثل بطليموس فى علم الكواكب وأرسطو فى المنطق. ومع قليل من العلم الطبى الذى يمكن أن يركن إليه قام جالينوس بتأسيس مجموعة شاملة من المعارف والمعلومات، بعضها نافذ البصيرة والكثير منها أخطاء بحتة، بيد أنه قدم أول محاولة موحدة لفهم العلاقات بين أعضاء الجسم والتغذية والبيئة والأمراض والجروح وعلم العقاقير والجراحة. ولم يحُز جالينوس المعرفة النظرية فقط لكنه كان يقوم باختبار أفكاره أولًا بأول، فكان يقوم بتشريح الخنازير الحية ليرى كيف تعمل الأعضاء قبل أن تتوقف عن العمل. قام فى إحدى تجاربه بشق العمود الفقرى لخنزير ليرى كيف يحدث الشلل، كما ربط مجارى البول ليعرف أن البول يأتى من الكليتين، ونظر فى قلوب حية نابضة ورئات منتفخة وهى تضخ الدم، علاوة على مجموعات من الأعصاب.

أجرى جالينوس أيضًا عمليات جراحية على البشر الأحياء، منها إحدى تقنيات توقيف القلب لإزالة السُد وفيها يقوم بإدخال إبرة فى مقلة العين وراء العدسة مباشرة فيزيح السُد أو ينتزعه. وهى عملية من الدقة بحيث إذا انزلقت يده أو عطس فقد يؤدى ذلك إلى فقد المريض لبصره أو ما هو أسوأ من ذلك.

مع ترعرعه فى الوقت المزدهر للإمبراطورية الرومانية فى القرن الثانى بعد الميلاد فى زمن ماركوس أوريليوس لم يتقيد جالينوس بالمفاهيم المسيحية التى ستظهر فيما بعد حول الإثم وتدنيس المقدسات، فقد أجاز لنفسه معرفة كيف تعمل الكائنات الحية، وكان هو الناقل الأول للكثير من الأفكار القديمة لطبيب إغريقى آخر، هو أبقراط من القرن الرابع قبل الميلاد.

وبدا جالينوس للمسلمين الأوائل مثل الطبرى مقبولاً دينيًا، حيث ذكر أن كافة أشكال الحياة والوظائف العضوية تنبع من مصدر واحد هو الطبيعة. بالنسبة لعلماء الدين المسلمين فهذا الفكر يقارب على نحوٍ وافٍ من إيمانهم بالتوحيد؛ أى أن أشكال الحياة كافة قد أبدعها الله عز وجل.

إلا أن جالينوس الآن فى القرن التاسع يواجه لأول مرة منافسة جادة بعضها مصدرها الضوء الباهت للبيزنطيين وأكثرها من المبتكرين الطبيين المسلمين ممن على شاكلة الطبرى. وعلى خلاف الأوربيين فى ذلك الوقت لم يشعر المسلمون بتقيدهم بالخرافات أو معاداة المذهب العقلى أو ببعض المعتقدات المسيحية الرواقية القائلة بتحمل مآسى الحياة الجسدية؛ وذلك لتطهير الروح قبل دخول الجنة. فالمسلمون ليسوا متعنتين تجاه فكرة أن الجسد هو مكان الفساد والخطيئة، فالنبى، صلى الله عليه وسلم، قد كرر مرارًا التوجيه الإلهى بشأن الأمور الطبية، وهو الأمر الذى يكشف حقيقة جلية ونظرة حديثة للغاية. من ثم سوف يستكمل المسلمون من حيث انتهى جالينوس.

«أخلاط جالينوس هى حقًا أخلاط أبقراط» قالها الطبرى فأومأ تلميذه الرازى برأسه. «يتكون الجسد من توازن بين العناصر الأربعة الموجودة فى الأرض؛ ألا وهى النار والتراب والمياه والهواء، والتى تتجسد فى جسم الإنسان فى شكل الصفراء والسوداء والدم والبلغم».

«ماذا لو أن هناك ما يزيد عن الأخلاط فى الجسم؟» تساءل الطبرى متبعًا مسار تساؤل تلميذه: «خذ هذه القنينة. إنَّ بها كثيرًا من العناصر التى لا يمكننا فصلها بعد. لقد كان أبقراط يبذل قصارى جهده ولكن كان ذلك منذ ما يزيد عن ألف سنة».

بعد الغداء يعاودان مرة أخرى دراستهما لأعضاء الجسم، وفى هذه اللحظة يشعر الطبرى بالامتنان لوجود هذا الفتى البارع بالقرب منه وللتفكير فى أن القدر قد يجعلهما يتعاونان لعقود كثيرة قادمة، لكن ذلك لن يحدث فبعد أعوام قليلة سوف يموت المعلم بينما سيرجع التلميذ إلى مدينة الرى ثم إلى بغداد مرةً أخرى ليترأس مستشفيين تعليميين عظيمين.

وبينما يرد ذكر الطبرى فى حواشى التاريخ سوف يكبر الفتى الرازى غريب الشكل ليصبح أول طبيب مسلم عظيم الشأن، وسوف تتم ترجمة أعماله إلى اللاتينية، والذى يورِّد على الأوربيين والعالم الإسلامى الابتكارات الطبية لكل من جالينوس وأبقراط.

وبينما ينزوى الطبرى فى طى النسيان سوف يتذكر الناس الرازى باسمه

اللاتيني. وبعد مرور مائة عام سوف يصير كل من الرازى وابن سينا، وهو فارسى آخر، أعظم الأطباء المسلمين لدى الأوربيين.

سوف يكتب الرازى ما يزيد على مائتى مخطوطة حول كل جوانب الطب المعروفة تقريباً بالإضافة إلى كتابات فى الفلسفة والخيمياء والميتافيزيقا. وسيكون أول طبيب يصف إكلينيكياً وعلمياً ويلات الجدرى ومرض الحصبة الأقل إيلاماً، ويبين أنهما مرضان منفصلان. فى كتابه الجدرى والحصبة كتب:

يتقدم ثوران الجدرى حمى مطبقة ووجع الظهر وحكاك الأنف والتفرغ من النوم وهذه أخص العلامات بكونه لاسيما وجع الظهر مع الحمى ثم النخس الذى يجده العليل فى جميع جسده وامتلاء الوجه وارتداده حيناً واشتعال اللون وشدة حمرة الوجنتين واحمرار العينين وثقل الجسد كله وكثرة التململ. علاماته التمطى والتثاؤب ووجع فى الحلق والصدر مع شيء من ضيق النفس والسعلة وجفوف الفم وغلظ الريق وبحة الصوت والصداع وثقل الرأس والقلق والضجر والغشى والكرب. غير أن القلق والغشى والكرب فى الحصبة أكثر منه فى الجدرى ووجع الظهر بالجدرى أخص منه بالحصبة وسخونة الجسد كله واشتعال لونه وبريقه وحمرته وتشتد حمرة اللثة خاصة[25].

يرى الرازى أن لكل مرض أسبابه الجسدية المحددة القائمة على أساس علمى، فهو ليس بعقاب ينزله الله عز وجل على الإنسان.

سوف يرفض الخرافات والعقيدة البدائية التى لا تعتمد على الحقيقة المادية الخاضعة للملاحظة. وهذه العقلانية سوف تجعله ينهض بالمشروع الذى ذكره معلمه القديم الطبرى، ألا وهو التحليل النقدى لبعض الدروس العميقة لجالينوس فى مؤلفه «شكوك على جالينوس»:

وأجد لذلك - يعلم الله - مضضاً فى نفسي؛ إذ كنت قد بليت بمقابلة من هو أعظم الخَلق عليّ منةً، وأكثرهم لى منفعة، وبه اهتديت وأثره اقتفيت ومن بحره استقيت، بما لا ينبغى أن يقابل به العبد سيده والتلميذ أستاذه والمنعم عليه ولى نعمته. وبودى - يشهد الله - أن هذه الشكوك التى ذكرتها فى هذا الكتاب لم تكن فى كتب هذا الرجل الحبر الفاضل العظيم قدره، الجليل خطره، العام نفعه، الباقى بالخير ذكره. لكن صناعة الطب والفلسفة لا تحتمل التسليم للرؤساء، والقبول منهم ولا مساهلتهم وترك الاستقصاء عليهم[26].

بعد مرور حوالى 1200 عام سوف يدور جدل حول ما إذا كان الرازى تشكك بعمق فى افتراضات جالينوس ونظريته الخاصة بالأخلاط. وسوف يصرح بعض العلماء الأكثر تشككًا أنه على الرغم من أن الرازى قد هاجم بعض عناصر فكر جالينوس فقد تقبل الهيكل العام له بما فيه نظرية الأخلاط وسوف تصمد نظرية جالينوس حتى عصر النهضة الأوربية. بينما يرى البعض الآخر فى كتابات الرازى اعتراضًا أكثر عمقًا وبصيرةً لبعض المقدمات المنطقية الأساسية لجالينوس. وفى كتابه «شكوك على جالينوس» يتشكك الرازى بوضوح فيما لو كان بوسع نظرية الأخلاط أن تفسر لماذا يتسبب إعطاء مريض مشروبًا ساخنًا فى ارتفاع درجة حرارة جسمه إلى ما هو أعلى من السائل نفسه، ويقول الرازى إن هذا التفاعل قد يعنى أن هناك عمليات تنظيمية أخرى تدور فى الجسم، وهى أمور لم تتناولها الأخلاط.

كما أن الرازى سيجرى تجارب كيميائية تخلص إلى أن هناك خصائص أخرى ذات طابع مادى للنار والماء والتراب والهواء التى أشار إليها جالينوس. وسوف يحدد الرازى كلًا من سرعة الالتهاب والملوحة والزيتية والكبريتية كخصائص أخرى ذات أهمية.

من فيض أعماله سوف يخرج بنتائج حول مرض الربو الناجم عن الحساسية ومصدر حمى القش والنظرية القائلة بأن الحمى هى آلية الدفاع الطبيعية للجسم، بالإضافة إلى التلميحات الأولى حول الربط بين مرض الجسد والعقل كما سيصل إلى الاعتقاد بأن الأفراد مسئولون عن صحتهم من خلال سلوكياتهم ونظام غذائهم.

سوف يتعاطف مع الطبيب الذى يباشر علاج مريض يرفض تحمل مسئولية نمط الحياة الذى يتبعه. وبالإضافة إلى ما تقدم سيقوم باختراع الملاط والملوق والقوارير الصيدلانية والمراهم الزئبقية كما سيصل لعلاج بعض الأمراض الشائعة مثل الإمساك والصداع ونزلات البرد والسعال، حتى الاكتئاب. وفى علاجه للاكتئاب سوف يصف استخدام الخشخاش نظرًا لتأثيره التخديرى.

وسوف يهاجم بشدة دجالى الطب ممن ليس لديهم أى أساس علمى لتشخيصاتهم ومعالجاتهم. بل إنه سيحث الأطباء على التفانى طيلة حياتهم فى الدراسة المستمرة للتطورات الطبية حتى لا يتخلفوا عن الركب. ثم إنه سيقوم بتجربة الأدوية التى تحتوى على الزئبق على القرود قبل إعطائها للبشر. وفى إبان سنوات تجاربه وغزوه المستمر لمجال الخيمياء سوف يحرق عينيه، ومع مرور الوقت سوف ينال منه العمى. فى تلك الآونة سوف يصرف النظر مؤمنًا بالقدر عن إمكانية علاج الأمراض الخطيرة من قبيل حالات السرطان المتأخرة والجذام قائلًا: إن الأطباء لا يمكنهم فعل الكثير.

سيقوم بكتابة أول كتيب طبى للعامة. وفى أيام تدريسه سوف يجمع حوله حلقات عديدة من الطلاب ويلقى بالأسئلة على الحلقة الأولى وينتقل للثانية إذا عجزت الأولى عن إعطاء الجواب الصحيح عما طرحه من أسئلة.

بالرغم من حصوله على تأييد ودعم الخلفاء والحكام فإنه لم يتجاهل الفقراء فكان يعطيهم الدواء بالمجان. هذا الطبع الكريم سيجعل البعض يزعم أنه أصبح ثرياً من الاشتغال فى الخيمياء متهمينه بأنه وجد طريقة لتحويل المعادن الأساسية إلى ذهب وسيجيب عن هذا الزعم بأنه لم يقم بمثل هذا العمل بل وبأنه قد توصل إلى الاعتقاد بأن هذا الأمر مستحيل.

وفى وقت متأخر من عمره سوف يكتب فى السيرة الفلسفية:

«فإني لم أصحب السلطان صحبة حامل السلاح ولا متولي أعماله، بل صحبته صحبة متطبب ومنادم يتصرف بين أمرين: أما في وقت مرضه فعلاجه وإصلاح أمر بدنه، وأما في وقت صحة بدنه فإيناسه والمشورة عليه - يعلم الله ذلك مني - بجميع ما رجوت به عائدة صلاح عليه وعلى رعيته. ولا ظهر مني على شره في جمع مال وسرف فيه ولا على منازعات الناس ومخاصماتهم وظلمهم، بل المعلوم مني ضد ذلك كله والتجافي عن كثير حقوقي. وأما حالتي في مطعمي ومشربي ولهوي فقد يعلم من يُكثر مشاهدة ذلك مني أني لم أتعد إلى طرف الإفراط، وكذلك في سائر أحوالي مما يشاهده هذا من ملبس أو مركوب أو خادم أو جارية. فأما محبتي للعلم وحرصي عليه واجتهادي فيه فمعلوم عند من صحبني وشاهد ذلك مني أني لم أزل منذ حداثتي وإلى وقتي هذا مكباً عليه حتى إني متى اتفق لي كتاب لم أقرأه أو رجل لم ألقه لم ألتفت إلى شغل البتة - ولو كان في ذلك علي عظيم ضرر - دون أن آتي على الكتاب وأعرف ما عند الرجل. وإنه بلغ من صبري واجتهادي أني كتبت بمثل خط التعاويذ في عام واحد أكثر من عشرين ألف ورقة، وبقيت في عمل الجامع الكبير خمس عشرة سنة أعمله الليل والنهار حتى ضعف بصري وحدث علي فسخ في عضل يدي يمنعاني في وقتي هذا عن القراءة والكتابة، وأنا على حالي لا أدعهما بمقدار جهدي وأستعين دائماً بمن يقرأ ويكتب لي.

فإن كان مقدار الذي أنا عليه من هذه الأمور عند هؤلاء القوم يحطني عن رتبة الفلسفة في العمل وكان الغرض من حذو سيرة الفلسفة عندهم غير ما وصفنا، فليثبتوه لنا مشاهدة أو مكاتبة لنقبله منهم إن جاءوا بفضل علم، أو نرده عليهم إن أثبتنا فيه موضع خطأ أو نقص. وهب أني تساهلت عليهم



يعتبرُ ابنُ سينا الطبيبُ الفارسيُّ فى القرن الـ 11 أكثرَ العلماء الفلاسفة تأثيرًا فى زمنه. وقد تمت ترجمة كتبه على نطاق واسع فى كل من الشرق والغرب.

وأقررت بالتقصير في الجزء العملي، فما عسى أن يقولوا في الجزء العلمي؟ فإن كانوا استقصوني فيه فليلقوا إلي ما يقولونه في ذلك لننظر فيه ونذعن من بعد بحقهم أو نرد عليهم غلطهم. فإن كانوا لا يستقصونني في الجزء العلمي فأولى الأشياء أن ينتفعوا بعلمي ولا يلتفتوا إلى سيرتي» [27].

سوف يكتب عملاق عصر النهضة أندرياس فيزالوس، والشهير بدراساته التشريحية، والتى ستضع الطب على طريق جديد، رسالة الدكتوراه مُعلقًا على الأفكار الطبية للرازى ومعيدًا صياغتها. فى وقت لاحق من حياته سيوجّه فيزالوس انتقادًا لاذعًا للطب العربى فى محاولة للتخلص من النظام الطبى القديم. لكن مما يثير الاهتمام الإشارة إلى أهمية الرازى فى القرن الـ 16 فى باريس، حيث سيدرس فيزالوس الطب وينغمس فى التقاليد الطبية العربية. فى تلك الآونة سيكون من الشائع بين الأطباء الأوربيين أن يكتبوا تعليقات حول الكتابات الطبية العربية والتى لا يتفقون معها بالضرورة.

وخلال مائة عام سوف يعقب هذه العقلية البارعة، ونمط الحياة الراقى، والتى نادرًا ما وجدت نظيرًا لها على مدار قرون من الزمن، سوف تجد ما يضاهيها بل ويتعداها. سوف يظهر خَلَفُ الرازى وهو ابن سينا والمعروف بأمير الأطباء، وسوف يبجله الأوربيون لمدة 400 عام كأعظم مفكر طبى للعصور كافة.

سنوات طوال وكثير من المعارك، يفكر الرجل الحزين. أما كنّا لننعم بسنوات قليلة من السلام؟ مكان لائق للنوم؟ ومورد وفير للنبيذ؟ هذا النبيذ رخيص الثمن ينال من الرجال فى أرض المعركة أكثر مما تناله الأسهم.

تتطلب المعارك تركيزًا تامًا على الحاضر والخصوم والخطط العسكرية وعلى عزم البقاء على قيد الحياة وعلى قتل العدو. برؤية هذا المشهد واستشعار دنو المعركة سوف يتشتت تفكير الكثير من الرجال، إلا ابن سينا، وهو الرجل الذى سيطلق عليه الأوربيون لاحقًا أفيسينا، فهو يعود إلى المهمة الموكلة إليه.

فى الخارج فى صحارى فارس فى عام 1020، ممتطيًا حصانه إلى الجانب الإمبراطورى يود ابن سينا مبتهجًا أن يتناسى للحظات أين يذهبون ومن سيحاربون وإنه ليذكر نفسه لحساب من يعمل.

وفى طريقه يملى على كاتب شابٍ مؤلَّفًا له من نحو ثلاثمائة مؤلف سينجزها خلال حياته، تدور حول الطب والفلسفة. وقد كان هذا الذى يستعرض أفكاره أقرب إلى السنوات الأخيرة من حياته، وقد أسس لنفسه مستقبلاً عمليًا من إملائه مؤلفاته التى لم تنته، فى حين يشهد المعارك ويخرج منها، حيث يتطلب عمله حضوره لعلاج الجرحى لدى الأمير.

عندما ينظر إلى كاتبه الشاب يتذكر ابن سينا عندما كان طفلًا معجزة، ومرت حياته كلها أمام عينيه. بدت كل الأبواب مفتوحة أمامه، فقد حفظ القرآن وهو فى العاشرة من العمر، وبدأ دراسة الطب فى الثالثة عشرة، وراح يعالج المرضى

فى السادسة عشرة. وعندما كان فى سن المراهقة أنقذ حياة الحاكم السامانى نوح بن منصور والذى كافأه بدخوله إلى المكتبة الملكية فى بخارى. وكان ظفره بدخوله المكتبة أفضلَ لديه من حصوله على العمل الذى عرضه عليه الأمير فرفضه فى اندفاعة الشباب. وقد استهواه كثيرًا أن يكون بين أكوام المخطوَطات والصفحات ناعمة الملمس ورائحة الجلد والورق والحبر وكل هذه المعرفة بل كل هذه الإمكانات.

كان يستطيع أن يمضى حياته برمتها هناك تحفه الأوراق الملكية من كل جانب ويعالج المرضى الأثرياء ويعلم تلاميذ الطب المبجلين. كان بوسعه أن يمضى بعض الوقت فى البلاط مستضحكًا لمزاح الأمير السخيف، وفاحصًا بشكل دورى الحالة الصحية للأمير، ومسعفًا إياه فى حالات سُكره واكتئابه والنوبات الطارئة عليه بسبب مرضه التناسلى الناتج عن علاقاته غير السوية.

وفى ليالى سنوات المراهقة تلك تمكن ابن سينا من قراءة كتاب الميتافيزيقا لأرسطو ما لا يقل عن أربعين مرة، فقد قرأه مرارًا وتكرارًا حتى كدُّ ذهنُهُ ولم يجد أنه فهمه حتى تلك اللحظة، ومثلما فعل تمامًا مع القرآن الكريم فقد حفظ كل كلمة من عمل أرسطو عن ظهر قلب.

ما الذى كان يعنيه ذلك الإغريقى؟ لم يجد ابن سينا الجواب، وفى يوم ما وهو فى السوق رأى رجلًا بائسًا يبيع كتابًا صغيرًا للفارابى بثلاثة دراهم، كان هذا الكتاب تعليقًا للفارابى على أرسطو، وفى هذا الكتاب الصغير وجد ابن سينا ضالته وكانت السبيل إلى فهم أرسطو ومن ثم حمدَ الله عز وجل كثيرًا.

«حمدًا لله الذى مكَّننى من أن أحيا حياة عامرة بالسلام والعلم» ظل ابن سينا يدعو الله عز وجل بهذا الدعاء فى أثناء تلك السنوات القليلة التى عاشها فى سلام منذ زمن بعيد. كانت حياته تزخر بتأمل الجمال فى ساحة القصر واستنشاق عبير الورد والخشخاش فى الربيع ورؤية عينى امرأة تنظر إليه من وراء حجابها، تانك العينان اللتانِ أومضتا بالوعود، والاستمتاع بأفضل أنواع النبيذ فى فارس وقبل كل ذلك الاستمتاع بالمكتبة... فقد كان يخر ساجدًا امتنانًا حتى تدوم تلك الأعوام الأولى من حياته طوال عمره. إلا أنه فى عام 999 بدأ كل شىء ينهار.

قامت عصبة من الأتراك بالتآمر على رعاته السامانيين والإطاحة بهم ومات والده. والأسوأ من ذلك أن أحرق الأتراك المكتبة الملكية الرائعة فاحترق كل شىء؛ جميع المخطوطات وكل هذه المعرفة والحكمة أتت عليها النار، كما تُحرق القمامة. كيف تأتى لهؤلاء الرجال أن يكونوا بهذا الغباء؟ ما مغزى الحياة بلا أفكار؟

عندئذ عاش ابن سينا سنوات من التخفى والتنكر والهروب والتوسل والمناشدة والتلفع بأغطية الوجه والعمامات ودفع الأموال لقاطع الطريق والخائنين وهجرانه المدن فى منتصف الليل. كان يحاول اقتناص حياته القديمة ولو فى صورة عمل مستقر ونوع من السلام والراحة ومكتبة لائقة.

عرض عليه السلطان الفاسد محمود الغزنوى عملاً، ولكن حتى لا يعانى من سجن محتمل مثلما حدث مع البيرونى رفض ابن سينا. كما عرض عليه وزير آخر فى كراكنج راتباً صغيراً ولكنه لم يكن يكفى حتى للحصول على طعام لائق. أما الثالث فقد كان حاكماً فى الديلم وهو عالم وشاعر عُرف برعايته الكريمة للمفكرين، ولكن عند وصول ابن سينا كان قد قُتل على يد جنوده. أخيراً قام صديق له فى مدينة كركان الواقعة على بحر قزوين بشراء بيت صغير له حيث راح يدرس للتلاميذ فيه لبعض الوقت.

لكن أيمثل ذلك تتوج عقلية عظيمة كعقلية ابن سينا فيجلس فى بيت صغير يقع على أطراف فارس ليُعلم أبناء الطبقة المتوسطة من متسلقى هذه المدينة الصغيرة عن المنطق والفلك والطب؟ تسرح عيناه على امتداد بحر قزوين ويفكر فى «أن الأمور العظام إنما تقع وراء الشاطئ المقابل».

تطلع ابن سينا إلى شىء أكبر من ذلك، إلى حياة تشبه الحال التى كان عليها فى أثناء فترة مراهقته فى المكتبة السامانية الملكية. لذا سيذهب من مدينة كركان إلى مدينة الرى ملتمساً رعاية ملكية وبعد ذلك إلى همدان. وبعد مرور فترة وجيزة عين أمير همدان ابن سينا فى منصب وزير. أحقٌ ذلك؟ هل انتهى وقت المشاكل؟ لكن هذا الرجل المعجزة الذى تخطى تفكيره بمراحل كل من فى البلاط وفى القصر وفى المدينة قلما أعرب لسانه عما يجول فى خاطره. فى مناقشاته فى البلاط كان مذهلاً ومسيطراً وفى أغلب الأحيان دائماً على صواب. وعلى الرغم من عبقريته فى أمور العقل فما كان بنفس البراعة فى مجالات السياسة والدبلوماسية واللباقة. فكان ينظر لمعارضيه على أنهم أغبياء لا على أنهم يتبنون آراء مختلفة وأن له حقاً لديهم ويجب الحصول عليه بدبلوماسية.

اندفع السباب والتهديدات العنيفة فى الاتجاهين ولم يطوها النسيان. من ثم بشكل سريع فبعد أن وجد العمل الذى كان من الممكن أن يتوج أحلامه، عزل هذا الوزير العبقرى الكثير ممن كانوا حوله، وضباط العسكرية الذين كانوا بالكاد يفهمون شيئاً مما يقول، كان لديهم الوعى الكافى ليدركوا أنه سخر منهم وحط من شأنهم. وبالتالى ثاروا على غطرسته ووجد الأمير نفسه مجبراً على الزج به فى السجن. لكن عندما شعر الأمير بوعكة صحية أخرج المعالج العظيم من السجن ونجح ابن سينا فى علاج الأمير ليسترد اعتباره، لكن لفترة وجيزة. فقد كان يواجه ما يكفى من العقول ضيقة

الأفق، لذا بدأ بالاتصال سرًا بالحكام فى مدينة أصفهان باحثًا عن رعاية أفضل فى هذه المدينة الكبرى. وعندما علم أمير همدان أن وزيره الطبيب كان يبحث عن مكان آخر استشاط غضبًا فما كان أمام ابن سينا سوى الهرب ليلًا متخفيًا متجهًا إلى أصفهان، وقد تمكن بالكاد من الوصول إليها حيًا.

أمضى ابن سينا فى أصفهان الاثنتى عشرة سنة المتبقية من عمره. تتسم المدينة بروعة الجمال والثقافة والثراء وبها صالونات فكرية وحانات مجهزة بشكل جيد وشوارع وحدائق مدهشة ونساء غاية فى الحُسن. إنها مدينة متأنقة حتى أكثر من بخارى.

لا يهم بالنسبة لابن سينا أن تتطلب وظيفته كطبيب البلاط أن يرافق الأمير فى المعارك، والمعارك لا تتوقف، فهو ثمن كان على أتم استعداد لدفعه. إنه يشعر بأن هذه هى فرصته الأخيرة ليجد منزلًا وحياةً يتناسبان مع عقله وطموحاته الكبرى حتى وإن لم تكن بالشكل التام.

خلال ما يقرب من 30 عامًا من التمزق وصل ابن سينا إلى قرار حاسم وهو أنه إذا ما أراد فك لغز المعرفة بجسد الإنسان والحياة فإن عليه القيام بذلك بانشغال تام فعليه أن يُحسن من قدراته التركيزية وأن يحيا فى عالمين؛ أى عالم البقاء المادى وعالم العقل.

ورغم أن ابن سينا كتب المئات من الكتب حول كل شىء من الرياضيات إلى الفلك وعلم المعادن، منها كتاب المعادن، فإن أعظم إسهاماته كانت فى الطب. الجدير بالذكر أن ترجمة أعماله حول الچيولوچيا وعلم المعادن ترجع بالخطأ إلى أرسطو حتى العصر الحديث. وأهم كتابين له هما القانون فى الطب وكتاب الشفاء، وقد تمت ترجمة هذه الكتب ومناقشتها على نطاق واسع ليس فقط فى العالم الإسلامى ولكن أيضًا فى أوربا العصور الوسطى. بالإضافة إلى عمل الرازى يقوم كتاب مبادئ الطب بالكثير لتطوير الطب والفكر الأوربى عن أى عمل أو حدث آخر فى هذا الصدد.

كتب ابن سينا فى القانون فى الطب:

لما كان الطب ينظر فى بدن الإنسان من جهة ما يصح ويزول عن الصحة والعلم بكل شىء إنما يحصل ويتّم إذا كان له أسباب يعلم أسبابه فيجب أن يعرف فى الطب أسباب الصحة والمرض، والصحة والمرض وأسبابهما قد يكونان ظاهرين وقد يكونان خفيين لا يُنَالانِ بالحس بل بالاستدلال من العوارض فيجب أيضاً أن تعرف فى الطب العوارض التى تعرض فى

الصحة والمرض. وقد تبين فى العلوم الحقيقية أن العلم بالشىء إنما يحصل من جهة العلم بأسبابه ومبادئه إن كانت له، وإن لم تكن فإنما يتمم من جهة العلم بعوارضه ولوازمه الذاتية. لكن الأسباب أربعة أصناف: مادية وفاعلية وصورية وتمامية[28].

بينما ظهرت أول ما ظهرت هذه الأسباب الأربعة عند أرسطو فإن ابن سينا كان أول من وضعها في إطار منطقى وعلمى من أجل الطب. وبالرغم من أن جالينوس استخدم حقًا المنطق والمنهجية العلمية، فإن ابن سينا هو من أعطى الطب الهيكل العلمى الرسمى فى كتابه القانون فى الطب. قد تكمن عبقرية ابن سينا فى أنه حول الجسم البشرى إلى شىء من الممكن فهمه مثل أى ظاهرة مادية أخرى، وذلك فيما يتعلق بسلسلة الأحداث السببية التى تؤدى إلى حالات صحية ومرضية واعتلالية عديدة. ومن كل هذا الفيض الهائل للحكمة الطبية، بماذا جاء ابن سينا للعالم؟

بجانب توفيره لخلاصة وافية للكثير من المعارف الطبية بالقرن الـ 11 قام ابن سينا بإخبار العالم بما يزيد على 700 نوع من الدواء. كما سيتناول الأمراض التى تنتشر عبر المياه والتربة، وسيخلص إلى أن السل هو مرض مُعْدٍ، لكنه سيخطئ فى أسلوب انتقاله معتقدًا أنه ينتشر من خلال التربة وليس الهواء. علاوة على ذلك سيقترح علاج الناسور الدمعى وهو عبارة عن تورم فى الغدة الدمعية كما أنه سيخترع أداة تسبر القناة الدمعية. سيقول ابن سينا إن الطريقة الوحيدة لفهم أعمال الجسم هى من خلال إجراء الاختبارات والملاحظات العملية والحيادية حيث إن التأملات والنظريات ليس لها أى قيمة ما لم يتم إثباتها.

فى خط متوازٍ مع ابن الهيثم الذى كان يجرى بحوثه فى القاهرة فى ذلك الوقت، ولكن من منظور تشريحى وطبى أكثر تفصيلًا بالإضافة إلى ذلك سوف يسبر ابن سينا أغوار أجزاء العين المتعددة منها القرنية والحدقة والشبكية والخلط المائى والعصب البصرى. كما أنه قد يسهب على ما جاء فى نظريات جالينوس فى وصف أعضاء بصرية أكثر سريةً وبُعدًا، على سبيل المثال التصالب البصرى والهيكل الواقع فى المخ، والذى شكله التقاطع أو المرور الجزئى لأنسجة العصب البصرى على أسفل الهيبوثلاموس. ويشرح أيضًا كيف يعمل الشريان الأورطى ملاحظًا أن صماماته الثلاثة تحول دون اندفاع الدم مرة أخرى إلى القلب بعد انتهائه من الانقباض. كما يؤكد على أن الأعصاب طرق للرسائل غاية فى الأهمية لكافة المهام الجسدية خصوصًا الانقباضات العضلية حيث انتهى إلى أن الألم ينتقل من مصدره عبر الأعصاب.

سوف يتناول قسم كبير من كتاب القانون فى الطب موضوع الجمال، والذى يعتبر تحليلاً طبياً للخصائص السطحية للجسد التى تخلق الإحساس بالجمال مثل الشعر أو فقدانه ولون البشرة وملمسها وأثر المرض على الشكل العام.

كما سيكرس مجلدات عدة من الكتاب لموضوع كسور العظام وسيبتكر طرقًا لعلاجها إضافة إلى ذلك سوف تكون له الصدارة فى وصف التهاب السحايا ومضاعفاته.

وسيبذل جهدًا لإدخال مفهوم علم التغذية للمسلمين العرب، حيث يظهر تأثير العلاجات بشكل أفضل إذا تأثر بالمنتجات والمناهج الطبيعية. وسيتعمق فى كيفية تخدير الفم لعلاج الأسنان وإجراء جراحات الفم وسوف يشرح ويصف أسباب داء الكَلَب وسرطان الثدى والأورام والقَيلَة أو تجمع سائل مصلى فى تجويف ما فى الجسد والذى غالبًا ما يكون فى الخصية. بالإضافة إلى ذلك سوف يقوم أيضًا بتوفير المعلومات حول السُّميات والترياق الخاص بها، كما سيشرح خضمًّا هائلًا من الحالات الجسدية والبيولوجية الأخرى مثل القرحة ومرض الكُلى وشلل الوجه، وكذا سيخلص إلى أن الدودة الخطافية تتسبب فى بعض الأمراض المعوية.

سيضع ابن سينا قواعد علمية تجريبية من أجل اختبار وتقييم أثر الأدوية على علاج بعض الحالات، تلك القواعد التى ستكون بمثابة حجر الزاوية لتجارب الأدوية الإكلينيكية بعد مرور تسعمائة عام. بدلًا من تناول أحد العناصر فحسب يقول ابن سينا إن نقاء الدواء يعتبر أمرًا هامًّا، والذى يجب أن يكون فعالًا على المستوى العالمى، وأن الجرعة يجب أن ترتبط بمدى شدة المرض، وأخيرًا يجب أن يتم اختباره على البشر تحت ظروف رقابية ومسيطر عليها تمامًا.

بالرغم من أنه سيكون مخطئًا فى الكثير من الأمور فإنه سيكون أيضًا ذا بصيرة نافذة فى الكثير من الأمور الأخرى. إن تبنيه للهيكل الأساسى لنظرية "الأخلاط" الإغريقية سوف يبدو فى وقت لاحق نظرية عفا عليها الزمن عندما يستخدم لوينهوك فى القرن الـ 16 مجهره ليكتشف «الوحوش الصغيرة» العائمة فى قطرات من المياه والدم أو الزاحفة على الجلد أو الأسطح. إن الجراثيم والفيروسات هى سبب العدوى وليست الأخلاط. لكن ابن سينا وبكل تأكيد سوف يكون مصيباً فى أشياء أخرى والتى تظل سارية المفعول حتى القرن الـ 21.

سوف يتضح أنه كان على صواب فى اعتقاده بأن السل هو مرض مُعْدٍ على الرغم من رفض الأوربيين لتلك النظرية لما يقرب من 400 عام. كما ستُثبت صحته من خلال مفكرين مثل سيجموند فرويد وكارل يونج ونورمان كازينس فى الكثير من اعتقاداته حول ارتباط الجسد بالعقل والمصادر العاطفية والفكرية للمرض.

على الرغم من تناول الرازى لهذا الموضوع فقد ألقى ابن سينا عليه المزيد من الضوء -من خلال قراءاته وتجاربه على مرضاه- على أن هناك بعض الأمراض علتها الروح أو ناتجة عن أنماط غير صحية من الأفكار وهى التى أطلق عليها الرازى «الأمراض المعنوية». لكن تفسير ابن سينا لهذا الموضوع سيرد أقل ولو بشكل بسيط فيما يخص الجانب المعنوى الذى أشار إليه الرازى.

ومع كونه من المفترض رجوع هذا الارتباط بين العقل والروح والصحة الجسدية إلى معتقدات الأديان الآسيوية التقليدية مثل البوذية والهندوسية إلا أنه ينجم أيضًا عن الآراء الإسلامية الشمولية الخاصة بترابط كافة العمليات المادية فى الكون الذى خلقه الله عز وجل، بل وهى أيضًا مراجعة للانقسام الإغريقى الفلسفى بين العقل والجسد وبين المادة والروح أو الفكرة.

سوف يحاول ابن سينا الجمع بين العقل والجسد ومن هنا سيعمل من منطلق الاعتقاد الإسلامى الأساسى فى أنه من الطبيعى للبشر أن يكونوا أصحاء لا أن يكونوا مرضى وأن المرض إنما ينتج عن اضطراب فى الوضع الطبيعى للإنسان. فى حين أن هذا الاضطراب قد يصدر عن بيئة مادية غير صحية أو نظام غذائى غير صحى، فقد تناول ابن سينا تلك الفكرة إلى أقصى حد لها بمعنى آخر أن كُلاًّ من الأفكار والأحاسيس والأوضاع الذهنية غير الصحية إنما تؤثر على جسد الإنسان.

وسوف يتضح أن نظريات ابن سينا حول العقل نافذة البصيرة، حيث ستجد تعبيرًا عنها بعد حوالى 900 عام فى علم النفس الحديث والخيال العلمى. فى واحدة من دراساته الفلسفية المؤثرة يطلب ابن سينا من القارئ أن يجرى تجربة فكرية، وهى نظريته الشهيرة «الرجل العائم» أو «الرجل الطائر». فقال: «تخيل وجود رجل يعوم فى الغرفة بدون أى مدخلات حسية، فما من ضوء وما من جاذبية أى ما من أمر حسى من أى نوع، فهذا الرجل يعوم فى ظلام حالك وهو لا يحس بأى شىء بما فيه جسده؛ وذلك لأن أعضاء جسده لا تتلامس مع بعضها البعض- ولنقل إن هذا الرجل خُلق على هذا الوضع، فهل سيكون قادرًا على التفكير؟ هل يستطيع العقل البشرى التفكير فى أى شىء دون أى مدخلات حسية خارجية؟ وإذا ما استطاع فما الذى قد يفكر فيه هذا الرجل؟ أيمكن أن يكون الرجل العائم على وعى بأى شىء؟

وجواب ابن سينا الشهير عن ذلك السؤال هو: نعم، فعلى الرغم من عدم وعى الرجل ببيئته أو أى شىء خارجى فإنه على الأقل سيكون على وعى بوجوده. هذه الفكرة سبقت زعم ديكارت الشهير: «أنا أفكر؛ إذن أنا موجود».

عرف ابن سينا كيف يرتبط معدل نبض المريض بتفاعله مع المحفزات الخارجية مثل بعض الكلمات أو الحقائق. قد يرى البعض أن تلك النظرية قد سبقت نظرية ارتباط الكلمات فى عملية التحليل النفسى التى أرساها كارل يونج بـ 900 عام.

هناك قصة مفادها أنه ذات يوم زار ابن سينا شاب يشكو من مرض غريب غير قابل للتّشخيص. مع تحسس ما إذا كان سبب هذا المرض العقل أو الروح. بدأ ابن سينا بسرد قوائم من الأماكن والعناوين والأحداث والأشخاص وعبر مراقبة نبض المريض واستدلاله خلُص ابن سينا إلى أن هذا الشاب مغرم بسيدة فى مدينة ما. وحتى يشفيه وصف ابن سينا للشاب دواءه بأن يجد تلك المرأة ويتزوجها، ومن ثم فعل وتعافى.

سيقوم بعض المعالجين المسلمين فيما بعد باستخدام أشكال من علاج ابن سينا النفسى أو العقلى فى بعض الأحيان إلى أمور مخزية كأن يفزعوا من يعتقدون أنهم لا يستطيعون المشى حتى يمشوا، كما أن أحدهم سيصدم امرأة تعتقد أنها مشلولة بأن يرفع عنها ثيابها فجأة.

هذه العلاقة بين الحالة الذهنية والوضع الصحى للجسد، والتى تعتبر غير قابلة للجدل ولكن يصعب فى نفس الوقت قياسها لن تجد طريقًا لها فى الطب الغربى إلا بعد مرور زمن طويل. وكذلك عندما يشرع الأوربيون فى إدراك ما يمثل فيما بعد الطب الحديث سينصب تركيزهم على منهج ميكانيكى لعلاج المرض من خلال توفير بعض العناصر المادية.

وسيبقى الحال هكذا حتى يأتى كل من فرويد ويونج وخصوصًا الأخير لتظهر مرة أخرى المناهج الأقدم والأكثر تعلقًا بالروح والأفسح شموليةً فى الطب الغربى. بالإضافة إلى هذين الشخصين سيأتى شخص آخر أمريكى يدعى نورما كازينس وهو كاتب ومحرر بجريدة ساترداى ريفيو ليتسبب فى ثورة ثقافية أمريكية فى أواخر القرن العشرين من خلال تناوله موضوع ارتباط العقل بالمرض. سوف يكتب تفسيرًا رائعًا حول الضحك حتى الشفاء فى كتابه الصادر فى عام 1990 «العقل أولًا: بيولوچية الأمل والقوة العلاجية للروح البشرية».

هل قرأ كازينس لابن سينا؟ إنه تاريخ ضائع ولكن الأفكار سوف تتولد من جديد فى شكل مختلف بعض الشىء وبلغة وسياق مختلفين.

لا علينا، فإن ابن سينا بعد كل هذه السنوات من عدم الاستقرار فى منزل أو عمل سوف يجد ضالته مع راعٍ فى أصفهان. ولمرات أخرى سوف يخوضون المعارك ولن يكون السلاح هو سبب مقتل ابن سينا ولكنها نوبة ألم معوى حادة إما التهاب

معوى وإما تسمم غذائى وإما إنفلونزا معوية. إنه بلاء دائم حل بهذا المقاتل، وكان هذا المرض على وشك الفتك به فى إحدى المرات، ولكنه استطاع أن يشفى منه ولكن فى المرة الثانية عندما أعجزه المرض لم يعالج نفسه وسيطلب نقله إلى بلده همدان حتى يموت ويدفن هناك. وقد توفى ابن سينا وعمره 57 عامًا.

فى المدينة الأندلسية الملكية مدينة الزهراء تلد إحدى النساء فى عام 1005 وبوسعك أن ترى عبر نافذة غرفة الولادة الأعمدة اليشبية والمرمرية والآلاف من النافورات والشرفات المصنوعة من الرخام شديد اللمعان إلى الحد الذى يجعلها تبدو كمسابح من المياه الداكنة المتدفقة إلى سفح تل. ومن بُعد تتلألأ مدينة قرطبة تحت شمس فصل الصيف.

تنظر المرأة مشفقةً من أن تكون تلك لحتها الأخيرة لهذه المدينة الخلابة بل لهذا العالم. يدق قلبها وينتابها خوف آخر من ألا يترك وليدها هذه الغرفة حيًّا وألا يمر بما قد مرت به خلال سنى عمرها العشرين. إنها محظية ملكية للخليفة الأموى هشام الثانى ولشهور عدة وهى تتساءل ما إذا كان وليدها صبيًّا وإن كان سيكبر حتى يصير فى يوم من الأيام خليفة.

يبذل طبيب التوليد واسمه الزهراوى قصارى جهده، وبعد مرور مائة عام سيعرفه الأوربيون باسم ألبوكاسيس من خلال الترجمة اللاتينية لمجلده الطبى الشامل «التصريف أو منهج الطب».

يحتاج الجنين إلى تعديل وضعه قبل مروره بقناة الولادة، وعندها يستخدم الطبيب الكُلاب الذى لبث فى حقيبته الطبية لعدة سنوات. هو الذى تولّى إعداد هذا الكُلاب بنفسه، وفى حقيقة الأمر أنه الذى اخترعه منذ 50 عامًا عندما كان طبيبًا شابًّا فى مقتبل حياته.

يشير البعض إلى أن الزهراوى مثل سلفه الرازى فى بغداد سيقوم بتطهير الكُلاب مستخدمًا الكحول بينما يشك بعض الخبراء فى ذلك، ولكن الجدير بالذكر أن هذا الطبيب هو أول من قام بالكثير من الأمور. هذا الطبيب الأندلسى العربى البالغ من العمر 65 عامًا والذى يعمل بشكل متوازٍ مع ابن سينا ذلك الذى يبعد عنه بمسافة 2.500 ميل هو أبو الجراحة الحديثة.

ولد فى هذه المقاطعة الملكية بعد عامين من البدء فى بنائها فى عام 936. فى تلك الآونة التى شعر فيها الأموى عبدالرحمن الثالث بثقة كافية فى سلطته وقوة مجتمعه حتى ليمكنه الإعلان أنه الخليفة الحقيقى للإسلام. كان ذلك فى الوقت الذى صار فيه العباسيون رؤساء صوريين، والفاطميون يبنون إمبراطوريتهم عبر الشرق الأوسط وشمال إفريقيا.

«هل سيعيش وليدى؟» استطاعت المرأة البائسة أن تسأل ما بين الانقباضات. «إنه أمر شبه مؤكد» يرد عليها الطبيب الزهراوى «فلديكِ صبى بصحة جيدة ولكن تلك اللحظة القادمة ستكون مؤلمة».

بالنسبة لها كان الخبر الذى صرَّح به مطمئنًا على نحوٍ كافٍ، فسوف يحيا الوليد فتيًا. وعلى الرغم من أنها تريد أن تسأل ما إذا كانتْ ستبقى على قيد الحياة هى كذلك فما عاد هذا الأمر بذى بالٍ الآن فهو تقريبًا تجرؤ منها. ومثلما حذرها أدى الألم إلى فقدانها الوعى لفترةٍ وجيزة، حلمت فيها أنها مع حبيبها الخليفة يمشيان معًا فى الهواء ويصعدان إلى الجنة بينما يظل ابنهما على الأرض ويتوج كخليفة للمسلمين. لكن عندما ينظران إلى الأسفل ليريا ما حدث بالأراضى القاحلة المروية التى صارت ثرية بالخصب والمدينة التى ضمت نصف مليون شخص والمقاطعة الملكية بشوارعها المرصوفة الوفيرة، الأنيقة المتسلقة سفح جبل العروس والتى عرفت ذات يوم بالإسبانية باسم سيارا مورينا، تقول لحبيبها: «لقد كانت تلك المدينة جنة فكيف للجنة التى فى السماء أن تكون أفضل من ذلك؟».

وبمجرد التفات الخليفة لينظر إليها مندهشًا من جرأتها وكأنها ارتكبت معصية تستيقظ على صوت وليدها الصبى يصرخ وقد غمرت شمس الأندلس المكان.

«شكرًا أيها الطبيب» قالت السيدة وهى تلتقط نظرة خاطفة للساقين الملتويتين والوجه الأحمر للرضيع الباكى قبل أن تغط مرة أخرى فى النوم. وقد ساغ لها النوم إذ ستتولى الممرضة والقابلة تنظيف الطفل ووزنه وتدوين الملاحظات الخاصة بتفاعلاته.

على دراية بأن الأم نائمة يفضى الزهراوى إلى كبيرة ممرضاته: «لقد كان ذلك وشيكًا». وتومئ الممرضة برأسها؛ إذ تعلم ذلك، فقد أمضت مع الطبيب سنوات طويلة وقد رأته يتخذ القرار الصعب ما بين الأم والطفل أو عندما يكتشف أن الوليد متوفى أو مشوه أو يشاهد الأم وهى تموت تاركةً الرضيع. إن تلك الأوقات من أشد الأوقات على نفسه إذ يشعر بأن إضافة روح على حساب أخرى لا يمثل مكسبًا خالصًا للبشرية أو المجتمع، فإنه يرى ذلك فشلاً.

إن هذا السيد الجراح الأندلسى هو أيضًا سيد المسلمين فى طب التوليد وطب الأسنان والمنتجات الدوائية. ويشمل هذه الأشياء وأكثر الخلاصة الوافية التى وضعها والمكونة من 30 مجلدًا وبسبب تعقيدها ورفعتها سوف يستغرق المترجمون الأوربيون 300 عام حتى يفصلوها ومن ثم يترجموها إلى اللاتينية واللغات الأوربية.

المرأة نائمة والرضيع يسجع والممرضة والقابلة تحرسانهما وقد آن للزهراوى أن يتحرك الآن.

متفقدًا الساعة المائية فى الخارج عند الساحة يرى أن بإمكانه إنجاز موعده مع أحد أعضاء الأسرة الملكية وهى أرملة من النبلاء تعانى ألمًا فى ثديها الذى تورم لسبب ما بشكل بعيد عن الإثارة أو الجمال ليصبح عبئًا ثقيلًا عليها. ظهرها يؤلمها وتشعر بالخجل إلى الحد الذى يجعلها تحبس نفسها حتى تبتعد عن نظرات وهمسات الناس.

فى غرفتها المطلة على إحدى الشرفات المصنوعة من الرخام يصل الزهراوى، وبعد تبادل التحية شرع فى العمل. وعلى الرغم من شعور السيدة بالحرج الشديد أن يراها رجل هو ليس بزوجها إلا أن رؤية الزهراوى للعديد من الأجساد جعل من أسلوبه الفاتر راحة لها. بالنسبة له جاء ذلك ضمن يوم عمل عادى فمن شأن جسم الإنسان أن ينتابه كثير من الاضطرابات. وأعطت ممرضته السيدة المُسكن والمُخدر وانتظرا حتى يبدأ تأثيرهما.

بإحدى تقنيات جراحة التجميل، والتى لن تُحاكى لمدة 950 عامًا راح الزهراوى يرسم خطوطًا فى الأماكن التى سيشقها بقلم فحمى أسود ثم قطع بمشرط من اختراعه. وبسرعة أزال الأنسجة الدهنية الزائدة واستخدم العلاج المعطى عن طريق الفم والموضعى ليقلل النزيف ثم سرعان ما قام برتق الشقوق.

الآن وفى قصر مستشار للخلافة يعانى من آلام مبرحة بسبب حصوات بالكلى قام الزهراوى ومعه أحد مساعديه الرجال بدلاً من الممرضة بربط الرجل وإعطائه المسكن اللازم ثم أدخل سلكًا رفيعًا فضيًا ذا طرف ماسى فى مجرى البول ووجد الحصوة بالملامسة ومع التصاق تام بالماسة سرعان ما فتت الحصوة. وخفتت صرخات الرجل تدريجيًا بادراكه أن المشكلة انتهت على ما يبدو وعندها أمر المريض بإمطار الطبيب بالقطع الذهبية.

إنه وقت الصباح وعند تحقق الزهراوى من الوقت أدرك أنه يستطيع تفحص حالتين قبل أن يستريح للغذاء. فمر على خادم عجوز للخليفة ليتحقق من طقم الأسنان الاصطناعية للرجل والمصنوعة من العظم. يتقدم الخادم بجزيل الشكر للطبيب على طقم الأسنان الذى مكنه من أكل الغذاء الطبيعى مرة أخرى.

أما آخر زيارة فكانت لأحد حراس الخلافة الذى مكث مشلولًا فى ثكنة عسكرية بالقرب من القصر الملكى بعد حادث امتطاء مرعب فى أثناء مرافقته للخليفة فى طريق الرجوع من إشبيلية. أجفل الحصان فجأة ملقيًا بفارسه على جدار صخرى يحمى قناة للرى، وعلى الرغم من أن هذا الرجل عرض نقله من القصر حيث إنه لن يكون بإمكانه الخدمة بعد ذلك أصدر الخليفة أوامره أن يبقى فى مدينة الزهراء حتى يتم ترتيب مكان أكثر ملاءمةً له.

«طاب صباحك» قالها المحارب المغوار للزهراوى، حيث هو الآن شاحب ومكتئب.

يومئ الطبيب برأسه ويقول: «الأهم هو كيف حالك أنت؟».

يهز الرجل كتفيه بمعنى أنه ما من تغير أو تحسن. «هل سأستعيد الحركة هنا؟» يشير الرجل بذقنه إلى الجزء السفلى من جسده.

يصمت الزهراوى للحظة ويعرف مدى فداحة السؤال، فيجيب «بالرغم من أنه ما من أمرٍ مستحيل على الخالق، فما رأى خادمك المتواضع إصابة كهذه قط تعالج من تلقاء نفسها».

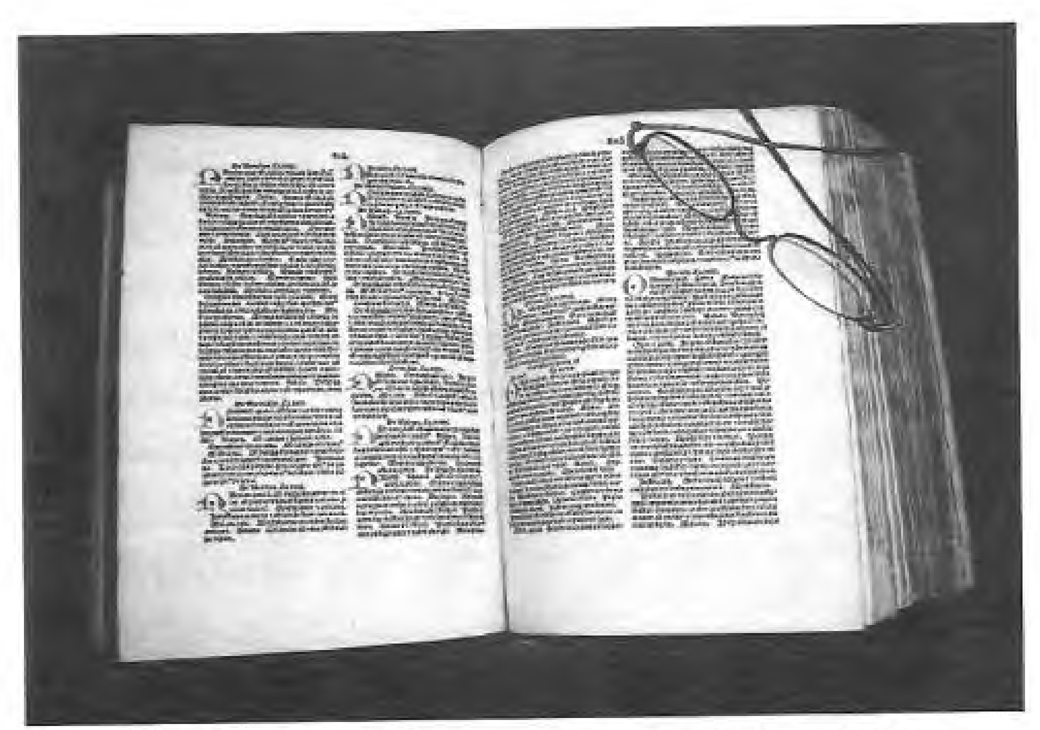
يصمت الحارس لبرهة من الزمن وتنهمر الدموع من عينيه للمـرة المائـة لكنـه لا يريد أن يراه أحد وهو يبكى.

«لقد رأيت شكلين لهذا النوع من الشلل» يستطرد الزهراوى مستشعرًا أن الوقت مناسب للحديث «أحدهما إصابة فى العمود الفقرى تعرف عليها جالينوس منذ 800 عام عندما كان يقوم بتقطيع الخنازير. قطع العمود الفقرى يتسبب فى شلل الجسم من هذه النقطة إلى الأسفل ولا يوجد إصلاح لهذا القطع. الخبر السار لك هو أننى لم أرَ مثل هذا القطع فى عمودك الفقرى وهو أمر هام إذا ما أخذنا سقطتك فى الاعتبار. تفحصت كل فقرة من الفقرات لم أجد أى رضوض بها، والذى وجدته هو ضربة قوية عند هذه النقطة وهى النخاع الشوكى حيث يمر وتر العمود الفقرى إلى المخ. وقد أجريت الكثير من البحوث على الأشخاص المصابين بنفس نوع الشلل ممن لا يعانون من جرح فى العمود الفقرى وتبين لى من هذه الحالات أن المنطقة الواقعة أسفل المخ قد تعرضت لجرح شديد، قطع عملية التدفق من المخ إلى العمود الفقرى أو أعاقها. هذا النوع من التلف فى المخ والعصب يعلو على قدرتى المتواضعة على الرأب والإصلاح. من ثم فإن هذا النوع من الإصابة غير قابل للإصلاح على يد البشر».

فى هذه اللحظة لم يستطع الحارس إخفاء حزنه وأجهش فى البكاء على الملأ. احترم الزهراوى حزنه وانسحبت الممرضة من الغرفة حتى لا تُحرِج هذا المقاتل الحزين.

«لقد اعتقدت لو أن أحدًا يستطيع إنقاذى على وجه الأرض فذلك الشخص هو أنت». أخيرًا يعترف الحارس بذلك.

وكلاهما يعرف أنه ما من أحد يمكنه أن يفعل أفضل من ذلك. فقد رأى كلاهما وفود النبلاء والتابعين والرهبان والراهبات وقد تدفقوا من فرنسا وألمانيا وإنجلترا وإيطاليا ليروا عجائب المسلمين فى الأندلس والمدينة الملكية وليقفوا فى صمت رهيب



كتاب ابن سينا «القانون فى الطب» موضح أعلاه فى ترجمة لاتينية واضعًا معيارًا للطب ولقد استخدمته أوربا لمدة 700 عام.

أمام المكتبات العظيمة وليشاهدوا جودة الطعام والملابس ونمط الحياة الرفيعة ووسائل الراحة فى المدينة الثرية على أرض إنسانية وأخيرًا لمعرفة الوقت بدقة من خلال الساعة والمِزولة.

«أى منا يمكنه الخروج من قناة الولادة ولم يعش حياة كاملة بعد فإن هذا الأمر فى حد ذاته معجزة» يقول الزهراوى بهدوء: «لقد أمضيت سنى عمرى كلها أحاول تمرير هذه المعجزة إلى أكبر قدر ممكن من الناس». يومئ الجندى برأسه؛ لأنه يعلم أن ما يقوله الزهراوى حقيقة، فهذا هو الزهراوى أعظم طبيب على وجه الأرض.

«لهذا أمضيت كل هذا الوقت، ليس فقط فى الدراسة والبحث والتجربة، ولكن أيضًا فى تسجيل النتائج التى توصلت إليها». يسترسل الطبيب متحدثًا الآن وكأنه يكلم نفسه أكثر من مريضه: «لو أننى دونتها على الأقل فسوف تتوافر فى نص مكتوب لمن يأتى بعدى حتى يستطيع التحسين منها أو التعديل عليها، ومن ثم لن تتعرض للضياع. وبهذا الأسلوب قد يجد من يأتى بعدى طريقةً لتقطيب النخاع أو حتى العمود الفقرى. لكن ذلك سوف يتطلب أدق مشرط وأرفع إبرة للتقطيب وربما كانت رفيعة للغاية حتى ليعسُر أن تمسكها يد أو تراها عين رجل عجوز مثلى خشية أن تتسبب فى إصابة خطيرة تكون أسوأ مما هى عليه».

يحدق برهةً في المدينة الملكية، والوزير يتقدم متجهًا من الساحة إلى السوق والسحب المطيرة تتجمع ناحية الجنوب، فقد تهطل الأمطار على الوادي للمرة الأولى منذ أسابيع.

«كل نفس وكل دقيقة هي معجزة» يقول الزهراوي، وهو يغلق حقيبته ليستعد للرحيل «حتى مع إعداداتنا ووسائل حمايتنا العظمى يمكن أن تقتنص منا في ثانية. وما يتوجب علينا فعله هو حماية تلك المعجزة على قدر استطاعتنا وإذا ما فشلنا ولم يعد لدينا المزيد من الوقت فعلينا تقبُّل ما يأتي».

وإذ لفظ بهذه العبارة الأخيرة شعر أنه مخطئ، متغطرس، متقحِّم. كما يشعر بالخزي من نفسه، فقد تلفظ بما لا يمكن قوله، فما عاني قطُّ مثلما يعاني هذا الحارس وبالتالي فهو ليس في وضع يجيز له إسداء النصح له، فهذا الرجل في حاجة إلى تبيُّن طريقه بنفسه.

يشعر الزهراوي وكأنه فشل. هذا الطبيب الذي قدَّم للعالم أول وصف للهيموفيليا وأول نص وثائقي لمرض استسقاء الرأس (أو المياه على المخ) يشعر أن ذلك ليس بكاف. فقد كان أول من قدَّم أول علاج فعال لمرض القلب والإمساك والخلايا التجميلية والنظام الغذائي وقياسات كميات الدواء. كما كتب بالتفصيل حول أمور مثل كي الجروح وعلاجها وإصلاح العظام المكسورة في كل من الكسور البسيطة والمضاعفة واستخراج الأسهم أو القذائف المنغرسة. علاوة على ذلك توصل إلى تدابير معينة، من قبيل استخدام أمعاء الحيوانات والصوف والحرير لعمل أول خيط للعمليات الجراحية، كما توصل إلى طرق لتوسيع المجاري البولية المسدودة وكذا جراحات الجهاز التنفسي. وقد ابتكر عمليات جراحية مثل استئصال الثدي في حالات سرطان الثدي واقتلاع كييس الغدة الدرقية وتفتيت حصوات المثانة. ووصف كيفية بتر الأطراف دون موت الشخص المبتور، أضف إلى ما تقدم أن الزهراوي كان جراح أسنان بارعًا إلى حد قيامه ببعض العمليات التي تتفوق على طب الأسنان المعوجة الحديث.

كان أول من سجَّل وضعًا خاصًا بالولادة ودعمه ولكنه لم يُنسب إليه، بل هو معروف بدلاً من ذلك باسم «وضع والتشر» تيمنًا بطبيب ألماني في القرن الـ19. رسم الزهراوي ما يزيد عن 200 أداة طبية، الكثير منها من اختراعه، والتي سيتم، مع إجراء بعض التعديلات استخدامها لمدة ألف عام قادم. تتضمن أربعة من اختراعاته كُلاب الولادة وأدوات لفحص الأذن الداخلية والإحليل وأداة أخرى لإزالة الأجسام الغريبة من الحلق.

وما كان ذلك بكاف لرجل يقترب من نهاية مستقبله المهني. يخرج الزهراوي

حزيناً ومكتئباً على تجاربه الفاشلة تحت شمس منتصف النهار بمدينة الزهراء وينتشر رذاذ النافورات التى تتغذى على مياه الجبل لتكون بمثابة سخرية من المعاناة الجسدية التى غالباً ما يراها. هذه المدينة وتلك الأساسات التى تكبره بعامين تبدو دائمة، بينما حياة البشر تبدو وانيةً وضعيفة. وينظر مفترضًا أن هذه النافورات سوف تُعمر بعده وبعد كل مرضاه وستظل ترش رذاذها مسبغةً الجمال لمدة طويلة بعد فناء الجيل برمته.

فى أقل من عشرة أعوام سوف يثبت خطأ هذا الافتراض، على الرغم من أنه لن يتسنى للزهراوى معرفة ذلك حينها. فسوف يُخلِف النزاع على الخلافة السياسية مرتزقة البربر الذين سيتركون خيول الحرب تشرب من تلك النافورات وتلقى بمخلفاتها فى الشرفات المصنوعة من الرخام. فى عام 1010 سوف يتداعى الحكم الأموى، ومن ثم سيهتز استقرار وعظمة ما يزيد على 250 عامًا.

وسوف يجعل عدم الاستقرار الذى تشهده هذه المدينة الملكية جماهير قرطبة تنصب على الوادى وعلى الشرفات الملكية مطالبةً بنصيبها فى الغنيمة الملكية التى يقتنصها الغزاة والمرتزقة الأجانب، منها مقتنيات الموائد والفولاذ الدمشقى والأبسطة والستائر وقطع من المرايا الداكنة الشبيهة بالرخام، والخيل والطعام وخمر العنب. أما بالنسبة لأعضاء عائلة الخلافة فتشتتوا محاولين إنقاذ أنفسهم، عازمين على ألا يعودوا مرة أخرى.

سوف يحترق بعض من أعظم مكتبات العالم هنا، فبعد مرور ثمانى سنوات على ذلك الوقت سوف يرى الزهراوى فى السبعينيات من عمره أعظم المكتبات التى شهد تجميعها خلال حياته تشتعل فيها النيران. ومع ذلك الوضع سوف تنقضُّ مأساة الوجود البشرى بكل عنفوانها عليه كى يرى هذه المدينة مدينة الملوك التى هى أشبه بأحد أشقائه تقضى نحبها أمام عينيه. سيكون هذا الأمر جللًا بالنسبة له فيلحقها إلى الموت.

بعيدًا عن القصص والشائعات ما من سجلات تدور حول حياته أو حبه، أكانت له زوجات أو أطفال؟ وكيف كان يبدو؟ وكيف أمضى وقت فراغه هذا إن وجد بالطبع؟ فى واقع الأمر أنه لن تكون هناك سجلات تنبئ عن أصدقائه أو ممتلكاته تمامًا كمدينة الخلافة الرائعة تلك التى انزلقت تحت أرض سييرا مورينا ووحلها فيما عدا بعض الأحجار الممتدة فوق الأرض لتكشف عن الرخام والدعائم مبينةً عن شطر عظيم من التاريخ الإنسانى والكثير من حيوات العظمة.

كل ما سيتبقى عن هذا الرجل هو المجموعة المكتوبة بخط يده حول منهج الطب والمختبئة هنا حيث تنشط هناك لتكون بمثابة كنز خاص بتاريخ ضائع وسيظل ذلك

حتى مرور مائة عام فيما بعد عندما يعثر عليها راهب إيطالى ويرى أنها ستكون ذات قيمة للمسيحيين فى الشمال.

يجد الطبيب ذو العمامة واسمه ابن زهر فى طريقه لرؤية أمير المرابطين بمدينة إشبيلية عام 1120 رجلاً هزيلاً يجلس على قارعة الطريق ومعه إبريق ماء ينتفخ بطنه ويبدو جلياً عليه الحزن.

لكن المعالج متأخر عن موعده ومن ثم يمضى فى طريقه وإذ يمر فى اليوم التالى يجد نفس الرجل فى نفس الحالة المتدهورة فيقف ويسأله: «أمريض أنت أيها الرجل؟» فيومئ الرجل برأسه، فيسأله: «ما الذى أكلته؟».

فيجيبه قائلًا: «فقط بضع كسرات من الخبز ومياه من هذا الإبريق».

فيرد عليه الطبيب: «الخبز لن يؤذيك» «فلا بد أن السبب الماء، فمن أين تأتى بهذا الماء؟».

ويرد الرجل: «من البئر الواقعة فى القرية».

فيرد عليه الطبيب: »إن البئر نظيفة، فلا بد أن السبب هو الإبريق، فلتكسر هذا الإبريق ولتأتِ بآخر».

«إننى لا أستطيع أيها الطبيب؛ فهذا هو إبريقى الوحيد».

«وذلك هو بطنك الوحيد المنتفخ بهذا الشكل فمن الأيسر أن تجد إبريقًا آخر من أن تحصل على بطن آخر».

أخذ أحد رفاق الرجل المريض حجرًا وكسر به الإبريق على الرغم من اعتراض الرجل المريض وإذ بضفدع ميت ينسرب مع الماء.

فيقول الطبيب: «أرأيت يا رجل!» «كاد هذا الضفدع النافق أن يأخذك معه. خذ هذه العملة المعدنية واشترِ لك إبريقًا جديدًا».

وإذ يمر الطبيب فى المرة التالية يجد بطن هذا الرجل وقد انكمش وقد ازداد وزنه واستعاد لونه الطبيعى وأخذ يغنى فى مدح الطبيب.

لمن هم فى الجانب الضائع من التاريخ قد تبدو الهزيمة وكأنها النهاية، ولكن فى الهزيمة والموت غالبًا ما يكمن الإحياء والتجديد. وفى حالة الأمويين بالأندلس سوف يلى موت الوعى والمجتمع ميلاد غيره.

بعد موت الزهراوى والأمويين سوف تذهب أدراج الرياح الرؤيا الأموية للوصول إلى أندلس حكيمة وثرية تسيطر على كافة أرجاء أيبريا تحت لواء الإسلام. لكن سيحل مكان هذه الرؤيا الضائعة، المرابطون فى عام 1090 ثم الموحدون فى عام 1145 ليستولوا على المدن الإسلامية العظيمة.

وطوع خدمة هؤلاء الحُكام الجدد بعد مرور مائة عام على وفاة الزهراوى ستكون عائلة فى غاية الرقى من المعالجين رجالاً ونساءً وأشهرهم ابن زهر المعروف فى اللاتينية باسم أفينزور.

ابن زهر هو الذى أنقذ الرجل الجالس على قارعة الطريق. كما أنه أول عالم مسلم يحدد عمله فقط فى مجال الطب، فقد تخرج فى جامعة الطب فى قرطبة وسوف يقضى معظم حياته فى إشبيلية. وهو فى السبعين من العمر سيكون طبيباً لدى المرابطين، ثم يزجون به فى السجن وعند إطلاق سراحه سيعمل فى خدمة الموحدين.

على الرغم من اعتبار تشريح الجثة أمرًا مخزيًا فقد انتشرت الشائعات بأن ابن زُهر يقوم بتشريح الجثث حتى يضيف إلى المعارف المتعلقة بعلم التشريح والتى وصفها الفرس والزهراوى. سيكتب حول طرق تجنب تكون الحصوات بالكلى من خلال نظام غذائى ونمط للحياة، ومن ثم الحيلولة دون آلام العلاج وصعوبته فى المستقبل. كذا سيتمم ممارسة الرازى باختبار أنواع جديدة من العلاج على الحيوانات. قد يكون ابن زُهر هو أول من وصف الطفيليات بإسهاب بالإضافة إلى الأمراض التى تُسفر عنها. كما أنه الذى وضع منهجًا لعمليات فتح القصبة الهوائية مما يسمح للمرضى الذين يعانون من الاختناق الناتج عن انسداد الحنجرة بأن يعيشوا.

وسيقوم ابن زُهر بتطوير أسلوبه الخاص بفتح القصبة الهوائية على الماعز قبل تجربته على البشر، كما سيقوم بتشريح خروف بدا موته نتيجة لأمراض تقرحية بالرئتين. وعلى النحو الذى يليق بخريج من كلية طبية رسمية سيدعم بقوة برنامجًا للتدريب الدقيق والمنقح لأطباء المستقبل لا يشابه نظام التدريب الداخلى الواقع اليوم.

وعلى نفس القدر من الأهمية سيقوم ابن زُهر رجل القرن الثانى عشر بقبول أمر اتجاه اثنتين من قريباته وهما ابنته وحفيدته إلى مجال الطب. وعلى الرغم من أنهما تخصصتا فى طب التوليد فقد شرعتا فى تقليد سيشيع حتى فى أكثر المجتمعات المسلمة تمييزًا حتى الوقت الحديث، فبينما كان يتم استثناء المرأة من المجال السياسى فى كثير من الدول، سيتم قبولها كطبيبة.

سوف يكتب ابن زُهر الكثير مثل أسلافه وسيشرح برسم بيانى تفصيلى فى كتاب «التيسير فى المداواة والتدبير» المتعلق بالعلاج والنظام الغذائى كيف تسنى له التعامل مع أكثر حالات المرض والإصابات حرجًا، والذى شمل فيما شمل الفقرة التالية حول جروح البطن:

ويعرض فى البطن الجرح إما بحديدة أو بخشبة حديدة تشق جلدة البطن والمراق معًا فيبرز الثرب وعن بروزه يجب أن يصرفه صانع اليد. وإن

أصابه تراب أو غبار أو نشارة خشب فيجب أن يغسل ذلك عنه بماء فاتر ثم يصرفه برفق، فإن تمزق منه جزء أو اسودّ فالحزم أن يقطع عنه ما تمزق وفسد ثم يصرفه إلى البطن ويخيط عليه بخيط حرير إبريسم. وصانع اليد كفيل بعمل ذلك، وإنما (أعرفه علمًا لا عملًا، ويضع على الخياطة ما يعين على الالتحام. ومع ذلك فيجب بسبب الجرح أن يلطف الغذاء غاية ما يمكنه ليقل انصباب المواد. وإن لم يخرج دم كثير فلا يضره أن يستفرغ شيئًا من دم العرق الأكحل، وهذا أمر شامل فى جميع الجراحات ليقل انصباب المواد. وربما خرج من الجرح شيء من المعى وإن خرج والمعى صحيح لا آفة به كبيرة ولا صغيرة، حاشا بروزه إلى خارج، فتجب المبادرة إلى رده برفق كى لا يعرض فيه انتفاخ، فلا يسع من حيث خرج. فإن وقع توان حتى أصاب المعى انتفاخ) فيجب عند ذلك أن يصب ماء عذبًا معتدلًا فى الحرارة بحيث يلتذه الإنسان بصفحة خده، يصب منه على ما انتفخ صبًا متواليًا حتى تذهب النفخة، فإذا ذهبت تسعى فى رده بغاية الرفق. ثم بعد ذلك يخاط الخرق من الجلدة ومن المراق بحرير إبريسم على غاية الرفق. وألزم العليل السكون، وإلا يرفع صوته ولا يتحرك، وألا يتملأ من الطعام ولا من الشراب، وغذه بما يكون قليل الكمية كثير التغذية [29].

سيزدهر حال ابن زُهر وأسرته تحت حكم المرابطين والموحدين بالرغم من تعرضه للسجن أو فراره للمنفى. إن مخاطرة الاعتماد على الرعاة الأقوياء تعنى أن قدر المرء إنما يرتبط بقدر سيده. والجدير بالذكر أن خمسة أجيال من هذه الأسرة ستكون من المعالجين.

لكن على الرغم من الازدهار المشهود فسوف تقرر أسرة يهودية أن الأندلس ـ والتى انقسمت الآن إلى ولايات، حيث لا يتمتع التعاون الإسلامى اليهودى المعهود بالقوة المعتادة ـ ليس أفضل مكان للبقاء فيه. والموحدون على وجه الخصوص بالتعاون مع بعض من أحلافهم المسيحيين سوف يضيقون على يهود قرطبة، وهو الأمر الذى سيثير شعور هذه الأسرة وبالتالى ستنتقل إلى القاهرة التى ما عادت تحت حكم الفاطميين ولكنها تحت حكم القائد صلاح الدين.

عام 1199 يجلس الفلكى الفيلسوف الطبيب موسى بن ميمون أو الميمونى على بساط، بينما يستلقى مريضه الملكى على سريره الفاخر ذى الوسائد الحريرية ويرتشف شرابًا فوارًا متحدثًا بإلحاح عما يريد.

يقول السلطان: «بشكل مباشر يا أبا موسى، ما أريده هو إحدى جرعاتك التى تمنحنى المزيد من الفحولة الذكورية حتى أستطيع المضاجعة من خمس إلى ست مرات فى الليلة كى تستمتع رفيقاتى قدر الاستطاعة».

يفكر الطبيب الفيلسوف للحظة حول المدى الذى تدهوروا إليه منذ وقت الحكم النبيل لصلاح الدين. الآن كبير مرضاه ورئيسه هو ابن أخ صلاح الدين الملك الأفضل وهو أبعد ما يكون عن عمه. فهذا الرجل يتفانى فى إخضاع النساء وقنينات الخمر ورفقاء القمار تماماً مثلما كان عمه يتفانى فى لمِّ شمل الجيوش المسلمة المنشقة للوصول إلى حل مع الصليبيين المتهورين، وعندما لم يتمكن من ذلك ألحق بهم الهزيمة فى ساحة القتال وعند انتصاره كان رحيماً.

الآن بعد كل ما مر به لدفع فواتير وإطعام عائلته تضاءل وضع ابن ميمون حتى صار شكلاً من أشكال القوادة الملكية.

«سلطانى العزيز» يقول الرجل اليهودى العجوز البالغ من العمر سبعين عامًا بلغته العربية الأم، والتى هى لغته الأولى منذ ولادته فى قرطبة من زمن بعيد. «ألا ينبغى تدبر الأمور بشكل أفضل من ذلك، فتتقبل حدود الطبيعة وتمنح نفسك بضع ساعات للنوم ليلاً؟ إن قوتنا على المعاشرة إنما يمنحها الله لنا وليست بمحلول فى زجاجة».

يحدق الشاب المستهتر فى الطبيب.

يقول السلطان: «إنك لتحقد علىَّ لأنك رجل عجوز، فقد نسيت ملذات الليل».

يصمت موسى بن ميمون للحظة ثم يضحك قائلاً: «يا عزيزى السلطان، على الرغم من أن قوتى الجسدية هى مجرد ظل لقوتك فلا أزال أذكر المتعة الجسدية، بل وأحيانًا أمارسها. فقد رزقنى الله عز وجل بزوجة واحدة وهو ما يصلح لى، وهذا كثير علىَّ وإلا ما كانت لتتوافر لى قوة للعمل. أما فى حالتك فالبلاد تعتمد عليك وعلى قوتك، على أن خدمتك لمجموعة من النساء تمثل مخاطرة عليك».

يقول السلطان: «وأنا أريد المخاطرة، إيتِ لى بالجرعة».

«كما ترغب يا سلطانى» يرد ابن ميمون وهو ينحنى حتى يرحل.

فى أثناء خروجه من قصر الخلافة أخذ يتساءل عن أى مركباته يفى بالغرض لحالة هذا الغبى المُسرف، وإن لديه بكل تأكيد بعض المركبات فى خزانة الأدوية. وفى واقع الأمر أن هذا الشاب ألهمه كى يؤلف كتابًا كاملاً حول أثر الصحة على الطاقة الجنسية وأدرج فيه معرفته المتعلقة بمثيرات الشهوة الجنسية.

من جانب آخر فإنه يذكر أن أسلافه مثل الرازى وابن سينا قد خاضوا فى الكتابة حول الارتباط الذهنى بالمرض والأمراض الدائمة وارتباط نمط الحياة بالصحة

والطب الوقائى. ولقد عالج السلطان من كافة أنواع الأمراض التى حلت به ومنها الأمراض التى تسبب فيها لنفسه والاكتئاب والإرهاق والأمراض التناسلية ومرض ذات الرئة. ولولا أن ابن ميمون كان عليه أن يعول الكثير من الأطفال وأبناء الأخوات والخالات والعمات من كبار السن لترك هذا العمل معللًا للسلطان أن المريض هو من يشفى نفسه لا الطبيب ودواءه.

لكن ابن ميمون يشعر كما لو كان عائلاً نصف يهود مصر، لذا فليست لديه هذه الحرية. لطالما كان على هذا الوضع منذ وفاة والده العجوز وكان كل من والدته وأشقائه على شفا التضور جوعًا. وقد أفضت تلك السنوات العذبة المليئة بالقراءة والدراسة إلى نهاية سريعة وبالرغم من مواصلته الكتابة حول الفلسفة فإنه كان يتقوت من مهنة الطب.

ومكافأته هى أنه أصبح رئيس أطباء وزير صلاح الدين الأعظم الفاضل، وهو من حكم البلاد فى أثناء محاربة صلاح الدين للصليبيين. وما كانت تلك بالوظيفة السهلة ولكنها على الأقل عالجت قضايا أكثر جدية، فأحس أنه ينجز شيئًا مختلفًا.

وصف موسى بن ميمون يوم عمله المعتاد فى تلك الآونة فى خطاب له إلى الحاخام صموئيل بن طبون، وهو يوم مليءٌ بالأعمال ليس مثل أيام الأطباء الذين أتوا من بعده بـ 800 عام؛ إذ كانوا يمضون أيام عملهم فى صراعات ومنافسات فيشكو له اضطراره إلى زيارة الخليفة يوميا فى الصباح الباكر، وإن حدث وأصابه مرض أو أصاب أحد أبنائه أو ما ملكت يمينه فلن يستطيع مغادرة القاهرة إنما يتوجَّب عليه المكوث بالقصر طيلة اليوم. ويروى كذلك أنه فى حالة مرض أحد أو بعض الجنود فعادة ما يتوجب عليه مباشرة علاجهم بنفسه. ويشكو أنْ قد بات حتمًا عليه أن يشد الرحال إلى القاهرة صباح كل يوم، حتى مع عدم وجود ما يستوجب هذا، ولا يعود إلى الفسطاط إلا فى المساء، وحينها يكون متضوِّرًا الجوع، فيجد الكثيرين، من اليهود أو أناس من النبلاء أو العامة، يجد القضاة ورجال الدرك، وكذلك الأصدقاء والأعداء، جمعًا مختلطًا محتشدًا بانتظار عودته، فما منه إلا أن ينزل عن دابته ويسارع بغسل يده ويذهب لمرضاه يتوسل إليهم أن ينتظروه برهة حتى يلتقط بعض اللقيمات، وهى كل زاده طوال اليوم. بعدها يبدأ فى معاينة مرضاه، فيكتب لهم وصفات وعلاجات أوجاعهم، ويتوافد المرضى، ذهابًا وإيابًا حتى يحل الليل، وإنه ليقسم بالتوراة أنهم كانوا يتخطون الليل بأكثر من ساعتين، يظل طوال هذه الفترة يحادثهم وأحيانًا يصف لهم العلاجات وهو راقد من جراء التعب. وعندما يحل الليل، يكون قد أنهك تمامًا حتى إنه ليعجز على الكلام.

قام بن ميمون بعمل رائع فى هذه الأيام فذاع صيته فى شتى الأرجاء حتى إنه تلقى عرضًا للعمل لدى المحارب المسيحى ريتشارد قلب الأسد وهو العرض الذى تجاهله بن ميمون.

كتب بن ميمون عشرة مجلدات فى الطب والصحة والمرض والعلاج. كتب فى كل شيء بدءًا من أخطاء جالينوس إلى شرحه للسكتة الدماغية والنوبات المرضية وأمراض الكبد ومرض السكر والصحة الجنسية والبواسير. وقد أحصى علامات التهاب الكبد الوبائى ثمانية كالتالى: حمى، وشعور بالعطش، وفقدان تام للشهية وتحول لون اللسان من الأحمر فى البداية إلى الأسود، وقيء صفراوى يكون فى أوله كصفار البيض، ثم ينقلب للأخضر الداكن، وشعور بالألم بالجانب الأيمن ويمتد ليبلغ عظم الناحرة، وبين الحين والآخر ينتاب المريض سعال خفيف وشعور بالثقل يبدأ فى الجانب الأيمن ثم يستشرى فى كامل أنحاء الجسم.

سوف يوضح بن ميمون فى رسم طريقة العلاج من لدغة الثعبان وهو الأسلوب الذى سيظل فى شكل معدل له حتى منتصف القرن العشرين فى كتيب صبى الكشافة:

> *عندما يُنهش المنهوش يجب أن يبادر للحين برباط ما فوق الموضع الملسوع إن أمكن ذلك ربطًا جيدًا حتى لا يسرى السم وينبسط فى جملة البدن. وفى حال ربط الموضع المربوط يكون شخص آخر يلى شرط موضع اللسعة ومصه بفمه بغاية جهده، ويبصق كلما يمتصه، وينبغى أن يتمضمض أولًا بزيت أو بشراب وزيت، وبعد ذلك يمتص ويدهن شفتيه بدهن بنفسج، إن حضر، أو بزيت. يحذر الذى يمتص أن يكون فيه علة أو ضرس متآكل، وقد اشترط بعض الأطبا أن يكون الذى يمتص صايمًا... وإن لم يكن المص فيبادر بتعليق المحاجم إما بدون نار أو بنار، والتى بالنار أقوى وأبلغ لأنها تجمع بين الجدب والكي، وبعد ذلك يخرج ما فى المعدة من الطعام بالقيء السهل، وإن عسر القيء فيقيأ إما بالزيت أو بالسمن، واحذر أن يتقيأ بعنف، وبعد ذلك يتناول الترياق الكبير إن وجد، أو معجون مثرود يطوّس إن عدم الترياق أو أحد المعاجين الكبار النافعة من السموم على العموم، وإن عدم ذلك فأخذ الأدوية المفردة المخلصة من نهش الهوام على العموم[30].*

مما يدعو للسخرية أن ابن ميمون سوف يتذكره الناس، لا بالكثير من حكمته الطبية العريضة وإنما بكتاباته كأعظم فيلسوف يهودى وكالأب الروحى لليهود القادمين من إسبانيا إلى الشرق الأوسط. إن أكثر من سيحيى ذكراه هم اليهود فى نفس الوقت الذى عمل فيه طيلة حياته فى شفاء الكثير بل الأكثر من المسلمين والمسيحيين.

مما يدعو للمزيد من السخرية أيضًا بعد مرور 800 عام أن القليل من اليهود ـ هذا إن وُجدوا ـ سوف يتقلدون مناصب عليا موثوقًا فيها فى المجتمع الإسلامى كما كان الحال مع موسى بن ميمون، والقليل من المسلمين سوف يتذكرون ذلك فى وقت من الأوقات. رأى اليهود المدن الإسلامية كأماكن تحتوى على فرص لهم وملجأ فكرى كما فكر ابن ميمون عندما ترك هو وأسرته إسبانيا.

سخرية أخرى هى أن ابن ميمون سوف يقضى آخر أعوامه فى عمل العلاج الطبى للآثار الناجمة عن نمط الحياة المستهترة للسلطان.

حتى لو عاش الأطباء المسلمون العظام أو ماتوا فسوف يظهر المزيد من النصب التذكارية الدائمة لحكمتهم الطبية ضمن مشاهد الحياة اليومية. هذه الهياكل الجديدة سوف تكون حقًا مجهولةً فى أماكن أخرى من العالم ولن تتكرر فى أى شكل ملحوظ لها لقرون من الزمان. الكثير منهم سوف يحاكون القصور، وذلك لأن بعضها إلى حد ما قصور حقيقية منحها الرعاة الملكيون لجعل حياة مواطنيهم تستمر لوقت أطول وتكون أكثر صحة وإنسانية. سوف تقودهم الرسالة المساواتية للنبى، صلى الله عليه وسلم إلى الاعتناء بالفقير والمريض والأقل حظًا.

سوف يطلق على هذه المبانى مستشفيات وصيدليات، وهى مفتوحة ـ لا إلى مدًى بعيد ـ للأثرياء ممن يفضلون تلقى العلاج فى منازلهم بل هى مفتوحة أمام من يستطيع المشى إليها، وإذا ما لم يستطع المشى فسوف تنقله الحمّالات.

فى الشرق الإسلامى سوف تُعرف المستشفيات بكلمة بيماريستان وهى كلمة فارسية تعنى «أماكن المرضى» ثم سيتم اختصارها فيما بعد لتصبح ماريستان. و بدلًا من أن تكون أماكن يذهب إليها الناس ليلقوا حتفهم، فإنها ستصير أماكن يذهب إليها الناس لتلقى العلاج وللشفاء من مجموعة عديدة من الأمراض والإصابات، وتشمل فيما تشمل المرض العقلى.

أما الصيدليات، فبينما ستكون محدودة وفقًا للتكنولوجيا المتوافرة، فإنها ستوفر العلاج الذى غالبًا ما يكون له آثار إيجابية على المرضى، وذلك لأنها بشكل ما نتيجة للتجارب والملاحظة، وليست شكلاً من أشكال الطب الشعبى أو الخرافات أو السحر، فإنها ستتسم بتقدم ملحوظ عن نظيراتها فى أوربا.

أول مستشفى إسلامى سيكون عبارة عن عيادة، ويقع فى مدينة دمشق وقد تم بناؤه وفقًا لأمر من الخليفة الأموى فيما بين العامين 705 و715 وكان متخصصًا بشكل كبير فى عزل الأشخاص المصابين بالجذام عن سائر أفراد الشعب.

بعد مرور عقود على ذلك فى أواخر القرن الثامن سيدعو هارون الرشيد طبيباً من مدينة جنديسابور بفارس لفتح أول بيماريستان فى بغداد. وفى القرن التاسع سيترأس الرازى مستشفى أوديدى الجديد فى بغداد ولإيجاد أفضل مكان لبناء المستشفى فسوف يُعلق قطعًا من اللحم النيء فى أماكن مختلفة من المدينة ثم يوصى ببناء المستشفى فى المكان الذى به أقل معدل لفساد اللحم. بمجرد بنائه سيحتوى المستشفى على عشرين طبيباً منهم الجراحون واختصاصيو العيون والفسيولوجيون ومع حلول القرن الـ 12 سوف يصف الزائرون هذا المستشفى بأنه يبدو «قلعة عظيمة».

وفى عام 1000 سيصل العدد إلى خمسة مستشفيات رئيسية فى مدينة بغداد العباسية. هذه المستشفيات ستوفر خدمات متعددة الأغراض على غرار المستشفيات الحديثة، وستحتوى على مراكز للجراحة وعيادات خارجية وأماكن للعلاج النفسى وأماكن أخرى للنقاهة علاوة على مناطق للرعاية. ومن وقت إلى آخر يتوفر لدى تلك المستشفيات وقت لعلاج المحتاجين.

فى مصر فى القرن الـ 13 سوف يتوفر لدى مستشفى المنصورى 8000 سرير وسيبلغ عائدها السنوى مليون درهم كما سيتميز بسياسته التى تنص على علاج أى مريض يلجأ إليه سواء غنى أو فقير. ويتم الفصل بين النساء والرجال فى هذا المستشفى علاوة على تخصيص أماكن لتقديم الخدمات للمسلمين والمسيحيين كل على حدة. كما سيوجد بالمستشفى قاعات للمحاضرات وصيدلية داخلية وأجنحة منفصلة للجراحة والحميات وأمراض العيون. وتضمَّنت حجة وقف البيمارستان المنصورى النص التالى:

بيمارستان لمداواة مرضى المسلمين الرجال والنساء والأغنياء المثرين والفقراء المحتاجين، بالقاهرة ومصر وضواحيها من المقيمين بها والواردين إليها من البلاد والأعمال على اختلاف أجناسهم وأوصافهم وتباين أمراضهم وأوصابهم، من أمراض الأجسام قلت أو كثرت، اتفقت أو اختلفت، وأمراض الحواس خفيت أو ظهرت، واختلال العقول التى حفظها أعظم المقاصد والأغراض... يقيم به المرضى الفقراء من الرجال والنساء لمداواتهم إلى حين برئهم وشفائهم. ويصرف ما هو معد فيه للمداواة، ويفرق للبعيد والقريب، والأهلى والغريب، والقوى والضعيف، والدنى والشريف، والعلى والحقير، والغنى والفقير، والمأمور والأمير، والأعمى والبصير،

والمفضول والفاضل، والمشهور والخامل، والرفيع والوضيع، والمترف والصعلوك، والمليك والمملوك، من غير اشتراط لعوض من الأعواض، ولا تعريض بإنكار على ذلك ولا اعتراض، بل لمحض فضل الله وطوله الجسيم، وأجره الكريم وبره العميم [31].

ستضيف القاهرة فيما بعد مستشفيين رئيسيين آخرين أما دمشق فستحتوى على خمسة مستشفيات وبالنسبة لمكة والمدينة فى شبه الجزيرة العربية وغيرها من المدن الكبرى فى شمال إفريقيا سيوجد بها ما يزيد عن ذلك. ستلحق الأندلس بالركب فيما بعد لتبنى مستشفى فى غرناطة فى نهاية القرن الـ 14. كما سيوجد لدى تركيا العثمانية والمغول الكبار مراكز كبرى للشفاء.

سيكتب مؤرخ طبى فى أحد الأيام حول تقدم المسلمين فى علاج المرض العقلى قائلًا:

فى مدينة فاس بالمغرب تم بناء مستشفى للأمراض العقلية فى بداية القرن الثامن كما تأسست مثل هذه المستشفيات على يد العرب فى بغداد فى عام 705م والقاهرة فى عام 800 م ودمشق وحلب فى 1270 م. علاوة على توفير الحمامات والأدوية والعلاج السخى للمرضى النفسيين، كما توفر أيضًا العلاج الموسيقى والمهنى. وكانت هذه الأنماط من العلاج متقدمة للغاية حيث تفد يوميًا فرق موسيقية حية وجوقة لمتعة المرضى فكانت تقدم الأغانى والحفلات الموسيقية وكذا التمثيل الكوميدى.

يوجد أيضًا المزيد من الابتكارات الثورية. وتنتشر بشكل كبير الصيدليات التى تصرف الدواء المعالج للأعراض المرضية ومن ثم تجعل الناس يشعرون بتحسن ويطلق على هذه المهنة باللغة العربية صيدلة. كما انتشرت الصيدليات من مدينة بغداد إلى المدن الإسلامية الأخرى خلال 50 عامًا من الافتتاح الأول لها فى مستشفى هارون الرشيد بالعاصمة. فيما بعد احتوت المستشفيات الممنوحة ملكيًا على مصارفها الخاصة، والتى توزع الأشكال المختلفة من الأدوية مثل الشراب والمراهم والبودرة وغيرها من المنتجات التى صنعتها معامل داخلية كبرى. تخضع تلك الأمور كافة للمشرفين الحكوميين ممن يراقبون دقة القياسات ومدى نقاء الدواء. كان ضمن مهامهم التأكد من عدم استخدام الأدوية منتهية الصلاحية وحماية العامة من أى أخطاء أو عجز.

لماذا تعتبر المؤسسات الطبية الإسلامية عالية المستوى أكثر تقدمًا مقارنةً بأوربا المسيحية؟ على الرغم من أن العالم الإسلامى فى تلك الآونة، وحتى الآن، ليس

بمنأى عن الخرافات فإن المجتمع الإسلامى فى عصوره الذهبية سوف يوفر معظم الوقت أدوية ذات فاعلية كما هو ثابت فى التجارب والملاحظات الطبية، كما سوف يتبع التوقع العام بشكل سريع القدرة التكنولوجية للمجتمع، وكذا مهنة الطب نفسها سوف تصبح محددة تماماً وسيقوم الكثير من أسسها على علم حقيقى. وبينما سيوفر الكثير من الدور المسيحية فى أوربا التكايا التى ترعى المرضى ومن هم على فراش الموت، فسوف تفتقر تلك الدور إلى الموارد أو التكنولوجيا المطلوبة لعلاج الأمراض.

إلا أن المناخ الطبى الإسلامى المتقدم سوف يؤدى إلى ما يزيد عن الأدوية المفيدة والمستشفيات وأماكن الرعاية النفسية. فإنه سيؤدى إلى ظهور المعالجين الكبار من أمثال ابن النفيس، والذى يعتبر من أعظم أطباء القلب فى عصر ما قبل الحداثة. ولد ابن النفيس فى عام 1213 فى قرية صغيرة بالقرب من دمشق ولكن بعد دراسته الطب هناك أمضى معظم حياته العملية فى القاهرة كأول رئيس لمستشفى المنصور وكقيِّم على مدرسة الطب التابعة لهذه المستشفى. وهناك توصل إلى اكتشافه المذهل فى عام 1284 ألا وهو التركيب البنيوى للقلب وطريقة عمله بالإضافة إلى فهم كيفية تدفق الدم من القلب إلى الرئتين حيث "يختلط مع الهواء".

حتى ظهور ابن النفيس كان التفسير المتعارف عليه بخصوص ميكانيكية عمل القلب هو الذى وضعه جالينوس. كتب جالينوس أن الدم يتحرك من البُطين الأيمن إلى الأيسر عبر مجموعة من المسام أو الممرات ما بين الجانبين، بغض النظر عما إن وجدت تلك المسام أم لا.

قلب ابن النفيس هذا التفسير رأساً على عقب بإعطائه نظرة ثاقبة على حركة الدم بين القلب والرئتين عبر مراقبته للكثير من العمليات الجراحية والتشريح.

وكتب فى التعليق على شرح تشريح القانون:

ولا بد فى قلب الإنسان ونحوه مما له رئة من تجويف آخر يتلطف فيه الدم ليصلح لمخالطة الهواء، فإن الهواء لو خلط بالدم وهو على غلظه لم يكن من جملتهما جسم متشابه الأجزاء، وهذا التجويف هو التجويف الأيسر حيث يتولد الروح. ولكن ليس بينهما منفذ، فإن جرم القلب هناك مصمت ليس فيه منفذ ظاهر كما ظنه جماعة، ولا منفذ غير ظاهر يصلح لنفوذ هذا الدم كما ظنه جالينوس، فإن مسام القلب هناك مستحصفة، وجرمه غليظ فلا بد أن يكون هذا الدم إذا لطف نفذ فى الوريد الشريانى إلى الرئة لينبث فى جرمها ويخالط الهواء ويتصفى ألطف ما فيه، وينفذ إلى الشريان الوريدى ليوصله إلى التجويف الأيسر من تجويفى القلب [32].

إن اكتشاف ابن النفيس يمثل للطب الحديث نفس أهمية اكتشاف الخوارزمى للصفر فى الرياضيات الحديثة. كان ابن النفيس أول من وضع خريطة بشبكة الشرايين التى تزود القلب بالدم، ولكن بسبب الضياع بين صفحات التاريخ ظل عمله هذا مجهولاً خارج نطاق العالم العربى حتى قام أندريا ألباجو من بيلونو فى إيطاليا بترجمة بعضه فى عام 1547 أضف إلى ذلك مشروع ترجمة أخرى له فى إسبانيا بعد مرور خمس سنوات.

بشكل يشوبه الارتياب تظهر ترجمة ألباجو قبل ظهور الانفراجة فى فهم القلب ودورته على يد ويليام هارڤى بنحو ستين عامًا. ويليام هارڤى هو طبيب إنجليزى عملَ فى بلاط چيمس الأول وتشارلز الأول وقد درس فى جامعة پدوا. على نحو غريب لم تتضمن ترجمة ألباجو المعروفة لمؤلف ابن النفيس على إشارات لحركة الدم من القلب إلى الرئتين. إنه حذف غريب يجعل المرء يعتقد أن ألباجو ترك هذا الجزء عن عمد لخوفه من السلطات الطبية فى إيطاليا، لكن من المحتمل أن ألباجو استأمن أحد زملائه المقربين من الموثوق بهم على اكتشافات ابن النفيس.

من المحتمل أن هارڤى تعرف على عمل سلفه العربى فى بدوا. بدأ هارڤى تفصيل أفكاره نحو عام 1628 أى بعد مرور حوالى 350 عامًا على قيام ابن النفيس باكتشافاته. مما تجدر الإشارة إليه أن هارڤى توصل إلى الدورة الكاملة للدم عبر الجسم بأكمله، لا الدورة الرئوية للدم من القلب إلى الرئتين فقط كما شرحها ابن النفيس.

أحد مآسى تاريخ ضائع أنه مع حلول الوقت الذى يترجم فيه عمل ابن النفيس لم تعد أوربا البالغة عصر النهضة تذهلها الاكتشافات الإسلامية، وبالتالى لم يحصل على اسم لاتينى أو الاعتراف المطلوب به، فقد اختفت أيام التبجيل الأوروبى لأفيسينا (ابن سينا) ورازيز (الرازى) وألبوكاسيس (الزهراوى) وعفت عليها القرون. بينما تصحو أوربا الآن ويخبو العالم الإسلامى فيكون من المناسب أن يتم التعامل مع أوربا كالمركز الحقيقى؛ أى أثينا الجديدة وروما الجديدة أيضًا.

على الرغم من تلاشى دور الأطباء المسلمين العظام وغيرهم من المفكرين من العقل الأوروبى مع نهاية عصر النهضة فسوف يحصلون على شهرتهم فى أوربا العصور الوسطى عبر مجموعة صغيرة من المترجمين المسيحيين واليهود من ذوى العزم، والذين شملهم الحظ ليكون لديهم القدرة على القراءة والكتابة والسفر. يخدم هؤلاء المترجمون نفس الغرض فى أوربا العصور الوسطى مثلهم مثل مترجمى بيت حكمة المأمون فى بغداد منذ قرون مضت، لكن عملية الانتقال إلى أوربا كانت بالطبع أبطأ، حيث ظلت المعرفة حكرًا على الكنيسة، ولم يسمح بالدخول إلى الأماكن الخاصة السرية بمكتبات الكنيسة إلا لقلة فقط.

بالرغم من كافة تلك العقبات استمرت كل من المعارف الإسلامية الطبية والرياضية وغيرها فى طريقها نحو الشمال فى غالبية الأمر من خلال إسبانيا، والتى تعتبر كعاصمة فكرية متعددة الثقافات المنفذ لأوربا حتى القرن 15. تمثل المدن مثل طليطلة وبرشلونة وليون وسيجوبيا منارات تجذب إليها كل من ينتابه فضول الاستنارة الفكرية، وحدث انتقال شبيه فى المدن الفرنسية الجنوبية بمجرد أن وطئها المسلمون، منها مارسيليا وناربون وتولوز وصقلية وجنوب إيطاليا مثل ساليرنو ودير سانت بينديت بمونت كاسينى وباليرمو وسيراكوز كانت أيضًا جميعًا بمثابة نقاط انتقال.

أحد المسئولين الرسميين الكاثوليكيين فى بداية العصور الوسطى، وهو سيلفيستر الثانى، أول بابا فرنسى والذى توفى فى عام 1003 كان ممن يقدرون التطورات الإسلامية فى الرياضيات والعلوم. قبل وفاته جعل الكنيسة تحل نظام الترقيم الرومانى المعقد بنظام الترقيم العربى الهندى الأكثر كفاءة بالإضافة إلى تبنى المناهج الفلكية والرياضية الإسلامية. نظرًا لأن معظم الأوربيين ممن يجهلون القراءة والكتابة ويعيشون فى فقر إقطاعى طاحن فإنهم لن يشعروا بتلك الابتكارات، بل سيشعر بها فقط الصفوف العليا من مفكرى الكنيسة ولن يتم استخدامها بشكل عام حتى منتصف القرن الـ 15.

فى عام 1065 يأتى قسطنطين الإفريقى من تونس بالمخطوطات الإسلامية إلى ساليرنو؛ حيث مدرسة الطب الأولى فى أوربا وهناك قام الرهبان والعلماء بترجمة النصوص الطبية العربية إلى اللاتينية.

بعد مرور قرن آخر، فى القرن الـ 12، سيقوم روبيرت من تشيستر بإنجلترا بالعديد من التراجم للخوارزمى من العربية إلى اللاتينية، منها دراسة الخوارزمى حول الجبر المعروفة باسم كتاب «المختصر فى حساب الجبر والمقابلة»، ورائعته حول الحساب الهندى المعروفة باسم «رسالة فى الحساب». يهتم روبيرت، والذى عمل فى منتصف القرن الـ 12 بالأمور العربية، ومن ثم ترك إنجلترا ليقضى عقدًا من الزمان فى إسبانيا وبشكل أولى فى مدينة سيجوبيا مختلطة الثقافات. وتثير اهتمام فيرديناند الأول الحاكم الكاثوليكى هناك التطورات العربية، ومن ثم يشجع روبيرت على عمله.

جيرار من سيرمونا إيطالى عاش فى القرن 12 وهاجر إلى إسبانيا بغرض تعلم العربية وترجمة المعرفة الإسلامية إلى اللاتينية. استقر فى مدينة طليطلة التى تحررت من السيطرة الإسلامية فى عام 1085 وعندما جاءها جيرار كان يحكمها أسقف فرنسى يدعى ريموند، وهو الآخر من المهتمين بالتطورات الإسلامية، من المعتقد، تحت رعاية ريموند، أن يكون جيرار قد ترجم ما يزيد على 70 عملاً فى مجالات مختلفة، منها الرياضيات والطب. يرجع إليه الفضل بسبب تراجمه التى

ستكون حجر الأساس لأعمال كل من روجر بيكون وألبيرتوس ماجنوس وطوما الأكويني وكوبرنيكوس، ثم يجيء چون الإشبيلى العالم اليهودى ليكون بديل روبيرت ويستكمل عمله فى هذه المدينة.

انضم أبيلارد من باث فى إنجلترا، والذى يدعى أحيانًا باسم أديلارد إلى سائر المترجمين. شاع عنه أنه ادعى أنه مسلم فى بداية القرن الـ 12 بإسبانيا ليثير انتباه، حاكم مسلم إسبانى واحد على الأقل إلى أن المترجمين المسيحيين «يسرقون» المعرفة والحكمة المتراكمة للمسلمين حتى يستولوا على المعلومات ويدعوا أنها لهم ثم يقلبوها ضد غير المسيحيين. وسواء كان ذلك صحيحًا أم لا فقد اتخذ أبيلارد المسلك الآمن بينما قام بترجمة العديد من الأعمال الرياضية للعرب والإغريق من اللغة العربية إلا أن الأوربيين سوف يتذكرونه خصيصًا لوضع يده على التراجم العربية للعظيم إقليدس. وتمثل المترجمون الآخرون الأقل شهرة فى أفلاطون من تيفولى وهيرمان من كرانثن ورودولف من بروخة وميشيل سكوت وفيليب من طرابلس ووليام من لونيس أما من إسبانيا فكان دومينيكيس چونديزالفى وهيو من سنتاالا. كما يشمل المترجمون اليهود للغة العربية بيتروس الفونسى وإبراهام بن عزرا وچون من أشبيلية وسفاسوردا. من ثم سوف يستوعب الأوربيون من أسلافهم المسلمين فكرًا علميًا ثريًا ومتعدد الثقافات، حتى الأعمال الإغريقية الخالصة تعتبر مفهومة من خلال عدسة قرون الفكر الإسلامى، والتى انتشرت فى أقاليم عديدة مثل العراق وإسبانيا وإيران ومصر.

تلك «الجسور الثقافية» هى ما ستمكن العمل الفكرى للجيل القادم من المفكرين الرياضيين والعلميين الأوربيين. يدين بالفضل ألبيرتوس ماجنيس، وهو راهب عالم من القرن الـ 13، لجيرار لترجمته أعمال أرسطو والمفكر الفارسى العظيم ابن سينا من العربية إلى اللاتينية. ألبيرتوس ماجنيس فى المقابل هو معلم سانت توما الأكوينى الذى سيأخذ التأملات الفلسفية العميقة للمسلمين والإغريق ويضعها فى سياق جديد ذى طابع مسيحى.

اقتبس روجر بيكون الراهب الفرانسيسكانى فى إنجلترا من القرن الـ 13، وهو أحد معاصرى ألبيرتوس والمكافئ له التراجم المكتوبة بخط اليد للعرب الكاثوليك وعمل بها فى مجالات شتى للرياضيات والكيمياء والفلك والبصريات. وهو متأثر على وجه الخصوص بعبقرية ابن الهيثم.

يعتمد المنهج الفعلى للترجمة على المترجم، ولكنها لا تكون مهمة سهلة بالمرة. حاول الكثيرون القيام بترجمة حرفية من اللغة العربية الصعبة إلى اللاتينية وأحيانًا كانوا يرتجلون بأن يأخذوا كلمة عربية مجهولة ويكتبوا مقابلاً لاتينيًا له نطق مماثل. ونادرًا ما تتلمذ هؤلاء المترجمون فى المجالات التى كانوا يترجمونها،

وبالتالى فإنهم كانوا إما أن يخمنوا المعنى وإما أن يستعينوا بخبراء لمساعدتهم فى فهم الكلمات والعبارات الصعبة، وأحياناً يلجئون إلى وسطاء مثل العلماء اليهود الإسبان المتقنين لثلاث لغات: العربية واللاتينية والعامية الإسبانية. فيقوم اليهود بترجمة المخطوطة من العربية إلى الإسبانية ثم يقرءون الكلمات بصوت مرتفع حتى يتسنى للمترجمين الآخرين ترجمتها إلى اللاتينية.

فى بادرة أخرى يقوم المترجمون بتحويل أسماء المفكرين المسلمين إلى اللاتينية. وعلى الرغم من القيام بذلك لمساعدة الأوربيين فى التغلب على الأصوات غير المألوفة وصعبة النطق للأسماء العربية فإنه مع مرور الوقت تطمس هذه الممارسة هوية هؤلاء المفكرين المسلمين فتجعلهم يبدون وكأنهم لاتينيون أو غربيون.

بهذا الأسلوب ستمتص أوربا الطب الإسلامى مثلما فعلت بالرياضيات والعلوم والأفكار الإسلامية، ولن يحدث هذا بشكل منفصل؛ وذلك لأنه لن يلجأ أحد من المفكرين المسلمين أو المتلقين الأوربيين إلى هذا الأسلوب. سيكون الطب الإسلامى توءمًا للرياضيات والعلوم الإسلامية وأول قريب للموسيقى والفنون والفلسفة والقوانين الإسلامية.



رؤيـة وصـوت وقـلـعـة

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾

[سورة الكهف: آية 31]

مدينة مشهد فى إيران عام 2007 – تَجثُم على مدينة مشهد غمامة الظهر البرتقالية وينتشر غبار المدينة وضوضاؤها عبر وادى نهر الكشاف. تقع المدينة فى قلب خراسان القديمة حيث مارس الرجال والنساء التجارة وزرعوا لما يزيد عن 5000 سنة أما الآن فتعج بالضوضاء وتدفق ما يزيد عن مليونى شخص مع الاختلاط بصوت المؤذن والمرور وحركة التجارة النشطة.

إنها ثانية كبريات المدن فى إيران بعد مدينة طهران. بغض النظر عن كونها مركزًا تجاريًا فإنها أيضًا مكان الجامعات وحرم الإمام رضا. يحتوى المقام على ضريح إمام يجله الشيعة، ويعتقد أنه اغتيل بأمر من الخليفة المأمون فى بغداد، وهو موضع يحج إليه الشيعة، وكثيرون من السكان المحليين يستهزئون بقولهم إن الأثرياء يحجون إلى مكة بينما الفقراء إلى مشهد.

مدينة مشهد هى أيضًا ملجأ للأفغان الهاربين من الغزو السوفيتى أو ما عرف فيما بعد بحركة طالبان. يقيم فيها كثير من الناس منذ عقود فقد نما فيها جيل جديد من الأفغان المغتربين المتمسكين بالتراث الأفغانى إلا أنهم يتحركون وفقًا للوتيرة الإيرانية.

فى مكتبة جامعة الفردوسى تيمنًا باسم شاعر القرن الـ 13 المبجل؛ تقرأ امرأة أفغانية من جيل اللاجئين الأفغان الثانى، تدعى «ليلى» ـ تقرأ تراجم عديدة لقصة ألف ليلة وليلة، فتفتنها شخصية شهرزاد. بالرغم من أنها تتقبل بوعيها أن كل الوثائق تؤكد على أن راوية تلك القصة كما هو مشار إليه فى معظم نسخها الشهيرة ليس له وجود أو أنها مجمعة من شخصيات عدة، فهى لاتزال على المستوى العاطفى تتوق

إلى الوجود على شاكلة هذه المرأة، بهذا القدر من الذكاء والعبقرية، والتى وضعت إطارًا لنمط قصصى كان أساسًا لكثير من الأجيال الأدبية.

مع ترعرعها فى إيران التى هى أكثر تمكينًا للمرأة من موطنها الأصلى أفغانستان، وصلت إلى اعتقاد مفاده أن شهرزاد لم توصف بأنها شاعرة مصادفةً وما استطاعت أن تبرهن على ذلك، وإنها لتعتقد أن المرأة أكثر ميلًا للشعر بفطرتها من الرجل حيث إن المرأة بطبيعتها تتجه إلى المهارات شديدة الحساسية والملاحظة وهو الأمر الذى ينتج عنه أفضل أنواع الشعر. هى لا تحدس أن الرجال يعجزون عن كتابة شعر بنفس قوة الأحاسيس، ولكنها ترى أنهم لا يتمتعون بنفس النزعة الطبيعية الموجهة للوعى بالشعر.

كما أنها تحب التمسك بفكرة المرأة التى تضع حياتها على المحك كل يوم معتمدة على مهاراتها فى سرد القصص. لم تخاطر ليلى بحياتها طيلة السنوات العشر أو أكثر، والتى أصبحت فيها شاعرة جادة، ولكنه أمر لم يكن يسيرًا الحفاظ عليه. هى أم لطفلين وبالرغم من أن زوجها، وهو أستاذ هندسة بالجامعة، قد عمل بكد ليعوضها عن كونها لا يتوافر لديها سوى القليل من الوقت فى اليوم. وتتعرض ليلى لنظرات قبيحة وشتائم من العديد من رجال المجتمع الأفغانى لما هى عليه. من هنا وجدت دعمها وسلواها فى رفقة كاتبات لاجئات أفغانيات أخريات بالإضافة إلى الإيرانيات اللائى انضممن إليهن.

بعد بضعة أسابيع سوف تكون ضمن المشاركين فى تجمع وطنى خاص بالكُتاب الأفغان بالمنفى، والذى سينعقد فى طهران. إنها لحظة هامة فى حياتها بالرغم من أنه من غير المؤكد لها بعد ما إذا كان زوجها سيستطيع إيجاد جليسة أطفال وآخر يحل محله لبعض محاضراته أم أن عليها استصحاب أطفالها معها فى رحلة الحافلة الطويلة إلى طهران. وتفكر مليًا فى أنه ثمن بخس تدفعه، أقل كثيرًا مما خاطرت به شهرزاد كما أنه أقل مما قد تُخاطر به ليلى إذا ما كانت فى أفغانستان محاولةً التمسك بمبادئها الشعرية.

لطالما قالت لنفسها إنها ما كانت لتصبح على ما هى عليه لو أنها ترعرعت فى أفغانستان فما كانت لتحصل على قسط من التعليم وما كانت لتعرف عن الشعر وما كان يتاح لها أن تصير شاعرة هى نفسها.

لكنها الآن ليست متأكدة تمامًا من ذلك، فعلى الرغم من أنها لم تذهب إلى أفغانستان قط فإن الذكريات المنقولة إليها والمناهج التى يتبعها بلدها المفقود كثيرة للغاية إلى الحد الذى يجعلها تشعر بأنها تعرف أفغانستان. علاوة على ذلك فهى تقرأ أية أخبار تستطيع إيجادها على المواقع المختلفة بشأن بلدها وكذا تستمع إلى كل المعلومات الجديدة التى يتناقلها الأصدقاء.

أحيانًا تشعر تقريبًا بالذنب تجاه حظها الطيب أن منحها القدر والدين تمكنا من الخروج أثناء أسوأ أوقات الحرب الأهلية فى أفغانستان.

لطالما كانت مدينة مشهد بيتها، وحتى وقت حديث لم ترد على الإطلاق الرجوع إلى المكان الآخر وهو بيت والديها فى بلخ، المدينة القديمة لطريق الحرير، والتى كانت أيضًا مسقط جلال الدين الرومى الشاعر الصوفى بالقرن الـ 13 والذى ذاع صيته فى الغرب خلال السنوات الأخيرة. حتى الآن فى ظروف المدينة المحدودة هل سيتاح لها شىء من الأحجار والهواء والمنظر العام لمدينة بلخ، مما يمكن أن يعزف صوتها؟

تجلس فى المكتبة فى ظهر ذلك اليوم الدافئ وتنظر إلى الطلاب الآخرين وهم يقرءون أو يكتبون على الطاولات أو يغفون، فتتساءل هل خسرت قدر ما كسبت بكونها أجنبية عن البلد؟ هل من واجبها أن تكون مثل شهرزاد وتحارب من أجل المرأة فى الصفوف الأولى بأفغانستان؟

تتعرض أفكارها للمقاطعة حيث يأتى أحد أمناء المكتبة ممن يعرفونها ويربت على كتفها.

«التعليق النقدى الجديد الذى كنتِ تسألين عنه وطلبناه لكِ فُقد فى الشحنة الأخيرة».

«فُقد؟» تهمس ليلى بإحباط. ألف هذا الكتاب مجموعة من باريس وترجم إلى اللغة الفارسية وقد كانت تنتظره لمدة تزيد عن عام.

«لقد تم شحنه من طهران منذ شهر مضى وقد تتبعناه».

«هل سيجدونه؟».

هز أمين المكتبة كتفيه معربًا عن عدم معرفته.

«هل تستطيع طلبه مرة أخرى؟».

«ليس قبل ستة أشهر فلدينا قائمة جديدة تمامًا للطلب».

تتنهد ليلى من الحسرة، فلسبب ما لا يرتبط بالعقل تعتقد أنه ربما كان فى وسع هذا الكتاب توفير بعض الأدلة على تساؤلاتها الضائعة عن شهرزاد. والآن عليها الانتظار لوقت أطول، لا تعرف إلى متى؟

وتحل فترة ما بعد الظهيرة وهى لا تستطيع القراءة أو التفكير، ويأتى موعد صلاة العصر ويدخل الطلاب ويخرجون حسبما اتفق، وتتذكر أنه موعد إحضار الأطفال وأنها قد أضاعت ساعات فى إحساسها بالشفقة الذاتية.

عدم التأكد من اختياراتها وقدرها وما تراه فى تلك اللحظة بالذات من أنانيتها

وجه إليها لطمة شديدة فأغلقت دفتر ملحوظاتها بشدة ووقفت فجأة ثم مشت فى ضوء العصر البراق لمدينة مشهد. تمشى بين مجموعات الطلاب العديدة التى تتحدث عن التآمر والخيانة والوظائف غير المتفرغة وفرص الحصول على المنح وتذاكر الطيران المخفضة إلى طهران وبحر قزوين والأوطان فى أوقات الإجازات.

ماذا فقدت باتباعها هذا الطريق؟ ماذا فقدت؟

مدينة القدس فى عام 691 – تتلألأ قبة ذهبية قديمة بمدينة مقدسة تمثل نقطة التقاء العقائد الثلاث لإبرهيم عليه السلام، تتخذ القبة شكل نصف كرة ذهبية فوق قاعدة مكونة من ثمانية جوانب من القرميد الأزرق والأبيض. يقع أسفل القبة الذهبية صخرة وهى أساس العالم بالنسبة لليهود وهو المكان الذى قيد فيه إبراهيم عليه السلام ابنه إسماعيل استعدادًا لذبحه تنفيذًا لامتحان الله عز وجل لمدى إيمانه. كما أنه بالنسبة للمسلمين المكان الذى عرج منه النبى عليه الصلاة والسلام إلى السماء مع الملك جبريل.

قبة الصخرة هى أول رؤية معمارية بعيدة الأمد للأمويين، وقد أمر الخليفة عبدالملك ببنائها فى عام 691 بعد مرور حوالى 60 عامًا على وفاة النبى عليه الصلاة والسلام. يدعم الهيكل ذا الأضلاع الثمانية صفان من الأعمدة والركائز. تجسيدًا للاعتقاد التقليدى بأن النبى عليه الصلاة والسلام حرم تمثيل معظم الأشياء الحية فإنها مُزينة من الداخل بصور للزهور والنباتات وتغطى الجدران الزخارف الملونة والمطلية بالذهب.

تلتقط القبة الذهبية أشعة الشمس لتضفى على المشاعر إحساسًا بإجلال القدس، وهى المدينة المقدسة القديمة عند اليهود والمسيحيين ولها نفس القداسة أيضًا عند المسلمين. على خلاف الكثير من الصروح الإسلامية فقد صمدت لما يزيد عن 1,300 عام وقد وضع الخليفة عبدالملك نقشًا يشير إلى رعايته لهذا المشروع.

مع بقاء هذا الهيكل المتناغم والمنتظم سيحاول بعض الأشخاص سرقة تاريخه فبعد مرور 150 عامًا قام الخليفة العباسى المأمون بإزالة اسم عبدالملك من النقش ووضع اسمه بدلًا منه مع عدم تغييره لتاريخ الانتهاء، ومن ثم سيكتشف العلماء هذه السرقة. وفيما بعد سيقوم الخلفاء والسلاطين المسلمون بتجديد الهيكل وإصلاحه فى القرن الـ 19.

على الرغم من كونها أكثر المبانى القديمة، التى لها طابع معمارى إسلامى بقاءً فإن تاريخها ومعناها لن يضيعا، وربما يرجع ذلك إلى أهميتها أيضًا لدى العقيدتين الأخريين. لن يتكرر هذا النجاح المعمارى من حيث قهره للزمن فى بغداد عندما

ينهار مركز الخلافة. حتى عندما يقوم المأمون بوضع اسمه كذباً على قبة الصخرة فبالكاد يكون قد تبقى شىء ما من بلده المحبوب بغداد. فإن القصور المصنوعة من المرمر لن تستطيع الصمود أمام انقضاض حفيد جنكيز خان الضارى أو عذاب القرون الطاحن.

سوف يكون لأماكن أخرى ذات طابع أسطورى وباع تاريخى حال أفضل. ولكن حتى بالنسبة لهذه المدن فمأساة نقش ذكرى الحب على حجر تكمن فى أنه مع مرور الوقت سوف تفقد تلك الذكرى الكثير من معناها وتضيع حياة هذا الحب ليتشابه مع هذا الحجر. عند الإعجاب بالأهرامات على سبيل المثال سوف يتساءل الزائرون التالون كيف تم بناء تلك الآثار ولماذا. مدينة رائعة متهدمة تقع على جبل منذ ألف عام مضت تم وضع أساسها فى سياق ضاع منذ زمن بعيد، وهو السياق الذى كان فى وقت من الأوقات مليئًا بالألوان الزاهية وحركة الحياة، تلك كلها أمور سوف تترك المراقبين فى المستقبل يخمنون معناها.

تقع إحدى قصص الحب الباقية على الحجر فى الأطلال الواقعة على أطراف مدينة قرطبة على جبل سيارا مورينا. تلك المدينة التى سقطت بسقوط الأمويين أمام المرابطين؛ المدينة الملكية التى سقطت فى طى النسيان والواقعة على الجبل سوف تتداعى تدريجياً، تنقلب الأعمدة والأحجار أو تنتقل إلى مشاريع بناء جديدة مثل قصر مدينة صقلية ودير سان جيرونيمو. كما ستُسرق الأعمدة الرخامية لتشييد قصور جديدة أو لنحت تماثيل دينية، أما النوافير فسيملؤها غبار وفضلات القرون وأخيراً تسحقها الأرض بسبب عوامل التآكل.

سوف تفقد هذه القلعة حتى اسمها، ففى أحد الأيام سوف تُعرف مدينة الزهراء بقرطبة القديمة. هل يذكر أى شخص معنى الاسم المنسى؛ مدينة الزهراء؟

يعرف أحد الرجال معنى هذا الاسم، فمنذ زمن سحيق وقف ذلك الرجل على الجبل مع زوجته المحبوبة الزهراء ببشرتها الزيتونية وعينيها البنيتين وهو يعلم ـ كما صرح لها ـ أنها على نفس قدره من الذكاء إلى الحد الذى يجعلها خلافًا لأى شخص آخر تمسك بزمام قوة الحب، الذى يمكن أن يكون أعظم من قوة السيف.

فى أكثر اللحظات خصوصية كان يؤنب نفسه بقسوة على حبه لهذه السيدة فهى ليست زوجته المفضلة فقط ولكنها أيضًا زميلته المساعدة فى الأمور العلمية والسياسية وهى محل ثقته القصوى فى اتخاذ قراراته المتعلقة بلقاءاته وسياساته. وعلى الرغم من أنه أوكل إليها هذا الدور فإنه كان مفتونًا بها إلى حد بعيد لعدم إساءة استخدامها لهذا الدور. أحيانًا كثيرة كانت تقول له إن الأمر ليس من شأنها، لكنه كان يُلح عليها لعلمه بأن نصيحتها تنبع من تواضع وفهم.

تضفى الزهراء المزيد من الطراوة على حياته؛ فهى تحب الشعر والموسيقى وتوفر له المتعة عندما تكون أيامه مشحونة بالأمور الإدارية والسياسية والحربية والرعوية حيث إن تلك الأمور من الممكن أن تدمر روح المرء، بالرغم من أن الكثيرين قد يضحون بحياتهم ليقفوا فى مكانه الآن ويحوزوا هذه القوة العظمى فإنه على وعى بمدى ما يمكن لتلك القوة من أن تصير مهلكة.

وقد صرح لها فى أحد الأيام أنه فقط من خلال التوازن القائم بينهما يمكن للأندلس أن تحيا، وهذا التوازن يكمن فى سيطرته هو على الحياة المادية وهى على الحياة الروحية، وهى سعيدة بأن تكون ملهمته وأن تضفى الجمال والرقة على قسوة الحرب والسلطة. إنها لتحب هذه المعادلة، تحب أن تكون سلطانة الليل لخليفة النهار.

على الرغم من أنه يعلم برجاحة عقله أهمية إقامة مدينة جديدة ينتقل إليها مع بلاطه من قرطبة المكتظة بالفصائل والعامة الجامحة والأعداد الغفيرة من البشر، وعلى الرغم من أنه يعى أن قدره إقامة مدينة تكون محط غيرة ودهشة أوربا فيراها السفراء الأجانب تلوح فى الأفق على بُعد ساعات من بواباتها، وعلى الرغم من درايته أن على تلك المدينة الجمع بين الجمال الحقيقى للأمويين وحب النبى، صلى الله عليه وسلم، على الرغم من كل ذلك فإنه ليعلم أيضًا أن على مدينته الملكية أن تسلب لُب الزهراء.

إنه الخليفة عبدالرحمن الثالث وهو بعد مرور 250 عامًا على حكم عائلته للأندلس يشعر بقوة كافية ليعلن أنه ليس نسخةً من النسخ العباسية كتلك المتكررة فى بغداد وأنه الخليفة الحقيقى للإسلام. وحتى يلائم هذا الدور المزعوم الجديد كحاكم لمعظم أنحاء العالم يتوجب أن تكون لديه مدينة على نفس القدر من جمال وعظمة العالم الذى يحكمه.

وفضلًا عن ذلك يجب عليه إيجاد وسيلة لبث حب الزهراء فى أحجار المدينة ونافوراتها وقصورها ومساجدها وشرفاتها.

كيف يضفى حب امرأة وموسيقاها وذكاؤها على المبانى والشوارع والقصور والنافورات؟ إنه لأمر يتطلب أفضل معماريين وبنائين وقاطعى رخام ونحاتين ومهندسين. كما أنها ستتطلب حاكمًا يشعر بالسيطرة المطلقة على شعبه وسوف تحتاج إلى ثلث الخزانة الوطنية بالكامل لمدة 40 عامًا لتمويل هذه القصيدة الحجرية للحب والقوة.

سوف يبلغ طول المدينة ما يزيد على ميل وعرضها ما يزيد على نصف ميل. وستحتوى على ثلاثة شوارع عريضة تنزلق نحو الوادى الكبير، علاوة على ذلك

سيوجد بالمدينة مكان للطيور وحديقة حيوان وأربعة برك للسمك و300 حمام فى القصر وحده. كما ستحتاج إلى 400 مسكن لإيواء خادمى القصر ولتسليحهم، كما سيكون لهذا المُجمع مستودع خاص للأسلحة.

إن العجائب الداخلية، والتى ستكون مفتوحة فقط للحاشية والقادة رفيعى المستوى والخبراء الماليين والمفكرين التابعين للخلافة الأموية أضف إلى ذلك المبعوثين الأجانب ممن يأتون لتقديم الإجلال والتقدير، سوف تتضمن غرفة اجتماعات واسعة يزينها البلور لإضفاء ضوء داخلى من قوس قزح عند دخول أشعة الشمس. فى غرفة أخرى يوجد تجويف زئبقى فى منتصفها، سينشر أشعة الشمس فى الداخل على الجدران عند إلقاء ضوئها من الخارج.

وبينما يقوم الخليفة ويليه ابنه على بتشييد هذا المشروع، والذى يمتص تلالاً من المال سوف يلجآن إلى خبير المال اليهودى هاسداى بن شابروت الذى سيمكن الخلفاء من إطلاق العنان لفكرتهم. سوف تمتد قوة هاسداى التى تقوم على نقطة التقاء الحب والمال إلى كل جانب من جوانب الخلافة. بالرغم من كونه يهودياً وأنه لن يحصل على اللقب الرسمى فسيعرفه الجميع بالوزير الأعظم اليهودى لآخر الخلفاء الأمويين، وسوف يحصل على أقصى حد للتوازن الجميل بين المسلمين واليهود الأندلسيين فى أوج استقلالهم الأندلسى المشترك والمتضافر مع القدر للخروج بعمل فنى لا يمكن أن يحققه سوى الملوك والسلاطين.

كما سيكتب المؤرخ القبطى المصرى المكين فى القرن الـ 13 فى تأريخه الطموح للعالم معتمداً على ما جاء من ابن حيان، وهو أحد أفراد حاشية الخليفة الأندلسى:

بدأ عبد الرحمن الناصر لدين الله بنيان الزهراء أول سنة خمس وعشرين وثلاثمائة، وكان مبلغ ما ينفق فيها كل يوم من الصخر المنحوت المنجور المعدل ستة آلاف صخرة، سوى الصخر المصرف فى التبليط، فإنه لم يدخل فى هذا العدد، وكان يخدم فى الزهراء كل يوم ألف وأربعمائة بغل، وقيل أكثر، منها أربعمائة زوامل الناصر لدين الله، ومن دواب الأكرياء الراتبة للخدمة ألف بغل، لكل بغل منها ثلاثة مثاقيل فى الشهر، يجب لها فى الشهر ثلاثة آلاف مثقال، وكان يرد الزهراء من الجيار والجص فى كل ثالث من الأيام ألف ومئة حمل.

وذكر المؤرخ أبو مروان ابن حيان صاحب الشرطة أن مبانى قصر الزهراء اشتملت على أربعة آلاف سارية، ما بين كبيرة وصغيرة حاملة ومحمولة، ونيف هو ثنتا عشرة على ثلاثمائة سارية، قال: منها ما جلب

من مدينة رومة، ومنها ما أهداه صاحب القسطنطينية، وأن مصاريع أبوبها صغراها وكبارها كانت تنيف على خمسة ألف باب، وكلها ملبسة بالحديد والنحاس المموه، والله سبحانه أعلم فإنها كانت من أهول ما بناه الإنس، وأجله خطرًا، وأعظمه شأنًا.

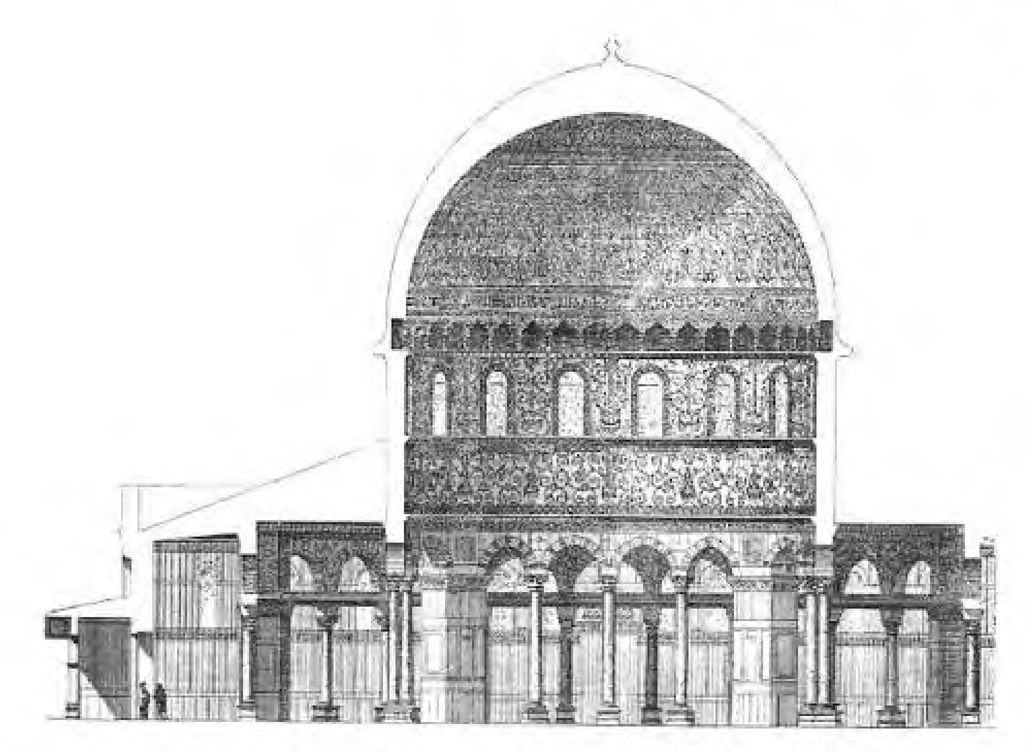
وكان عدد السوارى المجلوبة من إفريقية ألف سارية وثلاث عشرة سارية، ومن بلاد الإفرنج تسع عشرة سارية، وأهدى إليه ملك الروم مائة وأربعين سارية، وسائرها من مقاطع الأندلس طرّكونة وغيرها، فالرخام المجزع من رَيّة، والأبيض من غيرها، والوردى والأخضر من إفريقية من كنيسة إسفاقس..

يسترسل ابن حيان قائلًا عن عجائب الزهراء:

وأما الحوض المنقوش المذهب الغريب الشكل الغالى القيمة فجلبه إليه أحمد اليونانى من القسطنطينية مع ربيع الأسقف القادم من إيلياء، وأما الحوض الصغير الأخضر المنقوش بتماثيل الإنسان فجلبه أحمد من الشام، وقيل من القسطنطينية، مع ربيع الأسقف أيضًا. وقالوا: إنه لا قيمة له لفرط غرابته وجماله، وحمل من مكان إلى مكان حتى وصل فى البحر، ونصبه الناصر فى بيت المنام فى المجلس الشرقى المعروف بالمؤنس، وجعل عليه اثنتى عشر تمثالًا من الذهب الأحمر مرصعة بالدر النفيس الغالى مما عمل بدار الصناعة بقرطبة: صورة أسد إلى جانبه غزال إلى جانبه تمساح، وفيما يقابله ثعبان وعقاب وفيل، وفى المجنبتين حمامة وشاهين وطاووس ودجاجة وديك وحدأة ونسر، وكل ذلك من ذهب مرصع بالجوهر النفيس، ويخرج الماء من أفواهها[33]..

مع أنه تم تشييد مدينة الزهراء كى تبقى إلى الأبد؛ أى تبقى ما بقيت الأحجار فى هذا الكون، فإن هذا العمل الضخم سوف يجلب الدمار على نفسه. ستعيش المدينة فقط 65 عامًا أخرى وهى مدة تعتبر طرفة عين فى تسلسل أحداث التاريخ. ويجوز الزعم أن الحُكام من الأفراد والأسر الحاكمة الصغرى يبقون ما يزيد على ذلك، بل إن أماكن قبيحة ليس لها أى صبغة جمالية أو عاطفية تحتوى فقط على المتعلقات العامة تظل باقية لمدة تفوق تلك الفترة بعشرات المرات.

أول هجوم على مدينة الزهراء سيكون من مرتزقة من شمال إفريقيا أرسلهم



مسجد عبدالملك فى القدس أو قبة الصخرة الذى تم الانتهاء منه فى عام 691 ويظهر هنا فى شكله فى القرن الـ 19 وهو أقدم مبنى معمارى إسلامى مقدس لا يزال باقيًا.

«المرابطون» لإسقاط الأمويين. لكن فى أعقابهم ستأتى أيضًا مجموعة من عامة الأندلس من دافعى الجزية ممن ساعدوا فى تمويل هذا المشروع على مرور جيلين بالإضافة إلى المواطنين الغاضبين والمضطهدين والثائرين من قرطبة، والذين سينتهبون المُجمع الذى يحيا فيه حكامهم ويحرقونه فى عام 1010 ثم يحاولون أخذ الغنائم لأنفسهم.

هذا المكان أى مدينة الزهراء سيصير محل ازدراء، بل وسيقع فى طى النسيان لمدة 950 عامًا. عندما يبدأ العلماء وخبراء الآثار إماطة اللثام عن الأطلال وعوامل التآكل فسوف يجدون القليل مما له قيمة هناك مما سيجعلهم يتساءلون فيما بينهم ما إذا وجدت بالفعل الشرفات البراقة المصنوعة من الرخام وقوس قزح الداخلى.

فلن يجدوا أثرًا لبساتين الزيتون أو اليَشب أو المرمر أو الماس أو الياقوت أو اللؤلؤ المحفور فى الجدران الهندسية. كما أنهم لن يجدوا أشكال الجرفين البرونزى أو الأسود أو الأحصنة التى تسكب مياه الجبل فى محيط من النافورات المرمرية. ولن يجدوا أى أثر لأشجار السرو والنخيل ولا للحدائق الفردوسية ذات الشكل البساطى الحى ولا أثر لنباتات الآس أو إكليل الجبل أو الدفلى أو مسك الروم أو الزنبق أو الورد.

حتى إنهم سيتساءلون ما إذا كانت الأميرة الزهراء وجدت بالفعل أو إذا كان اسم المدينة يرجع بالفعل لشخص أو شيء؛ إنما تلك أمور سقطت في غيابات التاريخ.

مدينة غرناطة، إسبانيا، في عام 1492 – في يوم صاف من شهر يناير والجو بارد إلا أنه جاف تتلألأ فيه الشمس الضاربة على أسطح القراميد الحمراء والتلال قاتمة اللون وسلسلة الجبال المحفوفة بالبحر البعيد. بدأ عام جديد لتوه وولد عالم جديد معه، لكنه مثَّل للبعض نهاية العالم.

ينظر الملك المسلم الذى كان أسلافه من السلاطين والأمراء على الجموع المحتشدة فى الأسفل ويستطيع أن يرى الفرقة الملكية التابعة لجيش الملك والملكة الكاثوليكيين وحاشيتهما وحراسهما وجيوشهما فى اللونين القرمزى والأزرق، وهؤلاء إنما هم آخر قادة لقوة هبطت عليه وعلى أسلافه من الشمال، إن كان أحدًا يمكنه التذكر، فها هى تلك القوة أصبحت الآن لها اليد العليا.

لديه بضع دقائق فقط فى هذه المدينة التى شهدت مولده. إن أسرته الحاكمة التابعة لبنى نصر، وهى آخر أسرة حاكمة مسلمة فى إسبانيا من أسلاف الأمويين والمرابطين والموحدين الذين سقطوا منذ زمن طويل، ترتبط بشكل وثيق بتلك النافورات والحدائق والسرادقات الواقعة على جوانب التل. يقف ويتخيل أسلافه يشاهدونه وينتحبون معه على هذا المشهد المروع.

فقد سقط حصن جنتهم إلى الأبد، وسوف تعيش الأندلس لبضع دقائق أخرى فقط. إنه القدر المؤسف لهذا الرجل الصغير أن يسلم آخر جزء متبقٍّ مما حصل عليه طارق بن زياد وعبدالرحمن منذ 700 عام فى أثناء فتوحاتهم.

فى محاربة لتيار التاريخ استطاع النصريون، والذين تقلصوا إلى منطقة صغيرة فى الركن الجنوبى من إسبانيا إطالة عمر الحلم الإسلامى عما هو متوقع، فبعد مرور قرابة 500 عام على سقوط الأرض الملكية فى قرطبة فى يد الكاثوليك استطاع المسلمون الإسبان الاحتفاظ بهذا المكان الثرى والساحر.

كانت مدينة غرناطة هى آخر بلدة مسلمة استطاعت الصمود. وللحفاظ على ما تبقى من هذا الحلم كان ملوك غرناطة من المسلمين بمثابة تابعين لملوك كاسيل من الكاثوليك عارضين لهم الولاء بالإضافة إلى مساعدتهم فى إخماد ثورات المسلمين، ومن ثم جاء ذلك ليكون ثمن هذا الولاء.

يتلبَّث آخر الملوك المسلمين محمد الثانى عشر، والذى يعرفه المسيحيون باسم بوبديل، كى ينزل إلى المنتصرين الكاثوليك ويعطيهم هذه الجائزة الأخيرة. يتردد لبرهة من الوقت حيث إنها آخر لحظة سيرى فيها مدينته تلوح فى الأفق.

ينظر إلى هذا الانسحاب من المكان الذى عاشت فيه عائلته لأجيال عديدة وإلى السرادقات المصنوعة من الأحجار الرملية وجدرانها ذات اللون الأصفر الشاحب والنقوش العربية التى تزين تقريباً كل الأسطح سواء بآيات من القرآن الكريم أو أبيات من الشعر التى تحيى ذكرى آخر انتصارات النصريين في ألجيسيراس منذ زمن طويل. كل هذه الكلمات المنقوشة بالخط العربى تضفى شكلًا وعمقًا على الأسطح، التى ستبدو فيما عدا ذلك مسطحة وباردة، ويرى الفن المعمارى الذى سيتم محاكاته لمدة 500 عام أخرى فى إسبانيا، أى إسبانيا الجديدة وحول منطقة البحر المتوسط بأكمله وتلك الهوابط المنقوشة بثراء وفضول، والتى يطلق عليها المقرنسات تتدلى من الأسقف، كل منها منقوش بتصميمات فريدة، كما يرى تلك الأعمدة التى تعلوها الأقواس شبه الدائرية المشققة والحدائق والباحات والممرات. وينظر إلى إحدى الساحات التى توجد بها نافورة محاطة بالأسود، بنما يوجد فى أخرى مسبح كبير.

ما الرؤية التى كانت وراء تأسيس هذا المكان؟ بينما كانت بغداد هى مركز العالم وبينما كانت مدينة الزهراء إعلانًا لإمبراطورية عالمية جديدة وحبٍّ تجاوز كل شىء فإن هذا المكان، والذى يطلق عليه بالعربية الحمراء وهو القصر الأحمر للنصريين هو بمثابة ملجأ أخير ومكان ينظر إلى الأعماق الداخلية للحفاظ على ذكرى كل ما مضى وطريقة للسمو فوق مستوى الأرض وتجنب الحقيقة القاسية، والتى لا مفر منها، والموجودة فى الواقع، ألا وهى أن الحلم الإسلامى فى الأندلس أمر محدود وقته وأنه سينتهى فى يوم من الأيام.

كل من تلك الغرف والحجرات مفتوحة على الهواء والفضاء، حتى يتسنى لهذا الملك وزوجاته وأسلافه أن يشعروا وكأنهم يسبحون فى الهواء. كصبى تخيل الأمير محمد أنه يطير تمامًا مثل ابن فرناس ولكن دون المخاطرة بحياته، فقد يستطيع الحصول على أفضل ما فى العالم والسماء فى أحلامه. فكيف يستطيع التعامل مع الحقيقة المتدهورة على أرض الواقع فى حين أنه وُلد وعاش فى الهواء؟

والآن حان وقته، وعليه أن ينزل لمن قرروا أن هذا الحدث التاريخى الغريب قد تخطى وقته وأن هذا الدين المنافس الذى ظل طوال سبعة قرون يجب أن يرحل وهذه اللغة السامية التى اخترقت اللغة اللاتينية بشكل كبير حتى إن ما يزيد عن ثلثها يعتبر غير مفهوم للمتحدثين الرومانسيين فى أقصى الشمال وهذا النمط الشرقى للحياة أصبح كله لا ينتمي إلى هذا المكان بعد الآن. من ثم تم طرده هو وعائلته وأنصاره.

آن الآوان وفيما يلى خطاب كتبه شاهد عيان على المشهد إلى الأسقف ليون:

مع تجلى الشعار الملكى والصليب المسيحى على الجدران الحمراء لمدينة الحمراء... يتقدم الملك المورى ومعه ما بين ثمانين أو مائة على ظهور الخيل وهم جميعًا فى أبهى حلتهم لتقبيل أيادى جلالتهما. استقبلاه بكل حب وتواضع وسلماه ابنه الذى وقع رهينة منذ أسره. وأثناء وقوفهم وصل أربعمائة أسير ممن كانوا فى الأسر فى موكب مهيب حاملين الصليب، يغنون أحد الترانيم الدينية ويترجل جلالتهما لتوقير الصليب ولمرافقة الجموع فى دموعهم وورعهم التبجيلى مثل كاردينال سانتيجو ودوق قادس وغيرهم من الشخصيات العظيمة الموقرة والواقفين ضمن هذا الحشد الكبير. ما من أحد لم يبكِ من شدة الامتنان مع شكر الرب لما رأوه حيث لم يستطع أى شخص منع نفسه من البكاء. فى نفس الوقت لم يستطع الملك المورى والموريون المصاحبون له إخفاء حزنهم وألمهم بسبب فرحة المسيحيين وبالأحرى على خسارتهم حيث إن غرناطة هى أكثر الأماكن تميزًا ورفعةً فى العالم.

ما بين هذا الزحام يقف رجل آخر يشاهد ما يحدث.. رجل كانت أسرته فى أحد الأيام يهودية، ولكنها لم تعد كذلك، هو رجل من العالم الجديد القادم، وفى الواقع أنه الرجل الذى سيكتشف العالم الجديد. اسمه كريستوفر كولمبوس وكتب فى مذكراته:

بعد انتهاء جلالتك من حرب الموريين ممن حكموا أوربا وحرب مدينة غرناطة العظيمة وفى هذا العام 1492 فى الثانى من يناير رأيت الأعلام الملكية لجلالتكم توضع بقوة السلاح على أبراج الحمراء وهو حصن المدينة المشار إليها، ورأيت الملك المورى يخرج من البوابات ويقبل يدى جلالتكم الملكيتين.

وانتهى الأمر على ذلك النحو واتجه آخر ملك مورى إلى ملاذ آمن مؤقت على ساحل إسبانيا ثم إلى شمال إفريقيا، حيث اتجه إلى هناك الكثيرون من الإسبان اليهود والمسلمين بعد تراجعهم أمام المسيحيين.

لكن من مكان مرتفع فى طريقه ينظر مرة أخيرة خلفه ليرى الحمراء تحلق فى الأفق ويتنهد ثم يبكى على خسارته كل ذلك؛ أن يكون آخر من يُسلِم آخر جزء من الحلم. تنظر

إليه أمه، والتى كثُر ألا تكون رفيقةً فى أوقات كتلك وتهمس له «فلتبكِ مثل النساء على ملك لم تستطع الدفاع عنه كالرجال». وعندها يفكر «هل كان جُبنًا أن يرغب فى هذه الحياة بشدة؟ لقد كانت الجنة هنا وما الذى كان من الممكن لموتنا أن يخلفه؟».

سوف تظل مدينته أعلى التل خالية لبعض الوقت وأجزاؤها السفلى سوف تقع فريسة لمشاريع البناء ذات الأهداف المختلفة حتى يأتى يوم من الأيام تظل فيه فقط الحجرات العلوية والنافورات والمسابح. لزمن طويل ستظل الحمراء القديمة، والتى لها شأن يعلو عن أى من المدن التى ستظهر فى هذه الأجزاء لقرون، رمزًا لتاريخ لا يريد أحد تذكره أو الاعتراف به، فستكون رمزًا لأمر ضاع عن عمد ودون أدنى ضرورة. ما من أحد سيتذكر الغرض من تلك الصالونات شاسعة المساحات المنقوشة بالخطوط على الحجر؛ القليل من الناس فقط سوف يتذكرون بالكاد اسم المكان.

لكن ذات يوم سيأتى جيل آخر و يتعجب: «من أسس هذا المكان؟ ولماذا؟» وسيكون هناك قلة ممن يمكنهم الإجابة عن هذا السؤال. الإجابة الوحيدة سيحملها الهواء البارد الجاف المندفع عبر الأندلس والذى يبدو وكأنه صوت تَنهُّد.

مدينة سمرقند، أوزبكستان فى 1417 – 1660 – على طريق الحرير

الواقع فى نهاية الجهة المقابلة للعالم الإسلامى بالأندلس فى هذا المكان المليء بالرياح والخالى من الحدود تقع ثلاثة من أحجار المَنليث الضخمة زرقاء اللون، كل منها مشقوق من النصف بأقواس متطابقة مستدقة القمة، فتبدو وكأنها ليست من هذا العالم. من بعيد تشبه، على نحو ما، الأماكن المقدسة لما قبل التاريخ والمراصد القديمة مثل ستونهينج بإنجلترا وتيكال بجواتيمالا.

عن قُرب تتقابل أحجار المَنليث مع بعضها البعض عبر ميدان. تمتد لتشبه الأعمال الفنية واللوحات العلمية والتصريحات الأرضية والسماوية ذات القوة المطلقة، فتصبح بمثابة ثلاث بوابات شبه متطابقة تتناسب مع ثلاثة من الجان أو العفاريت العمالقة وفى نفس الوقت هى مصنوعة من أفضل أنواع الحجر والقرميد.

هذا المكان الخارق إنما يُطلق عليه ريجستان، ويعنى المكان الرملى فى مدينة سمرقند. أسس تيمورلنك فى عام 1370 هذه المدينة القديمة كعاصمة لإمبراطوريته ويرجع تاريخها فى الأصل إلى عام 700 قبل الميلاد. فقد وضع حجر الأساس لما سيصبح أكثر الأماكن روعة ونفوذًا بالنسبة للفن المعمارى الأثرى فى منطقة آسيا الوسطى.

جاء تيمور من مكان غير معلوم واستعمر العالم بعد رحيل منغول خان عندما بدا وكأن الجميع باستطاعتهم العيش بأمان مرة أخرى. فى ذلك الميدان سوف يضرب عنق ضحاياه ويضع رءوسهم على أوتاد مغروسة فى الرمال الدامية. عندها سيتم الإعلان

عن التصريحات الملكية من خلال النفخ فى أبواق نحاسية طويلة تُسمى دزوركى، فى هذا المكان الذى ازدهر فيه سوق المدينة فى أحد الأيام وهنا يقع قلب سمرقند.

فى القرن 15 أصدر ألغ بيك حفيد تيمور حكمًا بشأن التقليد الملكى لجده وهو أن يبنى أول هيكل من الهياكل الثلاثة فى ريجستان المهندس المعمارى التابع له كافوميدين شيروزى. بعمل شيروزى لدى ألغ بيك، بقوته المطلقة على الحياة والموت، أودع شيروزى خوفه الشخصى ورعبه هذه البوابة الواقعة خارج نطاق الأرض. على الرغم من أنها تبدو كبوابة ضخمة إلى السماء فإنها ملحق بها مدرسة ملكية وهى مدرسة دينية.

بالوقوف أمام قوس واحد تحيط به المآذن التى تشبه الأعمدة الضخمة الحاملة للسماء وبالتحديق فى الواجهات الشاسعة الزرقاء الممثلة للوقت والفضاء، ينتاب المرء شعور بأن أحد هذه الهياكل قد يكون كافيًا لتقزيم البشرية جمعاء وتنقل عظمة قوة السماء والعقل. لكن بعد ذلك خلال القرنين التاليين سيتم بناء هيكلين مشابهين آخرين، ومن ثم سيوجد مثلث من بوابات ثلاثة تكاد تكون متطابقة وبها مدارس، اثنتان منها تقابلان بعضهما البعض أما الثالثة فتقف عابرة لساحة البلاط.

بالوقوف فى الخارج عند هذا الامتداد الشاسع عند نقطة التقاء الأقواس الثلاثة يتعجب الزائرون من هذه القطعة المقتبسة من الرؤية الإسلامية. إنها بعيدة تمام البُعد عن مدينتى الزهراء والحمراء لكن هذه الهياكل بالنظر إليها يتبين انتماؤها لنفس العالم. ومثل نظيراتها الإسبانية؛ فإن أبنية ريجستان توضح مدى دقة الأنماط القُطرية والدائرية والهندسية المصنوعة من القرميد الأزرق والفيروزى والذهبى والأصفر، فهى بمثابة عالم صغير من الكون نفسه به نظريات رياضية وفلكية وخريطة بالنجوم والكواكب مصنوعة من القرميد وكذا تمثيل للتفاعل الذرى والكيميائى. ريجستان هى تمثيل للفكر البارد والمروع علاوة على السلطة المطلقة على عكس الأحاسيس الدافئة والشعور بالحنين الذى اتسمت به تصاميم مدينتى الحمراء والزهراء. لكن الأماكن الثلاثة إنما تمثل ذكريات الأحجار التى تشهد على كل ما حدث من قبل، ولن يعود مرة أخرى وذلك باستخدام الكثير من الأشكال المتشابهة.

بالنظر عن قُرب إلى أبنية ريجستان يتبين أن الأقواس الداخلية لمدرسة* تيلاكارى تقف بمثابة دعامة لصفوف من المقرنس، تلك الهوابط المتدلية التى هى من صنع الإنسان، ومن الممكن أن تكون مستلهمة من مدينة الحمراء الواقعة على بعد 3000 ميل نحو الغرب. وتفيد هذه المبانى، لا كمكان تدريب وسكن للطلاب فقط ولكن أيضًا كمسجد كبير. بعد التخلص من تيمور وورثيه بوقت طويل تظل تلك الآثار موجودة ورد الفعل الذى تثيره الآن وستثيره وفيما بعد هو الإحساس بالرعب أكثر من أى شىء.

بالتالى قام أبناء تيمور الذى مات منذ وقت طويل بعمل شىء لم يستطع أى شخص القيام به، ألا وهو التعبير عن الإحساس فى الحجر. وفى حين أنّ من الممكن إدراك الشعور بالحنين والحب الموجودين فى الفن المعمارى الأندلسى تمامًا من خلال استرجاع الأحداث التائهة بين صفحات التاريخ، فلاتزال القوة الرمزية المدهشة للتيموريين فى سمرقند حية مثلما كانت عليه منذ 600 عام مضت.

مدينة أصفهان، فارس فى 1592 – يوجد سياسى وقائد طموح فى القرن 16 و17 فى فارس اسمه الشاه عباس. من خلال تجمُّع الكثير من الأمور، ألا وهى انتزاعه العرش من والده وتدفق الثروات عبر تجارة طريق الحرير والمساعدة البريطانية فى التقليل من القوات الاستعمارية للأتراك العثمانيين وغيرهم من الأوربيين، استطاع التجهيز لإعادة فارس لمركزيتها الجلية التى كانت عليها قبل وصول الإسلام.

إنه يعلم أن فارس، والتى كانت فى أحد الأيام واحدة من مراكز العالم ومصدرًا للقوة الفكرية والمالية والفنية لكل من بغداد ودول آسيا الوسطى والمغول الكبار، لم تحظى بنصيبها من القوة الصريحة والاعتراف الواضح، بسبب تفككها.

من ثم فكر فى تجميع كافة أجزاء فارس مرة أخرى، فقد انتصر على الأتراك دافعًا إياهم إلى أبعد حد ممكن، كما انتصر على الجورجيين فى الغرب والملاحين البرتغاليين، وبالتالى تدفقت ثروات التجارة الأوروآسيوية إلى خزائنه.

مع مرور الوقت اختار مدينة أصفهان كى تكون عاصمته الملكية، وعلى الرغم من أنها بالفعل مدينة مزدهرة وجميلة ويرجع تاريخها إلى زمن السلاجقة فإنه سيجعلها أكثر عظمة. سيقيم مدينة بنفس عظمة مدينة بيرسيبوليس عند الفارسيين القدماء.

تحت رعايته سوف يمضى المعماريون والمخططون والفنانون فى تنفيذ سيمفونية شاسعة على الحجارة، حيث إنه حتى فى تلك الآونة كان يُنظر إلى المجالات المختلفة من الموسيقى والرياضيات والفن المعمارى على أنها انعكاسات فى شكل مختلف لنفس مصدر شفرات خلق الله عز وجل. هؤلاء المؤسسون سوف يقررون أنه مثلما تعتمد الموسيقى على نظام النوتة الموسيقية فإن الهندسة المعمارية ستقوم على ثمانية عناصر رئيسية، هى الحديقة والمنبر والشُرفة والبوابة والقبة والمئذنة وحجرة الاستقبال والقنطرة.

باستخدام تلك العناصر لن يتمكن العباس والمخططون فقط من زيادة تزيين النسيج الفخم لمدينة أصفهان بالمساجد والقصور والأماكن العامة الجديدة، ولكن سيغزلون هذه المدينة بشكل يجعلها أكثر المدن الأثرية، ليس فقط فى العالم الإسلامى ولكن فى العالم برمته، لتصبح مدينة رائدة مسلمة فى القرن 16 وتسبق كلًا من سانت بيتر



صورة لتاج محل الذى بناه شاه جهان فى القرن الـ 17 كأثر لحب ضائع وهو مثال على الفن المعمارى للمغول الكبار.

سكوير الذى أبدعه بيرنينى فى القرن الـ 17 بروما، ولى إنفانت فى القرن الـ 18 بواشنطن وهوسمان فى القرن الـ 19 بباريس.

سيتم تنظيم مدينة الشاه عباس الجديدة حول ميدان كبير معروف بميدان الشاه أو الإمام على مساحة 95.600 ياردة مربعة؛ أى ضعف حجم الميدان الأحمر بموسكو. فى أثناء الأيام الملكية سيتم استخدامه كميدان للعبة البولو الملكية. وما بين درر هذه المدينة مسجد الشيخ لطف الله؛ وهو المسجد الذى بناه المعمارى محمد رضا ابن استاد حسين بنا الأصفهانى. فى مواجهة الميدان المستطيل، والذى يبلغ طوله ميلين توجد بوابة من القرميد الأزرق تحيط بجانبيها الممرات المقنطرة شاحبة اللون للقصور والمكاتب والشقق رفيعة المستوى.

يكتب روبيرت بايرون عن مسجد الشيخ لطف الله:

ما شاهدتُ مثل هذه الروعة قط. لقد خطر ببالى بعض المشاهد الداخلية لأماكن أخرى لمقارنتها بها مثل فيرسيى أو الحجرة المصنوعة من الخزف فى

شونبرن أو قصر دوج أو سانت بيرت، وجميعها تتمتع بالثراء والفخامة، إلا أنها ليست مثل هذا المسجد.

وثمة بناء آخر له أهمية خاصة هو على قابو أو قصر البوابة الرفيعة، والذى يتمتع بثراء رسومات الجدران الطبيعية لرسام البلاط رضا عباسى وطلابه. سيستخدم رضا الزهور والطيور وحيوانات أخرى والرموز والموضوعات الباقية من الفن الإسلامى الفارسى الرفيع والتصميمات الموجودة فى المخطوطات التى لا حصر لها. وسيكون قصة خيال فارسية منقوشة على القرميد والحجر والذهب.

وقطعة رائعة أخرى هى مسجد الشاه أو الإمام مع عظمة وجهته الزرقاء ومآذنه تقف مقابلة لمسجد الشيخ لطف الله.

على الرغم من أن تلك الأبنية فارسية تماماً فإنها تعكس النمطين الجغرافيين المختلفين للإسلام: الأندلس الراحلة وريجستان البعيدة. وعلى شاكلة ريجستان سوف تحتوى مبانى أصفهان الأثرية على القرميد الخارجى بألوانه الفيروزية والزرقاء وكذا التفاصيل الدقيقة للتصاميم العاكسة لمدى تعقيد الكون. وعلى شاكلة الحمراء سيحتوى الكثير من هذه المبانى على المقرنسات المتدلية والمنقوشة. وتبذل مداخلها الغائرة المستحيل حتى تقتنص لانهائية الفضاء اللامتناهى فى سياج رائع من صُنع الإنسان.

سيمفونية الأحجار والقرميد فى أصفهان غاية فى الضخامة والتعقيد، وبالتالى من الصعب تثبيت الأعين على أى تفصيل من تفاصيلها النفيسة. يجب التعامل مع مدينة أصفهان وميدان الإمام ككل باعتبارها من أكثر الأبنية الفنية والمعمارية روعة فى تاريخ البشرية. وبالرغم من أن القباب المنحوتة وعبقرية الزخرفة سوف تشيران إلى الشرق فإن تصميم الميدان والممرات المقنطرة والقصور المحيطة والبيوت سوف تتبناها أوربا الغربية فى الفن المعمارى الملكى فى فرنسا وإنجلترا والنمسا.

أما بالنسبة للساحات بمدينة أصفهان فسيكون لها نمطها الخاص، حتى مع ارتفاع المساجد والمآذن فى أعلى أفق فارس، ومع إبراز التمثيل الفنى لمدى عظمة السماء المنمقة والمصطفة ستصل أعماق القصور والبيوت ضمن ظلال الحدائق ومتع الحواس إلى ذروتها بطرق لا يمكن الوصول إليها إلا فى زمن من القوة المطلقة والثروة اللامتناهية.

ستكون مدينة أصفهان وعظمتها الفنية والسياسية والحسية نتائج لحظة فنية لن تسنح مرة أخرى. فإن الالتقاء الفريد لرؤية الشاه عباس وقوته مع الثروة الناتجة عن التجارة البرية بين أوربا وآسيا سوف تصل إلى منتهاها، وسوف يلقى الشاه عباس حتفه وسيليه خلفاء متنازعون.

ستقوم أوربا سريعًا بتحويل تجارتها من البر إلى البحر مستخدمةً السفن لتجوب إفريقيا وتتجه إلى الهند والصين ودول جنوب شرق آسيا. بالتالى سيواجه طريق الحرير وثروات مدن مثل أصفهان ضربة قاضية، وسيكون أثر ذلك عليها أشبه بغلق أحد الأشخاص لصنبور المياه.

لكن وهو ينتظر نهايته سينظر الشاه عباس على ميدانه ويتدبر: «أمعن النظر أيها الفانى على العظمة الثابتة لأصفهان واعرف القوة الفنية والإبداعية للفارسيين عندما تكون أذهانهم منطلقة وعندما تقودهم رؤية مستنيرة».

الآن تلك المبانى الواقعة فى الميدان تحتفظ بروعتها كأحد مواقع التراث العالمى لمنظمة اليونسكو.

مدينة آجرا، الهند فى عام 1631 – كان هناك حاكم من المغول الكبار للهند يُعرف باسم شاهبودين محمد شاه جهان، ولديه العديد من الزوجات، ولكن أقربهن لقلبه هى زوجته ممتاز. تزوج منها وهما لا يزالان طفلين بالكاد، ووصلا إلى سن المراهقة وعاشا بالتالى معظم حياتهما مع بعضهما البعض.

أنجبت ممتاز من جهان 14 طفلًا؛ وعلى خلاف الكثيرات من الزوجات الملكيات، كانت تسافر معه فى المعارك؛ فغالبًا ما كانت بجانبه طيلة الوقت إلى الحد الذى يفقد حياله الإحساس بأنهما شخصان منفصلان، وحبه لها يتعدى الوعى بالحب فى حد ذاته؛ فما بينهما هو صورة للتعايش الحى، فهما روحان فى جسد واحد.

بجانب هذا الحب فإن شاه الهند هذا محظوظ للغاية؛ فهو يسيطر على دولة هى بمثابة إمبراطورية وعالم خاص. كانت ثروة الهند فى القرن الـ 17 أعظم من أى دولة أخرى على وجه الأرض، وقد شملت فيما تشمل القوات الملكية المتنامية فى أوربا، والتى تشتهى تلك الثروات.

هذه الدولة، بالرغم من حكم المسلمين لها، حوت الكثير من الناس والأديان واللغات إلى الحد الذى يجعل من المسلمين الموجودين فى الهند عبارة عن قشرة ثرية فى عمل إبداعى قديم له نفس القدر من الثراء.

يتحدث أئمة المساجد اللغة العربية ويكتبون بها بينما يتبنى المغول الكبار، وهم فى الأصل من آسيا الوسطى، الأشكال والأنماط الفارسية وحتى تكتمل الدائرة قاموا بغزو الهند الهندوسية القديمة.

يتضمن أسلاف شاه الهند المشار إليه الأسقف بابور من أوزبكستان، وهو مؤسس إمبراطورية المغول الكبار وجد جهان جلال الدين محمد أكبر، والذى سيُقال عنه فى أحد الأيام إنه أعظم حاكم هندى عرفه الزمان وذلك بإجماع من المسلمين والهندوس وغيرهم.

لم يحظ شاه جهان برؤية أكبر ولا البسالة العسكرية لبابور ولكنه سيُعرف بالفن المعماري الرائع. فهو من أسس الحصن الأحمر بدلهي وهو الحصن المصنوع من الحجر الرملي الأحمر، والذي ظل لمدة من الوقت تعريفًا لطبيعة التصميم ذات طابع المغول الكبار، بالإضافة إلى ذلك أسس قصورًا وحدائق، ولكن أعظم الأعمال سيكون مستوحى من الحب.

في عام 1631 عندما يذهب إلى إحدى المعارك تأتي معه ممتاز وهي حامل في طفلهما الرابع عشر، وبالرغم من أن هذا الأمر لم يُنصح به فإنها لم تفكر أبدًا في عدم انضمامها إلى زوجها المحارب في رحلته. فقد قامت بذلك عديدًا من المرات، ومن ثم لا ترى مشكلة في التكرار وفي أثناء الحملة أنجبت ممتاز لجهان طفلة أُطلق عليها شاهزادي جوهرة بيجوم وكان من المفترض أن تسير كافة الأمور على ما يرام ولكن في دورة الزمن والقدر انتقلت ممتاز إلى بارئها.

وبالنسبة لحاكم أغنى إمبراطورية على وجه الأرض ـ والذي يتمتع بسلطة وثروة لن يعرفها سوى عشرات قليلة من الناس بعد آلاف السنين ـ كان هذا الأمر بمثابة تمزيق لقلبه ورئتيه فإن ممتاز هي ذاته البديلة؛ فالحياة بدون ممتاز ليست بحياة. لمدة طويلة لم يستطع هذا الرجل التفكير والتنفس وكأن قلبه قد توقف.

دعا الله عز وجل أن يأخذه معها إلى عالم الموت. أصبح لا يستطيع تذكُر اسمه أو زوجاته أو أبنائه أو دوره كشاه لكافة أرجاء الهند أو جيوشه أو قصوره أو خزائنه المكتظة بالزمرد والذهب والياقوت أو عشرات الآلاف من الأفيال أو مئات الآلاف من التابعين أو صلاتهم أو بركاتهم أو شهاداتهم أو ضرائبهم. ما من شيء كان له وجود بالنسبة له فهو يريد أن يموت.

لكن بالرغم من أن روحه وقلبه رحلا فإن جسده ظل موجودًا. لم يستطع الأئمة والروحانيون والأصدقاء والحاشية فعل أي شيء للمساعدة فكيف لهم أن يساعدوه؟ هل يستطيعون المجيء بممتاز مرة أخرى؟

كتب أحد مؤرخي البلاط عبدالحميد لاهوري قائلًا إن حزن الشاه جهان «فتت صموده الذي كان أشبه بالجبال» وإن لحيته صارت بيضاء بين عشية وضحاها كما أنه لم يظهر إلى العامة لمدة أسبوع كامل.

وأضاف أيضًا الرحالة الفرنسي في القرن الـ 17 فرانسواه بيرنييه أن الشاه جهان كان مغرمًا بزوجته الجميلة حيث «كان مخلصًا لها طوال حياتها وعند موتها تأثر تأثرًا بالغًا لدرجة أنه تمنى أن يلحقها إلى القبر».

انطلاقًا من هذا اليأس توصل شاه جهان لأمر وحيد قد يساعده في تصحيح الطامة الكبرى التي وجهها إليه الزمن والقدر، ومن ثم سيسمح له بالاستمرار في هذا العالم.

أقسم أن يبنى نُصبًا تذكاريًا لحبه الراحل يجذب أبصار كل من ينظر إليه ويخطف أنفاسهم ويجعلهم يخرون ساجدين ليشاهدوا ذكرى حب يبلغ مساحة الهند فى حجمه لامرأة كانت نصفه الآخر، روحان توقفا بتوقف حياتها.

وتصدر الأوامر باستدعاء المعماريين والمهندسين وخبراء المال والخطاطين وقيل لهم إن عليهم بناء أعظم أثر على الإطلاق يتناسب مع أعظم حب عرفه الزمان وإلا فلا.

و قد أتوا بالعشرات بل بالمئات بل بالآلاف، حوالى 20.000 رجل من كافة أنحاء الهند وفارس وتركيا العثمانية، كما انتشرت الشائعات عن استجابة بعض الأوربيين أيضًا.

على الرغم من أن معظم ملايين الوثائق الرسمية الخاصة ببلاط المغول الكبار سوف تدمر فى يوم من الأيام، فإن المؤرخين سوف يخلصون إلى أن الفريق النهائى سوف يحتوى على سيد المعماريين أستاذ أحمد لاهورى بالإضافة إلى احتمال وجود الشاه جهان بنفسه. هناك بعض التخمينات بأن الشاه قام برسم الخطط وإضافة التعديلات والتنسيق بين العديد من معماريى البلاط.

نتج عن كل هذا الكم من الحزن والاضطراب خطة لهزيمة الموت عبر المجىء بالجمال السماوى وقوته إلى الأرض على ضفاف نهر جامونا بمدينة آجرا حتى ينحت فى الحجر قصيدة حب وإعجاب مصبوغة بالحزن الرهيب على الموت والفراق.

سوف تعصف فيالق الأفيال الأرض حاملةً أطنان الرخام الأبيض الشفاف من رجاستان وأحمال اليَشب من بونجاب لكتابة القرآن بالحروف السوداء على الخلفية المصنوعة من الرخام الأبيض كما ستأتى باليَشمّ والبلور من الصين لعمل الزخرفة والإضاءة. علاوة على ذلك ستأتى بالفيروز من تيبيت واللازورد من أفغانستان والياقوت الأزرق من سيريلانكا والعقيق الأحمر من شبه الجزيرة العربية. ولتطعيم الرخام سوف يأتون بثمانية عشر نوعًا مختلفًا من الأحجار الكريمة.

وبفضل تابعى الشاه من الخبراء الماليين بدأ هذا المشروع، ووفقًا لبعض الحسابات استغرق 22 عامًا حتى ينتهى العمل فيه، كما ستبلغ تكلفته التقديرية 500 مليون دولار.

يُطلق على هذا النُصب التذكارى تاج محل.

سيظهر فى قاعدته المصنوعة من الرخام والمربعة الشكل ضريح الحب المصنوع من الرخام الأبيض، والذى يحيط به عند كل ركن من أركانه مئذنة من الرخام الأبيض أيضًا. كما سيعلو هذا الهيكل قبة من الرخام الأبيض عليها الهلال الإسلامى موجهًا إلى الأعلى بحيث إذا ما شوهد بكامله يوحى بأنه رمز الإله الهندوسى شيفا.

بعد مرور خمس سنوات على استكمال المشروع، أى فى عام 1653 أطاح بالشاه جهان ـ الذى لم يستعد نفسه السابقة ـ ابنه أورانجزيب وهو من سيحول التركيز الملكى مرة أخرى إلى الأمور الواقعية. سوف يقضى والده الشاه جهان سنواته الأخيرة محدد الإقامة محدق النظر عبر نافذته على معبد الحب. عندما يموت سيتفضل ابنه بوضع جسده بجانب ممتاز التى توفيتْ منذ وقت طويل وذلك حتى يجتمعا مرة أخرى.

كان جهان ينوى بناء مكان مشابه له من الرخام الأسود منقوش عليه حتى آخر حرف فى القرآن الكريم يصل به إلى الجانب الآخر من النهر ليعكس مدى حزنه وفقدانه لممتاز طوال السنوات التى عاشها بعد موتها. لكن هذا لن يهم فسوف يجتمع الحبيبان تحت الرخام، وستوجد ممتاز فى المنتصف تمامًا أسفل قمة القبة، «وجهان» إلى جانبها بعيدًا بعض الشىء عن المنتصف.

بعد ذلك سيمر هذا المكان بأوقات عصيبة حيث سيفقد المغول الكبار سطوتهم وسوف يأتى الناهبون. عندما يأتى الغزو البريطانى واستعماره سوف ينتزع البريطانيون من الهنود الأحجار الكريمة المرصعة بها الجدران. لكن فيما بعد سيصدر نائب الملك البريطانى أوامره بعمل الترميمات اللازمة لهذا الصرح المعمارى.

ثم ستظهر القصص المختلفة مثل الهمسات الخارجة من الحدائق البلاطية الوامضة والمسابح العاكسة فستزعم الإشاعات بأن جهان لم يقم ببناء تاج محل وأنه فى الأصل موقع هندوسى.

فيما بعد محيط الحديقة سوف تظهر الفنادق وسيتساءل الزائرون إذا ما تشابه حبهم مع هذا الحب المُجسد فى الحجر.

مكة، شبه الجزيرة العربية فى عام 600 – توجد أغنية حب بدأت أول ما بدأت فى الإسلام منذ زمن بعيد ثم انتشرت هذه الأغنية فيما بعد فى أنحاء شتى من العالم لينتج عنها أدوات موسيقية جديدة ولتخرج بأشكال مختلفة من الموسيقى وتؤثر على غيرها من الأشكال ولكن تنتشر باتساع وعمق ولمدة طويلة إلى الحد الذى يجعل الكثيرين يتناقشون فى مصدرها الأصلى وأثرها.

تشتق هذه الموسيقى من العديد من أغانى الثقافات الثرية والقديمة التى انغمس المسلمون فيها واستوعبوها مثل البيزنطية والرومانية والإغريقية والعربية الشعبية واليهودية والفارسية والهندية والبربرية والبلقانية والمغولية. قد تكون هذه الأغنية عن أشياء عدة وبالتالى أفضل مصطلح من الممكن أن يُطلق عليها هو «أغنية الحضارات». وبالرغم من تفرعها إلى الكثير من التعبيرات فإنه سيكون لها عظيم الأثر وأوسعه

بتطورها إلى أغنية حول الحب الدنيوى، أغنية حول التعلق بالحبيب سواء كان مخلصًا أو خائنًا، حاضرًا أو غائبًا، من الممكن الوصول إليه أو مختفيًا إلى الأبد، مقدسًا أو دنيويًا.

ضمن أغنية الحضارات دائمًا ما ترن فى الخلفية أغنية أخرى فى حب الله عز وجل. الكثير من المفكرين ممن سبروا أغوار النجوم والشفرة الرئيسية للكون سوف يمتدون فى هذه النظريات والدراسات للموسيقى، والتى يرونها فرعًا من فروع الفلسفة ويرتبط ارتباطًا مباشرًا بالرياضيات. كما سيضيف الكثير من عمالقة الرياضيات والفلسفة وحتى الطب فى الإسلام المزيد من التعقيد والهيكل الرسمى لأغنية الحضارات. علاوة على ذلك سينقب بعمق علماء مثل الكندى وابن سينا وابن رشد فى النظرية الموسيقية وسيبدءون فى استخدام شكل من أشكال التدوين الموسيقى قائم على الحروف الأبجدية. وسيقوم زرياب وهو الموسيقى الشهير ببغداد فى القرن التاسع ـ بدافع من الغيرة من البلاط الأموى فى قرطبة ـ بتأسيس أول معهد موسيقى فى العالم هناك فى الوقت الذى كان يقوم فيه بأمور عديدة مثل الطبخ وتصميم الملابس وتصفيف الشعر.

هناك أيضًا أحد واضعى النظريات الموسيقية رفيعى المستوى وهو الفارابى الفارسى الأصل، عاش فى القرن التاسع وانتمى إلى بلاط فى سوريا. سيكتب الفارابى خمس دراسات حول الموسيقى، دراسات احتوت على الملاحظة التالية على نظرياته:

> *والأصوات والنغم التى يستعملها الحيوان عند الانفعالات الحادثة فيها، ليست هى التى يستعملها الإنسان علامات فى الدلالة على الأمور، أما تلك، فهى بمنزلة الأصوات التى تسمع من الحيوان والإنسان عند طربها، فإن فى طباع الحيوانات والإنسان إذا طربت أن تصوت نحوا ما من التصويت، وكذلك إذا لحقها خوف صوتت صنفا آخر من التصويت، والإنسان إذا لحقه أسف أو رحمة أو غضب أو غير ذلك من الانفعالات صوت أنحاء من الأصوات مختلفة، وأمثال هذه الأصوات والنغم إذا استعملت ربما حصل عنها انفعال ما أو ازدياده، وربما زال الانفعال أو انتقص [34].*

سيكتب الفارابى حول تحديد درجة النغم والصوت، مع البقاء على مفاتيح العزف والسلم الموسيقى، والنغمات الجزئية أو الفواصل الحيادية.

سيرى الفيلسوف الدينى الغزالى ـ وهو مفكر من القرن الثانى عشر، والذى سيبدأ فى قيادة عملية تراجع نهائية عن المذهب العقلى الإسلامى إلى اتجاه أكثر

إحساسًا وصوفيةً ـ أن هناك ارتباطًا مباشرًا بين الإيمان الصوفى والموسيقى الصوفية. كتب قائلًا:

فإن القلوب والسرائر خزائن الأسرار ومعادن الجواهر وقد طويت فيها جواهرها كما طويت النار فى الحديد والحجر كما أخفى الماء تحت التراب والمدر) ولا سبيل إلى استثارة خفاياها إلا بقوادح السماع ولا منفذ إلى القلوب إلا من دهليز الأسماع فالنغمات الموزونة المستلذة تخرج ما فيها وتظهر محاسنها أو مساويها فلا يظهر من القلب عند التحريك إلا ما يحويه (35) .

تمت ترجمة تلك النظريات، ومع مرور الوقت وبشكل تدريجى تتجه ناحية الشمال إلى أوربا من الأندلس وصقلية من خلال الصليبيين أو عبر وسائل نقل أخرى بالرغم من تباطؤ هذا الانتقال لمدة قرون.

وفقًا للمؤرخ إتش جى فارمر، فإن أحد أهم التحويلات من المسلمين إلى الأوربيين هو التدوين الموسيقى العربى الإسلامى. أشار إلى أنه بالرغم من أن مؤرخى الموسيقى الأوربيين يعتبرون أن التدوين «دو رى مى فا صول لا سى دو» بدأ أول ما بدأ فى القرن الـ 11 بإيطاليا فإنه توجد أدلة دامغة على أن الإيطاليين كانوا يستخدمون ببساطة التدوين العربى السابق من القرنين التاسع والعاشر. وفى كتابه «حقائق تاريخية خاصة بالتأثير الموسيقى العربى» أشار إلى المقارنة التالية بين التدوين الإيطالى والتدوين العربى.

الأبجدية العربية:	مى	فا	صاد	لا	سين	دال	را
التدوين الإيطالى:	مى	ف	صول	لا	سى	دو	رى

يوجد أيضًا شكل آخر ترجع جذوره إلى الشعر العربى فى القرن السابع. فقد ساهم أحد أعظم شعراء مكة السابقين «عمر بن أبى ربيعة المخزومى» بأسلوب شعرى يُطلق عليه الغزل، والذى يعنى حرفيًا قصيدة الحب. سوف يكتب قصائد حول علاقاته بالسيدات النبيلات من الحاجات الزائرات لمكة.

كما سيبدأ أمر آخر عظيم فى التطور فى معمل الشعر العربى السابق، ألا وهو فكرة الحب العُذرى. الشاعر العربى الذى يُعتبر أبا الحب الأوربى الفروسى وهو جميل الذى جاء من المدينة فى القرن السابع وكتب حول المحبين ممن أصبحوا شهداء لحبهم وماتوا من أجل أسمى مشاعر الحياة الدنيوية.

كما سيكتب أحد الحُكام الأمويين بدمشق فى أواخر القرن الثامن وهو الوليد بن يزيد قصائد حب رائعة حول الشراب.

فى كل من الأندلس وصقلية فى القرون الوسطى بدأت كل من الأشكال الشعرية والموسيقية الإسلامية فى الانتشار فى اتجاهات مختلفة، الأمر الذى كان له صدى حول العالم. تباعًا سينتشر أسلوب أندلسى يُطلق عليه الموشحات، وهى عبارة عن أغانٍ استروفية بها عبارات متكررة، فى العالم العربى وينتج عنها نمط آخر يُعرف بالزّجل، وهو نوع مبكر لجنس أغنية التروبادور، والتى ستترك صداها أيضًا نحو الشمال فى منطقة البرانس. وسيشدو الشعراء من المغنين المسلمين الجوالة بالحب العفيف للمرأة وسواء كانت تلك المرأة مجرّد رمز لتجليات الخالق على الأرض، أو هى امرأة حقيقية لها من الحسن ما يسلب لب العابد.

فى القرن 13 سيرعى الملك ألفونسو حكيم كاسيل وليون إنتاج ما يزيد عن 400 أغنية مسيحية مقدسة حيث تبدو 300 منها متشابهة فى الشكل والمضمون مع الموشحات الإسلامية.

وبدأ مسيحيون آخرون فى شمال إسبانيا فى غناء قصائد غنائية مشابهة بعد مرور عدة قرون، والتى توجهت فى البداية إلى العذراء مريم ولكن فيما بعد توجهت إلى أى سيدة تستحق المديح. سوف يُعرف هؤلاء المغنون باسم التروبادور فى فرنسا وتروفاتور فى إيطاليا وهذا الاسم قد يكون فى الأصل مشتقًا من الكلمة العربية طرب، والتى تعنى «النشوة» كما هو الأمر بالنسبة لنشوة الحب. من هنا سيتفجر مفهوم غناء قصيدة للمحبوبة فى الثقافة الأوربية، ومن ثم مولد لشكل جديد فى الموسيقى، أى أغنية الحب، والتى ستثبت أبديتها. مع هذا النوع من الغناء سيبدأ وعى جديد بقيمة المرأة ومفهوم الفروسية والشرف بوضع البذور لمجتمع أوربى يتمتع بقدر أكبر من الإنسانية والاستنارة.

ستأتى بعض عمليات الانتقال الموسيقية تلك من المسافرين على جانبى بايرينيس فيما بينهم شارلمان وهو ـ وفقًا لبعض المصادر ـ أمضى سبع سنوات كاملة فى إسبانيا فى أثناء حملاته العسكرية.

يشير بعض المؤرخين الموسيقيين إلى أن الكثير من النساء المسلمات من أسيرات العديد من الحملات العسكرية فى إسبانيا الشمالية ممن انتقلن إلى أوربا المسيحية خدمن أيضًا كرُسل موسيقيين. تلك المئات من النساء ـ ممن تم أسرهن عند سقوط أماكن مثل بالباسترو ـ قد تدربن منذ طفولتهن على الأساليب الموسيقية الأندلسية فى المنازل والشوارع وسيجبن فرنسا وإيطاليا مع جيوش البابا ألكسندر الثانى.

وفقًا للمؤرخ الموسيقى بالقرن الـ 21 د. رباح سعود لن تذهب النظريات والأساليب الموسيقية الإسلامية فحسب إلى الشمال ولكن منذ القرنين التاسع والعاشر ستنتشر أيضًا الأدوات الموسيقية فى الشمال المسيحى فى كل من إسبانيا وفرنسا وإيطاليا على يد الموسيقيين والمغنين المسلمين. على سبيل المثال سينتج عن العود الإسلامى

المزهر الأوربى ثم القيثارة والمندولين وستتطور الغيطة العربية لتصبح مزمار القربة الإسكتلندى والجيطة الإسبانية والبرتغالية. علاوة على ذلك سيتولد عن القانون الإسلامى القيثار الإنجليزى والقانون الألمانى. أما بالنسبة للكمنجة الفارسية والربابة العربية فسوف تأتيان فى شكل الكمان وستخرج الزورنا الإسلامية وهى إحدى آلات النفخ بآلة المزمار. وأخيرًا سيؤدى الصانتور الفارسى ـ وهو شكل سابق للقانون المطرقى ـ إلى ظهور اللآلات الأوربية ذات ألواح المفاتيح.

وحتى مع بقاء أصداء الإسهامات الموسيقية الإسلامية فى شتى أرجاء أوربا فإنها سوف تظل تتطور فى إسبانيا. وستأخذ أنشودة الحب والحضارات أشكالاً مختلفة، لكنها لن تمحى باستيلاء الكاثوليك على الأندلس وسقوط غرناطة. بالإضافة إلى ذلك سوف يتلاشى الكثير من المسلمين الإسبان وسط ظلال وطنهم الذى أصبح يعاديهم فجأة، فقد طرد بعضهم فأجبر بعضهم الآخر على التحول إلى المسيحية والبعض الآخر قد أعدموا، بالتالى سينضم البعض إلى الغجر ممن يتمتعون بنطاق من الحرية للتجوال والاستقلالية. هؤلاء الغجر الموريون هم من سيخرجون بالنمط الموسيقى الذى يُطلق عليه الفلامينكو، والذى سيقول عنه الروائى الكوبى بالقرن العشرين جابرييل كابريرا إنفاتى إنه مشتق من مصطلح عربى يعنى «متشردى القرية».

كما لن يقتصر النمط الموسيقى الإسلامى الغربى المصبوغ بأسلوب زرياب الذى توفى منذ زمن طويل على إسبانيا والبرتغال وأوربا فسوف يرافق الفاتحين والمستعمرين الإسبان فى اتجاههم نحو الغرب إلى الأمريكتين ليطور أنماطًا جديدة مثل السامبا فى البرازيل والجرابى فى المكسيك ولا كويكا فى شيلى والجاتو فى الأرجنتين وأورجواى ولا جواجيرا فى كوبا.

وسيزعم علماء الموسيقى وجود أصداء لأغانى الحب الإلهى الإسلامية فى الأغانى الأمريكية الحزينة التى ألفها العبيد وخلفاؤهم ممن كان أسلافهم من مسلمى إفريقيا.

مدينة قونيا، الأناضول فى عام 1228 - يولد شاعر صوفى فارسى متميز فيما يطلق عليها حاليًا أفغانستان فى عام 1207، والذى يسمع نوعًا مختلفًا من الموسيقى، هذا الشاعر هو جلال الدين الرومى. فى طفولته تهرب أسرته إلى الغرب بعيدًا عن التقدم المغولى للاستقرار فى المملكة السلجوقية بالأناضول فى مدينة قديمة تحتوى على القصور والمآذن يُطلق عليها قونيا.

انغمس الرومى تمامًا فى مدرسة الشعر الصوفى وهو عبارة عن تقليد إسلامى فارسى عربى يشير إلى أن الصوت الشعرى بإمكانه ـ عبر الاستخدام الرمزى وموسيقى أنغامه ـ سبر أغوار عالم أكثر رفعة وتحريرًا للعقل والروح للوصول إلى معرفة إلهية أفضل.

باعتباره صوفيًا سيلتف حول الرومى مناصرون ممن يعتقدون فى ذلك الوقت أنه ولى من الأولياء. هؤلاء المناصرون لن يكونوا من طائفته فقط ولكن سيكون منهم المسلمون والمسيحيون واليهود. فى حقيقة الأمر سيقرر الرومى فى كتاباته أن الأديان كافة واحدة مع اختلاف أسمائها وصفاتها:

فى رحاب هيبة وبركة الرجال الصالحين
تجدل خيوط ثناء ومديح الأنبياء داخل نسيج واحد
وتختلط داخل نهر موحد
فتنسكب كل الأوانى فى إبريق أوحد
لأن من يثنون عليه فى النهاية ما هو إلا الله الواحد
وفى هذا السياق فإن كل الأديان دين واحد
حيث يتجه كل الثناء والمديح نحو نور الله الأحد
تستمد كل الأشكال والصور شكلها منه ولا أحد

سيقوم الرومى بالتدريس فى مدرسة بقونيا، والتى ستُصبح فيما بعد مكانًا للتبجيل والحج حيث سيتم الاحتفاظ بسمته المميز من الفلسفة الصوفية والتسامح العقائدى المتبادل. يوجد أعلى بوابة الدخول العبارات التالية:

هلم هلم أيما تكون
أيها الهائم التائه عابد الأوثان ومقدس النيران
تعالى يامن حنثت بعهودك آلاف المرات
هلم وهلم مرات ومرات
فقافلتنا لا تعرف القنوط

من المتوقع من تابعى الرومى ألا يقوموا بالبحث الصوفى الإلهى فحسب، وإنما بالعمل فى حِرَف مفيدة أيضًا مثل الأعمال الجلدية والنسيج والاشتراك فى المجتمع من خلال مساعدة الفقراء والعاجزين بالتبرع لهم بالغذاء والضروريات الأخرى.

سيتم الاحتفاظ بعادة الدوران حول أحد أعمدة بيته عندما تنتابه إحدى حالات النشوة الدينية والرومانسية ضمن مجموعة المولاوية والمعروفة بـ «الدراويش الدائرون»، والتى ظلت مدة 800 عام. فإنه يعتقد هو وتابعوه بأن فى وتيرة الدوران المنتظمة يستطيع المرء فصل نفسه بيسر من التفكير الاستنباطى والميكانيكى للحياة اليومية، ومن ثم تحرير العقل والذات لمنهج مباشر إلى الله عز وجل. يتناول الرومى فى وعظه موضوعًا غاية فى الأهمية وهو أن أى شخص يستطيع أن تكون له علاقة مباشرة مع الله عز وجل ومن دون وسيط.

مثل الشاعر الفارسى الآخر عمر الخيام فإن عادة كتابة الرومى عن الله عز وجل بلغة رومانسية وحسية سوف يُساء تفسيرها من قِبل البعض على أنها شعر رومانسى حرفى. كما سيزيد الرومى من هذا الاعتقاد عندما يقيم علاقة صداقة وثيقة تقوم على فكرة الاستحواذ مع واعظ متجول اسمه شمس الدين التبريزى. وسوف يقيم هو وشمس عند الرومى فترات طويلة من الحوار محيرين البعض وصادمين للبعض الآخر. ثم سيختفى شمس فجأة، ومن المحتمل أن يكون قتلته مجموعة يقودها أحد أبناء الرومى بدافع الغيرة من سطوته على قائدهم، وسيحزن الرومى على فقدانه لسنوات ليصل فى النهاية إلى إدراك أن شريكه الصوفى المحبوب شمس هو انعكاس حقيقى للرومى نفسه.

لِمَا أبحث فأنا منه وهو منى
وروحه تجرى فى نفسى
إذنّ فأنا فى النهاية لا أبحث سوى عن نفسى

تقول الأسطورة: إنه قبل وفاة شمس سوف يظهر فى دمشق ويتقابل مع فرانسيس من أسيسى وهو أحد النبلاء الإيطاليين الشبان تم إرساله إلى الصليبيين. من خلال تلك الوساطة من الرومى سيبدأ فرانسيس فى أخذ لمحة حول الحياة الصوفية والخيرية والمشاركة النبيلة مع العالم.

وبينما تعدت شهرة الرومى فى وقته بيئته المحيطة، وكان لصوته الشعرى أثر عميق على الأدب الفارسى والتركى التالى لذلك، إلا أن هذا الشاعر ذاعت شهرته من جديد بعد مرور 700 عام فى العالم غير الإسلامى فى كل من أوربا والأمريكتين. فى منتصف القرن العشرين اكتشف الغربيون هذا الشاعر الصوفى الذى مضى منذ زمن، ويقال إنه فى القرن الـ 21 بالولايات المتحدة أصبح الرومى أفضل الشعراء مبيعًا فى مجتمع ليس دائمًا ما يُكرم الشعراء.

تخور قوانا أمام لعبة الحب

فكيف ينبغى لنا أن نتصرف وكيف نعتدل

وكيف نقبع داخل منازلنا كالفتية الصغار المهذبة

وكيف نستمتع بالأغلال التى تحبس من فقد عقله

آه يا حبيبتى ستجديننا كل ليلة

داخل شارعك

تتسمر أعيننا على نافذتك

فى انتظار لمحة من وجهك المشع

يوجد أيضًا المزيد من القصص البارزة التى تنتشر فى أنحاء العالم الإسلامى وما بعده أحيانًا بشكل متوازٍ مع الأغانى وأحيانًا أخرى بالامتزاج بها. هذه القصص مكتوبة شعرًا ونثرًا.

يضع العرب والفارسيون والهنود الشعر فى جوهر الكثير من المناقشات العامة، فالشعر فى ذلك الوقت سيقوم بالدور المستقبلى للصحافة والنقاش السياسى والاستمتاع. والجدير بالذكر أن الهند ستقيم مسابقات شعرية كبرى وتجمعات تضم آلاف الأشخاص سيمضون الأيام والليالى فى مسابقات شعرية عامة.

سيتفتح عن الشعر العربى المولود فى أحضان السهول الرملية بشبه الجزيرة العربية والمستخدم آنذاك كوسيلة من وسائل الاستمتاع فى المسابقات الشعرية المقامة بين القبائل ما يُطلق عليه القصائد التى تُمجد بشكل مطول قيمة الحبيب أو أحد الانتصارات الصحراوية. وسيتم إحياء ذكرى التجمعات القبلية والسياسية الكبرى عبر قرض أعظم الشعراء للشعر، وكذا سيكون للشعر القدرة على ثراء الشاعر العربى أو هلاكه بالاعتماد على من يرعاه ومن يعاديه وعلى ما يكتب وإلى أى مدى تكون جودة ما يكتب.

لكن الشعر الكلاسيكى للعرب ستكون ترجمته غاية فى الصعوبة؛ وذلك لأسباب عديدة أولها انغماس اللغة العربية بشكل كبير فى الرمزية مع وجود كلمات وحروف وأصوات لها معنى حرفى وآخر خفى ومعانٍ غامضة ليس من الممكن وصفها بلغات أخرى دون حواش وملحقات تفصيلية، من ثم هذا النوع من العوائق سيحول دون نقلها. أما العائق الثانى فهو التراكيب المقفاة والسجعية الثابتة التى تأتى بمرادها فى لغة المصدر ولكن تبدو ملتوية وعرجاء فى اللغات الأخرى وكذا يقيد سجعها وقافيتها الصارمان من موسيقاها.

ولأن هذه القصص والأشعار تكتب للطبقة المتعلمة التابعة للخلافة، من ثم فلن تخترق بعمق الثقافة العامة، وذلك يرجع إلى صعوبة فهم الكثير من المسلمين للغة العربية الفصحى. فى خط موازٍ ستظهر القصص الشعبية لإمتاع العامة وتعليمهم.

لكن يوجد أيضًا قصص للحياة الرفيعة والمتدنية من العرب ومن الشعوب الأخرى المنغمسة فى الدين والحضارة. فيوجد أشعار وقصص للحب والرغبة والحرب والقصص الخرافية والتعليمية وأنماط الحياة العظيمة والصغيرة والإجلال الملكى والنقد السياسى اللاذع ودروس الحكمة والتاريخ والسفر. وستأتى هذه القصص من الهند وفارس وإفريقيا ومن آسيا الوسطى وأيبريا وبيزنطة.

توجد مجموعة من القصص الرائجة فى العربية وعلى الرغم من احتقار البلاط لها أو تجاهلها بسبب مزجها بين اللغة الأدبية والعامية وموضوعاتهما فإنها ستترك صدى عميقًا لدى الناس. هذه القصص مستلهمة من مجموعة قصص ترجع إلى الأميرة الفارسية فيما قبل الإسلام أفصانا ابنة الشاه أتاكسيركسيس الثانى. واسم هذه المجموعة القصصية هو هازار أفصانا والمعروفة باسم الألف ليلة.

فى القرن العاشر سيقوم كاتب من بغداد اسمه الجهشيارى بجمع هذه القصص مع قصص من الروائيين المحليين. ثم ستبدأ هذه المجموعة القصصية فى الانتشار فى مصر وسوريا ويُطلق عليها ألف ليلة وليلة.

فى عام 1615 الشاه عباس الأول حاكم فارس، والذى استعاد السلطة للإمبراطورية الفارسية ليحكم منطقة تمتد من تيجريس إلى أنهار الهندوس.

الأمر الفريد فى هذه القصص أنها تأتى ضمن إطار أكبر لقصة ما تدور حول ملك فارسى هندى اسمه شهريار وزوجته البائسة شهرزاد. القصة الإطار هى أنه إذا لم تستطع شهرزاد الحفاظ على استمتاع زوجها الملك برواية قصة جديدة له كل ليلة فسوف يقتلها، وبالتالى كى تبقى على قيد الحياة شغلته بنسج قصص حول علاء الدين وعلى بابا وبلاط هارون الرشيد والملاح السندباد.

وفى أثناء حملات المسيحيين الصليبيين لاستعادة الأرض المقدسة فى القرنين الـ 11 و12 سوف يسمعون بعض هذه القصص. وعلى الرغم من النظم الجيد فى الكتاب المقدس المسيحى وعن استماع البعض إلى الملاحم والبطولات الأوربية مثل شانسون دى رولاند أو الملك آرثر أو بيولف أو نيبلونجينلايد أو إيدا، فإنه يوجد شىء ما خاص بتلك القصص العربية، والذى مس وترًا ما، ومن هنا سيذهب صداها إلى أوربا عندما يعود المحاربون الباقون إلى ديارهم.

سوف يسمع الكاتب الإيطالى چيوفانى بوكتاتشيو بهذه القصص، والتى ستؤثر على عمله التالى وهو مجموعة قصصية تضم مائة قصة ممتعة اسمها ديكاميرون. كما سيقوم الكاتب الإنجليزى چيوفرى تشوسر بعمل نسخته الخاصة تحت عنوان كانتيربرى تيلز.

الشاعر الإيطالى فى القرن الـ 13 دانتى آليجييرى لن يحتاج أن يكون من الصليبيين كى يسمع بالقصص والأشعار والأغانى الإسلامية. فإنه سيقضى بعض الوقت فى صقلية بثقافتها الإسلامية المسيحية ولن يسمع القصص الشعبية فقط وإنما سيقرأ القرآن الكريم والكتابات العلمية للمفكرين العظماء التابعين لبيت الحكمة ببغداد بالإضافة إلى مفكرين مسلمين آخرين.

أما بالنسبة للكاتب الإسبانى فى القرن الـ 16 ميجيل دى ثربانتس فإنه لن يأتى فقط من أرض مضى على الفترة المورية التى كانت فيها مجرد عقود، ولكنه سيقضى العديد من السنوات فى شمال إفريقيا ومن ثم سيفهم بشكل جيد اللغة العربية. بالتالى فإن عمله «دون كيشوت دى لا مانشا» بجوانبه الفروسية سيكون نتاجًا لتراثه الأندلسى.

علاوة على ذلك سيختار الكاتب الإنجليزى المسرحى كريستوفر مارلو اسم تيمور وهو أحد أعظم الفاتحين المسلمين بآسيا الوسطى كاسم بطل لمسرحيتين له اسمهما تيمور لنك.

كما سيختار كاتب الأعمال الكوميدية والمأساوية فى القرن الـ 16 ويليام شكسبير، فيما يبدو أكثر أبطاله إخضاعًا، «عطيل المورى» والذى سيسقط بسبب الافتراءات الكاذبة لياجو.

أخيرًا فى القرن الـ 18 سيقوم رجل فرنسى اسمه أنطوان جالاند بترجمة جزء كبير من ألف ليلة وليلة، وذلك لأول مرة إلى اللغة الفرنسية أو أى لغة أوروبية أخرى. نشر هذه الترجمة سوف يلمس الولع المفاجئ والدائم بالأمور الشرقية وهو الأمر الذى سينتج عنه أدب كل من جان أوجست دمونيك أنجرس وأوجين ديلاكروا لتتلوها أعمال هنرى ماتيس وأوجست رينوار وتابعيهما ممن سافروا إلى الجزائر وفتنهم الأدب العربى والمرأة العربية. هذا الإعجاب بالشرق سوف يؤدى إلى بناء هياكل تشبه المساجد على أراضى دول عظيمة مثل ألمانيا وكذا ظهور اهتمام جديد بالثقافة الإسلامية من جانب كُتاب مثل چوتيه ولورد بايرون وڤولتير. كما سيدرج تشايكوفيسكى الموسيقى والحركات الشرقية فى رقصات البالية الخاصة به كما ستُلهم شهرزاد موسيقى ريمسكى كورساكوف فى القرن الـ 19.

فى القرن الـ 21 سوف تستمر هذه القصص العامية ذات الطابع العربى والفارسى والهندى، والتى تتناول الحب والرغبة والخيانة فى إلهام الكثير من الكتب والأفلام؛

حتى أصبحت مادة خامًا للأعمال الأدبية والفنية، ولكن فى نفس الوقت سوف تظل ألف وليلة وليلة تجذب الجماهير من شتى أرجاء العالم.

بالرغم من التهديد الدائم بالموت إلا أن راوية هذه القصص سوف تحظى بنهاية سعيدة حيث يختتم المؤلف المجهول للقصص فى الليلة الأولى بعد الألف من رواية شهرزاد قائلًا:

> *وكانت شهرزاد فى هذه المدة قد أنجبت من الملك ثلاثة ذكور فلما فرغت من هذه الحكاية قامت على قدميها وقبلت الأرض بين يدى الملك وقالت له يا ملك الزمان وفريد العصر والأوان إنى أنا جاريتك ولى ألف ليلة وليلة وأنا أحدثك بحديث السابقين ومواعظ المتقدمين فهل لى فى جنابك من طمع حتى أتمنى عليك أمنية؟ فقال لها الملك: تمنى يا شهرزاد. فصاحت على الدادات والطواشية وقالت هاتوا أولادى فجاءوا لها بهم مسرعين وهم ثلاثة ذكور واحد منهم يمشى وواحد يحبو وواحد يرضع، فلما جاءوا بهم أخذتهم ووضعتهم قدام الملك وقبلت الأرض وقالت: يا ملك الزمان هؤلاء أولادك وقد تمنيت عليك أن تعتقنى من القتل إكرامًا لهؤلاء الأطفال فإنك إن قتلتنى يصير هؤلاء الأطفال من غير أم ولا يجدون من يحسن تربيتهم من النساء فعند ذلك بكى الملك وضم أولاده إلى صدره وقال: يا شهرزاد والله إنى قد عفوت عنك من قبل مجىء هؤلاء الأولاد لكونى رأيتك عفيفة نقية حرة تقية بارك الله فيك وفى أبيك وأمك وأصلك وفرعك وأشهد الله على أنى قد عفوت عنك من كل شىء يضرك. فقبلت يديه وقدميه وفرحت فرحًا زائدًا وقالت له أطال الله عمرك وزادك هيبة ووقارا [36].*



القيادة المستنيرة

﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾

[سورة ص: آية 26]

ولاية واشنطن العاصمة فى عام 2007 - يَفرُك عضو الكونجرس الأمريكى عينيه وينظر من نافذة مكتبه الواقع بمبنى لونجوورث هاوس أوفيس وهو يشعر بالإرهاق والارتباك. فقط منذ بضعة أشهر مضت بالكاد حصل على الفوز بعدد 611 صوتًا من أصل عملية اقتراع تضم 230،000 صوت؛ فقد كان أقسى سباق سياسى مر به فى حياته. يقف الآن متأملًا ما إذا كان من الأفضل له الهزيمة؛ وذلك لأن القضايا التى يواجهها والاختيارات التى يقوم بها لا تريحه بالمرة.

تستقطب الدولة ومنطقتها بشكل مريع أشياء كثيرة، ألا وهى الحرب والسلام والاقتصاد والرعاية الصحية والهجرة والإرهاب. ولكل جدال جيد من ناحية ما يوجد آخر متساوٍ معه فى الإقناع من الجانب الآخر. كان وشيكًا أن يقضى عليه منافسه بهجومه عليه بسبب عدم حسمه للأمور، وفى حقيقة الأمر كان لهذا المنافس منطقه فى ذلك.

بالنظر إلى زائرى عضو الكونجرس هذا الصباح سيتضح ما يلى: أول زيارة كانت لوفد معنىّ بأمن الموانئ حيث طلبت هذه المجموعة الكبرى وثيقة الاتصالات عقد جلسة استماع شخصية ولم يكن أمامه سوى القبول بها حيث إنهم يمثلون أكبر قطاع للأعمال فى منطقته.

فقد زعموا أن ما يتم غير كاف وأن الدولة تمر بحرب حالية بجانب أن العدو على الرغم من كونه مشتتًا فإنه خطير ومميت ويجب مواجهته. علاوة على ذلك فمازالت الدولة عُرضة للأسلحة الكيماوية والبيولوجية والنووية التى تأتى فى حاويات غير معلومة، فماذا يحدث حقًا؟

أومأ برأسه وقال فى نهاية الاجتماع أنه سيولى اهتمامًا خاصًا لمصادر القلق التى تنتابهم وأفكارهم كما سيطلب من وزارة الأمن القومى تقديم تقرير بالوضع الكلى. جاءت استجابتهم على ما قال بأنه إذا لم يرجع إليهم بحلول سريعة فسوف يحملونه شخصيًا المسئولية فى انتخابات عام 2008.

لم يكن هذا الاجتماع كافيًا فقد لحقتهم مجموعة من الناخبين المسلمين وقد رمقت كلتا المجموعتين بعضهما البعض بالنظرات فى أثناء انتظارهم فى غرفة الانتظار الواقعة خارج المكتب. وبمجرد دخولهم اتضحت الشكاوى الخاصة بهؤلاء المسلمين فقد كانوا مهتمين للغاية بالقرارات الكونجرسية والتنفيذية المتعلقة بالتعامل مع المحجوزين على ذمة الحرب ضد الإرهاب؛ حيث زعموا أن الرئيس والكونجرس ينتهكون الدستور والقوانين والعدالة الأمريكية. وأشاروا إلى القبض على بعض الأقارب والأصدقاء عن طريق الخطأ، والمعلومات المتوافرة عن هؤلاء الأشخاص تتفاوت بين إطلاق سراحهم بعد التعرض للتعذيب وسوء المعاملة أو عدم معرفة أى معلومات عنهم. من ثم قامت تلك المجموعة بتقديم خطابات وعرائض فى هذا الخصوص.

وطلبوا أيضًا من عضو الكونجرس استخدام سلطته للتقدم بتشريع حتى يتم إزالة تمثال للنبى محمد، صلى الله عليه وسلم، من الفريز بالمحكمة العليا للولايات المتحدة معللين أن هذا التمثال إنما ينتهك أحد التقاليد الإسلامية بألا يصور النبى، صلى الله عليه وسلم، فى شكل فنى.

أربك هذا الموضوع عضو الكونجرس حيث إنه بدا له كنوع من التشريف وضع نبى الإسلام فى المحكمة العليا للولايات المتحدة ما بين 17 آخرين من عظماء التاريخ منهم موسى وحامورابى. لكنه قال إنه سيفكر فى الأمر ويجمع آراء أخرى ويحاول الوصول إلى القرار الصائب الذى يمثل حقوق الجميع.

خارج باب مكتبه يوجد تلال من خطابات البريد اليومية وصندوق البريد الإلكترونى الذى يقوم فريق العمل التابع له بفرزه بحثًا عن أنماط الآراء المتعلقة بالأمور المتنوعة الملحة. على سبيل المثال الإصلاحات الخاصة بالهجرة وواردات الأدوية وزواج الشواذ جنسيًا وبحوث الخلايا الجذعية والحرب ضد العراق وعجز الميزانية والمراقبة الداخلية واستراق الأسلاك وخفض الضرائب وسياسة التعليم والحد الأدنى من الأجور والسياسة الأجنبية وإساءة استخدام الأدوية والإصلاحات المرتبطة برفاهة المجتمع وخلق فرص عمل وكذا مبيعات التبغ للقصر وما إلى ذلك. يستطيع بسهولة أن يمضى يومًا كاملًا فى محاولة الخروج بسياسات تتعلق بواحدة أو اثنتين من تلك القضايا ولكن من المطلوب منه أن يعمل على حل كل هذه القضايا مجتمعة.

بالإضافة إلى ما هو مشار إليه أعلاه يوجد أيضًا تلال أخرى من الطلبات من أطراف خاصة وجماعات الضغط ونقابات التجارة والشركات ومجموعات المواطنين

من اليمين واليسار، علاوة على الشكاوى والخدمات وشيكات التأمين الاجتماعى الضائعة والمواعيد مع ويست بوينت ودعوات العشاء والعروض وأندية الروتارى.

يُطلق العنان لتفكيره فيرى أنه ربما حان الوقت للراحة وربما كان خصمه على حق وربما الهزيمة فى الانتخابات السابقة كانت أفضل له. مضى على بقائه فى الكونجرس مدة عشر سنوات وقد تبخر حلمه فى أن يصبح سيناتور أو أكبر من ذلك منذ زمن بعيد فعليه جمع الكثير من المال كل عامين للفوز فى إعادة الانتخابات. هذه الحياة أخذت قسطًا شخصيًا منه فهو مُطَلَّق ولديه ولد يعانى إدمان الكحول، كما جاءت هذه الحياة أيضًا على صحته فأصابه مرض السكر فجأة وها هو يلهث على جهاز الجرى فى صالة الرياضة بالمجلس فى محاولات لإنقاص وزنه.

حتى يصفى ذهنه قرر أن يخرج للمشى فى وقت الغداء. من الصعب وصف مظهره بشكل كاف، وهو الأمر الذى يجعل قلة من الناس قادرين على معرفته. فلا يوجد معجبون به خارج مكتبه إنما بعض ممثلى جماعات الضغط وتابعيه ممن يريدون دقيقة من وقته كما قد يوجد بعض الناخبين من مسقط رأسه. بين كل ذلك يتسلل من باب جانبى.

كيف لك أن تكون قائدًا جيدًا فى هذا العالم وفى هذا النظام؟ هل هذا ممكن؟ أم أن الهدف الواقعى الوحيد للقائد هو تجنب الأخطاء الفادحة والحفاظ على الأمور فى نصابها الصحيح؟

إنه فصل الصيف والهواء ثقيل ينذر بانهمار المطر فى عصر هذا اليوم. يمر بجانب المبنى الخاص بمركز الزائرين الجديد عند الكابيتول على جانبى المحكمة العليا. وبالنظر إلى الرخام والمرمر المحيط به يبدو المشهد أشبه باليونان وروما القديمة، أليس ذلك ما شَكل الرؤية الأمريكية للحكومة والقيادة أكثر من أى شيء آخر؟ وأليس بيريكليس وأفلاطون وسقراط وقيصر وماركوس أوريليوس هم أسلاف الديمقراطية الأمريكية التى تحولت فيما بعد من خلال عصر النهضة والاستنارة للمثل العليا لكل من واشنطن وچيفرسون ولينكولن؟ أليس ذلك هو السرد التاريخى والتقليد السياسى؟

ماذا كانوا يفعلون عند مواجهة هذه القضايا والاهتمامات الخاصة؟ ماذا كانوا يفعلون؟

يغلبه الفضول وهو يعبر الشارع نحو المحكمة العليا ليفحص هذا الفريز؛ لم يعلم أن نبى الإسلام، صلى الله عليه وسلم، ممثلًا فى الكابيتول.

تسمح له بطاقة الكونجرس الخاصة به بالمرور من الباب الأمامى ويستطيع الدخول إلى قاعة المحكمة الهادئة الآن فيما عدا وجود مجموعة صغيرة من الزائرين وفريق النظافة. يقع الفريز هناك وبعد برهة من الحيرة يجد عضو الكونجرس النبى، صلى الله عليه وسلم، حاملًا للقرآن الكريم ولسيف محدقًا فى الغرفة التى تتجسد فيها أهم القوانين فى أمريكا.

ولثوان يتساءل عضو الكونجرس هل يوجد أى شىء فى الحكومة والسياسة والقيادة الإسلامية فى هذه الدولة ذات صبغة أوربية مستنيرة؟ أم أنها جميعًا صارت تاريخًا ضائعًا؟

تكمن الإجابة على هذه الأسئلة فى قصة قديمة وأغنية عن مثل أعلى غير منسوب لأحد وعن أناس تقريبًا صاروا أسطورة.

كانت القيادة الإسلامية المستنيرة للإمبراطورية الأولى سببًا فى ظهور العصور الذهبية العديدة. هذه الرؤية للقيادة بالرغم من تأثرها بالأنا البشرية الحتمية والانتكاسات المؤسسية وسوء الحظ والفساد استطاعت لمدة ثمانية قرون إلهام مناخ من الاختراع المتميز والثورة الفكرية الفريدة، وهى الأمور التى ستساعد فى تشكيل رؤية مستقبلية للقيادة الحديثة فى أوربا وغيرها من الدول غير الإسلامية.

إحدى النتائج هى الإنجازات الفكرية الموصوفة فى هذا الكتاب فى مجالات الرياضيات والعلوم والطب والفن، كما ستتضمن النتائج الأخرى لهذه القيادة المثالية الابتكارات العديدة مثل المكتبات والجامعات النموذجية الحديثة وروح العدالة والمساواة الاجتماعية ووسائل الصحة العامة المتقدمة وتقبل مذاهب الإيمان والجنسيات والعناصر المتنوعة.

هذا السلوك المستنير سيتجسد أيضًا فى أنماط من السلوك الديمقراطى والتوصل إلى إجماع الرأى وفض المنازعات والاستجابة مع آراء العامة.

على الرغم من ذلك كما هو الحال فى كافة الأنظمة والمساعى البشرية توجد أيضًا قوات مضادة فعالة، ألا وهى قوات الذات والطموح وضيق الأفق والجهل والتحامل وسوء الفهم، وأحيانًا يكون لهذه القوات المضادة الغلبة. لكن المثل الأعلى المستنير القوى وأحيانًا المسيطر فى الفترة من القرن الـ 7 إلى القرن الـ 15 سيكون دائمًا موجودًا، حتى وإن ضاع فى التاريخ أو فى غيابات الزمان.

ورغم تجسيد هذه الأمور فى القرآن الكريم وفى أفعال النبى، صلى الله عليه وسلم، فإن البحث فى الوثائق القديمة يشير إلى أن أول القادة المسلمين ممن حاولوا تطبيق رؤية القيادة بشكل عملى هم الخلفاء الراشدون، وعلى وجه الخصوص، أبو بكر الصديق وهو أول خليفة بعد النبى محمد، صلى الله عليه وسلم، وكذا علىّ، وهو ابن عم النبى، صلى الله عليه وسلم، وصهره.

إن مثال قيادة أبى بكر الصديق مُحتفظ به فى تصريحات غاية فى البلاغة، كما أن خطبته الأولى عند اختياره خليفة هى واضحة البساطة (انظر الفصل الأول

الصفحات 12-13). إن رؤيته تتجسد بشكل أفضل فى أفعاله ومشار إليها فى مصادر عديدة سواء إسلامية أو غير إسلامية. توضح هذه المصادر أن أبا بكر الصديق لم يسع للخلافة، بل قاومها حتى بدا أنه المرشح المناسب الذى يستطيع رأب صدع الثورات القبلية والشخصية التى بدأت فى الظهور فى المجتمع الإسلامى الصغير.

فضلًا عن ذلك هو رجل تتمتع شخصيته بتواضع وبساطة ملحوظين. كما أن الأسلوب الذى اتبعه بمجرد توليه الخلافة هو محاولة غرس بذور ما كان النبى، صلى الله عليه وسلم، يفعله وليس وضع أى خطط أو استراتيجيات خاصة به. ومع استمرار نمو الإمبراطورية العربية فى الثروة والسلطة منذ توليه دور الخليفة وهو يحيا فى نفس مسكنه المتواضع ولديه عبد واحد يخدمه.

أبو بكر هو أول رجل فى الإسلام يحرر عبيده وفقًا لاعتقاداته الدينية وهو أول مسلم يبنى مسجدًا بعد النبى، صلى الله عليه وسلم، ويقال إنه أنفق جميع مدخراته 40,000 درهم حتى يدعم إعلاء راية الإسلام. علاوة على ذلك فهو يكره تحويل أو أخذ أجزاء من الثروة التى يستطيع أن يجنيها من أموال الجزية والغنائم التى تتدفق إلى الخزانة.

يكتب المؤرخ الإنجليزى إدوارد جيبون فى تاريخ المسلمين:

عندما تولى أبو بكر الصديق الخلافة فرض على ابنته عائشة أن تأخذ قسطًا محددًا من الإرث، والذى يثبت ما إذا كان ثريًا أم فقيرًا ألا وهو ثلاث قطع ذهب فقط ولكن فى كل يوم جمعة كان يوزع ما يتبقى منه ومن المال العام أولًا إلى من يستحق بالفعل ثم للفقراء من المسلمين. أما بالنسبة لما تبقى من ثروته وهو ثوب خشن وخمس قطع من الذهب فقد تسلمهم من خلفه، والذى شعر بعدم مقدرته على مضاهاة هذا النموذج المثير للإعجاب.

ببساطة إرث القيادة الذى خلفه أبو بكر الصديق يبدو فى خلق نموذج من التواضع والتسوية والأمانة والاهتمام بعمل الخير ورفاهة العامة. سوف توفر هذه القيم نموذجًا صامدًا للقيادة فى العالم الإسلامى وما وراءه، وهو نموذج يرقى بالغرائز الأساسية للإنسان ولكنه سيستمر فى جذب المناصرين للإسلام السياسى فى القرن الـ 21.

رابع خليفة وهو علىّ بن أبى طالب، والذى سيجسد أفكاره الخاصة بالقيادة بشكل رائع وستحيا الكثير من تصريحاته.

علىّ هو أحد القادة المسلمين الأوائل ممن وضعوا فى نص مكتوب شكلاً تفصيليًا للقيادة المستنيرة، والتى ستظهر عناصرها فيما بعد فى الخلافة الأموية والعباسية

والفاطمية والسُنية في مصر ولدى سلاجقة فارس والأناضول وكذا سلطنة دلهي وهند المغول الكبار فضلاً عن الإمبراطورية العثمانية.

يتجلى الدليل على ذلك في خطاب مطول حول القيادة، والذي أرسله الخليفة عليّ بن أبي طالب إلى تابعه الأمين مالك الأشتر عند تعيينه الحاكم المسلم الجديد على مصر:

ثمّ اعلم يا مالك! أنّي قد وجهتك إلى بلاد قد جرت عليها دول قبلك من عدل وجور، وأن الناس ينظرون من أمورك في مثل ما كنت تنظر فيه من أمور الولاة قبلك، ويقولون فيك ما كنت تقول فيهم... وأشْعِرْ قلبك الرحمة للرعية، والمحبّة لهم، واللطف بهم...

فإنّهم صنفان: إمّا أخ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق.. فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب وترضى أن يعطيك الله من عفوه وصفحه...

ولا تقولن: إنّي مؤمر آمر فأطاع، فإنّ ذلك إدغال في القلب، ومنهكة للدين، وتقرّب من الغير، وإذا أحدث لك ما أنت فيه من سلطانك أبهة أو مخيلة، فانظر إلى عظم ملك الله فوقك، وقدرته منك على ما لا تقدر عليه من نفسك...

وليكن أحب الأمور إليك أوسطها في الحق، وأعمها في العدل، وأجمعها لرضى الرعية، فإنّ سخط العامّة يجحف برضى الخاصّة، وإنّ سخط الخاصّة يغتفر مع رضى العامّة. وليس أحد من الرعية أثقل على الوالي مئونة في الرخاء، وأقل معونة له في البلاء، وأكره للإنصاف، وأسأل بالإلحاف، وأقل شكرًا عند الإعطاء، وأبطأ عذرًا عند المنع، وأضعف صبرًا عند ملمات الدهر من أهل الخاصّة. وإنّما عماد الدين، وجماع المسلمين، والعدّة للأعداء، العامّة من الأمّة، فليكن صغوك لهم، وميلك معهم...

واعلم أنّ الرعية طبقات، لا يصلح بعضها إلاّ ببعض، ولا غنى ببعضها عن بعض: فمنها جنود الله، ومنها كتاب العامّة والخاصّة، ومنها قضاة العدل، ومنها عمّال الإنصاف والرفق، ومنها أهل الجزية والخراج من أهل الذمّة ومسلمة الناس، ومنها التجّار وأهل الصناعات، ومنها الطبقة السفلى من ذوي الحاجة والمسكنة، وكل قد سمى الله له سهمه، ووضع على حدّه فريضة في كتابه أو سنّة نبيه (صلى الله عليه وآله)، عهدًا منه عندنا محفوظًا. فالجنود، بإذن الله، حصون الرعية، وزين الولاة، وعز الدين،

وسبل الأمن، وليس تقوم الرعية إلاّ بهم، ثم لا قوام للجنود إلاّ بما يخرج الله لهم من الخراج الذى يقوون به على جهاد عدوهم، ويعتمدون عليه فيما يصلحهم، ويكون من وراء حاجتهم.

ثمّ لا قوام لهذين الصنفين إلاّ بالصنف الثالث من القضاة والعمّال والكتّاب، لما يحكمون من المعاقد، ويجمعون من المنافع، ويؤتمنون عليه من خواص الأمور وعوامها. ولا قوام لهم جميعًا إلاّ بالتّجار وذوى الصناعات، فيما يجتمعون عليه من مرافقهم، ويقيمونه من أسواقهم، ويكفونهم من الترفق بأيديهم ما لا يبلغه رفق غيرهم. ثّم الطبقة السفلى من أهل الحاجة والمسكنة الذين يحق رفدهم ومعونتهم (37).

الصراعات المتعاقبة فى الخلافة الأولى سوف تؤدى إلى ما هو أكثر من الانقسام البيّن فى الإسلام بين السُّنة والشيعة. سوف يغلق هذا الارتياب بشكل مؤقت النماذج المتقدمة للقيادة والتجارب القائمة على الإجماع فى اختيار الخليفة.

تم اختيار الخلفاء الأربعة الأوائل عن طريق عملية أشبه بالتصويت التهليلى والانتخاب على الرغم من أن تابعى عليّ كانوا أكثر ولاء لنموذج الوراثة فى القيادة، ومن هنا جاء سبب الانقسام إلى هذا الحزب. هذا الترتيب الأولى القائم بشكل جزئى على التعاليم والأمثلة التى وضعها النبى، صلى الله عليه وسلم، مقترنةً بالارتجال السياسى بعد وفاته عليه أفضل الصلاة والسلام، سوف تدوم فقط لمدة 29 عامًا. ستدوم ذكرى هذا المذاق الموجز للمشورة والإجماع الإسلامى لمدة 1400 عام بشكل يؤثر فى التطور الحتمى لشكل الديمقراطية الإسلامية فى القرن العشرين.

لكن كما هو الحال فى الكثير من أنحاء العالم حتى تقريباً القرن الـ 18 فى أوربا وبيزنطة والصين ودول المغول والأمريكتين سيكون النموذج الإسلامى الخارجى أشبه بحكم عسكرى دينى ممزوجًا بالولاية الحاكمة. حتى ذلك سيلوث عندما تحكم القوات العسكرية المهيمنة مثل السلاجقة قبضتها تحت القيادة الاسمية للعباسيين.

أول خليفة يأخذ السلطة بالقوة هو الأموى معاوية فى عام 661 وسيحكم خلفاؤه حتى يطيح العباسيون بهم فى عام 750 ثم سيهلك العباسيون على يد المغول فى عام 1258. عندها سوف يقوم الأمويون فى إسبانيا بمحاكاة نموذج الولاية الحاكمة كما هو حال الفاطميين والمماليك فى مصر والسلاجقة فى فارس والشرق الأوسط والمغول الكبار فى الهند. آخر حكام مسلمين يحصلون على لقب خلفاء الإسلام هم الأتراك العثمانيون فى إسطنبول.

سوف تتشابه القيادة السياسية مع الحكم التقليدى للسلالة الحاكمة، وكما هو الحال فى أماكن أخرى من العالم لن يكون هناك قادة ممن لا يستغلون السلطة المُطلقة المتوافرة لديهم. لكن كنوع من الطّباق سوف تظهر من وقت إلى آخر السياسات والمناهج المتقدمة.

سيكون محط الاهتمام الرئيسى للأمويين فى دمشق هو تشييد البنية التحتية العامة وتحقيق الرخاء الاقتصادى والوصول إلى دولة موحدة. أما بالنسبة للعباسيين فى بغداد فسوف لا يألون جهداً لإقامة مركز سياسى وفنى ومالىٍّ وفكرىٍّ للعالم. وعلى الرغم من حكمهم بالقوة وتوارث الحكم فإنهم لن يغضوا الطرف عن مناهج الحكم المعتدل والمستنير. فى إسبانيا بالنظر إلى الإنجازات المنيرة للعباسيين سوف يحاول الأمويون الأندلسيون المنافسة تقريباً فى كل مستوى من مستويات بغداد المختلفة.

فى وقت متأخر من إحدى ليالى بغداد فى عام 801 يمشى فى الشارع رجلان يرتديان زى تجار بقوافل صحراوية. ينير القمر المدينة وتفوح رائحة الأنهار فى الجو يحملها نسيم ليالى الصيف الساخنة. فى أثناء مرور الرجلين تتجلى أمامهما حفلات عشاء الأثرياء فى أبهى أشكالها مع وقوف الحراس والفرسان أمام البوابات المغلقة. تكتظ منازل هذه القصة بالجماهير من مختلف الطبقات العليا والدنيا وتنتشر الصيحات بالقصص الفاسقة وتنهمر الدموع الهادئة عند سماع قصة مقدسة. تمتلئ الحانات بالناس وتخرج منها الضحكات والصراخ ويمشى أحد السكارى باضطراب فى الشارع.

يجذب أحدَ الرجلين نقاشٌ سياسى مرتفع الصوت وبسماعه لاسمه بين كلمات الحوار وقف أمام الباب المضاء كى يكون على مرمى السمع.

«كما قلت لك لقد خضعنا للفرس» يقول أحد السكارى بصوت مرتفع: «هم من يديرون البلاط بل والدولة بأسرها».

«الفرس أناس أذكياء» يقول الطرف الآخر فى النقاش: «نحن بحاجة إليهم».

«إنهم بحاجة إلينا أكثر». يرد الأول: «استطاعت الجيوش العربية العظيمة قهرهم ويجب علينا أن نذكرهم بذلك».

فى الخارج وفى هذا الظلام ينظر المستمع الأول للثانى ويغمز له، ثم يتجه الاثنان إلى ضفاف النهر والسوق المركزى. الرجل الأول فى زى أحد أفراد العامة شبه ملثم هو الخليفة هارون الرشيد نفسه والشخص المتنكر الثانى هو صديق طفولته جعفر ابن الوزير الأعظم من العائلة البرمكية.

مازال فى السوق الكثير من أصحاب المحال فى محالهم المضاءة بالشموع أو قناديل الزيت يبيعون البخور والروائح والأقمشة والتوابل والمجوهرات ومجلدات

صغيرة من الشعر والقصص الخرافية. يقف الخليفة المتنكر عند أحد المحال؛ حيث يجلس بائع عربى له نظرات عميقة وثاقبة بين مجموعة من الخناجر السورية المصقولة.

«كم يبلغ سعر هذا الخنجر؟» يسأل هارون الرشيد المتنكر مشيرًا إلى خنجر فى غمد من الجلد الأسود.

يرد البائع: «ثمنه درهم».

يقول الخليفة: «يا إلهى! ما هذا يا رجل، هذا كثير!».

«هل أنت من هنا؟».

«نحن من .... المدينة».

يومئ الرجل برأسه ببطء غير مقتنع تمامًا.

يقول الرجل: «فأنت إذن لا تعلم، يجب أن أدفع ضرائبى التى دائمًا ما ترتفع كما يجب أن أدفع ثمن الحماية للشرطة وأدفع الإيجار لمالك المحل الذى يرفع ثمن الإيجار باستمرار. بالتالى فإن درهمًا سعر مناسب».

«هل الضرائب المفروضة عليك عالية؟».

يقول البائع باختناق وهو يهز رأسه: «ماذا؟ هل ترى هذه الجسور والجدران والقصور الفاخرة؟ ويقوم الخليفة ببناء قصر آخر ملىء بالذهب والفضة! ما عيب قصر جده المنصور؟ أليس جيدًا بالشكل الكافى؟ ومن يدفع الضرائب؟».

يستمع الخليفة هو وصديقه.

ثم يسأله الخليفة: «كما عليك أيضًا دفع الحماية للشرطة».

«ليست الشرطة فحسب بل ابتداءً من قاضى القضاة «أسد» وما يليه من وزراء وتابعين حتى الأقل شأنًا فى الحكومة طالما أحتاج إليه، فجميعهم يستنزفوننى حقًّا يستنزفوننى».

يسأله هارون الرشيد: «فى رأيك ماذا يجب القيام به؟».

«أعتقد أن جلالته يجب أن يخرج من صومعته ويأتى هنا بيننا نحن العامة ويرى ما يتم باسمه ويستمع إلى الناس، على الأقل يرينا وجهه. كل ما نعلمه هو أن الدولة يحكمها التابعون».

يسأله هارون الرشيد: «ما رأيك فى الخليفة؟».

«كيف لى أن أعرف؟ إننى لم أره قط ولكننى أسمع أنه مغرم بالنساء والخمر. أتعرف ... الكثير من شرب الخمر» ويقلد الرجل السكارى فيلتف بعينيه ويفتح فمه ويترنح فيضحك ثلاثتهم.

يُخرج الخليفة درهمًا ذهبيًا مصكوكًا حديثًا منذ أيام قليلة ويعطيه للرجل. يثير لمعان الدرهم دهشة الرجل فيعض عليه بأسنانه ويمسكه ناحية الضوء ليتأكد من أنه سليم.

ثم يقول الرجل: «إنه درهم جيد». وينطلق الرجلان مرة أخرى فى ظلام الليل.

فى صباح اليوم التالى فى القصر يدور حديث بين الخليفة وجعفر.

«من هو مسئول الشرطة فى السوق؟».

«سأتبين من هو يا خليفة».

«ثم ائت لى باسم كل مسئول فى هذه المنطقة من أسد إلى من يليه من أشخاص حتى أقل منصب؛ فإننى أسمع أنهم جميعًا يتلقون الرشوة».

«لك الأمر».

«والهيكل الضريبى متى كانت آخر مرة تمت مراجعته فيها؟».

«العام الماضى يا خليفة لتغطية النفقات الزائدة والقصر الجديد والمستشفى».

«أريد أن ألقى نظرة أخرى عليه».

بعد ذلك فى ضوء الظهر البراق مرتديًا زيه الخلافى وواضعًا سيفه الملكى فى حزامه يذهب هارون الرشيد مع جعفر فى ساحة البلاط حيث نادى كلاهما لإعداد الأحصنة والحراس. ممتطيًا فَرَسته العربية يقود الخليفة موكبه إلى السوق فى وَضح النهار فى شوارع بغداد العامة لأول مرة منذ عام. تتراجع حشود الناس الموجودة فى الشارع ويصيح بعض المواطنين من نوافذ عليا ويلوح الخليفة لهم بيديه.

يقف الخليفة أمام محل الخناجر ويصاب البائع ذو العينين الداكنتين بالدهشة إلى الحد الذى يجعله غير قادر على الوقوف فيظل جالسًا وفى يده فنجان من الشاى، وهو معلق فى الهواء فى طريقه إلى فمه.

يقول هارون الرشيد: «هل مازال صحيحًا أن الخليفة لا يُظهر وجهه وأنك لم تضع عينيك عليه أبدًا؟». عندها يلقى الرجل بالفنجان ساجدًا أمامَه معتقدًا أنه على وشك الإطاحة برأسه بسبب وقاحته. لكن بدلًا من ذلك يجذب الخليفة من عدل الخُرج كيسًا مليئًا بالدراهم الذهبية أكثر مائة مرة مما أعطاه للرجل من قبل وألقاهَ له وبالكاد استطاع الرجل النظر إليه.

قال هــارون الرشـيد ضاحكًا: «لا تخـف أبدًا من قولك الحقيقة للخليفة». ثم انطلق هو وموكبه نحو ضفاف النهر ليرى كيف تسير الأمور فى مشروع الجسر الحديث.

أخذ بائع الخناجر مدة عشر دقائق تقريباً حتى يستطيع التقاط أنفاسه ومدة أقل من ذلك كى يقف على قدميه ويفكر فى الثروة الجديدة التى هبطت عليه فى الوقت الذى جاء فيه جيرانه واحتشدوا حوله.

تم تصوير شخصية هارون الرشيد بطريقة رومانسية أسطورية، كما أنه شخصية محورية فى الكثير من النسخ التالية من قصص ألف ليلة وليلة. لكن بغض النظر عن ذلك يوضح التاريخ أن أفضل ما يُذكر به هارون الرشيد هو كونه نموذجًا لدور الحاكم المسلم المتقدم. إنه ليس فقط قويًا عسكريًا وله حضور طاغٍ ولامع الذكاء بل هو أيضًا حكيم وشغوف بالأمور الفكرية. علاوة على ذلك فهو من رعاة الفنون والبحوث العلمية والرياضية وداعم للكثير من مشاريع الترجمة، والتى ستأخذ صبغة رسمية فيما بعد على يد ابنه المأمون فى بيت الحكمة. وكذا قام هارون الرشيد بتشييد أول مستشفى فى بغداد كما ساعد الكيميائى جابر بن حيان فى بحوثه ودعم أول عملية ترجمة كبرى للنصوص الفلسفية والعلمية الهندية والإغريقية، أضف إلى ذلك جمع النصوص الأصلية الأجنبية، ومنها الدراسات الرياضية الهندية التى ستكون مصدرًا لإلهام الخوارزمى فى أحد الأيام.

أما بالنسبة لاهتمامات هارون الرشيد الشخصية فهى الموسيقى والشعر والفنون. وبحصوله على الكميات الكبيرة من أموال الجزية التى يتلقاها من تابعيه ومعاديه، ومنهم البيزنطيون، استطاع أن يضع حجر الأساس لعصر بغداد الذهبى.

وتروى كتب التاريخ النوادر التالية حول هارون الرشيد:

استدعانى الرشيد يومًا وقد زخرف منازله وأكثر الطعام والشراب واللذات فيها، ثم استدعى أبا العتاهية فقال له: صف لنا ما نحن فيه من العيش والنعيم، فقال:

عش ما بدا لك سالمًا	*فى ظل شاهقة القصور*
تسعى إليك بما اشتهيت	*لدى الرواح إلى البكور*
فإذا النفوس تقعقعت	*عن ضيق حشرجة الصدور*
فهناكَ تعلم موقنًا	*ما كنت إلا فى غرور*

فبكى الرشيد بكاءً كثيرًا شديدًا. فقال له الفضل بن يحيى: دعاك أمير المؤمنين تسره فأحزنته؟

فقال له الرشيد: دعه فإنه رآنا فى عمًى فكره أن يزيدنا عمًى.

وقد كان رحمه الله جم التواضع للعلماء، كثير الحب لهم، استدعى إليه أبا معاوية الضرير محمد بن حازم ليسمع منه الحديث، قال معاوية، ما ذكرت عنده حديثًا إلا قال: صلى الله على سيدى، وإذا سمع موعظة بكى

حتى يبل الثرى، وأكلت عنده يومًا ثم قمت لأغسل يدى، فصب الماء علىّ وأنا لا أراه، ثم قال: يا أبا معاوية، أتدرى من يصب عليك الماء؟ قلت: لا. قال: يصب عليك أمير المؤمنين!! قال معاوية: فدعوت له، فقال: إنما أردت تعظيم العلم (38).

انتشرت القصص حول مدى عظمة بلاط هارون الرشيد وثقافته بشكل كبير فى أثناء عصره. فلم يقم علاقات دبلوماسية مع أماكن بعيدة مثل الصين وبلاط شارلمان فحسب، وإنما بدأ أيضًا فى حوارات مطولة بعيدة المسافات مع شارلمان، والتى كان لها عظيم الأثر على الفرنجة عن العرب.

فى أثناء صياغة الرسائل الأخيرة من الخليفة إلى الإمبراطور الفرنجى يتساءل دبلوماسيو بغداد أنه بينما قائدهم القوى هو رجل علم وشاعر، فهل يستطيع شارلمان القراءة والكتابة. إن الحقيقة ليست قاطعة تمامًا، فبالرغم من أن شارلمان فى حقيقة الأمر لا يستطيع القراءة والكتابة فإنه يدعم العلماء ويعين المعلمين.

قام البلاطان بالتخطيط لعقد اجتماع قمة فى بداية القرن التاسع ولكن لم يحدث ذلك. الأمر الآخر الجيد هو تبادل الهدايا فى عام 801 عندما أرسل هارون الرشيد إلى شارلمان هدايا لم تر أوربا مثيلًا لها. أهداه هارون الرشيد فيلًا اسمه أبو العباس، وسار هذا الحيوان الضخم فى شوارع عاصمة شارلمان إيكس لا شابيل محدثًا فوضى بين الناس. فإن الأفيال لم تطأ أرض أوربا منذ عبور هانيبال جبال الألب منذ ألف سنة مضت.

كما أرسل هارون الرشيد إلى شارلمان قرنًا عاجيًا منقوشًا وصينية وإبريقًا من الذهب الخالص وطقم شطرنج وخيمة ملكية وزوج شمعدان من النحاس وساعة مياه غاية فى الدقة. وقد سلبت هذه الساعة لُب كل من رآها كما تولد عن هذه الأعجوبة التقنية مناقشات بين المفكرين الأوربيين فى ذلك الوقت؛ حيث تحتوى الساعة على 12 كرة نحاسية تشير إلى الساعة بسقوطها فى صَنج و12 فارسًا منحوتًا يخرجون من نوافذ صغيرة.

يوجد القليل من الشك فى أن تعامل شارلمان مع هذا الحاكم القوى والمستنير أظهر له نموذجًا مثاليًا للقيادة لا يوجد فى أى مكان بأوربا فيما عدا الأزمنة التاريخية باليونان وروما. حتى فى وقت صراع شارلمان لدفع المسلمين إلى أعماق إسبانيا بقوة الجيوش كان مبهورًا بتقدمهم التكنولوچى والاجتماعى.

فى نفس الآونة سيظهر بشكل موازٍ نموذج للحكم الإسلامى التحررى فى الأندلس. فسوف يمتد مثل التسامح الدينى الأندلسى والاعتدال الشعبى الاستبدادى

للأموى المؤسس عبدالرحمن الأول. لكن هذه الشائعات سوف تصير أكثر وضوحًا فى عام 796 عندما يطلب الأمير الأموى هشام المتقدم فى العمر من مسئوليه أن يقسموا بالولاء إلى ابنه وخليفته الحكم وسوف ينصح ابنه بأن يقيم العدل بين الغنى والفقير على حد سواء، وأن يكرم رعيته التى أوكلته رعايتها؛ إذ إنهم جميعًا من خلق العلى العظيم، وعليه أن يعهد بولاية مختلف المدن والأمصار إلى من يثق بهم من ذوى الحنكة والخبرة، وليضرب بيد من حديد ولا تأخذه رحمة بأى منهم سبيله القمع أو القهر، وراحَ ينصحه بالاعتدال فى قيادة الجند مع توخي الحزم، وأن يتذكر أن الجيش إنما هو للدفاع عن البلاد وليس لنهب خيراتها وثرواتها، وعليه أن يعمل على انتظام رواتبهم وألا يمنيهم بالوعود والعهود، وأن يجاهد حتى تحبه رعيته، ففي محبتهم له أمن البلاد وخوفهم منه خطر عليه وكرههم له الهلاك والدمار. وأن يولي رعاية خاصة للزراع والخبازين، وأن يضمن حفظ مواردهم وسلامتها من الأذى. وأن يتوج الاحترام والوقار أفعاله حتى تبارك له رعيته وتسعد تحت ظل حكمه، فليس للملوك والأمراء سبيل آخر لكسب السمعة الطيبة والسيرة الحسنة.

لسوء الحظ بمجرد تولى الحكم السلطة لن يضيع وقته وسوف يتجه مباشرة إلى الحريم والخمر ضاربًا عرض الحائط بكل تعاليم والده. وسوف يحيا حياةً قصيرة ومتدهورةً ثم سيأتى النمط الأكثر مسئوليةً وتقدمًا الذى اتبعه والده مع حُكام أندلسيين آخرين.

لكن النموذج الاستبدادى والافتقار إلى مراقبة السلطة الملكية واقترانها بالثروة الضخمة للخلفاء وطبقات الحكم الإسلامى سوف تغوى الحُكام الضعفاء والمستبدين. فسيرجع الأمر إلى الحُكام المستنيرين والأمناء لمراقبة أنفسهم بدلًا من القوانين والهيئات الخارجية. أحيانًا سيفلح هذا الأمر وأحيانًا أخرى لا، ولكن سيوجد على الدوام نموذج القيادة العادلة والرحيمة حتى يتبعه القادة الصالحون.

لن يكون الأمويون والعباسيون الوحيدين الذين يناصرون نموذجًا للحكومة الصالحة حيث إن السلاجقة ممن وصلوا للسلطة السياسية تحت العباسيين الضعفاء فى القرن العاشر سوف يستمرون فى نفس التقليد. أحد المفكرين السياسيين العظماء هو الوزير الأعظم نظام المُلك وهو صديق لعمر الخيام وفيما بعد سيصبح وزيرًا لدى السلطان ملك شاه.

سيتأكد نظام المُلك من أن المعرفة والتعليم هما جزءان أساسيان من الحكم الرشيد والمجتمع الصحيح؛ وذلك من خلال تأسيس الجامعات الدينية ضمن النطاق السلجوقى فى فارس والشرق الأوسط، والذى سيُطلق عليها اسمه. سوف ينظر الكثير من العلماء إلى النظامية بمناخها التساؤلى والجدلى ضمن سياقها الدينى

غير المُحكم نوعًا ما على أنها سلف للجامعات الغربية الحديثة. ستوجد النظامية حتى تلقاها أمواج الصليبيين المسيحيين الآتين إلى الأرض المقدسة فى بداية القرن الـ 11؛ حيث لا يوجد بعد ما يشبهها فى أوربا التى كان التعليم فيها لايزال يعول على أنظمة الدير المغلقة.

حتى السلطان سيتشكك فى تكلفة تمويل هذا الكم من الجامعات معتقدًا أنه من الأفضل إنفاق المال فى بناء الحصون أو تعيين المزيد من القوات. وقيل إن نظام المُلك قد رد قائلًا:

الحصن التعليمى الذى أسسته لك سيتحدى طغيان الزمان ويثبت صموده. لن تتعدى أسهم الجنود 100 ياردة أما أسهم الجيش الذى شيدته فستصعد إلى السماء وتُخلد ذكراك إلى الأبد.

على المستوى النظرى سوف يقوم نظام المُلك بمساهمة أخرى فى القيادة الصالحة والحكومة الرشيدة. فى أثناء أعوام سفره فى شتى أرجاء الإمبراطورية واستماعه إلى المواطنين والمسئولين نيابة عن السلطان سوف يبدأ فى صياغة كتاب ضخم حول كيفية الحُكم الجيد وسيطلق على هذا الكتاب (سياساتنامه) أو كتاب الحكومة وسيكون بلغته الأم وهى الفارسية. فى خمسين فصلاً سيضع (سياساتنامه) مقاييس وأمثالاً حول الحكومة الصالحة:

قد تدوم المملكة بلا دين لكنها لن تصمد فى وجود الظلم.

عندما يجلس الملك فى مكان تحميه الأبواب والبوابات والأقفال والردهات والحواجز والمسئولون من الممكن للأشخاص المستبدة أن تمنع الأشخاص من الوصول إلى الملك.

يجب إعلام جامعى الضرائب بأخذ الكم المستحق فقط بكل تمدن ورحمة وعدم الانتظار حتى آخر لحظة.

أفضل الحُكام هم من يحتفظون بصحبة من يعلمون، وأسوأ من يعلمون هم من يسعون لصحبة الملك.

المعرفة أفضل من الثروة؛ وذلك لأن عليك رعاية الثروة ولكن المعرفة هى التى ترعاك.

قبل أن يجف الحبر في دراسة نظام المُلك حول الحكومة الصالحة بدأ صراع عسكرى ألفى وهو الأمر الذى أظهر للكثير من ذوى الولاء أن أولويات الإنفاق التى أشار إليها مالك شاه كانت صحيحة حيث لا يحتاج المسلمون فى القرن الـ 11 إلى كل هذا التعليم وحكومة صالحة مثلما يحتاجون إلى المزيد من الجيوش والحصون.

سيكون هذا الصراع الأول من نوعه بعد مرور ثلاثة قرون ليأتى بصدامات عنيفة تهز أرجاء المنطقة من تركيا إلى سوريا إلى مصر. هذا القتال هو القتال الصليبى وبالنظر من أعلى يبدو وكأن الصليبيين جاءوا فى المقدمة بالصراع الدينى العسكرى الأولى الذى حدث فى «تور» بالقرن الثامن. لما يزيد عن مائتى عام يوصف القتال الصليبى، منذ أواخر القرن الـ 11 وحتى بداية القرن الـ 13 والمكون من تسع حملات مسيحية رئيسية والعديد من الحملات الأخرى الصغرى، على أنه «جهاد معاكس» يقوم به المسيحيون لطرد المسلمين من القدس وأراضى المهد المسيحية. لطالما كانت هذه الأراضى تحت السيطرة الإسلامية منذ زمن الخلفاء الأوائل فى القرن السابع؛ فبالتالى ظلت تحت الحكم الإسلامى طيلة أربعة قرون؛ أى عشرين جيلاً عاش فيها كما تعايشت الأديان الثلاثة الإبراهيمية تحت السيطرة الإسلامية. كان المسيحيون يذهبون للحج فى القدس طوال هذه المدة كما وُجِدَ اليهود فى كل مكان هناك.

لكن الزمن يتغير، ففى الوقت الذى يناور السلاجقة والأيوبيون والفاطميون للوصول إلى سلطة المسلمين وينزوى البيزنطيون فى بلاد صغيرة على الساحل الأناضولى عندها أحس الأوربيون بأن الفرصة سانحة أمامهم.

ما زاد من جرأتهم هو إعادة الفتح المسيحى التدريجى لإسبانيا كما استشاطوا غضباً بسبب القرار غير المنطقى للسلطان الفاطمى الحاكم بتدمير كنيسة الضريح المقدس فى مدينة القدس، والتى بناها الإمبراطور قسطنطين فى عام 330 لإحياء ذكرى التل الذى صُلب عليه المسيح والضريح الذى دُفن فيه.

هذه النسخة المسيحية الجديدة للحرب المقدسة، والتى نتج عنها جدل واسع فى روما حول عدم اتساقها بالمرة مع التعاليم السلمية للمسيح عيسى سوف توافق عليها أخيراً الكنيسة الغربية.

لكن بالنظر إليها من أعلى وعبر عدسة تاريخ ضائع نجد هذه الصراعات السياسية الدينية سوف تتسم بفروق واضحة كما أنها ستتعقد بسبب انفصال الكنيسة المسيحية فى عام 1054 لأول مرة وإلى الأبد إلى المذهب الكاثوليكى الرومانى فى روما والمذهب الأرثوذكسى الشرقى فى قسطنطينية. من ثم سيرغب الكاثوليك الرومان

ليس فقط فى طرد القوات الإسلامية من المدن المقدسة وإنما أيضًا القوات البيزنطية الأرثوذوكسية.

بالإضافة إلى ذلك سوف تتعقد أمور الحرب نتيجة للتحالفات الغربية التى ستحدث. سيتفق الصليبيون والمغول على قضية مشتركة ضد المسلمين فى الوقت الذى سيأخذ البيزنطيون جانب أعدائهم القدماء المسلمين، بل وسيتفق فرسان الهيكل المسيحيون مع الإسماعيليين السوريين.

وللمزيد من التعقيد للأمور وحتى بفوز الكثير من الصليبيين فى المعارك الأولية وأخذهم المؤقت للقدس ومدن أخرى فى فلسطين وسوريا سوف يتغيرون بشكل أبدى نتيجة لهذه التجربة. فالكثير من المحاربين الأوروبيين سوف يستقرون فى الشرق وبعضهم سوف يمنح ممتلكات كثيرة كما سيحبون الجو الأكثر دفئًا وجفافًا وسيقعون تحت سحر نمط من الحياة أكثر رُقيًا ورفاهيةً وراحةً.

ستتميز الحملة الصليبية الأُولى بالغارات والانتصارات العسكرية المسيحية، والتى تتضمن سقوط القدس فى يد المسيحيين فى عام 1099. مع الكثير من التفاصيل التى ضاعت بكل أسف فى غيابات التاريخ؛ هذا الانتصار الأوروبى فى القدس وإنه ستشوهه مجزرة أوروبية ضد كافة سكان القدس القديمة؛ فكل من المسلمين واليهود وحتى المسيحيين تم التعامل معهم على أنهم أعداء. وفى الطريق إلى الشرق الأوسط سوف يقوم المسيحيون بعمليات عنف ضد اليهود.

يصف أحد الفرنجة المجزرة الصليبية لأهالى القدس فى عام 1099 على النحو التالى:

الكونت ريموند ورجاله أثناء الهجوم على الجدار الواقع فى الجانب الآخر... رأوا المسلمين وهم يقفزون من الجدار الواقع أمامهم وعلى التو أسرعوا مبتهجين نحو المدينة لمطاردة الأعداء الألداء وقتلهم كما كان يفعل رفقاؤهم فى الحرب. لجأ بعض المسلمين والعرب والإثيوبيين إلى برج داود بينما فر آخرون إلى معبد الرب ومعبد سليمان. دار قتال شديد فى ساحات المعابد حيث لم يستطيعوا الفرار من الجلادين المرافقين لنا. هرب الكثيرون إلى سطح معبد سليمان، وأصابتهم الأسهم حتى سقطوا على الأرض صرعى. قُتل فى هذا المعبد قرابة عشرة آلاف شخص، وإذا ما كنت هناك لرأيت أقدامنا حتى كواحلنا مغطاة بدماء القتلى. ماذا أقص أيضًا؟ ما من أحد ظل حيًا حتى النساء والأطفال لم يسلموا من المذبحة.

كما يصور فرنسى آخر الوضع بشكل أكثر حركة قائلًا:

فى أثناء غزو المسيحيين للقدس فى عام 1099 دارت مذبحة نالت من المسلمين فى الشوارع والبيوت. لم يكن فى القدس أى ملجأ للمهزوم فالبعض فر من الموت بإلقاء أنفسهم من فوق الأسوار واحتشد البعض الآخر فى القصور والأبراج والمساجد حيث لم يستطيعوا إخفاء أنفسهم عن أعين المسيحيين. سيطر الصليبيون على مسجد عمر حيث دافع المسلمون عن أنفسهم لبعض الوقت ولكن الصليبيين جددوا مشاهدهم الباعثة على الأسى، والتى ألحقت العار بغزو تيتوس. انطلق المشاة والفرسان بين الهاربين ووسط أكثر الاضطرابات بشاعة ليقضوا على من تبقى لم تُسمع سوى تأُوهات الموتى ووطئ المنتصرون فوق أكوام الجثث فى سعيهم للحاق بمن حاولوا محاولات فاشلة للهرب. صرح ريموند داجيل وهو شاهد عيان أنه تحت الرواق المُعمد فى المسجد، وصل عمق الدماء إلى الركب، بل وصل أيضًا إلى ألجمة الأحصنة.

ساد الهدوء لمدة قصيرة فى أثناء المجزرة عندما اجتمع الصليبيون لأداء صلاة الشكر من أجل الانتصار الذى أحرزوه، ولكن لم يمض الكثير حتى جددوا القتال بشراسة فائقة. ويقول ميشود إن كافة الأسرى الذين لم تطلهم المذبحة وكل من أُنقذ على أمل الحصول على فدية كبيرة تم ذبحهم عن عمد. تم إجبار المسلمين على إلقاء أنفسهم من أعلى الأبراج والمنازل وتعرضوا للحرق وهم أحياء وتم جرهم من مخابئهم وسحبهم إلى الأماكن العامة حتى يضافوا إلى أكوام الموتى الملقاة. لم تُلنِ دموع النساء أو بكاء الأطفال ولا حتى مشهد المكان الذى سامح فيه المسيح عيسى جلاديه قلوب المنتصرين . . . استمرت المذبحة لمدة أسبوع، أما القلة التى استطاعت الهرب فقد خضعوا إلى عبودية قاسية.

بجانب المجزرة فإن الغزو المسيحى موصوم أيضًا بأعمال النهب والاغتصاب. سيقوم الأوربيون حتى بسرقة الكنائس المسيحية الثرية كما سيتشاجر القادة الأوربيون المنتصرون فيما بينهم على الغنائم.

وستحصد تلك المجزرة الأوربية المتعمدة أرواح آلاف الضحايا من الأبرياء والعزَل من مختلف الأديان الذين عاشوا فى القدس. سينتشر أصداء هذا الحدث فى شتى أرجاء الشرق الأوسط ليعضد من قوى المسلمين للمقاومة وسوف يستغرق الأمر قرابة قرن حتى يبنى المسلمون قوتهم.

فى ذلك الوقت سيقوم المسيحيون بتأسيس مملكتهم اللاتينية فى القدس وحصون أخـرى فى سوريـا وفلسطـين. ستصير الخطـوط غير واضحـة والأعداء جيرانًا لا يستهان بهم.

فترة الاضطراب هذه سوف تساعد على ظهور قائد مسلم وهو رجل شديد التدين لن يتمتع بفكر مثل هارون الرشيد والمأمون ولا الحاكم فى القاهرة أو عبدالرحمن الثالث فى قرطبة إلا أنه سيجسد نوعًا من شرف الفروسية الإسلامية سيكون مثار انبهار الأوربيين، بل وسيدفعهم نبله هذا إلى العديد من المواقف المحرجة فما كان منهم إلا التهامس بأن السبب وراء أخلاقه الرفيعة والكريمة ما هو إلا لأن لديه دماء «أوربية» تجرى فى عروقه.

هذا الرجل هو صلاح الدين، ومثل هارون الرشيد، تجد القصص التى تحيط به لها طابع رومانسى وأسطورى، لكن رقيه الأساسى وحكمه الإنسانى فى الكثير من الأمور المستفزة هو حقيقى ويُقتدى به.

صلاح الدين فى الأصل كردى تربَّى وتعلَّم فى سوريا ووالده رجل عسكرى وكلاهما خلصا إلى أن الطريقة الوحيدة التى يستطيع بها المسلمون مقاومة هجوم المسيحيين هى وحدة الفصائل الإسلامية المتحاربة كافة. وسيكون صلاح الدين هو من يقوم بهذا العمل البطولى.

سيحصل على فرصته فى الانتقام فى عام 1187 بعد سنوات عديدة من الصراع، سيحاصر هو وجيوشه مدينة القدس لاستعادتها وتدمير المملكة المسيحية. وعندما حانت لحظة الانتصار وارتفع مرة أخرى رمز الهلال والنجمة فوق جدران المدينة توقع الجميع ـ ومنهم قواته ـ أنه سيقوم بنفس المجزرة الوحشية التى حدثت على يد المسيحيين والعين بالعين، وأنه يجب أن تطير الرءوس وتتدفق أنهار الدماء.

إلا أنه.... كما يروى ابن الأثير بعد معارك القدس:

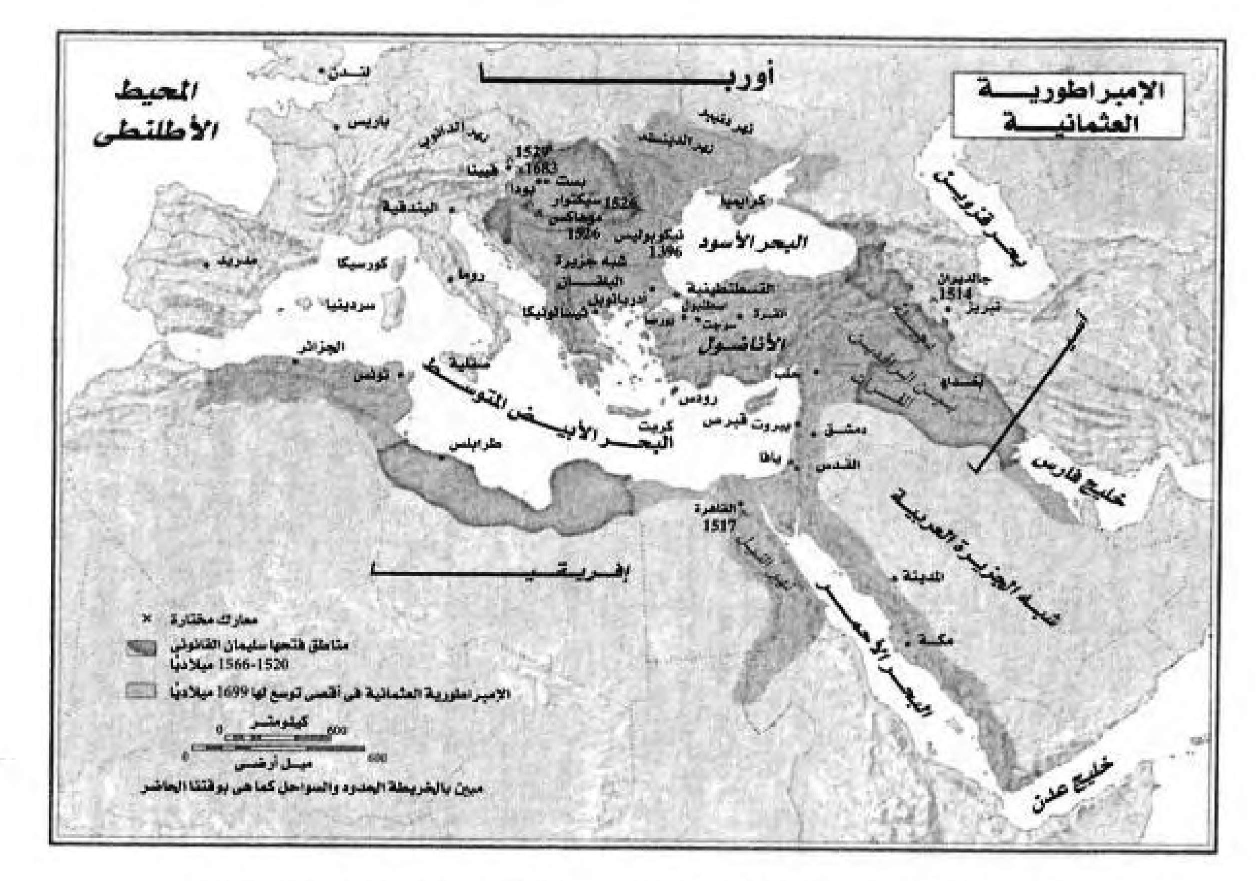
فلما رأى الفرنج شدة قتال المسلمين وتحكم المجانيق بالرمى المتدارك وتمكن النقَّابين من النقب، وأنهم قد أشرفوا على الهلاك اجتمع مقدموهم يتشاورون فيما يأتون ويذرون فاتفق رأيهم على طلب الأمان وتسليم البيت المقدس إلى صلاح الدين فأرسلوا جماعة من كبرائهم وأعيانهم فى طلب الأمان فلما ذكروا ذلك للسلطان امتنع من إجابتهم وقال: لا أفعل بكم إلا كما فعلتم بأهله حين ملكتموه سنة إحدى وتسعين وأربعمائة من القتل والسبى وجزاء السيئة بمثلها. فلما رجع الرسل خائبين محرومين انسلّ باليان بن بيرزان وطلب الأمان لنفسه ليحضر عند صلاح الدين فى هذا

الامر وتحريره فأجيب إلى ذلك وحضر عنده ورغب في الأمان وسأل فيه فلم يجبه إلى ذلك واستعطفه فلم يعطف عليه واسترحمه فلم يرحمه. فلما أيس من ذلك قال له: أيها السلطان أعلم أننا في هذه المدينة في خلق كثير لا يعلمهم إلا الله تعالى وإنما يفترون عن القتال رجاء الأمان ظنًا منهم أنك تجيبهم إليه كما أجبت غيرهم وهم يكرهون الموت ويرغبون في الحياة فإذا رأينا أن الموت لابد منه فوالله لنقتلن أبناءنا ونساءنا ونحرق أموالنا وأمتعتنا ولا نترككم تغنمون منها دينارًا واحدًا ولا درهمًا ولا تسبون وتأسرون رجلًا ولا امرأة وإذا فرغنا من ذلك أخربنا الصخرة والمسجد الأقصى وغيرهما من المواضع ثم نقتل من عندنا من أسارى المسلمين وهم خمسة آلاف أسير ولا نترك لنا دابة ولا حيوانًا إلا قتلناه ثم خرجنا إليكم كلنا فقاتلناكم قتال من يريد أن يحمي دمه ونفسه وحينئذ لا يقتل الرجل حتى يقتل أمثاله ونموت أعزاء أو نظفر كرامًا.

فاستشار صلاح الدين أصحابه فأجمعوا على إجابتهم إلى الأمان وألّا يخرجوا ويحملوا على ركوب ما لا يدرى عاقبة الأمر فيه عن أي شيء تنجلي ونحسب أنهم أسارى بأيدينا فنبيعهم نفوسهم بما يستقر بيننا وبينهم فأجاب صلاح الدين حينئذ إلى بذل الأمان للفرنج فاستقر أن يزن الرجل عشرة دنانير يستوي فيه الغني والفقير ويزن الطفل من الذكور والبنات دينارين وتزن المرأة خمسة دنانير فمن أدى ذلك إلى أربعين يومًا فقد نجا ومن انقضت الأربعون يومًا عنه ولم يؤد ما عليه فقد صار مملوكًا فبذل باليان بن بيرزان عن الفقراء ثلاثين ألف دينار فأجيب إلى ذلك. وسلمت المدينة يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب وكان يومًا مشهودًا ورفت الأعلام الإسلامية على أسوارها...

وخرج البطريك الكبير الذى للفرنج ومعه من أموال البيع منها: الصخرة والأقصى وقمامة وغيرها ما لا يعلمه إلا الله تعالى وكان له من المال مثل ذلك فلم يعرض له صلاح الدين فقيل له ليأخذ ما معه يُقَوّى به المسلمين فقال: لا أغدر به ولم يأخذ منه غير عشرة دنانير وسير الجميع ومعهم من يحميهم إلى مدينة صور...

فلما ملك البلد وفارقه الكفار أمر صلاح الدين بإعادة الأبنية إلى حالها القديم فإن الداوية بنوا غربي الأقصى أبنية ليسكنوها وعملوا فيها ما يحتاجون إليه من هرى ومستراح وغير ذلك وأدخلوا بعض الأقصى في أبنيتهم فأعيد إلى الأول وأمر بتطهير المسجد والصخرة من الأقذار والأنجاس ففعل ذلك أجمع [39].



شملت الإمبراطورية العثمانية (1453-1922) معظم أراضى الدولة الإسلامية المبكرة، عدا إسبانيا والمغرب، كما شملت دول البلقان.

حقًا استرد صلاح الدين القدس لنفسه وللمسلمين ولكن ليس من باب الانتقام.

سمح للمسيحيين -والذين بلغ عددهم 100000 تحديدًا - بمدة شهر كى يرحلوا وكان عليهم دفع جزية الرحيل وسمح لهم أيضًا بأخذ متعلقاتهم، وكذلك النبلاء الأثرياء الذين تكتظ بيوتهم بالفنون والجواهر. أما بالنسبة لمن تبقى من نسل من قاموا بالمذبحة فى عام 1099 فكان عقابهم الأسوأ هو النفى.

عندما ظهر ما يقرب من 30000 مسيحى فقير ممن لا يستطيعون دفع جزية الرحيل، فقد انتشرت الشائعات بأنهم إما سيُستعبدون أو يُقتلون أو يُجبرون على اعتناق الإسلام.

توصل مستشارو صلاح الدين إلى أن الأسقف المسيحى هرقل الذى سيرحل مع المسيحيين لديه ما يكفى من الثروة كى يدفع فدية المسيحيين المتبقين كافة. فلمَ لا يجعلونه يدفع لهم؟ لكن صلاح الدين رفض، بل ودفع هو وأخوه وصهره المال من مالهم الخاص وسمح للأسقف هرقل بالرحيل بكافة متعلقاته وثروته.

هذه الأفعال فى حد ذاتها هى تجسيد لمدى نُبل صلاح الدين. لكن فى عام 1192 لاحت فى الأفق جولة أخرى عندما عاد الصليبى المسيحى الشهير ريتشارد قلب الأسد كى يستعيد المدينة المقدسة. وبالرغم من المجهودات الباسلة تعرقلت الحملة، وعندها بدأت أكبر صداقة غير متوقعة فى تاريخ الحرب، فكما كانت العلاقة بين هارون الرشيد وشارلمان صار كلٍ من صلاح الدين وريتشارد أصدقاء عن بُعد. وبينما جمعت الحرب بينهما رغم بُعد بضع المئات القليلة من الياردات فإنهما لم يتقابلا فعليًا. لكن كليهما حاول التغلب على بعضهما البعض بالأفعال الكريمة والنبيلة.

عندما مرض ريتشارد فى حصار إيكر فى عام 1192 لم يرسل صلاح الدين طبيبه الخاص ابن ميمون لعلاجه فحسب، بل أرسل له الثلج لمساعدته فى الشفاء من الحمى وكذا بعض الفواكه المُعالجة. وعندما قتل حصان ريتشارد فى إحدى المعارك ووجد الملك الإنجليزى نفسه على قدميه فى مواجهة جيش المسلمين بأكمله تركه المسلمون يمشى عبر كتيبتهم كلها دون مهاجمته، وبعد ذلك أرسل صلاح الدين له فرسين حتى لا يشعر بقلة الحيلة.

أخيرًا توجب على ريتشارد قلب الأسد ترك الحملة الصليبية بسبب الشائعات التى وصلت إليه حول تآمر منافسيه ضده فى إنجلترا. من ثم كلما طال وقت انتظاره فى الأرض المقدسة كلما خاطر بفقدان عرشه، وهنا سمح له صلاح الدين بالتراجع بشرف مشيرًا إلى آخر مجهود جاد لاستعادة القدس. سوف تتفرق الحملات الصليبية بعد مرور بضعة عقود حتى بعد إلحاق المغول الهزيمة بخراسان وبغداد.

بعد مرور وقت طويل على تلك الأعمال الفروسية كتب المؤرخ الفرنسى رينيه جروسيه عن صلاح الدين قائلاً:

حقًا إن كرمه وورعه وعدم تعصبه، وهى ثمار التسامح والتواضع التى كانت جميعها النموذج الذى يتتبعه المؤرخون القدماء، جعلته يفوز بقدر من الشعبية فى سوريا الفرنكية على نفس قدر بلاد الإسلام.

لكن سيأتى تقدير آخر على يد واحد من أفضل الشعراء الأوربيين فى القرن الـ 13 والذى كتب بعد مرور عقود على فشل الصراع الصليبى فى استرداد القدس، ذلك عندما رتبت الكوميديا الإلهية، من خلال أعين مسيحية ملتزمة، شخصيات التاريخ البارزة حيث قام دانتى بالتمييز بين المسيحيين وغير المسيحيين، فما من وثنى إلا ويحتل أعلى المستويات؛ فمثلًا الشخصيات الوثنية الإغريقية والرومانية مثل هوميروس وأفلاطون وقيصر سوف يسكنون الليمبوس(*). لكن صلاح الدين سيكون له مرتبة خاصة به يُطلق عليها «الأرواح عظيمة القلوب»، وذلك بسبب أفعاله وسياساته النبيلة أثناء صد المسلمين للقوة الصليبية فى الشرق الأوسط.

ومع توقف الحملات الصليبية وضعفها فى تلك الآونة تأسس كيان إسلامى جديد فى الجنوب الشرقى. ظهرت سلطنة دلهى فى أوائل القرن الـ 13 ودامت من عام 1206 حتى 1526، وقد تأسست على يد مقاتلين أتراك من آسيا الوسطى زحفوا إلى الهند. وعلى الرغم من اختفاء هذه السلطنة فى تاريخ الهند الإسلامى على يد المغول الكبار إلا أن قائدة غير عادية ذات اتجاه تقدمى ستظهر فى بدايات دلهى الإسلامية منذ 1236–1240.

اسم هذه القائدة رضِيَّة الدين. عندما ينظر والدها المُسن السلطان إلتتمش إلى المستقبل يفكر فى الخلافة الملكية. فقد مات ابنه الماهر فى إحدى المعارك، ويعرف أن أبناءه الآخرين ليسوا بالكفاءة المطلوبة، ثم يجد بعد ذلك ابنته رضية الدين فهى أذكى من الصبيان كافة، كما أنها مقاتلة على قدر عال من المهارة. تركها فى الكثير من الأحيان مكانه فى البلاط فى أثناء ذهابه إلى المعارك، ولم يفكر أبدًا فى أن يفعل ذلك مع أحد أولاده. على الرغم من أن هذا غير مألوف ـ أى عندما يفكر فى الاختيار بين ترك وصيته لمن هم دون الكفاءة أم إلى رضية الدين ـ فإنه يختارها.

(*) فى علم اللاهوت، الليمبوس هو موطن الأرواح العادلة أو البريئة والتى حرمت من دخول الجنة من غير ذنب اقترفته مثل أرواح الأطفال غير المعمدين.

لكن بعد وفاة إلتتمش اقتنص السلطة أحد الأشقاء الطموحون، اسمه فيروز وتوجب على رضية الدين التنازل. انغمس فيروز لمدة سبعة أشهر فى الحفلات والإنفاق، وترك شئون السلطنة تخرج عن السيطرة، وعندها وقف المواطنون وقفة رجل واحد وطلبوا رجوع رضية الدين إلى العرش وما كان على فيروز أمام هذه الثورة إلا الاستسلام.

بالرغم من حصولها على دعم الناس فإنها واجهت الأعداء من كافة الاتجاهات، وكان الكثير يحطون من شأن أنوثتها. فى الوقت ذاته ينتظر النبلاء الأتراك أن تقع فى خطأ واحد وكذا يتآمر عليها أخواتها. وإلى أن تحكم لم تثق فى أى فرد من أسرتها أو من طبقة النبلاء، وبدلًا من ذلك اعتمدت على عبد إثيوبى اسمه جلال الدين ياقوت وأصبح أقرب مستشاريها بل وقد يكون أكثر من ذلك.

من أجل أن توطد علاقاتها بالنـــاس أقامت رضيـــة الدين اجتماعات مفتوحة مع مواطنيها كى تسمح بتقديم الشـــكاوى والطلبـات لها مباشـرة. كانت ترتدى زى الرجال فإمـا أن ترتـــدى درعًا وإمـا أن ترتدى ســترةً طويلةً بالإضافة إلى غطاء للـــرأس. قامت بدعـــم التجارة وتشـــييد البنية التحتيـــة مثل الطرق السريعة والآبار وزراعة الأشجار؛ لزيادة المســـاحة الخضـراء والحد من التآكل الذى تخلفه الرياح.

ثم حاولت أن تقلل من التمييز ضد الهندوس وعندها وجد أعداؤها الفرصة، وجميعهم من نفس دينها وعرقها. ويأتى حاكم اسمه مالك الطونيا ويهزم جيش رضية الدين ويقتل مستشارها الإثيوبى. وتُجبر رضية الدين على الزواج من الطونيا، وحكما معًا تحت توجيهاته، ولم يمض وقت طويل حتى تمرد عليها أحد أشقائها؛ وكلٌ من رضية الدين وزوجها قد سقطا قتيلين. كانت تبلغ من العمر 35 عامًا عند موتها، وقد كانت حياتها سلسلة من المغامرات، الواحدة تلو الأخرى. ولبعض الوقت سيبدو حكمها وكأنه أمر غير مألوف لن يتكرر أبدًا.

وعلى الرغم من مرور قرون على ظهور امرأة هندية أخرى لها نفس قوتها السياسية فإنه سيبدأ فى الظهور نساء متمكنات تحت الحكم الهندى الإسلامى. فى معظم الأحيان ستكون تلك النساء زوجات وبنات ملكيات لكن عبر وصولهم للسلطة سوف يسيطرون عليها بشكل غير مباشر. وفى أحد الأيام فى القرن العشرين البعيد ستقوم امرأتان بحكم الدولتين التابعتين للهند القديمة؛ ألا وهما الهندوسية أنديرا غاندى فى الهند العلمانية، وبينظير بوتو فى باكستان الإسلامية وثالثتهما سونيا غاندى، والتى لم تولد فى الهند، كمرشحة رئاسية جادة.

وبالرغـم من دخـــول كل هؤلاء النســاء إلى السلطـــة من خلال كونهـــن بنـــات

أو زوجات لسياسيين مشهورين فإنهن سيستطعن الحصــول على السلطــة المباشــرة.
ما الأمر الخفى الموجود فى الهند، والذى يمكّن المرأة إلى هذا الحد؟

فى حوالى عام 1580 اعتلى العرش فى آجرا عاهـل المغـول الكبـار (جلال الدين أكبر) مستمعًا إلى أحدث العروض اللاهوتية والعقائدية. وهو أول شخص من المغول الكبار يولد على أرض هندية ووصل إلى العرش وهو لايزال طفلًا معتمدًا فى ذلك الوقت على أوصياء حتى اشتد عوده ليقوم بالحكم بنفسه. وعلى ثقة منه فى سطوته العسكرية والسياسية أراد هذا الحاكم استخدام نفوذه لجعل الهند أكثر قوةً وعدلًا واتحادًا فى هذه الأرض، التى تحوى مائة لغة وألف إله وتقاليد متوطدة منذ آلاف السنين.

وهو يبلغ من العمر 50 عامًا لم يقم أكبر بالحكم فحسب، بل وضع النظريات واخترع الكثير فقد قام بأعظم التجارب الاجتماعية التى عرفها التاريخ. يحكم (أكبر) ما يزيد عن 140 مليون شخص فى الوقت الذى كانت فيه إنجلترا 5 ملايين وأوربا بأسرها 40 مليونًا.

تلقت مجموعة من القساوسة اليسوعيين البرتغاليين الآتين من المستعمرة الساحلية (غوا) دعوة من الحاكم المسلم حتى يعرضوا أفضل ما لديهم فيما يخص المسيحية. الجو حارٌ ومزدحم فى غرفة العرش والشمس تحترق فى الخارج ويحصل العاهل على بعض البرودة من المراوح المصنوعة من ريش الطاووس وبمجرد أن بدأ البرتغاليون فى الحديث سادت الهمهمة والهمسات بين جمهور الحاضرين.

انتهى اليسوعيون من مناقشتهم المعرفية، والتى تخلص إلى النتيجة الحتمية فى صالح المسيحية، وينصت إليهم (أكبر) محللاً بدقة ما يقولون. فى أثناء تلك المناقشات والمجادلات استمع أيضًا إلى علماء لاهوتيين لكل من الزرادشتية والسيخية واليانية والهندوسية.

قامت مجموعة من تلك المجموعات بإقصاء مناف للذوق لعلماء المسلمين السُنة الذين ينتمى إليهم (أكبر)، وبغضب كانوا على وشك الإعلان بأنه أكبر مهرطق. وفى أطراف القاعة يستمع وكلاؤهم لما يقولون وقد ملأهم الرعب.

لم يهتم (أكبر) بما يقولون فهو يرى نفسه كمسلم متحفظ وملتزم. أقرب مستشار له هو (أبو الفضل) وهو مؤرخ شيعى، فيما بينهما كانا يفكران فى الدين والمجتمع بعقلية متفتحة، خائضين فى مجالات خاف الكثيرون من الخوض فيها.

فى دولة معظم المسلمين فيها من المذهب السُنى اقترح أبو الفضل مفهومًا شيعيًا فريدًا للإمامة، وهو المفهوم الذى يأتى بأصداء إغريقية وأفلاطونية، إنها رؤية

خاصة بمملكة إسلامية صالحة يقودها ملك فيلسوف حكيم وقويم ألا وهو الإمام. ويشعر علماء المسلمين بالاستياء لهذا التبجيل المبالغ فيه للحاكم السياسى، معتقدين أن هذا التفكير هرطقة، فماذا يفعل؟

لكن (أكبر) لا يخاف من أن يكون هو نفسه عنصرًا للتغيير حتى فى أمور العقيدة؛ فبعد مرور سبعة قرون من فرض الحُكام المسلمين الجزية على غير المسلمين حول العالم، ألغى (أكبر) هذه الضريبة المفروضة على الأديان الأخرى، كما سمح للهندوس بالسفر بحرية إلى مقدساتهم ومنع الجزية المفروضة على حجهم، وحتى يعوض الفرق الذى حدث فى العوائد بدأ فى تطبيق الضريبة على الجميع بما فيهم النبلاء. بالطبع اندهش النبلاء من هذا التصرف، ولكن أمام الدعم الشعبى الذى حظى به هذا القرار من (أكبر) ما كان عليهم سوى الإذعان.

قام (أكبر) بما يزيد عن ذلك، فمن أجل أن ينسج الدولة الهندية الكبرى بشكل وثيق تزوج من بنات كل ملك وأمير وسلطان فى شبه القارة تقريباً حتى وصل عدد زوجاته حوالى 5,000 زوجة من كل العقائد والأصول العرقية. كانت زوجته المفضلة هى (آمبر) وهى أميرة هندوسية من رجاسان فهو لم يسمح لها فقط بالاحتفاظ بعقيدتها، بل سمح لها بممارستها فى قلعة المغول الكبار فى آجرا أيضًا.

كان (أكبر) أيضًا هو أول شخص من المغول الكبار يمنح الألقاب والنبالة لغير المسلمين فحوالى ثلث من منحهم النبالة من الهندوس. وما يزيد على ذلك فإنه أول حاكم من المغول الكبار ينغمس فى العقائد والممارسات غير الإسلامية لشعبه فهو يراها جميعًا مدهشة.

كان جالسًا فى عصر ذاك اليوم الحار يستمع إلى البرتغاليين، يرجع إلى فكرة تشغل ذهنه منذ عدة شهور؛ ألا وهى بما أن الدين فى أغلب الأحيان هو نقطة الصراع الاجتماعى فماذا لو اندمجت كل هذه الأديان مع بعضها البعض؟ بما أنهم جميعا يعبدون إلهًا واحدًا: الله عز وجل ويتمتعون بنفس روح الحب والحنان، الموضحة بطرق مختلفة فلم نركز على الاختلافات؟ لمَ لا نأتى بهم جميعًا ضمن هيكل الإسلام؟ لكن يجب استبعاد بعض الأمور مثل الزرادَشتية عبدة الشمس.

سوف أُطلق عليه «الدين الإلهى» يهمس (أكبر) إلى الفضل وعندها يومئ مستشاره برأسه.

عندها صدر الأمر بأن يكون الدين الإلهى هو العقيدة الجديدة للهند؛ باعتماد الدين الجديد، بشكل كبير على الإسلام سوف يحتوى على بعض الإيماءات الخاصة بالعقائد الأخرى التى سيتضمنها. سيُقام هذا الدين الجديد فى مدينة جديدة ستكون العاصمة، ويُطلق عليها فاتحبور سيكرى، وبها القصور والمعابد الخاصة بهذا الدين المجمع الجديد.

سوف يكتب أبو الفضل حول دخول (أكبر) عاصمته الجديدة فى عام 1571 قائلًا:

هب نسيم الفرحة من فاتحبور حيث وصل الملك بعد رحلة طويلة. يا لها من فرحة، فكل قلب من القلوب يدق بألف ألف بهجة. فى هذا اليوم المفعم بالفرحة وقف الضباط العظماء والتابعون الأوفياء وغيرهم على جانبى الطريق على بُعد مسافة من المدينة. وقفت الأفيال الضخمة ضخامة الجبال فى موكب جلالته، وانطلق خديوى العالم على ظهر أحد الأفيال السماوية محاطًا بهالة نورانية. وبدأت مسيرة الأمراء الخاضعين عن إصدار الأوامر، وسار الكثير من النبلاء أمام حاملى الصولجان. وكانت هناك الكسوة فى روعتها، يتبعها العديد من الضباط. زفت دقات الطبول وألحان الموسيقى الساحرة الأخبار السارة. وتجمع حشود الناس على أسطح المنازل وعند الأبواب تنتابهم الدهشة. وفى نهاية اليوم جلس فى القاعة الفاخرة (دولتخانة) على عرش السيادة. أقام العدالة بمكافأته للمخلص ومعاقبته للمعاد وجعل من زيادة السلطان والنجاح أداة لتقوية العبادة والتضرع.

بالتالى من عصر هذا اليوم الحار انطلقت حملة الهداية الدينية لما بين العقائد المختلفة إلى أركان الإمبراطورية الأربعة. تشير النظرية إلى أنه بتجميع عقائد 140 مليون شخص سوف ينتهى الصراع.

باستثناء مؤسسى الحملة... فماذا يُفترض على المرء الإيمان به فى الدين الإلهى؟ فيوجد الكثير من الجدل والاضطراب حول الافتقار إلى تفاصيل تتعلق بالطقوس والتعاليم.

يرى السُنة التقليديُون هذا الدين الإلهى على أنه هرطقة جلية على الرغم من أنه فى فحواه هو امتداد للإسلام. من هنا بدأ الكثير منهم مساندة الحركات المنشقة والمتمردة، أما باقى من يؤمنون بالعقائد الأخرى فى الهند فقد جلسوا يشاهدون ويستمعون لما يحدث. (أكبر) حاكم عظيم وفعل الكثير حتى يوحد الهند ويزيل الإحساس بالحكم الإسلامى المطلق، لكن هذا الدين الجديد! هل له أن يشرحه مرة أخرى؟!

هكذا سيخبو لهيب الدين الإلهى تدريجيًا فى الهند شاسعة المساحة؛ فيحتضر هذا الدين بينما (أكبر) مازال على قيد الحياة. بيد أنه سيظل ذكرى بعد موته وتشير السجلات إلى أن إجمالى من تحول إلى هذا الدين الجديد هو 18 شخصًا جميعهم أعضاء فى بلاط أكبر.

يكتب أبو الفضل حول (أكبر) عند موته قائلًا:

يا له من شخصية! كان نقيًا تمامًا واتسم بكافة المُثل العُليا. فيا له من جوهرة نقية خالية من أية شوائب! مقام رفيع وطالع سعيد وحظ موالٍ وسعادة تامة وسلطان متزايد وانتصار متعاظم وصداقة ممتعة وحب للاستمتاع وتقدير للصديق وتدمير للخصوم وحرية تمنحها المملكة وقوة تطيح بالأعداء وفخامة تعتنق العالم وثبات يقهر العالم وصمود ووقار مجتمعين مع عمل المعجزات الجلية، وحديث فخم وعقل مستنير ووعي منحه الله عز وجل له، وروح طاهرة وذواقة للمعرفة ومتفحص للألغاز وسابر لأغوار الغموض ومنتصر على الصعاب . . . . إلخ كافة تلك الصفات اجتمعت في هذه الشخصية الرفيعة وخلقت دهشة بين ملوك البصيرة.

أطلق عليه الفاحصون الذين أحصوا جميع صفاته العليا لقب إمام العصر فهو الملك الروحي والدنيوي؛ إنه جلال الدين (أكبر) الفريد الذي جعل الفقراء ملوكًا للثروة.

رحل هذا الشكل الأولي، والذي من روحه النقية اجتمعت الحقائق الأبدية.

ومن رموز ذلك الفشل النبيل على وحدة الأديان، هُجرت المدينة العاصمة فاتحبور سيكري بعد مرور بضعة أعوام على موته، حيث إن العالم لم يفقد فقط الطاقة القوية والسحر الحالم لـ (أكبر)، بل وأيضًا ما نفدت المياه اللازمة لاستمرار الحياة في فاتحبور سيكري فباتت مدينة جافة بكل ما في الكلمة من معنى وأضحت مقامًا لتلك الشخصية التي تُنسى بين صفحات التاريخ.

لقرون تلت ذلك سيقول المحافظون: إن (جلال الدين أكبر) فشل في اختباره الطموح. ملك الأراضي الهندية لم يستطع إخضاع الروح الهندية متعددة الأوجه. ولقرون عدة ستبدو إصلاحات (أكبر) الكاسحة ومعمله الفكري بمثابة تاريخ قديم سري؛ وذلك عندما خضعت الهند للسيادة الإنجليزية وتم الاستيلاء على ثروتها لتمويل الهيمنة العالمية للإمبراطورية الإنجليزية.

لكن بعد مرور أربعة قرون بعد ذلك سوف تبدو الهند العلمانية الديمقراطية نسخة حديثة من حلم (أكبر) الشامل وحتى الحلم المحتمل للسلطانة رضية الدين. لن تتوحد العقائد الكثيرة الموجودة في الهند ولن تكون فوق الصراعات ولكنهم سيتعايشون. وسيتولى المسلمون ـ الأقلية في الهند ـ الكثير من المناصب القيادية كما كان حال الهندوس تحت حكم (أكبر)، كما سيتعايشون هم أيضًا في دولة علمانية تحترم أديان الأفراد ولكن بالنسبة للأمور العامة تتفرق عن بعضها البعض.

إنه من الصعب أن تسبق وقتها ولكن هذا لا يعنى أنها ستضيع تمامًا فى أحضان التاريخ.

فى القرنين الـ 15 و16 يحل مسرعًا عصر التاريخ الإسلامى الكلاسيكى وليله مشوبًا بالظلال المتعمقة والسوداوية المحلقة وتبدو أمجاد الماضى أعظم من أى شىء قد يأتى فى المستقبل.

اختفت قوة دمشق وبغداد والأندلس وخراسان منذ أمد بعيد ولن تعود أبدًا. وبالرغم من عدم القدرة على تجاهل مرور الوقت وشيخوخة الحضارة إلا أن مجموعة من المسلمين ستقوم بمجهود شجاع أخير.

هؤلاء المسلمون هم الأتراك العثمانيون والذى بنفوذهم ستهتز الكثير من أرجاء العالم. بعد مرور ألف عام على استحواذ الجيوش العربية على العالم سيقوم الأتراك العثمانيون بما هو أكثر من مضاهاة هذه الإنجازات. فبعد سقوط بغداد وقرطبة قام الأتراك ببناء الإمبراطورية العربية برمتها باستثناء الأندلس؛ لكنهم سيستعيضون عن إسبانيا بضمهم البلقان ورومانيا وحتى الحدود الجنوبية لبولندا. لن تكون عاصمتهم بغداد ولكنها إسطنبول وما يزيد على ذلك أنهم سيزيلون تمامًا الدولة البيزنطية المتعجرفة من على الخريطة.

مع ضم ثلاث قارات ابتداءً من عاصمتهم على نهر البوسفور يأتى الأتراك من الأطراف البعيدة لسيبيريا وصولًا إلى تركيا بعد رحلة مدتها قرون من الغزوات وأعمال السلب المستمرة التى بدأت عند بوابات الصين القديمة حيث عُرفوا بالاسم الصينى (تو كيو) وهو اسم ظل معهم طيلة هذه السنين وعلى امتداد هذه الأميال ومع التحولات اللغوية المختلفة.

لكن الأمر لا يتعلق فقط بقوة الأتراك، فعلى الرغم من أن أكثر ما يميزهم هو القدرة على إقامة إمبراطورية دامت 600 عام وصولًا إلى القرن الـ 20، ففى أفضل أحوالهم أيضًا سوف يتميزون أيضًا بالتنوع والتضمين الدينى والاستحقاق فوق الامتياز والعدل.

فى عام 1492 فى مرفأ إسطنبول فقط بعد مرور 40 عامًا على سقوط قسطنطينية فى يد الأتراك تصل سفينة أجنبية صغيرة.

يقف عند المرفأ وفد للسلطان بايزيد الثانى للترحيب بالوصول ويترأس الوفد الوزير الأعظم وممثلون منتقون من بلاط السلطان. يبدو أن هذه السفينة تحمل وفدًا أجنبيًا أو ممثلين لحكومة متحالفة أو صديقة أو هامة. فمن هؤلاء الزائرون؟

لكن بمجرد أن اقتربت السفينة لمرمى البصر واتضح معالم الركاب تبين أنهم

ليموا بسفراء. يرتدي هؤلاء الرجال على ظهر تلك السفينة قلنسوات ولهم لحى داكنة وفي لباس تَوْرَاتى، مما يشير إلى أنهم لاجئون من زمن آخر أى رجال قدماء ذوو حكمة. يعتلي وجوههم حُرقة الشمس ولكنها دالة على حزن عميق؛ حزن على فكرة الخسارة التي لا يمكن استعادتها.

هؤلاء الرجال هم لاجئون وقد خسروا الكثير. خسروا ديارهم وتاريخًا كاملاً وتقبلوا دعوة اللجوء التركي.

إنهم اليهود السيفرديون للأنـدلس، أى آخر يهود غرناطة وقرطبة وإشبيلية وتوليدو ومدريد. هم من كانوا جزءًا من قلب وروح الدولة ثلاثية الأديان آخر مواطنين سيفارد، والذين طُردوا بسبب خيانة إيزابيلا. وبدلًا من قبول التحول إلى الكاثوليكية أو الموت جاءوا إلى هنا بناءً على دعوة السلطان للإقامة في موطن جديد.

موطن اليهود الجديد هو إسطنبول، وعلى الرغم من سيطرة المسلمين الأتراك عليها إلا أن بها عشرات الآلاف من المسيحيين الأرثوذوكس وفي حقيقة الأمر هي مقر البطريرك الأرثوذوكسي. تحتوي إسطنبول على أمواج من الهجرة الأولى لليهود كما يوجد بها الكثير من مذاهب الإسلام ويُمكن القول هنا إن تركيا العثمانية هي واحدة من عمليات التجسيد الأخيرة للتعايش العذب بين الكثير من الأديان، والتي ظهرت في أوقات مختلفة في شتى أنحاء العالم الإسلامي.

لم تكن تركيا هي الدولة الوحيدة المتسمة بالتسامح الإسلامي بين القرنين 15 و16 حيث عاش اليهود والمسيحيون في أرجاء العالم الإسلامي كافة. فَوُجِدَ الكثير من الأقليات المسيحية الكبيرة في مصر والعراق وسوريا والهند، أما بالنسبة للأقليات اليهودية الكبيرة فازدهرت في مدن المغرب وفي كافة مناطق شمال إفريقيا بمصر وإيران.

لكن في تركيا العثمانية لم يكن التسامح والتعايش مجرد سياسات غير رسمية بل كانت واضحة وصريحة حيث ينص مرسوم السلطان على أن الحُكام الأتراك يتوجب عليهم «ألا يرفضوا دخول اليهود أو يتسببوا لهم في أى صعاب ولكن يجب استقبالهم بكل حب وود».

فقط بعد مرور 60 عامًا على وجود اليهود في إسطنبول تصل الإمبراطورية إلى أوجها السياسي والعسكري. يدير الأتراك وبيروقراطيتهم ما يزيد على مليوني ميل مربع من الأرض وملايين أخرى من الأقاليم الخاضعة المتاخمة. يمتلك الأتراك

تكتلات من الأراضى والناس تمتد من عمان إلى المحيط الهندى فى أقصى جنوب غرب آسيا إلى پولندا الجنوبية وروسيا فى أقصى شمال شرق أوربا عابرةً كل شمال إفريقيا وصولاً إلى المغرب. تسيطر الأساطيل التركية بشكل دورى على البحر المتوسط وتناوش السفن القادمة من المدن الإيطالية وتضع قواتها فى المنطقة العليا عند أوترانتو. يفكر صُناع الخرائط الأتراك ملياً فى نفس المغامرات العالمية التى يسعى خصمهم الإسبانى لها فى الأمريكتين.

هذه الإمبراطورية هى عالم فى حد ذاته فلمَ لا ترحب باليهود المطرودين من إسبانيا؟ فضمن السيادة التركية يوجد عرب وبيزانطيون وإغريقيون وصربيون وبوسنيون وكرواتيون وپولنديون وأوكرانيون وتشيكيون وسلوڤاكيون وهنغاريون ونمساويون ورومانيون وفارسيون وأناس كوكاسوسيون وبربريون وأذربيجانيون وچورچيون وصوماليون وإثيوبيون. أما بالنسبة للغات واللهجات فهى لا تُحصى.

أديان الأتراك هى الأخرى كثيرة، وكما هو التقليد السائد فى خلافة الأندلس وبغداد، فإن المسلمين، على الرغم من هيمنتهم، فهم يعتمدون بشكل كبير على الشراكات مع الأديان الأخرى ومساندتهم أيضًا. فكان صفوة حراس السلطان العثمانى وجنود الإنكشارية، وكوادر الدفشرمة العريضة من المسئولين الإداريين جميعهم صبية مسيحيون من البلقان تعينوا خصيصًا بسبب ديانتهم. من غير المسموح لقوات الحرس بالزواج أو الحصول على عائلات وذلك حتى يُكرسوا حياتهم وطاقاتهم للسلطان والدولة؛ نتيجة لذلك ترقى بعض المسيحيين ليتولوا مناصب الوزراء الأعظمين، وهو ثانى أكبر منصب فى هذه الإمبراطورية العابرة للقارات، مثل البوسنى الصربى (ميهميت سوكولو) باشا الوزير الأعظم لسليمان وابنه وحفيده.

ما يثير الدهشة أن هذه الإمبراطورية الشاسعة لا يحكمها النبلاء المتوارثون كما هو الحال فى معظم الأماكن الأخرى. هذه الدولة الأكثر قوة على الإطلاق كان يحكمها أولو الاستحقاق، فكان يتم اختيار مسئولين شباب من المدارس التى تعلموا فيها وبعد إجراء الاختبارات والتدريبات لهم كانوا يترقون لمناصب المسئولين رفيعى المستوى بالإمبراطورية. والغريب فى الأمر أن معظم هؤلاء المسئولين كانوا من غير المسلمين.

فلم يكن غير بيت عثمان والمنسوب إلى السلطان هو الذى يحكم بالوراثة.

إظهارًا لمدى التسامح المدنى للسلطان العثمانى، وهو حامى المدينتين مكة والمدينة، والتى تقع على بُعد 1500 ميل جنوبًا، وهو خليفة الإسلام، ومن ثم «من يُطبق تعاليم الله عز وجل فى الأرض»، لم يفرض الشريعة الإسلامية فرضًا مطلقًا. إن الأتراك بالرغم من ولائهم الشديد للإسلام قد وضعوا نظامًا قانونيًا متنوعًا، والذى يتضمن

تطبيق الشريعة على المسلمين والقانون على اليهود والمسيحيين الأرثوذوكسيين، وكذلك المجموعات الدينية الأخرى بل والقانون المدنى الخاص على مجالات محددة مثل الأعمال التجارية حيث لا تشملها الأنظمة القانونية الأخرى.

يأتى هذا التنوع والتفاوت النسبى من مصادر عدة منها الأصول التركية ذات الطبيعة الرحالة، فمع الاعتياد على التحرك عبر سهول أوراسيا أصبح من المألوف لأتراك ما قبل الإسلام التشبع بآثار الثقافات الأخرى. بالإضافة إلى ذلك فبعض التعاليم تأتى من الإرشاد المستنير للنبى، صلى الله عليه وسلم، والمفكرين الأجلاء مثل الخلفاء الراشدين. هذا المزيج الفريد من النفوذ والعدل والتنوع جعل من الأتراك إمبراطورية عظيمة ويأتى التجسيد الواضح لكل عظمة الأتراك فى شخص السلطان سليمان الأول الحاكم منذ 1526 وحتى 1566.

يتقدم سليمان فى العمر حيث يجلس فى شرفته فى قصر توبكابى فى بدايات خريف عام 1566. مازال الهواء أشبه بمناخ فصل الصيف، ومسبح السلطان ممتلئًا، وما من نار اشتعلت بعد كى تدفئ من برودة الليل. على نهر البوسفور زال ضباب الغسق وانعكس منظر قمر ليالى فصل الخريف فوق المياه الباردة مع انتشار للنجوم الصغيرة.

يبلغ من العمر 71 عامًا ولايزال أقوى حاكم على وجه الأرض إلا أنه وحيد، فقد ماتت زوجته المحبوبة حوريم فى عام 1558 ولقى أعز أولاده مصرعهم إما فى الحرب الأهلية وإما بسبب المرض. نمى إلى علمه مؤخرًا أن هنغاريا ـ والذى كان إقليم جانح عند توليه العرش فى عام 1526 والذى قد تم إخضاعه ست مرات منذ ذلك الوقت ـ يثير المشاكل مرة أخرى. هل عليه فى مثل عمره ووحدته الخروج لأرض المعركة مرة أخرى؟ إنه لم ينزل إلى ميدان القتال منذ عشرة سنوات وبالتالى يبدو ذلك طلبًا غير عادل من رجل فعل الكثير من أجل شعبه.

من المعتقد أن هذا الحاكم باسمه التوراتى أخذ نصيباً من المسمى «سليمان»؛ وذلك لأنه دائمًا ما فضل المصلحة العامة على الرغبات الخاصة والمستشارين الموثوق فيهم والأبناء والأقارب إلى الحد الذى يصل إلى طردهم أو نفيهم أو ما هو أسوأ ذلك إذا ما رأى أنهم يدمرون المصلحة العامة.

تقابل بارون بوسبيك سفير هابسبورج إلى البلاط، وهى الدولة التى وقفت بمثابة تحدٍّ عظيم أمام النمسا، مع سليمان فى عام 1555 ووصفه وهو فى الخمسين من عمره قائلًا:

تعبيراته ... هى عبارة عن ابتسامات كما أن به صرامة على الرغم من الحزن الذى يشوبها فإنها مملوءة بالفخامة ... بدأ يشعر بثقل السنين ولكن سلوكه الوقور ومظهره العام يتناسبون مع حاكم لمثل هذه الإمبرطورية الكبرى.

مما يدعو للسخرية بالنسبة لخليفة الإسلام أن الكثير من الناس يعتقدون أن هذا الرجل فعل الكثير لتقدم القضية البروتستانتية فى أوربا عن أى حاكم أوروبى وذلك من خلال تحالفه مع الملك الفرنسى فرانسيس الأول والذى انحاز للاهتمامات البروتستانتية ضد القوات الكاثوليكية الأكثر قوة التى يقودها تشارلز الخامس ملك إسبانيا. ضحك سليمان فى نفسه على هذه الفكرة قائلًا أنا بروتستانتى!

سليمان هو ملحن ماهر لأنشودة الحرب، بجانب عدله وحكمته، وفنان مغوار للفنون العسكرية وشاعر محنك لقصائد الأسلحة والقيادة. وقد مكنه حدسه الحسى بالمعارك من إسقاط بلجراد فى عام 1521 وجزر الرودس المتوسطية فى عام 1522 وهزيمة هنغاريين فى موهاك فى عام 1526 وسيتوقف فى أوربا الوسطى فقط بفشله فى الحصول على ڤيينا عاصمة النمسا بعد حصار دام من سبتمبر وحتى أكتوبر عام 1529. فى عام 1534 أحرز نجاحًا كبيرًا ضد فارس ثم فى حملات أخرى ضد العالم العربى أخذ تقريبًا كل شمال إفريقيا وعدن ميناء البحر الأحمر. فرسان مالطا هم فقط من أنزلوا هزيمة ساحقة بجيشه وأسطوله عند محاولته أخذ ڤاليتا فى عام 1565.

سليمان هو أيضًا شاعر فى التقليد الصوفى العربى. فى أحد مقاطع شعره كتب قائلًا:

يا عرش وحدتى وثروتى وحبى ونور قمرى

يا صديقتى العزيزة ومحل ثقتى وكل وجودى يا سلطانتى

يا أجمل الجميلات

يا ربيعى يا بهجتى ونهارى يا قلبى ويا ضحكتى

يا حلوتى يا وردتى ... أنتِ الوحيدة التى لا تزعجنى فى هذا العالم

يا إسطنبول ياكارامان ويا أرض أناضوليا

يا بداخشان وبغداد وخرسان

يا ذات الشعر المتهدل والرمش المتدلي والأعين المملوءة بالإثارة

سوف أظل أغني في مدحك دائمًا

أنا المحب للقلب المعذَّب والعيون الفائضة بالدموع ، إنني سعيد .

لكن الشعر له مجرد ملجأ مؤقت من القرارات السياسية الأليمة التى يتوجب عليه أخذها يوميًا. على سبيل المثال كان عليه الحكم بالإعدام على اثنين من أولاده بايزيد ومصطفى واللذان اتهما بمحاولة الإطاحة به فى عمليات تمرد منفصلة. ما الذكريات التى عليه حملها؟

فى أحد الأيام سيكتب المؤرخون أن هذا التقليد العثمانى الأول للخلافة بالانقلاب أو القتل، وما تلاه فى عام 1603 من نظام القفص حيث يُسجن فيه الوارثون المنافسون من الذكور قد يكون أكثر الضربات المميتة من أى شيء آخر، والذى سيُسقط بهذه الإمبرطورية. قام الأتراك بالحصول على أحد أعظم قادة الألفية وبوضع هيكل عبقرى لدعم هذا القائد لكنهم لم يجدوا طريقة لوضع السياق المؤسسى لاستمرار هذه القيادة على أعلى وأكثر المستويات أهمية.

الحقيقة المروعة هى أن مؤسسى الإمبراطورية العثمانية لم يتعاملوا جيدًا مع قضية الخلافة الملكية، فمثلما شوه البيزنطيون وارثيهم من الذكور فإن العثمانيين سوف يتخذون بدائل تتساوى معهم فى السوء.

ربما كانت النية الأصلية فى إقامة دولة تعتمد على الحكم الاستحقاقى وليس الأرستقراطى هو السماح بمنح الفرصة لجميع الأبناء حتى يفوز أفضل من فيهم. قد تكون الرغبة هنا هى إعطاء السلطان قدرًا إضافيًا من المرونة حتى يختار أفضل خليفة له من بين العديد من الأبناء، والذى ليس بالضرورة أن يكون أكبرهم. لكن مهما كان السبب فالنتيجة هى منافسة لانهائية مع الكثير من التآمر بين الحريم وأولادهن ومسانديهم الكثيرين، وهو الأمر الذى يؤدى إلى عنف دورى ووفيات قبل الأوان للمنافسين الأضعف أو الأقل تأييدًا. لقرون عدة تعرض المنافسون الذكور إلى القتل أو الحبس فى غرفة صغيرة أشبه بالسجون أو غرف أكبر حجمًا فى قصر توبكابى؛ وذلك لإبعادهم عن المشاكل حتى الاحتياج إليهم فى العرش. أدت هذه الممارسة إلى تنصيب عدد من السلاطين المدمرين والمنهزمين نفسيًا ومن دون المعرفة والتعليم وغير القادرين على التواصل مع العالم ذهنيًا وحكم نصف العالم عند توليهم السلطة بالمصادفة أو الخداع أو الموت الطبيعى للحاكم.

بالنسبة لسليمان فى ذلك الوقت المتأخر من تلك الليلة الصيفية سواء اتخذ القرار بمهاجمة هنغاريا أم لا، سيكون هذا القرار بالنسبة له أيسر من اتخاذ قرار بقتل ابن أو أخ له أم لا.

فى صباح اليوم التالى جمع سليمان أكثر مستشاريه ثقة وميهميت سوكولو باشا وزيره وأبو سعود مستشاره القانونى. اجتمعوا فى قاعة التداول بعد تلقى أخبار هنغاريا كى يتقدموا بتوصياتهم إلى السلطان حول كيفية الاستجابة مع هذا الأمر.

على الرغم من أنه ليس بطلب من سليمان إلا أن الزائرين دخلوا إلى حضرة جلالته من الغرفة المقابلة وخروا سجدًا كعلامة من علامات الاحترام والولاء طالبين بركته وهم يقتربون. إنها استعادة للسجدة التى حصل عليها ملوك الحرب من الأتراك الأوائل على سهول منغوليا منذ ألف سنة مضت.

وَجْهُ سليمان الشاحب هو أول ما صدم زائريه وعلى الرغم من أن مستشاريه قد اعتادوا على ذلك فإن مرور الوقت قد أخذه إلى هذه الدرجة من الشحوب، فتوقفت أنفاسهم للحظة هذا اليوم. وقد زاد من هذا الانطباع لحيته الرمادية المشذبة وشفتاه الزرقاوان والسواد الشديد تحت عينيه. وبالرغم من ذلك، وفى هذه الهيئة الجسدية المتهالكة، فإنه لم يكن قبيحًا، فزهده قد ألقى عليه وسامة مملوءة بالدفء. لكن مع تقدم عمره ورفعة مكانته تساءلوا إذا كان هذا دفئًا حقيقيًا وإنما ضعف نابع من حزن وخسارة، سواءً كانت تلك الخسارة تتعلق بالعائلة أو الصديق أو حريته مقابل تحمل عبء مصير الملايين التى يخدمها فذلك لم يمكن تحديده.

سألهم أن يضعوا فى الاعتبار كافة الخيارات، غير الحرب، ثم الطرق المختلفة للدخول فى الحرب لإخضاع الهنغاريين إلى الأبد. إنهم يعلمون أنه شخص حاسم وحكمه كما يعرفون سيكون سريعًا وقاطعًا.

«سوف ننهى مهمتك يا سيدى» قال الحضور. أرادوا قول المزيد حيث إنهم على استعداد أن يذهبوا إلى آخر الدنيا من أجل هذا الرجل الذى رفع من شأنهم وشأن أناسهم فيوجد قلة من هذا النوع على الأرض رجال حكماء ورحماء ومتمرسون عسكريًا وشخصيًا.

هو ليس من الأتراك ولكنه من ڤينيسيا إنه بيرناردو نفاجيرو، والذى قال على اعتبار أنه حصل على كافة المعلومات: إن سليمان لم يظلم أحدًا، كما أنه أجنبى آخر ممن أطلق على الأتراك «العظماء». لهذا السبب فإن هؤلاء الرجال سوف يفعلون



خريطة الإدريسى فى القرن 12 تظهر رأسًا على عقب توضح حوض البحر المتوسط والشرق الأوسط وآسيا. ساعدت مثل هذه الخرائط البحارة فى أوربا أثناء عصر الاستكشاف.

أى شىء يطلبه سليمان وسينتابهم شعور بالخوف على أناسهم وهيمنتهم باحتمال وفاة سليمان سواء بسكين مغتال أو بكبر السن.

مضى شهران حتى الآن وفى نوفمبر عام 1566 اتخذ سليمان قراره.

فيما يراه كاستكمال لقدره أرسل جيوشه شمالاً لبدأ المعركة فى هنغاريا وهو الآن منضم إليهم هناك. مرة أخرى مجتمعًا مع جيشه ضد جيوش النمسا المسيحية فى هذه الأرض الشمالية الرطبة والباردة حيثما قاد الجيوش منذ سنوات كثيرة مضت. لكن هذه المرة يترك مدينته الملكية مريضًا وحزينًا فى نهاية عمره وأعظم أيامه ولت

وراءه. بينما كان رحيله عظيماً ومؤثرًا فإنه اتسم بحس مأساوى حيث كان مثبتًا فى حصانه للحيلولة دون وقوعه بسبب ضعفه وهو يمر بين تهليل الحشود. غير أنه رجل عجوز رحل للدخول فى حرب فى أوربا.

وعلى الرغم من قوة جيشه سوف يموت هناك فى مركز قيادته بهنغاريا.

من ثم يرحل سليمان إلى الأبد ولا ينتهى العالم برحيله بالرغم من إشارة المؤرخين إلى أن فترة رحيله كانت هى أوج الهيمنة التركية. يأتى سلطان آخر ويضع ڤيينا تحت الحصار بعد مرور قرن من الزمان وتضع هزيمته نقطة التحول الأخيرة للعثمانيين. لكن فى العالم الذى يلعب فيه الأطفال ويأتى الربيع بالحياة إلى أغصان الشتاء الميتة وحيث تأتى المراكب من نهر البوسفور ممتلئة بصيد البحر فإن هذا العالم يستمر بعد رحيله.

يأتى سلطان جديد للأتراك كل ما عليه فعله هو أن يجلس فى غرفة ومَن حوله يتأكدون من أن كل شىء يسير كما يجب. يقترن الأزواج ويولد الأطفال وتأتى حرارة فصل الصيف بعائلات الفلاحين إلى الحدائق التى أقامها سليمان لمتعتهم وترتفع قباب المساجد وأبراج المآذن إلى الأعلى لتشهد على عظمة الله عز وجل وجلال النبى، صلى الله عليه وسلم.

والإمبراطورية العثمانية آخر خلافة للإسلام وآخر أمة إسلامية قادرة على تحدى أوربا والوقوف أمامها، سوف تظل لمدة 350 عامًا أخرى دون مساسها بأذًى ولكن بفقدانها التدريجى للأجزاء التى حارب سليمان وأسلافه من أجل جمعها وربط بعضها ببعض. وبينما تم بذل الكثير من المجهودات من أجل الإصلاح والتجديد وهى مجهودات لتحديث الإمبراطورية وجعلها قادرة على المنافسة مع الدول الملكية فى أوربا إلا أن تلك المجهودات لم تكن كافية لوقف الانحدار إلى الأسفل. السبب وراء ذلك ـ أكثر من أى شىء ـ هو افتقار القادة إلى صفات سليمان، وبالتالى وهنت الإمبراطورية بسبب عبء إدارة هذا الجمع من الناس وجميعهم يطالبون بالتحرر من الحكم الأجنبى.

بالتالى تفتت الإمبراطورية واستقلت اليونان فى عام 1829 بعد حرب الاستقلال التى أثارت متعة الصفوة الأرستقراطية والأدبية بإنجلترا وتوفى اللورد بايرون فى هذه المعركة. واستولى الإمبراطور الروسى على كرايميا وإيران كما تحررت أرمينيا وچورچيا عنهم. خرجت رومانيا فى عام 1877، وأعلنت بلغاريا استقلالها فى عام 1908 ورحلت ألبانيا فى عام 1917، وتحررت اليمن البعيدة فى عام 1918.

أخيرًا لم يتبق سوى تركيا والأراضى العربية فى حكم العثمانيين المنحدرين. جاءت الحرب العالمية الأولى كى تنهى هذه الأسطورة عندما حارب تى إيه لورينس بجانب ابن سعود وغيره من الملوك العربية القبلية لإقامة دول عربية جديدة.

لازالت أصداء انهيار العثمانيين تدوى لمائة عام بعد ذلك.

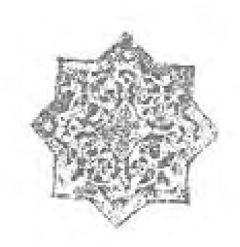
ستقع البلقان فى حرب فورية وتطهير عرقى بمجهودات دامية ولا طائل منها للتخلص من خليط الأراضى متعددة الأديان والأعراق التى تطلع إليها، بل وأقامها السلطان. فكل من الحرب العالمية الأولى والصدامات الإسلامية المسيحية فى كوسوفو والبوسنة ستكون أعمال العنف التى ستضع نهاية للتعايش السلمى الذى كان تحت الولاية العثمانية.

ستتمزق تركيا المستقبلية بين تراثها الإسلامى الثرى والثورة المضادة للكنيسة على يد مصطفى كمال أتاتورك، والذى كان ضابطًا لدى السلطان السابق والمؤسس التالى للدولة التركية الجديدة، ثم سيسود بعد ذلك توازن صعبٌ ليس باليسير.

سوف ترسم بريطانيا من الحُطام العثمانى الحدود الإجبارية للعراق، والتى غالبًا ما تكون مجتمعات غير متجانسة من الشيعة والسُنة والعرب والأكراد، وكذا حدود الأردن المستقبلية، والسعودية، وفلسطين (إسرائيل). تحت الولاية العثمانية استطاع المزيج الثقافى الثلاثى للإسلام والمسيحية واليهودية أن يحيا ويتعايش فى لبنان وسوريا وفلسطين، لكن بعد رحيلهم تتناول العناوين اليومية الصدامات والصراعات بين تلك الثقافات المتنوعة التى فى يوم من الأيام تقاسموا هذه الأماكن. فى هذا المستقبل سيبدو المثال المفضل هو مثل الرؤية المجردة لإيزابيلا بأديان وأشخاص، كلٌ ينتقل إلى أقاليم منفصلة بدلًا من النموذج متعدد الأوجه الذى بدأ مع الخلفاء الأوائل وحتى العثمانيين.

تلك هى مأساة تاريخ ضائع. ينتاب المرء شعور باليأس عند التفكير فى ضياع كل هذا بل وظهور أشياء جديدة.

هل تتعلم البشرية؟ أم أن الناس تنسى ببساطة وتحاول اكتشاف أمور أخرى؟



الخاتمة

يتسارع الوقت فى عام 2007 فالكثير بدا وكأنه يجمع زخمًا مستمرًا أو لا يأخذ قسطًا من الراحة.

لبعض الناس يبدو التاريخ غير ذى صلة فيعتقدون بأنه وصل إلى نهايته ثم انتقل إلى عالم جديد بلا أى تسارع أو تقدم فى الوقت. كما يعتقدون بأن فى استطاعتهم قهر هياكل التاريخ العميقة من خلال ثروتهم وسلطتهم وتكنولوجيتهم وفى الكثير من الأحيان يشعرون بأنه ما من حاجة إلى تبجيل التاريخ أو أنهم باستطاعتهم المضى قدمًا بجهلهم به.

بينما للبعض الآخر يعتبر الماضى أمرًا حديثًا وكأنه من لحظة فائتة متسمة بالشدة والقوة ومخترقة كل منحى من مناحى حياتهم. لم تغرهم بعد سلطة المستقبل وبالنسبة لهم يبدو الماضى أعظم من المستقبل، ومن الممكن له من حين لآخر أن يكون مصدرًا للغضب والامتعاض والانتقام. من هنا لن يهدأ لهم بال دون تصحيح الأخطاء والجرائم الحقيقية أو الخيالية للماضى.

ماذا يحمل الماضى بين طياته عندما تنشق البشرية بهذا الشكل فيما يخص التاريخ والزمن؟ هل هناك طريقة ثالثة لبناء المستقبل، طريقة بإمكانها الاعتراف بحقيقة الحاضر وقيمة الماضى؟

فى عام 2007 أصبحت العصور الذهبية لكل من دمشق وبغداد وقرطبة والقاهرة وسمرقند وأصفهان وآجرا وإسطنبول ذكرى بعيدة للبعض، بل وذكرى لا يمكن استرجاعها للغالبية. كل من الغزو البريطانى للهند وحملات نابليون على مصر والمغامرات الاستعمارية الأوربية المنتقاة فى إفريقيا والشرق الأوسط وآسيا وكذا تفكك الإمبراطورية العثمانية مع نهاية الحرب العالمية الأولى، كلها أمور تشير إلى نهاية الازدهار الثقافى الاستثنائى الذى شهدته تلك المناطق.

كان من الممكن للتاريخ أن يأخذ مسارًا مختلفًا. فى تلك اللحظات النادرة من التوازن بين الصين والهند والعالم الإسلامى وأوربا فى أواخر القرن 15 والقرن 16 أى من منافسى أوربا كان من الممكن لهم اتخاذ نفس القرارات المصيرية التى قامت بها إسبانيا والبرتغال وإنجلترا لدعم رحلات الاستكشاف والغزو. كان من اليسير على الصينيين الإبحار إلى الباسيفيك وعلى الأتراك العثمانيين السيطرة على الأطلنطى.

ماذا لو أن المنافسات الاستعمارية فى الأمريكتين وجنوب شرق آسيا كانت بين الأوربيين والصينيين والأتراك وليست بين القوات الأوربية؟ ماذا لو أقام الأتراك والصينيون مستعمرات سعيًا لإصلاح اقتصادهم ومجتمعاتهم ومناخهم الفكرى لتكييف الحاجات مع الإمبراطوريات الجديدة العابرة للمحيط؟ هل كان سيوجد عصر نهضة واستنارة أكثر انتشارًا؟

يعتقد الكاتب أن هذا كان ممكنًا حدوثه؛ كان يمكن للمسيحية أن تصبح أكثر انغلاقًا فى معاداة المادية والتعصب، كما كان لبعض التغييرات فى الخلافة الملكية أن تأتى بعملية التحقق إلى إنجلترا، وكذا كان ممكنًا أن يصبح أوليفر كرومويل الراعى الرئيسى للفلسفة السياسية الإنجليزية وليس جون لوك. فى هذا الكون الموازى كان ممكنًا للعالم الإسلامى أن يقود مزايا عصر النهضة والاستنارة التى غرس بذورها علاوة على الاستمتاع بها. كان يمكن للمسلمين أن يقودوا عصر الاكتشاف والإمبريالية الذى تولاه الأوربيون المسيحيون بدلًا منهم. يرى الكاتب أنه لم توجد أى حتمية لظهور الغرب.

يعتبر هبوط تلك الثقافات الابتكارية الأولى أمرًا مأساويًا من الناحية التاريخية والإنسانية. لماذا تخلفت عن الركب تلك المجتمعات التى قادت العالم لقرون فى مجالات شتى ووضعت الأساس لبزوغ الأفكار والعلوم الأوربية؟

سيظل المؤرخون والعلماء يناقشون هذا السؤال حتى نهاية الزمان، وبينما لا توجد إجابة واحدة عن هذا السؤال فإنه من الممكن إرجاع الأمر إلى عدد من العوامل التى ساهمت فى هذا الجمود؛ فبعضها كان نتيجة للحظ السيئ، وبعضها الآخر بسبب التطور الثقافى.

تكمن جغرافية الإسلام فى مهد الحضارات حيث ظهرت الثقافات الأولى فى بلاد الرافدين ووادى النيل ووادى السند بثرائها الزراعى الأول. هذه الأقاليم نفسها تحولت إلى صحارى خلال ألف عام موفرة القليل من الفرص الاقتصادية.

إن الأثر الذى خلفته الأمواج المتتالية من الغزوات الآسيوية الوسطى بقيادة السلاجقة والمغول والعثمانيين على قلب الأراضى الإسلامية هو الدمار التدريجى لمراكز الابتكار الإسلامى فى الوقت الذى كانت فيه أوربا الوسطى والغربية بمنأى

عن إحباطات وتمزقات هذا الوقت مما سمح لهم باستكمال تطورهم فى الآونة التى كان على الشرق الأوسط وإيران وتركيا القيام بعملية إعادة البناء.

فى القرن الـ 17 عندما بدأت الدول الأوربية تستعمر الأمريكتين تلقوا أنهارًا من ثروات ما وراء البحار وهو الأمر الذى مكنهم أيضًا من القيام بغزواتهم الاستعمارية فى العالم الإسلامى.

وجهت الإمبريالية الأوربية الضربة القاضية للعالم الإسلامى فى الشرق الأوسط وإيران وإفريقيا والهند وجنوب شرق آسيا. أدى الاستعمار بالكثير من دول هذا العالم إلى كساد اقتصادى، والذى سيستغرق قرونًا حتى يتم التخلص منه.

بما أن كلاً من العلوم والتطوير يعتمدان على مساندة قيادة الدولة وتمويلها فقد انحدر مستوى العلوم الإسلامية عندما توجب على دولها تحويل مواردها إلى الدفاع العسكرى بعد القرن الـ 16. من ثم أصبح بزوغ شمس أوربا وغروب شمس العالم الإسلامى وجهين لعملة واحدة.

بحلول القرن الـ 21 صارت بعض مراكز الابتكار الإسلامية القديمة جزءًا من العالم النامى بكل مشاكله الناشئة مثل الفقر والجمود الاقتصادى وعدم الاستقرار السياسى. فقد ضاع تاريخهم الثرى وفيما يبدو صار مجرد أطلال.

إن العالم يتغير مرة أخرى فلكل بقعة أزمة، ويوجد مركز ابتكار واعد فى العالم الإسلامى. أصبحت مجتمعات المسلمين المهاجرين فى أوربا والأمريكتين بمثابة نقاط التقاء؛ فإن تقابل الثقافات لا يؤدى فقط إلى التوتر بل إلى نشر الأفكار الجديدة وهو الوصول إلى تفاهم مشترك.

ولت عصور المسلمين الذهبية الأولى ولكن على ما يبدو أن هناك عصورًا جديدة تخرج إلى النور على الرغم من أن العناوين اليومية تشير إلى عكس ذلك.

عندما ننظر إلى المستقبل باسترجاع الماضى فقد يكون أفضل مبدأ يقودنا هو ما قيل منذ 900 عام على لسان الشاعر عالم الرياضيات عمر الخيام:

صوتَ ذاتَ مظلومة تشتكيه
آه رفقًا فأنتَ طينٌ وماءُ (40)

شكـر وتقـديــر

مشروع كهذا لم يكن ليخرج إلى النور دون مساعدة الكثيرين.

أود أن أشكر ناشيونال جيوجرافيك على وجه الخصوص كيفين مولروى وباربرا براونيل لثقتهم فى تولى مثل هذه المهام الصعبة فى تلك الأوقات العصيبة.

كما أتوجه بالشكر إلى محررى كارين كينى لوقته وصبره على مساعدتى فى الإبحار فى اللغات المختلفة والروايات المتضاربة والسُّبل التاريخية المعقدة التى تقود إلى اتجاهات كثيرة.

و كل الشكر لمستشارى أمين تيجبار بالقاهرة لمشاركته بمعرفته التاريخية والثقافية وكذا رؤاه غير التقليدية حتى يصبح «تاريخ ضائع» أكثر من عملية سرد تقليدية لبعض القصص القديمة.

جزيل الشكر لجلالة الملك عبدالله ملك الأردن لتصديره هذا الكتاب.

وأتقدم بخالص التقدير لسمو الأمير الوليد بن طلال ومؤسسة المملكة لمنحتهم التى ساعدت فى إظهار رسالة هذا الكتاب على التلفاز.

الشكر كل الشكر لكل من الكاتبات فهميدا رياظ وسوزان هازين هاموند وباتريتشيا إل شارب وبيث سترينج وإليزابيث تريكى جلاسمان لقراءة مسودات الكتاب واقتراح بعض التغييرات الهامة.

وكل الشكر والتقدير للمؤرخين والعلماء العظماء الكثيرين سواء المسلمين أو من ديانات أخرى والذين ساهموا فى نسج هذا الكتاب: «تاريخ ضائع» من خلال الروايات الكثيرة والمتنوعة وأحياناً المتضاربة لأحداث 1400 عام سابقة.

ومسك الختام أتقدم بوافر الشكر إلى الكثير من الأبطال والبطلات من جميع الأديان ممن سقطوا فى بحر النسيان والغفلة لشجاعتهم وعبقريتهم فى المساعدة لوضع أسس الحضارة الحديثة.

أتمنى أن يفتح هذا الكتاب الباب لحوار يوضح إلى أى مدى ندين لعبقرية الماضى... ومن ثم نبدأ فى عملية سلام.

مـراجـع الكتـاب

Armstrong, Karen, *Islam: A Short History*, Modern Library, 2002

Barks, Coleman, and John Moyne, A.J. Arberry, Reynold Nicholson, translators, *The Essential Rumi*, Harper San Francisco, 1997

Berggren, J.L., *Episodes in the Mathematics of Medieval Islam*, Springer Verlag, 1986

Darke, Hubert, *The Book of Government or Rules for Kings*, London, Routledge & Kegan Paul, 1978

Esposito, John L., *The Oxford History of Islam*, Oxford-University Press, 2000

Farmer, H.G., *Historical Facts for the Arabian Musical Influence*, Georg Olms Verlag, Hildesheim, New York, 1970

Gibbon, Edward, *The Decline and Fall of the Roman Empire*, Modern Library, New York, 2003

Gillispie, Charles Coulston (ed.), *Dictionary of Scientific Biography*, New York, Scribner, 1970-1980

Gingerich, Owen, "Islamic Astronomy," *Scientific American*, April 1986 v254

Grousset, René, *Epic of the Crusades*, New York, Orion Press, 1970

Hamarneh, Sami K., *The Life and Ideas of Al-Kindi*, Hamdard Medicus, 1986

Al-Hasan, Ahmad Y. and Donald R. Hill, *Islamic Technology*, Cambridge University Press, 1986

Hayes, J.R., ed., *The Genius of Arab Civilization, Source of Renaissance*, MIT Press, Cambridge, Mass., 1978

Hill, Donald R., *Islamic Science and Engineering*, Edinburgh University Press, 1993

Hitti, P.K., *History of the Arabs*, Mac Millan St. Martin's Press, 1970

Holmyard, J.E., *The Makers of Chemistry*, Oxford, Clarenden Press, 1931

Horne, Charles F., ed., *The Sacred Books and Early Literature of the East*, Parke, Austin & Lipscomb, 1917

Huff, Toby E., *The Rise of Early Modern Science: Islam, China, and the West*, Cambridge University Press, 1993

Huntington, Samuel P., *The Clash of Civilizations and the Remaking of the World Order*, Simon & Schuster, New York, 1997

Al-Jazari, *The Book of Knowledge of Ingenious Mechanical Devices*, translated by Donald R. Hill, Dordrecht, 1974

King, David, *In Synchrony with the Heavens, Studies in Astronomical Timekeeping and Instrumentation in Medieval Islamic Civilization*, Leiden, Brill 2005; "Astronomical Instruments in the Islamic World," in Selin Helaine *Encyclopedia of the History of Science, Technology and Medicine in Non-Western Cultures*, Dordrecht: Kluwer Academic Publishers, 1997

Lewis, Bernard, *Middle East: A Brief History of the Last 2,000 Years,* Simon & Schuster, New York, 1997

Al-Masoudi, Abul Hasan Ali; Paul Lunde and Caroline Stone, translators, *The Book of Golden Meadows,* Keegan Paul, 1989

Menocal, Maria Rosa, *The Ornament of the World: How Muslims, Jews, and Christians Created a Culture of Tolerance in Medieval Spain,* Back Bay Books, 2003

Nasr, Seyyed Hossein, *Islamic Science, An Illustrated Study,* World of Islam Festival Publishing Company Ltd., 1976

Newby, P.H., *Saladin in His Time,* Boston, Faber and Faber, 1983

Ragep, Jamil, "Tusi and Copernicus: The Earth's Motion in Context," *Science in Context 14* (1/2), 2001

Rosner, Fred, *Medical Legacy of Moses Maimonides,* Ktav Publishing House, New Jersey, 1998; *The Medical Aphorisms of Moses Maimonides,* Maimonides Research Institute, Israel, 1989; and *Treatises on Poisons, Hemorrhoids and Co-habitation,* Maimonides Institute, Israel, 1984

Sabra, A.I., "Situating Arabic Science: Locality versus Essence," *Isis,* Vol. 87, No. 4 (Dec., 1996)

Said, Edward W., *Orientalism,* Vintage, 1979

Saliba, George, "Greek astronomy and the medieval Arabic tradition," *American Scientist,* Research Triangle Park: July/Aug. 2002 Vol. 90, Issue 4, pg. 360; *Al-Biruni, Dictionary of the Middle Ages,* ed. Joseph Strayer, Charles Scribner's Sons, New York, 1980; *Whose Science is Arabic Science in Renaissance Europe?* Columbia University, 1999

Sarton, George, *Introduction to the History of Science,* Williams and Wilkins, Baltimore, 1950-53

Singh, Simon, *The Code Book,* New York, Random House, 1999

Teres, Elias, *Abbas ibn Firnas,* Al-Andalus, 1960

Turner, Howard R., *Science in Medieval Islam,* University of Texas Press, Austin, 1995

Wiet, Gaston, *Baghdad: Metropolis of the Abbasid Caliphate,* Translated by Seymour Feiler, University of Oklahoma Press, 1971

Wightman, G.B.H., and A.Y. al-Udhari, *Birds Through a Ceiling of Alabaster,* Penguin, 1975

http://198.65.147.194/english/Science/2001/02/article1.shtml

http://www.en.wikipedia.org

http://www.fordham.edu/halsall/sbook.html

http://www-history.mcs.st-andrews.ac.uk/history/

http://www.iiim.org/islamed3.html

http://www.islamicity.com/forum/forum_posts.asp?TID=6717&PN=1

http://www.islamset.com/isc/zuhr/main.html

http://www.muslimheritage.com

http://www.cyberistan.org

مراجع الاستشهادات

1. جمهرة خطب العرب فى عصور العربية الزاهرة، أحمد زكى صفوت. (ص73).
2. خطبة أبو بكر الصديق عند توليه الخلافة – المرجع السابق.
3. تاريخ البطاركة: ساويرس ابن المقفع، إعداد وتحقيق: عبد العزيز جمال الدين، الجزء الأول، مكتبة مدبولى، 2006، (582-586).
4. جمهرة خطب العرب فى عصور العربية الزاهرة، أحمد زكى صفوت. (ص380-381).
5. رحلة ابن جبير، فى مصر وبلاد العرب والعراق والشام وصقلية عصر الحروب الصليبية، تحقيق حسين نصار. القاهرة، مكتبة مصر، 1992.
6. الفهرست لابن النديم المجلد الأول، (د. شعبان خليفة / وليد محمد العوزة) العربى للنشر والتوزيع، 1991 (ص497).
7. رسائل الكندى الفلسفية، جمع وتحقيق الدكتور عبدالهادى أبو ريدة، دار الفكر العربى، 1950.
8. كتاب البلدان، أحمد بن واضح اليعقوبى. منشورات المطبعة الحيدرية – النجف – الطبعة الثالثة (1377هـ – 1957 م) (ص3-5).
9. معجم البلدان، لشهاب الدين أبى عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموى الرومى البغدادى؛ تحقيق فريد عبد العزيز الجندى.
10. ديوان العباس بن الأحنف، شرح وتحقيق عاتكة الخزرجى، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، الطبعة 1، 1954.
11. مروج الذهب ومعادن الجوهر، تصنيف أبى الحسن على بن الحسين بن على المسعودى. تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى، الطبعة 3. مزيدة ومنقحة 1958. (ص342-344).
12. كتاب الجبر والمقابلة، لمحمد بن موسى الخوارزمى؛ قام بتقديمه والتعليق عليه على مصطفى مشرفة ومحمد مرسى أحمد. القاهرة ،الجامعة المصرية، كلية العلوم، 1939.
13. المناظر، المقالات 1، 2، 3 فى الإبصار على الاستقامة، للحسن بن الهيثم ؛ حققها وراجعها على الترجمة اللاتينية عبد الحميد صبرة. الكويت، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، قسم التراث العربى، 1983. (كتاب المناظر لابن الهيثم المقالة الثانية).
14. المرجع السابق (ص307-310).
15. من مقال «الفيلسوف الشاعر عمر الخيام صاحب الرباعيات»، محمد خلف الرشدان من الموقع الإليكترونى: http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=117189
16. رباعيات الخيام: الفلكى الشاعر الفيلسوف الفارسى، معربة نظماً بقلم وديع البستانى. مصر: دار المعارف [1969].
17. ترجمت بتصرف من ترجمة وديع البستانى: رباعيات الخيام: الفلكى الشاعر الفيلسوف الفارسى، معربة نظما بقلم وديع البستانى. مصر، دار المعارف، [1969].
18. التعليقات على الكتب الأربعة لفلك البطالمة، من مقال «سوبرنوفا على بن رضوان»، من الموقع الإليكترونى: http://www.kaceta.com/montada/showthread.php?t=10876
19. أحمد بن محمد المقرى التلمسانى: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، 1988، 8 أجزاء، الاقتباس من الجزء الأول ص206-207.

20. ابن رشد: 1. مقالة اللام من تفسير ما بعد الطبيعة، تح. موريس بويج دار المشرق بيروت، الطبعة الثالثة 1990 ص 1663-1664.
21. الكامل فى التاريخ لابن الأثير – الجزء السابع (301 من 309).
22. كتاب السبعين، مختارات باول كراوس.
23. رسائل الكندى الفلسفية، جمع وتحقيق الدكتور عبدالهادى أبو ريدة، دار الفكر العربى، 1950.
24. علم التعمية واستخراج المعمى عند العرب، د. محمد مراياتى وآخرون: الجزء الأول: دراسة وتحقيق لرسائل الكندى وابن عدلان وابن الدُّرَيهم، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، 1987.
25. كتاب الجدرى والحصبة، لأبى بكر الرازى، صورة رقمية للكتاب من موقع الجامعة الأمريكية ببيروت.
26. مقدمة الشكوك على جالينوس، لأبى بكر الرازى، تحقيق الدكتور مصطفى لبيب.
27. أبو بكر الرازى، رسائل فلسفية، بيروت، دار الآفاق الجديدة، ط. 2، 1977، وهى من تحقيق باول كراوس. من ص 99 إلى 111.
28. القانون فى الطب، ابن سينا الكتاب الأول الأمور الكلية فى علم الطب الفن الأول حد الطب التعليم الأول موضوعات الطب الفصل الثانى.
29. التيسير فى المداواة والتدبير، لابن زهر، تحقيق ميشيل الخورى، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، 1983.
30. موسى بن ميمون الإسرائيلى القرطبى، رسالة فى علاج السموم وذكر الأدوية النافعة منها ومن النهوش، مجموعة المخطوطات العربية، مكتبة الإسكوريال، ميكروفيلم رقم 241، مخطوط رقم 889، (ص63أ – 92أ).
31. الحجة الوقفية الخاصة بالبيمارستان المنصورى: من كتاب تاريخ البيمارستانات فى الإسلام، لأحمد عيسى بك، الطبعة الثانية 1981، دار الرائد العربى، بيروت.
32. شرح تشريح القانون لابن سينا – ابن النفيس – الصفحة: 97 من الموقع الإليكترونى www.alwaraq.net.
33. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، للمقرى، الجزء الأول، تحقيق الأستاذ الدكتور إحسان عباس. ص 567 – 569.
34. كتاب الموسيقى الكبير، تأليف أبى نصر الفارابى، تحقيق وشرح غطاس عبد الملك خشبة؛ مراجعة وتصدير محمود أحمد الحفنى – القاهرة، دار الكاتب العربى، 1967 ص 63-64.
35. إحياء علوم الدين، أبى حامد الغزالى، الجزء الثانى كتاب السماع والوجد.
36. ألف ليلة وليلة، مقابلة وتصحيح الشيخ محمد قطة العدوى، تصحيح ومراجعة أحمد زيادة، المجلد الرابع. 2006. مكتبة مدبولى (مجلد 4 ص 942).
37. نهج البلاغة، شرح وتعليق الإمام محمد عبده – كتاب الإمام على (عليه السلام) إلى مالك الأشتر لما ولاه مصر.
38. من كتاب هارون الرشيد الخليفة المظلوم، للشيخ أحمد القطان ومحمد طاهر الزين، دار الإيمان، 2001، نقلاً عن الفضيل بن عياض، وهو الراوية الذى عاصر الرشيد وعمل فى بلاطه.
39. الكامل فى التاريخ الجزء السابع – ذكر فتح البيت المقدس (280 من 309).
40. رباعيات الخيام: الفلكى الشاعر الفيلسوف الفارسى/ معربة نظمًا بقلم وديع البستانى. مصر: دار المعارف، [1969].

الكشاف

الأرقام المكتوبة بخط عريض تشير إلى صفحات بها صور.

تاريخ
ضائع